الحكمة والأدب

عند

الفرس والعرب

تأليف

السيد محمد باقر السبزواري

مدرس قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة طهران

١٣٤٥ ش – ١٣٨٦ ق

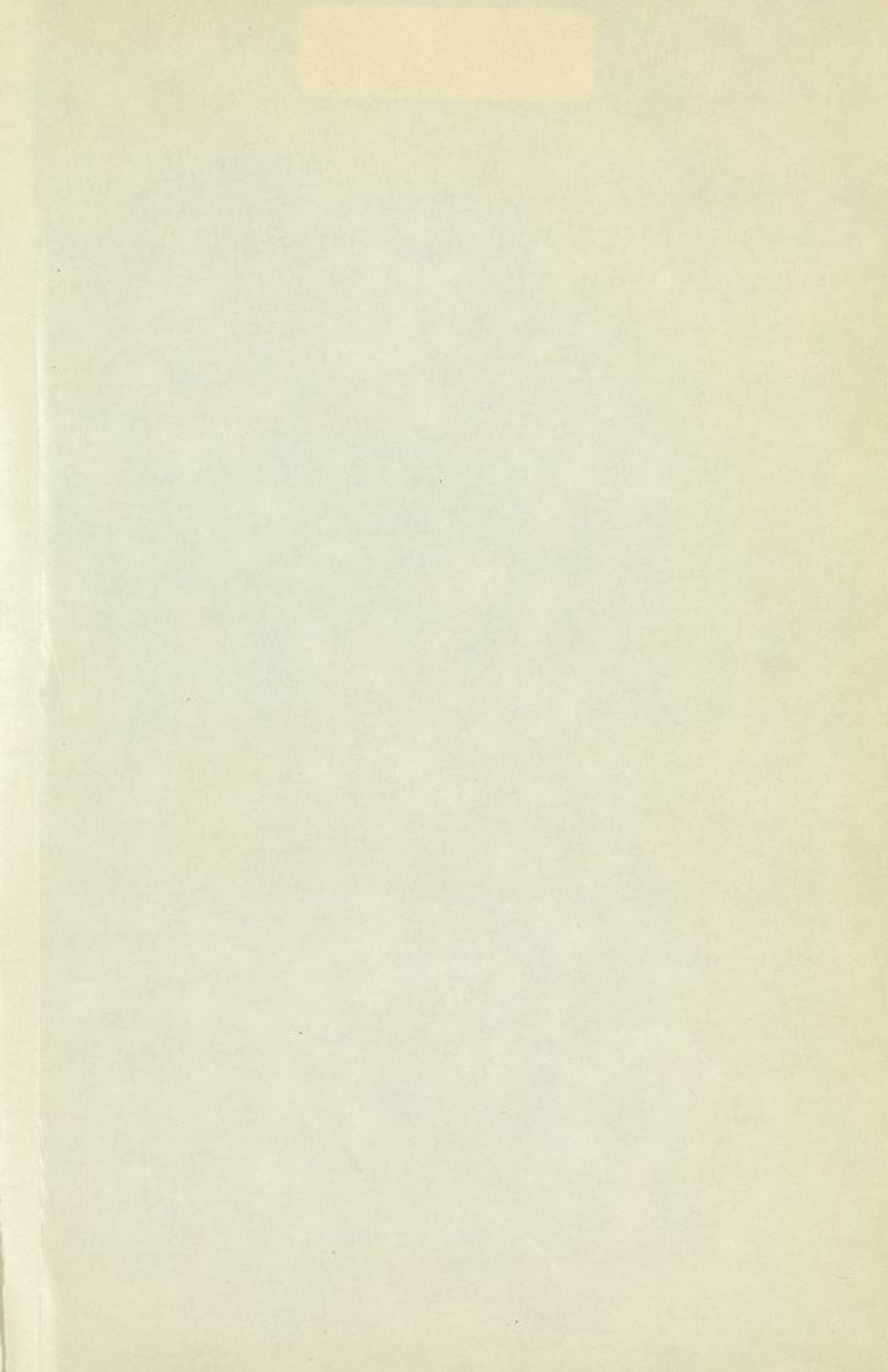
الناشر

مكتبة الصدوق

تلفن ٥٦٥١٣

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE





Sabzavārī, Muḥammad Bāqir

al-Ḥikmah wa-al-adab

الحكمة والأدب

عند

الفرس والعرب

تأليف

السيد محمد باقر السبزواري

مدير قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة طهران

١٣٤٥ ش - ١٣٨٦ ق -

كتابخانهٔ صدوق

تهران- بازار- سراى ارديبهشت

جنب مسجد سلطانى

تلفن ٥٦٥١٣

چاپخانه حيدرى



رب اشرح لى صدرى و يسرلى امرى و احلل عقدة
من لسانى يفقهوا قولى

اربعة كلمات تمهيدية

الاولى كان القدماء من الحكماء يرون العناصر أربعة أمّا اليوم فقد بلغت قريبة من مائة وكانوا يقولون كما أن المزاج لا يتحصّل إلّا بتكافؤ العناصر الاربعة واجتماعها على تأليف وانتظام كذلك نظام الحياة الدنيا التي هي وسيلة إلى الدار الاخرة لا يتحصّل إلّا بانتظام أحوال أربعة أصناف من الخلق تجري مجرى العناصر الاربعة . **الاول** ارباب العلم والمعارف الذين هم سبب قوام الدين والدنيا وهم كالماء في العناصر . **والثانى** أصحاب السيف وأهل البأس والشجاعة وهم بمنزلة النار في الطبائع . **والثالث** أهل المعاملة كالتجّار و الصنّاع الّذين هم سبب معيشة النوع وهم بمثابة الهواء فيها . **والرابع** ارباب الزراعة و الفلاحة الّذين بهم يترتّب الاقوات وهم كالارض فيها و كما أنّ زيادة بعض العناصر و خروجه عن حدّ المقرّر يؤدّى إلى فساد المزاج كذلك الحال في هؤلاء الاصناف الاربعة إذا خرج عن حدّه فالاجزاء في العالم الكلّي كالاعضاء في العالم الجزئى يخدم بعضها بعضا .

الناس للناس من بدو و حاضرة بعض لبعض وان لم يشعروا خدم

ولا يخفى أن القرآن الشريف يذكّرنا بالاخوّة الانسانيّة و انّهم من أصل واحد فمن الضرورى لدى كلّ مسلم أن الاسلام دين توحيد واخوّة و أنّ المسلمين جميعاً تجمعهم قواعد الاسلام و يؤلّف بينهم كتاب الله و سنّة رسوله ﷺ فمن الممكن أن يتحرّر المسلمون من قيود الاحقاد القديمة ويحسنوا معاملة الاخوة الدينيّة والتعارف والتعاون بينهم ، و في مقدور كل منهم بعد ذلك أن يبيّن لأخيه وجه الصواب إن كان على خطأ و الحق إن كان على الباطل ، فعند ما تصفو القلوب و يتوفّر حسن النيّة يصبح التفاهم ميسوراً والنجاح مقدوراً ينبغي للمدارس و المكاتب و الجامعات أن تنهض بهذه المهمة فان لم تقم بأدائها فالاحسن ان تزول . ومن المعلوم أنّ لكل شيء مهمّة في هذه الحياة فاذا امتنع عن واجبه ومهمّه يزول عن مرتبة حياته . فالفرس إذا عجز عن العدو السريع عومل معاملة الحمير و السيف إذا فقد صرامته استعمل استعمال السكين ،والانسان يمتاز

بكماله في العقل ويكرّم بالعلم ويشرّف بالعمل الصالح لنفسه وللمجتمع فان فقده نزل إلى مرتبة الحيوان «اولئك كالانعام بل هم اضلّ» وكذلك المعاهد الدينيّة إذا لم تقم بما عليها من الواجبات في جميع النواحي وجب ان تزول من الحياة و كان بقاؤها من العبث و هذه فلسفة الدين و سياسته و قد صرّح المتكلمون فى بيان النبوّة المطلقة و وجوب بعثة الانبياء لمصالح الامور وسياسة الجمهور و قال سيّدنا على امير المؤمنين عليه السلام فى وصيّته، اوصيكما و جميع ولدى واهلى و من بلغه كتابى بتقوى الله و نظم امركم.

و السياسيون امثال ميكاويلى دعوا من قبل إلى فصل الدين عن السياسة و تقسيم الاخلاق إلى شخصية و اجتماعيّة و قرّروا أن الدين إذا كان لابدّ منه - قضيّة شخصيّة لا ينبغي أن تتدخل في امور السياسة و الدولة. و ان الدولة عندهم أعزّ واهمّ من كلّ شي و ان النصرانية انما موضوعها الحياة الأخرويّة و أن المتدينين والصالحين لا يفيد وجودهم الدولة و أن كان يفيد الكنيسة، لانهم يتقيدون باحكام الدين و لانهم لا يستطيعون أن يحيدوا عن أحكام الدين ومبادى الاخلاق إذا اقتضت المصلحة غير ذلك وأن رجال الدولة والامراء تجب عليهم أن يتخلّقوا بأخلاق الثعالب ولا يحتشموا من نقض العهود والكذب و الخيانة و الغش و النفاق إذا كان في ذلك أدنى مصلحة للدولة إلى غير ذلك و نجحت هذه الدعوة وساعدتها عوامل كثيرة من القوميّة و الوطنيّة التي خلفت الديانة القديمة.

و احدث الادباء و المؤلفون و أصحاب اليراعة و القريحة و الذكاء، خصوصاً في ثورة فرنسا و بعدها، الثورة على الاخلاق القديمة والنظم الاجتماعيّة و زيّنوا للناس الإثم و نشروا دعوة الإباحة و اطلاق الطبايع من كل قيد و الفرد من كل مسؤوليّة و دعوا إلى الالتهام الحياة البهيميّة وارضاء الشهوات وانتهاب المسرّات و استعجال الطيّبات و الافراط في تقدير قيمة هذه الحيات و جحدوا كل شيء سوى اللذّة العاجلة و النفع المادّى المحسوس قال الله تعالى يعلمون ظاهراً من الحيوة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

فممّا لا شك فيه أن دين اوروبا اليوم الذى يملك عليها القلب و المشاعر ويحكم على الروح هو الماديّة لا النصرانيّة، كما يعلم ذلك كل من عرف النفسية الاوروبيّة واتّصل بالأوروبيّين عن كثب لا عن كتب ولم ينخدع بالمظاهر الدينيّة الّتي تزيد في ابّهة الدوّلة

و التي يجد فيها الشعب ترويحاً للنفس وتنوّعاً في التفريح وقد بيّنت في وضوح مشاهداتي في امريكا واروبا في كتابي عن آمريكا ولاشك انه لايزال في الغرب أفراد يشعرون ويفكرون على اسلوب ديني و يبذلون جهدهم في تطبيق عقايدهم بروح حضارتهم ولكنّهم شواذ .

الثانية ان كلمة الادب في صدر الاسلام كانت تطلق على التهذيب الخلقي والملكة النفسانية الّتي تصدر عنها الافعال الحسنة بسهولة من غير فكر ولا روّية .

ثم كانت تطلق على العلم باللغة و الشعر وأيّام العرب واتّسع معنى الادب حتّى قالوا إن الادب الأخذ من كل شيء بطرف وقد كان للفرس اثر كبير في الادب العرب بعد ما تثقف الادباء ثقافة فارسيّة و اخذوا بحظّ وافر من نتاج عقول الفرس كما نحن اليوم نتثقّف ثقافة انجليزية أو آلمانية أو فرنسية ثم نخرج أدبا جديداً بلغتنا الفارسيّة لا يسمى ادبا اروبيّاً ولكنه نتاجه ومتأثر به كان كثير من العرب على هذا النحو حذقوا الفارسية والعربيّة وتثقّفوا الثقافتين وانتجوا في الأدب العربي نتاجاً جديداً قال بعضهم وهل المعاني إلّا في كتب الفرس و البلاغة . اللغة لنا والمعاني لهم هؤلاء الفرس الّذين تعرّبوا وهؤلاء العرب الّذين اخذوا بحظّ من الثقافة الفارسيّة ملؤا الدنيا علماً وحكمة وشعراً ونثراً انّ الأدب في كلّ عصر ظلّ الحياة الإجتماعيّة وكانت هذه الحياة ذات الوان متعدّدة أظهر لون فيها اللون الفارسي بل أن تكوّن الكتّاب كطبقة ليس إلّا تقليداً للنظام الفارسي وكان لهؤلاء الكتّاب أثر كبير في نشر الثقافة لان معارفهم ودائرة اطّلاعهم واسعة شاملة لانّهم بحكم مناسبهم يضطرّون ان يعرفوا احوال الناس الاجتماعيّة وان يعرفوا من اللغة و الادب وعلوم الدين و الفلسفة و الجغرافيا و التاريخ طرفاً لانّ كثيراً من مواقفهم يحتاج إلى ذلك [1].

وكان من اظهر عنايتهم بالبلاغة والحكم التوقيعات قد كان الفرس ككلّ الشعوب يرفعون إلى ولاة أمورهم أوراقاً تتضمّن طلباً لشيء أو شكوى نسمّيهما نحن الا ن عريضة أو عرضحالة وكانت تسمّى عند العرب قصصاً سمّيت كذلك مجازاً لان القصّة اسم

---

(١) ضحى الاسلام .

للمحكيّ في الورقة فسمّيت الورقة نفسها قصّة وقد تسمّى رقاعاً لصغر حجمها تشبيهاً لها برقعة الثوب .

كانت هذه القصص ترفع إلى الملك أو من يليه تبعاً لموضوعها وللمتظلّم وقدجرت عادة الملوك والولاة ان يوقّعوا على هذه القصص بعبارة بليغة و كلمة حكيمة يتخيّرلها أحسن اللّفظ و أجود المعاني و تتناقل أثراً من الآثارالقيّمة كالمثل الجيّد وقد نقل إلى ادب العرب الشيىء الكثير من توقيعات ملوك الفرس من ذلك انّ رجلاً رفع إلى كسرى ابن قباد رقعة يخبره فيها ان جماعة من بطانته قدفسدت نيّاتهم و خبثت ضمايرهم منهم فلان و فلان فوقّع في أسفل كتابه انّما أملك ظاهر الاجسام لاالنيّات واحكم بالعدل لابالهوى و افحص عن الاعمال لاعن السرائر . و وقّع أنوشيروان في قصة محبوس من ركب مانهي عنه حيل بينه و بين مايشتهي و مدح رجل من الخاصّة كسرى بن قباد بمدح أطنب فيه وأسهب و ذهب كلّ مذهب وكان المدح في رقعة فوقّع فيها كسرى إنّي للمدح مستصغر لعلمي باشياء قد مدحت وكانت بأن تذمّ محقوقة وقال ليتكلّم كلّ واحد بكلمة نافعة فقال المؤبذ الصمت المصيب ابلغ حكمة وقال مهبذ تحصن الاسرار انفع رأى وقال بهادر لاشيىء انفع للرجل من المعرفة بقدر ما عنده من الفضل وحسن الاجتهاد في طلب ماهو مستحقّ له و قال آخر الاحتراز من كلّ احدأحزم رأى . وقال بزرجمهر لا يروّح المرء على نفسه بمثل الرضاء بالقضاء فقال أنوشيروان كلّ قد قال فاحسن ولا خلاص لاحد إلاّ التثبت للاختيار و الاعتقاد للخيرة [1] و لما تحضّر العرب و حرّروا مظالمهم على رقاع بعد ان كانوا يشافهون بها امراءهم كان لهم توقيع وكان أكثر الكتّاب و الوزراء إيرانيّين فساروا فيها على سنن آبائهم وكثر ذلك حتّى نشأوا فيما بعد ديواناً أسموه ديوان التوقيع .

الثالثة كل ما ابان عن عاطفة او خيال صلح أن يكون موضوعاً للادب و هو مادة الاديب يؤلف منها ادبه ولا بدمن سموّ الادراك وجودة التصوير، لا بدمن الصنيعة او الفن كمالا

(٢) المحاضرات للراغب .

يعد الانسان مصوّراً حتّى يجيد التصوير ، كما لا يعد نجاراً كل من نجر خشبة اودق مسماراً كذلك ليس كل من عبّر عن عاطفة اديباً ولا كل من نظم الابيات شاعراً ولا كل من ارتقى المنبر خطيباً حتّى ياتى بكلام معجب و يكون في بيانه ادراك يرفعه عن العامية و الابتذال .

تمثل نفسك تقرء نظرية رياضيّه أو معادلة جبريّة ثم تقرء قصيدة لشاعر نابغة أو خطبة عظيمة انك لا تفرح ولا تحزن ولا تغضب ولا ترضى حين تسمع القضيّة الهندسية أو الجبريّة ولا تخاف ولا تأمن ولا تضحك ولا تبكى و لكنك حين تسمع الخطابة وتقرء القصيدة لا تخلو نفسك من بعض هذه المعانى .

و إذا قال وزير الطب ان مرض كذا منتشر في كل بلد فهذا خبر عما هو كائن ولا يعبر عن عواطف الطبيب، وإذا قال الجغرافى في صفة ارض فيها اودية عميقه بين جبال عالية فقد ابان عن حقيقة رآها أو سمعها لم يصلها بالعاطفة فيبيّن اعجابه لها أو خوفه منها أو انقباضه لمرآها أو ما تخيّله حين شاهدها .

و إذا قال كاتب في وصف هذه الارض تهولك بها اودية عميقة تظل عليها جبال شامخة عاتية يحلق الطرف دون ذراها . فقد أبان عن الحقيقة مشوبة بما شعر هو به من رهبة وما تخيّل من اطلال الجبال على الاودية و تحليق البصر دون قممها .

و كذلك يقول الجغرافى صحراء منبسطة مستوية طرقها متشابهة شديدة الحرّ لم تغيّرها عاطفته ولم يزد عليها خياله ، و يقول الشاعر في وصف هذه الصّحراء :

و مجهل كالطّراد السيف محتجز | عن الادلّاء مسجور الصياخيد
تمشى الرياح به حسرى مولهة | حيرى تلوذ باكناف الجلاميد
موّقف المتن لا تمضى السبيل به | إلّا التخلل ريثا بعد تجهيد

وقد افاض على الصورة الطبيعية الوانا في شعوره و تخيّله .

و انظر الفرق بين فلكيّ يتكلم عن الشمس طلوعها و غروبها و دورتها السنويّة و عن القمر و منازله و النجوم و حبكها يصف الحقيقة كما هى على قدر ادراكه و بين من يقول :

منع البقاء تقلب الشمس و طلوعها من حيث لا تمسى
و طلوعها حمراء صافيـة و غروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما تجرى حمام الموت بالنفس
اليوم لا أعلم مما يجيىء به و مضى بفضل قضائه أمس

الرابعة المعنى الواحد يختلف تأثيره في النفس جداً بسبب حسن الاداء وقبحه فربما يودّى المضمون بعبارة أشهى من رؤية الحبيب مع غفلة الرقيب و يؤدّى ذلك المضمون بعينه بعبارة اخرى اصعب من الهجر وامرّ من تجرّع كاسات الصبر يحكى عن بعض الخلفاء انه رأى في المنام ان اسنانه سقطت بأجمعها فقصّ رؤياه على بعض المعبّرين فقال: يموت كلّ أقاربك و أهلك و تبقى وحدك فتشأم الخليفة من هذا التعبير و غضب و امر بقلع جميع أسنان المعبّر واراد قتله لولا شفاعة الشافعين ثم قصّ الخليفة رؤياه هذه على معبّر آخر فقال المعبّر البشر يا امير ... فان عمرك يكون اطول من اعمار ساير اقاربك فهشّ الخليفة لكلامه و أخذ في تكريمه و انعامه وألبسه خلعاً جليلة و أجازه بجوايز جزيلة .

التعبير عن الخواطر النفسانية و تأثر النفس بمظاهر الكون و الطبيعة هو الغرض الاصلى من الادب ولا يرقى إلى الفنّ السامى إلاّ أن يكون ذلك التعبير عن المشاعر غرضه الوحيد منزّهاً عن كلّ غرض خارجيّ فاذا خالطه شيء من المادّيات هبط إلى مرتبة الصّناعة ولم يقع في النفوس فالكلام إذا خرج من القلب دخل في القلب و إذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان .

بلغ الادب العربى مرتبة الفن السامى في عصر الجاهلى حين كان اشراف القبايل يودعون الشعر حكمتهم وحالاتهم من الطرب و الحزن .

فلمّا قامت الدولة العربيّة تقهقر الادب و فقد قوّة الصدق و سموّ الصراحة و لمّا كان الكاتب و الشاعر يكتب و ينظم ليكسب و ينتظم أمره حتّى انّ بعض الشعراء من الشيعة كانوا يمتدحون الملوك الاُمويّة والعباسية قال الامام محمد الباقر عليه السلام لكثير امتدحت عبدالملك بن مروان فقال لم اقل له يا امام الهدى و انّما قلت له يا شجاع و الشجاع حيّة يا اسد و الاسد كلب و يا غيث و الغيث موات فتبسّم أبوجعفر عليه السلام .

كان الانسان مدنياً بالطبع ـ اي انه لم يخلق ليعيش في البراري كالوحوش بل ليجتمع مع أخيه الإنسان ويعيشا معاً في محيط واحد متساندين متكافلين فيتألف منهما المجموع الّذي نراه ، والفرد في هذا المجتمع كالعضو في الجسد عليه واجبات وكذلك له حقوق وهذا هو ما نسميه باداب الاجتماع وكما ان الجسد لا يصلح الا بصلاح اعضائه كذلك المجتمع لا يبلغ رقيه إلاّ برقي أفراده .

و ان اهم هذه الاداب بل الاساس الّذي تبنى عليه هو اعتبار الوقت و معرفة المحافظة عليه إذ كل عمل يحتاج إلى الوقت يقول الفرنساوي : الوقت ذهب و لكن العرب يقول الوقت سيف قاطع ، فاذا عرف الانسان كيف يرتب اوقاته ويقسمها على اعماله و عرف كيف يستفيد من هذا القسم بلغ غاية النجاح في اشغاله ومعاملاته فيصير إذا ضرب ميعاداً يجد الوقت الكافي لإنجازه و إذا ورده خطاب لايتاخر في الرد عليه .

قال امير المؤمنين عليه السلام كفى بالعلم شرفاً انه يدعيه من لايحسنه و يفرح اذا نسب إليه من ليس من أهله وكفى بالجهل خمولاً انه يتبرأ منه من هو فيه و يغضب إذا نسب إليه ،كل الناس يشكون من قلّة ما لهم و ليس من يشكو من ضعف عقله .

فالعلم كثير و الوقت قصير فانه لوقضى الإنسان جميع عمره في فن واحد لم يدرك قعره ولم يسبر غوره وقد نبهنا الله عز وجل على ذلك بقوله «الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الّذين هداهم الله واولئك هم اولوا الالباب » وقال امير المؤمنين عليه السلام العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه و قال الشاعر :

قالوا خذ العين من كل فقلت لهم   في العين فضل ولي ناظر العين

وقال بعض الحكماء في ذلك ان الشجرة لا يشينها قلّة الحمل إذا كانت ثمرتها يانعة . ويجب ان لايخوض في فن حتى يتناول من الفن الّذي قبله بلغته ، قال الله تعالى «الّذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أي لا يجاوزون فناً حتى يحكموه علماً و عملاً ويجب تقديم الأهم فالأهم وكثير من الناس نكلوا الوصول بتركهم الاصول و حق الطالب أن يكون قصده من كل علم يتحراه لتبلغ به إلى مافوقه حتى تبلغ النهاية و النهاية هي معرفة الله سبحانه فالعلوم كلّها خدم لها و هي حرة فالمعرفة أساسها .

الحكمة و الادب : يقولون ان عصرنا الحاضر هو عصر العلوم و لنا امتيازات لم تكن لاسلافنا فالعلم قد اطال الحياة و خفّف الآلام و افنى الاوبئة و زاد الارض خصباً و البحرى هداية و أقام فوق الانهر الكبيرة بل الابحر الكثيرة جسوراً فخيمة بأشكال لم يحلم بها اجدادنا و ذلّل الصاعقة و انزلها مخذولة و أنار الليل بسناء النهار بل أطال بصر الإنسان فصار يرى البعيد اقرب من حبل الوريد ، و العصور القديمة هي عصور الآداب فالامم القديمة كانت عظاميّة و زماننا هذا زمن عصاميّ بمقتضي رقي الذّهن البشرى لان العقل العلمي ارقى من العقل الادبى .

نفس عصام سوّدت عصاماً . و علّمته الكرّوا الإقداما . و صيّرته ملكاً هماما .

عصام كان حاجباً لنعمان بن منذر الّذي حجب النابغة الذبيانى عن عيادة النعمان وقال النابغة في قصيدة :

فانّى لا ألومك في دخول   ولكن ما وراءك ياعصام

ويضرب المثل في نباهة الرجل من غير قديم وفي المثل أيضاً كن عصامياً لاعظامياً ممّا يحكى عن الحجّاج انّه دخل عليه رجل وصف عنده بالجهل و كانت له حاجة فقال الحجّاج في نفسه لاختبرنّه ثمّ قال له حين دخل عليه أعصامياً أم عظامياً يريد أشرفت بنفسك أم بنسبك ،علوت بشخصك أم بحسبك ، فقال الرجل انّى عصاميّ وعظاميّ فقال الحجّاج هذا أفضل الناس وقضى حاجته وزاده ومكث عنده مدّة ثمّ فاتشه فوجده أجهل الناس فقال له تصدقني و إلّا قتلتك فقال له قل مابدالك و أصدقك قال كيف أجبتني بما أجبت لمّا سألتك عمّا سألت قال له والله لاأعلم أعصاميّ خير أم عظاميّ فخشيت أن أقول أحدهما فاخطى فقلت أقول كليهما فان ضرّني أحدهما نفعني الآخر وكان الحجاج ظنّ انه أراد أفتخر بنفسي لفضلي وبآبائى لشرفهم فقال الحجّاج «المقادير تصير العيّ خطيبا» فصارت مثلاً ولكن الدين الاسلامي قد جمع بين الادب والعلم والفلسفة كما جمع بين الزهد و الشجاعة و بين التقوى و السياسة و التواضع و الرّياسة ولذا قيل سيّد القوم خادمهم و قال سيّدنا على أمير المؤمنين عليه السلام من أحسن الكفاية استحق الولاية . وهذا هو علم الاجتماع وأدب الاجتماع فانّه لمّا كان الدين قبل كل شيء يصوغ

القلب الّذي يستوعب اليقين و الاخلاص ويتوجّه إلى الله كما تتوجّه الابرة المغناطيسية في البوصلة إلى قطبها الدائم فهي مهمااهتزّت تستقرّ عنده .

و صلاح القلب يتطلّب كذلك صلاحية الوسائل الّتي تبلغه اهدافه فالرجل المؤمن حقّاً يجب أن ينبعث في مشاعره كلها عن قلب سليم حتّى ينفذ التعاليم الجزئية في الشريعة بدقّة وينفذ التعاليم الكلّية ببصر سديد وادراك جيّد و عمل القلب المدخول في الحياة هو عمل البوصلة الفاسدة في هداية الطريق أوالقبلة .

أدب الدنيا و الدين ـ ميزان الاسلام و المسلمين سيّدنا عليّ أمير المؤمنين الكمال قسمان علميّ و عمليّ و الاوّل أفضل و أكمل لما تقرّر في محله من أنه أصل و لقوله صلى الله عليه وآله تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة فهو عليه السلام المثل الكامل في الاسلام بلغ الغاية في الحكمتين ووصل إلى النّهاية في الكمالين أمّا في الكمال العلمي بلغ إلى حدّ قال له النبيّ صلى الله عليه وآله أنا مدينة العلم وعليّ بابها ـ أي الطريق و المنهج الّذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وآله لا يمكن أن يحصل إلّا من جهته عليه السلام وقوله صلى الله عليه وآله قسّمت الحكمة عشرة أجزاء فاعطى علي عليه السلام تسعة و الناس كلّهم جزء واحد .

وللذوق الادبي أو الذوق الفنّي ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والعاطفة فهو الحكيم الاديب له نهج في الأدب يحمله بلغاء العرب ويمدحه حتّى من نصب ولا يعرف السبب يقول عبّاس عقّاد في كتابه عبقريّة الامام اتّفق خصومه وأنصاره على بلاغته وعلمه وفطنته

و أمّا في الكمال العملي أي العبادات البدنيّة العمليّة فقد أتى بهاجميعها والعمل يدخل فيه العلم أيضاً فانّه عمل نفسانيّ .

نعم كان ملاك الامر في اخلاق علي عليه السلام انّه كان لا يتكلف إظهار شيء ، ولا يتكلّف إخفاءه ، ولا يقبل التكلّف حتّى من مادحيه لقد افرط رجل في ثنائه فقال له « أنا دون ما تقول وفوق ما في نفسك » .

و ممّا جئت بها نقلاً من احاديث النبويّة في تفاسير بعض الآيات القرآنيّة و الأخبار الصّحيحة في فضايل ايران والرّجال الفارسيّة المأثورة من أئمّتنا المعصومين عليهم السلام ولكن بقدر ان لا تجعلني من الشعوبيّة فإنّي مسلم قبل كلّ شيء ، ولا اكتم أنّني .

ايراني و أفتخر بالاوّل واباهي بالثاني و هذا أمر طبيعي لكلّ فرد في كلّ امّة تحتفظ بكرامتها وتحترس سمعتها .

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي و أوّل أرض مسّ جلدي ترابها

هنا رجال يحبّون أن يتطهّروا فإ نّي أفتخروا ُباهي بأ نّي من مملكة عارفة بشأن القرآن و الاسلام وعلموا أنّ الدين كالعلم ليس له وطن بل هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء فأخذوا اللبّ اللباب من اولي الألباب فان لها معرفة بآل بيت الرسول حملة القرآن سيّما أمير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام الّذي حبّه دين و بغضه كفر .

عن عبادة قال كنّا نبور أولادنا بحب عليّ بن أبيطالب [1] فاذا رأينا أحدهم لايحبّه علمنا انّه لغير رشدة .

و عن جابر بن عبدالله الانصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله بوروا أولادكم بحبّ عليّ بن أبي طالب فمن أحبّه فاعلموا انّه لرشدة و من ابغضه فاعلموا أنه لغيّة [2] مملكة ايران و ان شئت قل مملكة عليّ بن أبيطالب مملكة فقهاء الاسلام وفلاسفة الاسلام وعلى ما قال ابن خلدون أكثر حملة العلم في الاسلام هم الايرانيّون أصحاب صحاح الستّة و كتب الاربعة فتلك عشرة كاملة قلت في مواضع هذا الكتاب لااريد انّ أقول كلمة يشمّ منها رائحة التفريق فالمؤلّفون لهذه الكتب العشرة كلّهم من ايران وقد نقلت في هذا ماقاله الكاتب المصوّر و النقاش الشاعر في سيّدنا على عليه السلام مات ابن ابيطالب شهيد عظمته مات و في قلبه الشوق إلى ربّه ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتّى قام بين جيرانهم الفرس اناس يدركون الفرق بين الجوهر و الحصى فلكم ايها الايرانيّون والفرس القدح المعلّى و يكون لكم في خدمة الدين و المسلمين اليد الطولى ، أيّ مزيّة منّ الله بها على الاسلام ولم تكونوا لها من السابقين لاقتنائها .

---

(١) النهاية لابن الاثير .

(٢) فى الصحاح يقال فلان لغية وهو نقيض قولك لرشدة و قال فى النهاية يقال هذا ولد رشدة إذا كان لنكاح صحيح كما يقال فى ضده ولد زنية ، لغية بفتح الغين المعجمة وكسرها وتشديد المثناة من تحت مفتوحة والتاء أخيراً إذالغى خلاف الرشد وقوله لغير رشدة بفتح الراء وكسرها قبل الشين المعجمة الساكنة ثم الدال المهملة المفتوحة والتاء أخيراً .

فيا ايّها الفارسيون تذكّروا أياديكم في العلم و انظروا إلى آثاركم في الاسلام وكونوا للوحدة الدينيّة دعامة كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية . انتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعى في استرجاع ماكان لكم في فتوة الاسلام انتم أجدر المسلمين بوضع اساس للوحدة الاسلاميّة وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم و قوة عزائمكم أظن هذا الزمان أحسن وقت وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام اغتنموا الفرص فانها تمرّ مرّ السحاب وقديماً قيل الوقت كثير بالتدبير وقصير بالتقصير .

فالأدب في العرب كان من مباحث الألفاظ وعندالفرس يطلق بجميع معنى الكلمة فيشمل العلم و الحكمة كما قلنا و نقلنا عن صدر الاسلام و لمّا درجت فيما كتبت ما يجب علمه على الناشئة و الطلبة و مزجت الماء بالطين و العقل بالدين قال سيّدنا أمير-المؤمنين الأرواح تملّ كما تملّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكمة و قال الخليفة الثاني علّموهم وكفى والأدب اذا تجرّد من الحكمة يكون اثمه أكبر من نفعه جعلت الادب سداه والحكمة لحمته فهي الاوّل وهو المحل الثاني .

و سمّيت هذا الكتاب بالحكمة و الادب في الفرس و العرب و من الله المعونة و التوفيق و إيّاه أستمدّ وبه أستعين اهدنا الصراط المستقيم إنّك جواد كريم ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون وقد وقع الفراغ من الطباعة في شهر ذى الحجّة ١٣٨٦ . لستّ خلون منه و ثلاث بقين من اسفند ١٣٤٥ .

محمد الباقر الحسينى السبزوارى



فهرس الموضوعات و المباحث

تصحيح بعض الاغلاط المطبعية

الصفحة	السطر	الصحيح
٣١	٩	الجمعيتين
١١٤	٢٠	متّقدتين
١١٥	٢٢	وثيقة
١٢٧	١١	نستطيع
١٢٨	١٧	الشعثمين
١٤٠	١٩	بلدة
١٤١	١٩	قال . زائد
١٤٢	١٣	عوذ
١٤٢	٢١	ذو ضرير
١٥٦	١٨	العام
١٥٨	١	من
«	٦	و . زائد
«	١٤	يهيّأوا
١٥٩	٢	الى الدرّة
٢١٩		في الهامش تقديم وتأخير فالعدد الثانى للاوّل والأوّل للثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلي عن شبه المخلوقين، الغالب لمقال الواصفين، الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، الباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين، العالم بلا اكتساب ولا ازدياد ولا علم مستفاد، المقدر لجميع الأمور بلا روية ولا ضمير الذي لا تغشاه الظلم ولا يستضيء بالانوار، ولا يرهقه ليل ولا يجري عليه نهار ليس ادراكه بالابصار، ولا علمه بالاخبار، واشهد انه عدل عدل، وحكم فصل، بعث محمداً بالحق ليخرج عباده من عبادة الاوثان الى عبادته، ومن طاعة الشيطان الى طاعته، بقرآن قد بينه و احكمه ليعلم العباد ربهم اذ جهلوه و ليقروا به بعد اذ جحدوه و ليثبتوه بعد اذ انكروه فتجلى سبحانه لهم في كتابه من غير ان يكونوا راوه بما اريهم من قدرته، وخوفهم من سطوته، و كيف محق من محق بالمثلات، واحتصد من احتصد بالنقمات، وانه سيأتي عليكم من بعدي زمان ليس فيه شيء اخفى من الحق، ولا اظهر من الباطل، ولا اكثر من الكذب على الله و رسوله وليس عند اهل ذلك الزمان سلعة ابور من

الكتاب اذا تلي حق تلاوته، ولا أنفق منه اذا حرف عن مواضعه، ولا في البلاد شيء أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته فالكتاب يومئذ وأهله منفيان طريدان وصاحبان مصطحبان في طريق واحد لا يؤويهما مؤو، فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم و معهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وان اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة و افترقوا عن الجماعة كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب امامهم فلم يبق عندهم منه الا اسمه ولا يعرفون الا خطه و زبره و من قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة، وسموا صدقهم على الله فرية و جعلوا في الحسنة عقوبة السيئة، وانما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم و تغيب آجالهم حتى نزل بهم الموعود الذي ترد عنه المعذرة و ترفع عنه التوبة و تحل معه القارعة و النقمة رحم الله امرء تفكر فاعتبر و اعتبر فأبصر .

يا من يفكّ بذكره عقد النّوائب و الشّدائد
يا من إليه المشتكى و إليه امر الخلق عائد
يا حيّ يا قيّوم يـا صمد تنزّه عن مضادد
أنت الرّقيب على العباد و أنت في الملكوت واحد
أنت المنزّه يـا بـديع الخلق عن ولد و والـد
أنت العليم بما ابتليت به و أنت عليّ شاهد
إنّي دعوتك و الهموم جيوشهـا قلبي تطـارد
فافرج بحو لك كربتي يا من له حسن العوائد
فخفّى لطفك يستعان بـه على الزمن المعاند
أنت الميسّر والمسدّد و المسبّب و المساعـد
سبّب لنا فرجـا قريباً يـا إلهي لا تباعـد
كن راحمي فلقد ايست من الأقارب و الأباعد
ثمّ الصلوة على النبيّ و آله الغرّ الا ماجد

عن أبي عبدالله عليه السلام قال يا مفضل لا يفلح من لا يعقل ولا يعقل من لا يعلم و سوف ينجب من يفهم و يظفر من يحلم و العلم جُنّة و الصدق عزّ والجهل ذلّ والفهم مجد و الجود نجح وحسن الخُلق مجلبة للمودّة و العالم بزمانه لا تهجم عليه اللّوابس و الحزم مسائة الظن و بين المرء و الحكمة نعمة ، العالم والجاهل شقىّ بينهما والله ولىّ من عرفه و عدوّ من تكلّفه و العالم غفور و الجاهل ختور و إن شئت أن تكرم فلن و إن شئت أن تهان فاخشن و من كرم اصله لان قلبه و من خشن عنصره غلظ كبده و من فرّط تورّط و من خاف العاقبة تثبّت عن التّوغل فيما لا يعلم ومن هجم على أمر بغير علم جدع أنف نفسه و من لم يعلم لم يفهم و من لم يفهم لم يسلم و من لم يسلم لم يكرم ومن لم يكرم يُهضم ومن يُهضم كان ألوم ومن كان كذلك كان احرى أن يندم[1] .

(١) اصول الكافي .

﴿ الاسلام والتعليم العام ﴾

إذا ارادت معظم امم الارض ان تدخل في دور التّمدن والرّقى يكفيها النظر في مستقبلها فقط و على العكس من ذلك الامّة الاسلاميه فانّها مطالبة بان تمدّ بنظرها إلى الماضى أيضاً فليس في الامم الاخرى في غابر ازمانها ما يستدعي الالتفات نحوه . امّا الامّة الاسلاميه فاناعوامها السالفة كلها عبرٌ وحسنات . رقي و نجاح .

و لما كانت الامة الاسلامية الحاضرة تمتاز على غيرها في هذا المبدء فلا بأس من ان نعيد نظرة إلى الوراء خصوصاً في مسألة التعليم و انشاء المدارس .

بلاد الشرقيّة تعدّ منبعاً للمعارف و مهداً للمدنية و هذا ما اعترف به كل من له المام ثقافيّ ثم انتقلت القراءة و الكتابة إلى ديار اليونان فظهرت فيها عدّة مجامع علميّة كمدارس سقراط و افلاطون و ارسطو إلّا ان هذه المدارس لم تكن على شكل مجامع العلمية اليوم بل كانت اشبه بمجالس المذاكره (سمينار) يختلف اليها المولعون بالبحث و المناظرة واعني بذلك انّها لم تكن عامّة للتدريس يهرع إلها كلّ طالب .

انتقلت المدنيّة اليونانيّة بعدذلك إلى الرومانيّين ثمّ ظهرت النصرانيّة بظهور الدّولة القسطنطنيّة فتقدّمت معها قوانين ادارة الملك و علم الحقوق تقدماً عظيماً ولم تتنبّه فيهم أيضاً فكرة تعميم التعليمفبقيت هذه المسألة غامضة غريبة عن الافكار إلى أن قيض الله تعالى للعالم الانسانىالامّة الاسلامية الّتي اهتدت إلى هذه الفكرة لاوّل وهلة فاخذت مسألة التعليم العام بسبب عنايتها حظّها من الانتشار و التوسع .

ومنشأ ذلك الاسلام نفسه لانه كما اتى بالتوحيد أتى بما يدعو إلى وجوب تعليم العام فلقدكان من مقتضى ذلك أن المسلمين بنواعند كلمعبد تقام فيه الشعاير الاسلامية كتاباً اومدرسة للتعليم العام مجاناً فاصبح التّعليم العامالمجّانىمن جملة الخيرات الّتي انتجتها المدنيّة الاسلاميّة في العالم الانسانى .

ثمّ لمتلبث هذه النّعمة العظمى فيأيدى المسلمين زمناً طويلا حتّىانتقلت منهم

إلى الامم الغربيّة و هناك نالت ما نالته من الحفاوة و الاجلال فتقدّمت تقدّماً باهراً وانتشرت انتشاراً عظيماً فوا اسفاه على هذه الخسارة الّتى لحقت بنا وياحسرتاه على ذلك الاهمال الّذى افضى بنا إلى ضياع هذه النّعمة من ايدينا بعد ان ورثناها عن آبائنا لقد قصرنا في حفظها تقصيراً لامزيد عليه فالمعارف الّتى تركها لنا الاسلاف بقيت طفلة في مهدها و لم نعمل على رشدها و انمائها بل المدارس و المعاهد العلميّة الّتى هى تذكار المتقدّمين لنا لم نسع في ترقيتها فبدل ان نعمرها و نرفع اعلام مجدها السابق سعينا في تخريبها أو هدمها ان تلك المعاهد العلميّة نشاء منها امثال ابن سينا و الفارابى و ابن رشد و الغزالىّ و محيى الدين و الفخر الرّازي و الطّوسى اصبحت منذ عدّة قرون دوراً للعجزة الضّعفاء و مسكناً للمعطّلين ولم يكن السبب في حالتنا هذه الا التّكاسل و الاهمال الّذى اسبل ستار الغفلة علينا و حال دون تنبّهنا إلى حالة الامم الاخرى .

اما الآن فقد اقبل و لله الحمد ـ على الامة الاسلامية دور التيقّظ فاخذت الرّغبة في التعليم تتولّد في كل جهة من الممالك الاسلاميّة فاصبحنا نسمع صدى بعض الافراد و الحكومات للتفكير في شؤون التعليم و لكن لم يبلغ الخطّة المطلوبة نحن معشر المسلمين منذ تسعة قرون قدتركنا لاروبا غنائم كثيرة و خزائن من المعارف و كنت ارى بعينى في سفرى بامير كاواروبا قبل تسع سنين كثيراً من كتبنا وكانت مصاحفنا في متاحفهم ولم نطالبهم أثناء هذه المدّة بردّها الينا : ولكن قدحان الآن وقت الاعادة فعلينا ان نستردها منهم و ليست هذه الكلمات من بنات افكارى الخاصّة بل قال مستر فانديك في بيروت حين افتتح الكلّية الطّبية هذه بضاعتكم قدردّت اليكم وقال الدكتور منيس الالمانى قدنردّها اليكم كما اخذنا منكم و عنكم .

فكما ان قوّة النطق اساس لكل ما رقّى الانسان إلى منزلة عظيمة في العالم فاستنباط فنّ الكتابة لم يكن اقلّ منها شاناً في رفعه إلى رتبة اسمى في مدار العقل لان الكتب عبارة عن تسجيل ما حصّله الجيل الرّاحل من المعرفة لمنفعة الجيل التابع حتّى انّه مع توالى الاجيال اجتمعت لنا كنوز من الحكمة لا نعرف لها عدداً اوثمناً فهى لدينا الآن و لكل من يطلبها تركة و رثناها من سلف لم يورّث شيئاً يضاهيها و

كان فنّ الكتابة في اول الامر عند المصريّين القدماء على غاية ما يكون من البساطة لانه لم يتجاوز صورة الشيء لاسمه كصورة الرجل لاسم الرجل و صورة الاسد لكلمة الاسد ثمّ انتقلوا خطوة نحو الأبجديّة بأن جعلوا صورة الماء عبارة عن حرف الميم لانّه اول حرف يتلفظ به . و اوّل عهد هذه الكتابة المعروفة بالهير و غلفيّة غامض ربما استقصى إلى اكثر من خمسة الاف سنة قبل التّاريخ المسيحى و بعد ذلك أخذوا عنها ما يسهّل كتابتها فاقتضوها حتّى صارت حروفا على نوعين أحدهما للكهنة و الاخر للعامّة و بقى الامر كذلك إلى ما بعد المسيح . و امّا الاشوريّون المعاصرون للمصريّين في القدم و التاريخ فكانت كتابتهم في اول الامر بتصوير الاشياء ثمّ نقلوها إلى الحروف المعروفة بالمسماريّة الّتي اقدمها منقوش على ختم للملك سرغون قيل انّه كان منذ٣٧٥٤ ق م و كان المصريّون ينقشون على الصخور ما ارادوه او يكتبون على قراطيس مصنوعة من ساق و هو البابيروس الّذي أخذ عنه الافرنج كلمة القرطاس بلغتهم و كانت كتابة الاشوريّين غالباً على اللّبن اوالاجر الذى بقى منه إلى الان عدد لا يحصى مجموع في دور العاديات اى الاثار القديمة .

ولمّا بلغت اللّغة منزلة الكتابة قامت المدارس لتعليمها و تدريس مبادى العلم البسيطة ثمّ لمّا ارتقى شأن العمران و الفنون ارتقى شأن المدارس أيضاً حتّى صار عدد الكلّيات منها في مصر اربع تربّي فيها اولاد الملوك و الامراء والاغنياء و قيل موسى الذى تبنّته امرأة فرعون وقصدها علماء اليونانين كأفلاطون و زنفون المؤرّخ لينتفعوا بما كان تلقيه الكهنة من الدّروس على الطّلبة فقامت الصّنايع و شادوا الاهرام الراسخة إلى الا ن كما كانت منذ الوف السنين و الهياكل العظيمة كهيكل رامون رافى الاقصر الذي قال فيه أحد كبار العلماء أنّه لم يشد مثله أبداً شيء عظيم لعبادةالله والمدافن العجيبة الّتى تخترق بطون التّلال إلى مسافة مآت من الأقدام و فيها من زخرفة التّصوير و النّقش مايحيّر الالباب و يقف الانسان مندهشاً عندها من متانة البناء و جمال الصّناعة وما اقتضته من ارتقاء العلوم الدقيقة كالحساب و الهندسة والطبيعيّات و كان اكثر العلم و التّعليم في تلك الاجيال القديمة الخالية محصور في الكهنة على طبقاتهم كما انحصر في

القرون الوسطى في خدمة الدّين المسيحي .

و اما حروف الكتابة المصطلح عليها الآن فذهب بعض المحققين إلى أن أكثرها مأخوذ عن الفينقيّين فحملوها في اسفارهم البحريّة الى اماكن بعيدة فاذا صحّ ذلك حقّ لكثيرين منهم الافتخار فانّهم من نسل قوم سادوا البحر و التّجارة زمناً طويلاً قبل التاريخ المسيحى و مملكتهم الصّغيرة لا تتجاوز الشّطوط الواقعة بين طرطوس و ارواد شمالاً وسوريا جنوباً فكانت بيروت من مدنهم القليلة العدد العظيمة الشّأن في فنّ الابحار و في الصنايع و التّجارة و الغنى الذي لم يكن له مثل في ذلك الزمان وكما نشأ من قوّة النطق في الانسان فنّ الكتابة الذي سجّل علوم الأوّلين و الآخرين وادّخرها و صانها من البلاء المشار إليه في المثل السّاير كل علم ليس في القرطاس ضاع و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله قيّدوا العلم قيل وما تقييده قال عليه السلام قيّدوه بالكتابة . و قال الصّادق عليه السلام للمفضّل اكتب وبثّ علمك في إخوانك فان متّ فأورث كتبك بنيك فانّه سيأتى على الناس زمان هرج لا يأنسون فيه إلّا بكتبهم .

نعم نرى المسلمين اليوم تنبّهوا بعض التنبّه في الاقطار الاسلاميّة عموماً و البلاد العربيّة خصوصاً والمملكة الايرانيّة بالأخصّ ، وهبّ فضلاؤهم لانشاء الصّحف والجرايد الّتى لها اثر عظيم في الارشاد الى الخير والصلاح ونسمع انّ مسلمى بعض البلاد ينشئون جمعيّات خيريّة و علميّة هذه علائم خير تقرّ بها عين كل ناصح للانسانيّة ولكن لا يجوز لنا ان نجتزىء بهذه العلائم و نكتفى بمقدّمات رجائيّة ثم نخلد الى ارض الدّعة و الكسل فالمستقبل الحسن لمن يدأب و يعمل فان حالتنا ليست مكتومة على احد ولا يجوز لانفسنا التّجاهل لان ذلك عين الخطاء بل هو جناية عظيمة على نفوسنا .

يحقّ لنا ان نجاهر في كل ناد و نسعى لتشخيص الداء حتّى نصف له الدواء هل من الرأى ان يكتم الانسان مرضه اذا لم يكن عدوّ نفسه فليست مغبّة الكتمان إلّا الهلاك لا تيأسوا ولا تهنوا ولا تحزنوا و انتم الاعلون ان كنتم مؤمنين فاستعداد الامة الاسلاميّة للمدنيّة قد ثبت بحكم تاريخنا اللاّمع فالدين الاسلامى دين يخاطب العقل و يحثّ على العمل و ينيط نجاح الانسان بعمله و لكن سيرتنا تخالف هذه الاصول

الكريمة الدينيّة مخالفة ظاهرة وهذا ماحذّرنا امير المؤمنين عليه السلام بقوله الله الله في القرآن لاتنبذوه وراء ظهوركم ولا يسبقنّكم بالعمل به غيركم قال الله تعالى واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، فالاسلام دين العقل و العلم دين الدليل و البرهان دين الفطرة و الفكرة و بكلمة واحدة يأمرنا بكلمة التوحيد و توحيد الكلمة .

ناهيك ديناً يدعونا للحياة و يقول الله عزّ وجلّ استجيبوا لله وللرّسول اذادعاكم لما يحييكم ديناً جامعاً لسعادة الدّنيا والاخرة و المادّية و الادبيّة ويخاطب الانسانيّة و البشريّة لاشرقيّة ولاغربيّة لاعربيّة ولا عجميّة ياايها الناس إنّا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوباً و قبايل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله أتقيكم ديناً يكون اوّل مايرى من كتبه العلميّة العقل و في كتبه العمليّة الطّهارة ديناً يقول نبيّه الاعظم

طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة و يقول اطلبوا العلم من المهد الى اللحد و يقول اطلبوا العلم ولو بالصين

أعلم انّ العلم عبارة عن حضور الصّورة المجرّدة عن المواد والاجسام عندالعقل ولا شكّ انّ أشرف الممكنات و اعلاها وأنورها هو الموجود الّذي لا تعلّق له بالاُمور الجسمانيّة وقد تقرّر في علم النفس أنّ النفس في أوّل الفطرة أمر بالقوّة في باب العقل و المعقول كالهيولى الّتي لا صورة لها في ذاتها في باب الحسّ و المحسوس فإذا ادركت أوايل العلوم والضروريّات حصل لها استعداد ادراك النظريّات و صارت عقلاً بالملكة ثمّ إذا تكرّرت منه الأفكار و الأنظار فصارت باشراق النور العقلي على ذاتها من المبدء الأعلى عقلاً بالفعل وعاقلة ومعقولة فيصير وجودها وجوداً آخر عقليّاً بعدماكان وجودها وجوداً حسّيا حيوانياً فتكون أحدسكّان عالم الجبروت بعد ماكان أحدسكّان عالم الأدنى ، فأيّ فضيلة و كمال أشرف و أعلى من فضيلة العلم و كماله الّذي يجعل الأموات احياءً والظّلمات أنواراً ولا يستوى الظل و الحرور ولا الظلمات والنور هل يستوى الّذين يعلمون و الّذين لا يعلمون ، تلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلّا العالمون ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب شهد الله انّه لا إله إلّا هو والملائكة واُولوا العلم قائماً بالقسط ، يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا

العلم درجات، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم الأنبياء قادة والعلماء سادة ومجالستهم عبادة وقال صلى الله عليه وآله وسلم يا علي نوم العالم أفضل من عبادة العابد، يا علي ركعتان يصلّيهما العالم أفضل من ألف ركعة يصلّيها العابد، يا علي لافقر أشدّ من الجهل ولا عبادة مثل التفكّر.

وقال سيّدنا عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أيّها النّاس اعلموا ان كمال الدّين طلب العلم والعمل به ألا وان طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال وان المال مقسوم مضمون لكم قد قسّمه عادل بينكم وضمنه وسيفي لكم و العلم مخزون عند أهله وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه من أهله، و قال أبوجعفر محمّد الباقر عليه السلام عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد.

وقال الصادق عليه السلام إذا كان يوم القيامة جمع الله الناس في صعيد واحد و وضعت الموازين فيوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء فيرجّح مداد العلماء على دماء الشّهداء.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن الثلاث علم ينتفع به أو صدقة جارية أو ولد صالح يدعو له.

والّذي يهمّنا تعيين العلم الّذي وقع في قوله طلب العلم فريضة فاختلفوا فيه اختلافاً وتحزّبوا فيه احزاباً حاصله انّ كلّ فريق نزّل الوجوب على العلم الّذي هو بصدده فقال المتكلّمون هو علم الكلام اذ به يدرك التوحيد و يعلم ذات الله و صفاته و الفقهاء يقولون هو علم الفقه إذ به يعرف العبادات والحلال والحرام وكيفيّة المعاملات وما يحرم منها وما يحلّ. وقال المفسّرون والمحدّثون هو علم الكتاب والسنّة إذ بهما يتوصّل إلى العلوم كلّها وقالت المتصوّفة المراد به هو التصوّف وعلم السّلوك والشهود.

قال صدر المتألّهين التحقيق في هذا المقام ان لفظ العلم كلفظ الوجود من الالفاظ المشككّة وهو الّذي له معنى واحد مشترك متفاوت الحصول كمالاً ونقصاً وشدّةً و ضعفاً ولا شبهة في أنّه شيء يستكمل به الإنسان ويحتاج إليه معرفة نفسه وربّه و أنبيائه و رسله وحججه و آياته ومعرفة العمل بما يسعده ويقرّبه إلى الله ويخلّصه من الشقاوة و البعد عن الله فكلّ ماحصل له شيء من العلم وجب عليه مرتبة اخرى فوقه ولا حدّ له يقف عنده إذ مراتب القرب ومنازل الوصول غير متناهية و لهذا قال اعلم الخلايق ربّ

زدني علماً ، فعلى هذا كان معنى الحديث ان طلب جنس العلم وطبيعته واجب على كلّ مسلم سواء كان المسلم جاهلاً أو عالماً ناقصاً أو كاملاً اعنى بالنسبة إلى من دونه وإلاّ فلا حدّ لكمال العلم وهذا ما قاله الغزالي في الاحياء تقريباً ويدلّ على تحقيق قولهما اُطلبوا العلم من المهد الى اللّحد .

تدوين العلم في الاسلام : إنّ الذى دعاني الى اختيار هذا البحث على بعده عن اذهان كثير منّا لهذا العهد هو تصدّي بعض الباحثين لتطريق الوهن و التجريح إلى العلوم الّتي وصلت الينا من اسلافنا في الصّدر الاوّل كالحديث و آداب اللّغة العربيّة و التّاريخ فقد زعموا ان المسلمين لم يدوّنوا هذه العلوم الا في القرنين الثاني و الثالث و ان الاخبار الّتي تتلّقى بالرواية مدّة قرنين ثم تكتب بعد ذلك الأمد الطويل قلّما يوثق بسلامتها من التّحريف و التبديل وذلك قياس لأخبار العرب على غيرها من الامم الاخرى الّتي لم تكتب صحيحة في حينها و انما كتبت بعد مرور زمن طويل او قصر عليها مشوّهة بآفة التبديل و التحريف فسقط اعتبارها على ظنّهم في التّاريخ و هذا الزّعم بالنسبة الينا مردود من وجهين الاول ماعرف من العرب من اتقان الحفظ والرّواية وكونهم مطبوعين على ذلك .

و الوجه الثاني ثبوت التّدوين و كتابة الاخبار في الاسلام من اوائل القرن الاول اى من عهد صاحب الرسالة و ثبوت عناية المسلمين بالكتب و العلوم عن ابن مسعود جاء رجل الى فاطمة بنت رسول الله و قال علّميني ممّا علّمك ابوك رسول الله فقالت لجاريته هات تلك الجريدة فقالت ما رأيت جريدة فقد كنست البيت كلّها فقالت ويلك اُطلبيها فانّها تعدل عندي حسناً و حسيناً فذهبت و وجدتها في المكنسة فجاءت بها مكتوب عليها قال محمد النّبي ﷺ ليس من المؤمنين من لم يأمن جاره بوائقه ومن كان يؤمن بالله و اليوم الاخر فلا يؤذى جاره [١] .

بيان الوجه الاول ان قوى الانسان ومشاعره خاضعة كلّها لحكم الفطرة إذ المشاهد

---

(١) كبريت الاحمر نقلا عن ج٣ مستدرك الوسائل وفى الكافى مع تغيير يسير .

ان الانسان اذا فقد اداة من قواه العاقلة او مشاعره قويت فيه اداة اخرى فضعيف الذاكرة يكون قوي التفكر بحكم الحاجة إلى استحضار صور المعلومات التي تغيب عن حفظه. وفاقد البصر يكون قوى السمع و الحفظ كذلك و العرب لما كانوا امة امية قليلي العناية بالكتابة التي هى من ادواة الحضارة استعاضوا عنها لاستبقاء أخبارهم و تداولها بقوة الحفظ فمرنوا على هذه القوة حتى صارت لكثير منهم ملكة لا يحتاج صاحبها إلى إلى تكلف عناء في حفظ ما يرد على سمعه من الأخبار والأشعار فقامت عندهم مقام الكتابة وقيد الاخبار بالصحف ، ولذلك كانت أخبار العرب و اشعارهم التي وصلت الينا إلى هذا اليوم انما اتصلت بالمسلمين بالرواية حتى قالوا ان الشعر ديوان العرب ثم قيدوها بالكتب في العصر الأول وما بعده و كانوا عباقرة الادب ينشدون عدة قصايد على قافية واحدة لعدة شعراء بلغ الحفظ مبلغاً ان ابابكر الخوارزمى جاء عند الصاحب ابن عباد فقال للحاجب استأذن لى من صاحبك وقل للصاحب على الباب أحد الادباء فدخل الحاجب و أعلمه فقال الصاحب قل له قد الزمت على نفسى أن لايدخل علي من الادباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب فخرج إليه الحاجب واعلمه بذلك فقال له أبو بكر ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء فدخل الحاجب و أعاد عليه ما قال فقال الصاحب هذا يكون أبا بكر الخوارزمي فأذن له فدخل عليه فعرفه و انبسط له و نقره من أخبار حماد الراوية من قوة الحافظة ما لا تقدر بيانها الالفظة و كان عبدالله بن عباس يحفظ القصيدة الطويلة بسماعها مرة واحدة وها انا ذا أوردلك ايها القارى خبراً من اخباره في الحفظ يستدعى اعجابك بذلك الرجل الجليل الذي كان يستوعب ذهنه من شرايع الاسلام و اخبار العرب و غيرهم مالا تستوعبه مكتبة من المكتبات الضخام .

قال ابو الفرج الاصفهانى في الأغانى بينا ابن عباس في المسجد الحرام و عنده نافع ابن الازرق و ناس من الخوارج إذ أقبل عمر بن ابي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين او ممصرين حتى دخل وجلس فاستنشده ابن عباس فانشده قصيدة .

أمن آل نعم انت غاد فمبكر　　غداة غد أم رائح فمهجر

حتّى أتى على آخرها فأقبل عليه نافع بن الازرق فقال الله يا بن عباس انا نضرب اليك أكباد الإبل من اقصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل و يأتيك مترف من مترفي قريش فينشدك .

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت　　فيخزى و اما بالعشى فيخسر

فقال له ابن عباس ماهكذا قال وإنّما قال :

رأت رجلا أما اذا الشمس عارضت　　فيضحى و أما بالعشى فيخصر

فقال ما اراك إلاّ قد كنت قد حفظت البيت . قال أجل و ان شئت انشدك القصيدة كلّها . قال فانّي أشاء ، فانشده القصيدة حتّى أتى على آخرها .

فانظروا إلى هذا الذّكاء العظيم الّذي اختص به اولئك القوم حتّى لقد بلغ من ثقتهم بقوّة الحفظ و الرّواية ان كانوا لايثقون بخبر مكتوب إلّا إذا كان معزّزاً بالسّند والرّواية .

و لمّا أخذ العلماء بتدوين الأخبار النبويّة واخبار الصّحابة ثمّ تاريخ الخلفاء دوّنوا هذه الاخبار مدعومة بالرّواية ولم يكتفوا بقيدها في الصحف مجرّدة عن الاسانيد خوف دخول التّحريف او التّصحيف عليها واطمئنانا للرّواية المعروفة السّند المستوفية لشروط الصحّة على المعروف عند المحدّثين ولعلّ الّذي ذهب إلى الظّن بعدم تدوين الاخبار إلاّ بعد القرن الثاني هو تقييد المؤلّفين في ذلك العصر بنقل الأخبار بالرّواية مع فقد مادون قبل ذلك لفقده لحسن التنسيق و الجمع و شروط الصّحة عند المؤلّفين لا سيّما من جهة التّرتيب والتخصيص الذي يروق اهل العصر الثاني ويناسب حالة الرّقي في التمدّن والحضارة هذا بيان الوجه الاول و اما الوجه الثاني و هو ثبوت التدوين و كتابة الاخبار في الاسلام في اوائل القرن الاول فالادلّة عليه كثيرة في ثنايا الكتب و تفاريق السّطور و تشتّتها لا يمنعنا ان نجتزء هنا بالقليل المقنع الّذي وسعنا جمعه ولكن بعد ان اقدّم بين يدى ذلك مقدّمة قصيره ولا يغرّنك قول ابن خلدون فسوف نتكلّم فيه إذا قيل ان العرب امّة اميّة فلها ثلاث معان احدها الامّية بمعنى الّتي لاتقرء ولا تكتب فاذا كان المراد عدم القرائة و الكتابة فليس على اطلاقه بل ربما اطلق هذا الوصف

على الاعراب اى عرب البادية فالحكم للاغلب الاعم لا للمتحضّرة و سكّان المدن و و ارباب الدّول البائدة والملل المتمدّنة كسكّان اليمن و مدن نجد و حجاز و العراق و الجزيرة و اطراف الشام الّذين عرفت لهم دول ذات حضارة و مجد قبل الاسلام كالتبابعة والمناذرة والحوادث الّذين منهم ملوك تدمر في شرق سوريا الذين تنسب اليهم الزباء (زنوبيا) وزوجها اذينة (اوزينوس)كما تسمّيه الغربيون ومنهم ملوك آل غسّان فهؤلاء الشعوب لايجوزان يطلق عليهم وصف الاميّة بالنسبة لحالة كل عصر كانوا فيه و انّما غموض تاريخهم و طموس آثارهم اضاف تاريخهم الى التّاريخ القديم فكان مجهول الحقيقة الا قليلاً ممّا وقف عليه الباحثون من الآثار الكتابية للحميريّين في اليمن و الكتابات النبطيّة في شمال الحجاز فالاعتبار اليوم بما سطر في كتاب الكون و سترعلينا و تتبّع هذه الاثار يكشف السّتار عن وجه الحقيقة وما يقرء في بعض الزّبروليس له بيّنة فلاعتداد به وحسبك شاهداً على ان الاميّة ليست مطلقة ولا يجوز ان تكون صفة العرب ما كان موجوداً من كتب اهل الحيرة الى اوائل القرن الثالث الهجرى على ماقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي في كتاب الأنساب وهو ، اني كنت استخرج أخبار العرب و انسابهم و انساب آل نصر بن ربيعة و مبالغ اعمار من وليّ منهم لآل كسرى و تاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة .

اما عرب الحجاز فالمعروف عن الكتابة عند سكّان المدن منهم قبل البعثة انّها كانت موجودة يدلّ عليه كتابة المعلّقات السبع الّتي كانت على الكعبة و الصحيفة الّتي تعاقدت فيها الشّيوخ و صناديد قريش على ردّ الحقوق و انصاف المظلوم و هي اشبه بما نسمّيه اليوم باسم الحزب وقد كتب النبيّ اسمه الشريف و صار عضواً عاملاً مؤثراً فيهم كما قال عليه السلام بعد بعثته و زمان دعوته ما كان من حلف في الجاهلية فان الاسلام لم يزده الاشدّة و قال صلى الله عليه وآله لقدشهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً ما أحبّ أنّ لي به حمر النّعم ولو اُدعى به في الاسلام لأجبت قال ابن هشام تداعت قبايل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دارعبدالله بن جدعان لشرفه وسنّه فكان حلفهم عنده بنوهاشم و بنو المطّلب واسد بن عبد العزّى و زهرة بن كلاب و تيم بن مرّة فتعاقدوا وتعاهدوا

على ان لا يجدوا بمكّة مظلوماً من اهلها و غيرهم ممّن دخلها من ساير الناس إلّا قاموا معه و كانوا على من ظلمه حتّي ترّد عليه مظلمته فسمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول .

سمّى بذلك لانهم تحالفواأن تردّ الفضول على اهلها وان لا يغز و ظالم مظلوماً و كان قبل البعث بعشرين سنة و كان اكرم حلف و أشرفه و اول من تكلّم به ودعا اليه الزبير بن عبد المطلب و كان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراهامنه العاصي بن وائل و كان ذا قدر بمكّة و شرف فحبس عنه حقّه فاستعدى عليه الزّبيدى الأجلاف ، عبد الدار و مخزوما و جمح وسهماً و عدّى بن كعب فأبوا ان يعينوه على العاصي و زبروه فلما رأى الزّبيدى الشرّ أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشّمس و قريش في انديتهم حول الكعبة فصاح با على صوته .

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار و النفر
ومحرم اشعث لم يقض عمرته يا للرجال و بين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب و قال ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم و زهرة و تيم بن مرّة في دار ابن جدعان و تعاقدوا و كان حلف الفضول و أنصفوا الزبيدي من العاصي .

و يذكرون في سبب تسمية هذا الحلف بهذا الاسم ان جرهما في الزمن الاول قد سبقت قريشاً إلى مثل هذا الحلف فتحالف منهم ثلاثه احدهم الفضل بن فضالة و الثاني الفضل بن وداعة و الثالث فضيل بن الحارث وقيل بلهم الفضيل بن شراعة والفضل بن وداعة و الفضل بن قضاعة فلما اشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهميّين سمّى حلف الفضول .

و بهذه المناسبة نقل ابن هشام أنه كان بين الحسين بن على بن ابيطالب عليه السلام و بين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان . و الوليد يومئذ أمير على المدينة أمرّه عليها عمّه معاوية ـ منازعة في مال كان بينهما بذى المروة فكان الوليد تحامل على الحسين عليه السلام في

حقّه لسلطانه فقال له الحسين عليه السلام أحلف بالله لتنصفنّني من حقّي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ثم لأدعونّ بحلف الفضول فقال عبدالله بن الزّبير وهو عند الوليد . و انا احلف بالله لئن دعا به لاخذنّ سيفي ثم لأقومنّ معه حتّى ينصف من حقّه او نموت جميعاً قال فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزّهرى فقال مثل ذلك و بلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيدالله التميمي فقال مثل ذلك فلمّا بلغ ذلك الوليد ابن عتبه أنصف الحسين عليه السلام من حقّه .

خبر الصحيفة ونقضها قال ابن اسحق فلما رأت قريش انّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نزلوا بلداً اصابوا بد امناً و قراراً و ان النّجاشي قد منع من لجاء إليه منهم و جعل الاسلام يفشو في القبايل اجتمعوا و ائتمروا بينهم ان يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم و بني عبد المطلب علي ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثمّ تعاهدوا وتواثقوا على ذلك ثمّ علقّوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . وكان كاتب الصّحيفة منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف قال ابن هشام ويقال النضر بن الحارث فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشلّ بعض اصابعه قال ابن اسحاق فلمّا فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلّب إلى أبي طالب بن عبد المطلّب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه وخرج من بني هاشم أبو لهب عبدالعزّى إلى قريش فظاهرهم فلمّا اجتمعت على ذلك قريش وصنعوا ماصنعوا قال أبوطالب عليه السلام .

ألا أبلغا عنّي على ذات بيننا ... لؤيّاً و خصّا من لؤيّ بني كعب

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً ... نبيّاً كموسى خطّ في أوّل الكتب

و أنّ عليه في العباد محبّة ... ولا خير ممّن خصّه الله بالحبّ

و إنّ الّذي ألصقتم من كتابكم ... لكم كائن نحساً كراغية السّقب

أفيقوا أفيقوا قبل أن يحفر الثّرى ... ويصبح من لم يجن ذنباً كذي الذنب

ولا تتبعوا أمر الوشاة و تقطعوا ... او اصرنا بعد المودّة و القرب

و تستجلبوا حرباً عواناً و ربّما ... امرّ على من ذاقه جلب الحرب

فلسنا و ربّ البيت نسلم احمداً　　لعزّاء من عضّ الزمان ولا كرب
و لما تبن منّا و منكم سوالف　　و أيد أترّت بالقاسيّة الشهب
بمعترك ضيق ترى كسر القنا　　به والنسور الطّخم يعكفن كالشرب
كأنّ مجال الخيل في حجراته　　و معمعة الابطال معركة الحرب
أليس أبونا هاشم شدّ أزره　　و أوصى بنيه بالطّعان و بالضّرب
و لسنا نملّ الحرب حتّى تملّنا　　ولا نشتكى ما قد ينوب من النكب
و لكنّنا أهل الحفائظ و النهى　　إذا طار أرواح الكماة من الرّعب

و أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتّى جهدوا لا يصل إليهم شيء الا سترا مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش قال ابن اسحق وبنو هاشم و بنو المطلّب في منزلهم الّذي تعاقدت فيه قريش عليهم في الصّحيفة الّتي كتبوها ، ثمّ أنّه قام في نقض تلك الصحيفة الّتي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم و بني المطّلب نفر من قريش ولم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو بن ربيعة وذلك أنّه كان ابن أخي نضيلة بن هاشم بن عبدمناف لأمّه فكان هشام لبني هاشم واصلا و كان ذا شرف في قومه فكان فيما بلغني يأتي بالبعير و بنو هاشم و بنو المطّلب في الشّعب ليلا قد اوقره طعاماً حتّى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثمّ ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثمّ يأتي به قد اوقره بزّاً او برّاً فيفعل به مثل ذلك .

قال ابن اسحق ثمّ انّه مشي إلى زهير بن أبي اميّة بن المغيرة وكانت امّه عاتكة بنت عبد المطلب فقال يا زهير أقد رضيت ان تأكل الطعام وتلبس الثّياب وتنكح النساء واخوالك حيث قد علمت لايباعون ولا يبتاع منهم ولا ينكحون ولا ينكح إليهم أما إنّي أحلف بالله ان لوكانوا اخوال أبي الحكم بن هشام ثمّ دعوته إلى مثل مادعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً قال ويحك يا هشام فما ذا اصنع ؟ انما أنا رجل واحد والله ان لو كان معى رجل آخر لقمت في نقضها حتّى أنقضها : قال قد وجدت رجلا قال فمن هو قال : أنا ، قال له زهير أبغنا رجلا ثالثاً ، فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له: يامطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه

اما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنّهم إليها منكم سراعا ، قال ويحك فماذاأصنع إنّما أنا رجل واحد قال قد وجدت ثانياً قال من هو ؟ قال أنا ، قال أبغنا ثالثاً ، قال قد فعلت . قال من هو ؟ قال زهير بن أبي اميّة . قال أبغنا رابعاً ـ فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً ممّا قال للمطعم بن عدى فقال : وهل من احد يعين على هذا قال نعم .قال:من هو ؟ قال : زهير بن أبي اميّة و المطعم بن عديّ و أنا معك قال أبغنا خامساً . فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد فكلّمه ،وذكر له قرابتهم و حقّهم فقال له وهل لك على هذا الامر الّذي تدعوني إليه من أحد قال نعم ثمّ سمّى له القوم فاتّعدوا خطم الحجون ليلا باعلى مكّة فاجتمعوا هنا لك فأجمعوا أمرهم و تعاقدوا على القيام في أمر الصحيفة حتّى ينقضوها ، وقال زهير : أنا أبدؤكم فأكون أوّل من يتكلّم فلمّا اصبحوا غدوا إلى انديتهم وغدا زهير بن أبي اميّة عليه حلّة فطاف بالبيت سبعاً . ثمّ أقبل على الناس فقال: يا أهل مكّة أنأكل الطعام و نلبس الثّياب وبنو هاشم هلكى لا يباع ولا يبتاع منهم و الله لا أقعد حتّى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظّالمة قال أبوجهل . وكان في ناحية المسجد . كذبت و الله لا تشقّ ، قال زمعة بن الأسود أنت والله أكذب . مارضينا كتابها حيث كتبت قال أبو البختري : صدق زمعة لا نرضى ماكتب فيها ولا نقرّ به ، قال المطعم بن عديّ صدقتما وكذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها ، و ممّا كتب فيها ، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك فقال أبوجهل هذا أمر قد قضي بليل تشوور فيه بغير هذا المكان و أبوطالب جالس في ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللّهمّ) .

قال ابن هشام وذكر بعض أهل العلم إنّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب يا عمّ إنّ ربي الله قد سلّط الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها إسماً هو لله إلا أثبتته فيها و نفت منها الظلم و القطيعة والبهتان . فقال : أربّك أخبرك بهذا قال نعم قال : فوالله مايدخل عليك أحد ثمّ خرج إلى قريش فقال يا معشر قريش ان ابن أخي أخبرني بكذا وكذا فهلّم صحيفتكم فان كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا ، :وانزلو عمّا فيها وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي فقال القوم رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ثمّ

نظروا فاذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شرّاً فعند ذلك صنع الرّهط من قريش في نقض الصّحيفة ماصنعوا قال ابن اسحاق فلمّا مزقّت الصحيفة و بطل مافيها قال ابوطالب فيما كان من أمر اولئك النفر الّذين قاموا في نقضها يمدحهم .

الاهل أتى بحرينا صنع ربنا على نأيهم و الله بالناس أرود
فيخبرهم أن الصحيفة مزقت و أن كل مالم يرضه الله مفسد

هذا و قد ذكر سيدنا عليّ امير المؤمنين عليه السلام حاله يومئذ فقال في خطبة له مشهورة [١] .

فتعاقدوا ألّا يعاملونا ولا يناكحونا و أوقدت الحرب علينا نيرانها و اضطرّونا إلى جبل وعر مؤمننا يرجوا الثّواب و كافرنا يحامي عن الأصل و لقد كانت القبائل كلّها اجتمعت عليهم و قطعوا عنهم المارّة و الميرة فكانوا يتوقّعون الموت جوعاً صباحاً ومساءً لايرون وجهاً ولا فرجاً قد اضمحلّ عزمهم وانقطع رجاؤهم ، قال ابن أبي الحديد نقلا عن استاذه أبي جعفر النقيب بعد نقله كلام الجاحظ اذ قال .

و كان أبوبكر من المفتونين المعذّبين بمكّة قبل الهجرة فضربه نوفل بن خويلد المعروف بابن العدويّة مرّتين حتّى أدماه وشدّه مع طلحة بن عبيدالله في قرن وجعلهما في الهاجرة عمير بن عثمان بن مرّة بن كعب بن سعد ولذلك كانا يدعيان القرينين ولو لم يكن له غير ذلك لكان لحاقه عسيراً و بلوغ منزلته شديداً ولو كان يوماً واحداً لكان عظيماً و عليّ بن أبي طالب رافه وادع ليس بمطلوب ولا طالب ! قال شيخنا أبوجعفر النقيب امّا القول ممكن و الدّعوى سهلة سيّما على مثل الجاحظ فانّه ليس على لسانه من دينه و عقله رقيب و هو من دعوى الباطل غير بعيد فمعناه نزر و قوله لغو و مطلبه سجع وكلامه لعب و لهو يقول الشّيء و خلافه و يحسن القول وضدّه ليس له من نفسه واعظ ولالدعواه حدّ قائم وإلاّ فكيف تجاسر على القول بان عليّاً حينئذ لم يكن مطلوباً ولا طالباً و قد بيّنا بالأخبار الصحيحة و الحديث المرفوع المسند إنّه كان يوم اسلم بالغاً كاملاً منابذاً بلسانه و قلبه لمشركي قريش ثقيلاً على قلوبهم و هو المخصوص دون أبي بكر

---

(١) قال ابن ابي الحديد جاء بعض هذه العبارات في كتاب له عليه السلام إلى معاوية فأراد قومنا قتل نبينا و اجتياح أصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا اه .

بالحصار في الشّعب و صاحب الخلوات برسول الله ﷺ في تلك الظّلمات المتجرّع لغصص المرار من أبي لهب و أبي جهل و غيرهما والمصطلى لكلّ مكروه و الشّريك لنبيّه في كلّ أذى قد نهض بالحمل الثّقيل و بان بالأمر الجليل و من الّذي كان يخرج ليلاً من الشعب على هيأة السّارق يخفى نفسه و يضائل شخصه حتّى يأتي إلى من يبعثه إليه أبو طالب من كبراء قريش كمطعم بن عدّي و غيره فيحمل لبني هاشم على ظهره اعدال الدّقيق والقمح وهو على اشدّ خوف من أعدائهم لوظفروا به لأراقوا دمه ، أعليّ كان يفعل ذلك أيّام الحصار في الشّعب ام أبو بكر إلى أن يقول :

فأمّا قوله ان أبابكر عذّب بمكّة فانّا لا نعلم أنّ العذاب كان واقعاً إلّا بعبد او عسيف أو لمن لاعشيرة له تمنعه فانتم في أبي بكر بين أمرين تارة تجعلونه دخيلاً ساقطاً و هجيناً رذيلاً مستضعفاً ذليلاً و تارة تجعلونه رئيساً متبعاً وكبيراً مطاعاً فاعتمدوا على أحد القولين لنكلّمكم بحسب ما تختارونه لأنفسكم ولو كان الفضل في الفتنة و العذاب لكان عمّار و خبّاب و بلال و كلّ معذّب بمكّة أفضل من أبي بكر لأنّهم كانوا من العذاب في أكثر ممّا كان فيه و نزل فيهم من القرآن مالم ينزل فيه كقوله تعالى « و الّذين هاجروا في الله من بعد ماظلموا » قالوا نزلت في خبّاب و بلال و نزل في عمّار قوله ، إلّا من أكره وقلبه مطمئنّ بالايمان، وكان رسول الله ﷺ يمرّ على عمّار و أبيه و اُمّه وهم يعذّبون فيقول صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنّة و كان بلال يقلّب على الرّمضاء و هو يقول « أحد أحد » وما سمعنا لأبي بكر في شيء من ذلك ذكراً و لقد كان لعليّ عليه السلام عنده يدغرّاء إن صحّ مارويتموه في تعذيبه لأنّه قتل نوفل ابن خويلد و عمير بن عثمان يوم بدر، ضرب نوفلاً فقطع ساقه فقال اذكرك الله والرّحم فقال قد قطع الله كلّ رحم وصهر إلّا من كان تابعاً لمحمّد ثمّ ضربه اُخرى ففاضت نفسه و صمد لعمير بن عثمان التّيمي فوجده يروم الهرب و قد ارتجّ عليه المسلك فضربه على شراسيف صدره فسار نصفه الأعلى بين رجليه و ليس انّ أبابكر لم يطلب بثاره منهما و يجتهد لكنّه لم يقدر على أن يفعل فعل عليّ عليه السلام فبان على عليه السلام بفعله دونه إنّ أباطالب كان رئيس قريش وسيّدهم وكانوا يسمّونه الشّيخ فاذا جاءهم أمر لم يتجاوزوا

عنه ويقولوا فيه ينظر ما يقول الشيخ .قلّ أن يسود فقير وساد أبوطالب وهو فقير لامال له واختصّ وتشرّف بكفالة النبيّ صلى الله عليه وآله وحمايته من ذؤبان العرب وجهّال قريش و طواغيتها فلمّا نزلت فاصدع بما تؤمر جعل يصدع بأوامر الله ونواهيه في مكّة و نواحيها بين الجاهليّة و صناديد القوم طول حيوة أبي طالب ولم يخف منهم لمكان عمّه ومقامه .

و كان أبوطالب مسلماً موحداً مصدّقاً برسالة النبيّ وقد اُوذي كثيراً في نصرة رسول الله لاينكره أحد وقد صرّح ونطق بذلك وفي أشعاره إشعار بايمانه ولقد علمت بأنّ دين محمّد من خير اديان البريّة ديناً ـ ولكن لم يظهر ذلك ماكان متمكّناً من الكتمان قال أمير المؤمنين عليه السلام « ما اضمر الإنسان شيئاً إلّا ويظهر من صفحات خدّه و فلتات لسانه و مهما تكن عند امرء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم » نشير في هذه العجالة إلى موارد كثيرة يدركها أصحاب البصيرة والعاقل يكفيه الإشارة وأمّا اصراره على كتمان إيمانه فلأجل حفظ النبيّ بحفظ مقامه ومكانته في القلوب نظير مؤمن آل فرعون فإنّه ان لم يصانع القوم ويظهر إيمانه لم يتمكّن من ردّ الطغاة و كفّ عادية البغاة ولخاصمته قريش وجاهرت بعداوته كما جاهرت بعداوة النبيّ صلى الله عليه وآله فيكون عندهم متّهما في نصرته والذّب عنه ولكن لمّا لم يظهر اسلامه كان اعتقادهم في ذبّه عنه ليس صبواً إلى دينه بل حميّة على النّسب ومحاماة على الموالى وذلك في قانون القبيلة ودين العربيّة من أفضل المكارم وفي قلوبهم مودّة ورحمة تحكى عن تبجيل و تعظيم أكثر من ذي قبل فلنرجع إلى ماكنّا فيه من ذكر الدّلائل على كون الكتابة في الجاهليّة في الملّة العربيّة رائجة لاسيّما في مكّة توفّي مولى لرسول الله ولم يخلّف وارثاً فخاصم ولد العبّاس أبا عبدالله الصّادق و كان هشام بن عبد الملك قد حجّ في تلك السنة فجلس لهم فقال داود بن عليّ ابن عبدالله بن العبّاس الولاء لنا فقال أبوعبدالله عليه السلام بل الولاء لنا فقال داود بن على أنّ أباك قاتل معاويه فقال عليه السلام ان كان أبي قاتل معاويّة كان حظّ أبيك فيه الاوفر ثمّ فرّ بجنايته أما إنّه واد ليس لك فيه ولا لأبيك فيه حقّ فقال هشام إذا كان غداً جلست لكم فلمّا كان من الغد خرج أبوعبدالله عليه السلام و معه كتاب في كرباسة و جلس لهم هشام فوضع أبوعبدالله عليه السلام الكتاب بين يديه فلمّا أن قرأه قال ادعوا إلىّ جندب الخزاعى

و عكاشة الضّمرى و كانا شيخين قد ادركا الجاهليّة فرمي بالكتاب إليهما فقال تعرفان هذه الخطوط قالا نعم هذا خطّ العاص بن اُميّة و هذا خطّ فلان و فلان من قريش و هذاخطّ حرب بن اُميّة فقال هشام ياأباعبدالله أرى خطوطاجدادي عندكم فقال عليه السلام نعم ، قال قد قضيت الميراث بالولاء لك قال فخرج عليه السلام و هو يقول :

ان عادت العقرب عدنا لها ✡ وكانت النّعل لها حاضرة

قال فقلت ماهذا الكتاب جعلت فداك فقال عليه السلام ان نثيلة كانت امة لاُمّ الزبير ولأبي طالب و عبدالله فاخذها عبد المطّلب فاولدها فلاناً فقال له الزّبير هذه الجارية ورثناها من امّنا و ابنك هذا عبد لنا فتحمل عليه ببطون قريش قال فقال اجبتك على خلّة على ان لايتصدّر ابنك هذا في مجلس ولا يضرب معنا بسهم وكتب عليه كتاباً و أشهد عليه فهو هذا نقلا عن شرح قصيدة أبي فراس .

قال المأمون : لأبي على المعروف بأبي يعلى المنقرى بلغني أنّك اُمّي وانّك لاتقيم الشعر و انّك تلحن في كلامك فقال ياامير.:. اما اللّحن فربما سبقني لساني بالشّيء منه و أمّا الاميّة و كسر الشّعر فقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله اُميّاً و كان لاينشد الشّعر قال المأمون سألتك عن ثلاث عيوب فيك فزدت عيباً رابعاً و هو الجهل ياجاهل ان ذلك في النبيّ صلى الله عليه وآله فضيلة و فيك وفي أمثالك نقيصة و إنّما منع ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله لنفي الظنّة عنه لالعيب في الشّعر والكتاب وقد قال الله تعالى **و ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون .**

و هذا كما قال احد البصريّين في تعليل اميّة الرسول الكريم ان الله إنّما جعله اُميّاً لايكتب ولا يحسب ولاينسب ولايقرّض الشّعر ولايتكلّف الخطابة ولايتعمّد البلاغة لينفرد الله بتعليمه الفقه واحكام الشّريعة ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ماتتباهي به العرب من قيافة الأثر و عيافة الطّير و من العلم بالأنواء و بالخيل و بالأنساب و بالأخبار و تكلّف قول الأشعار ليكون إذا جاء القرآن الكريم و الكتاب الحكيم و تكلّم بالكلام العجيب كان ذلك أدلّ على أنّه من الله . . . و زعما انّ الله لم يمنعه معرفة آدابهم و أخبارهم و أشعارهم ليكون انقص حظاً من الحاسب و الكاتب ومن

الخطيب و النّاسب ولكن ليجعله نبياً و ليتولّى أمر تعليمه بما هو أزكى و أنمى ، فإنّما نقصه ليزيده و منعه ليعطيه و حجبه عن القليل ليجلّى له الكثير .

وقد تولّى شيخ أدباء العرب أبوعثمان الجاحظ نقض هذا الكلام فقال وقدأخطأ هذا الشّيخ ولم يرد إلاّ الخير وقال بمبلغ علمه و منتهى رأيه ولوزعم ان أداة الحساب و الكتابة واداة قريض الشّعر و جمع النّسب قد كانت فيه تامّة وافرة مجتمعة كاملة و لكنّه صرف تلك القوى و تلك الاستطأعه إلى ما هو أزكى بالنبوّة و اشبه بمرتبة الرّسالة و كان اذا احتاج إلى البلاغة كان ابلغ البلغاء و إذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء وانسب من كلّ ناسب و أقوف من كلّ قائف ولوكان في ظاهره والمعروف من شأنه إنّه كاتب حاسب و شاعر ناسب ومتفرّس قائف ثم أعطاه الله برهانات الرّسالة وعلامات النبوّة لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه و لزوم طاعته و الانقياد لأمره على سخطهم و رضاهم و مكروههم و محبوبهم ولكنّه أراد ألاّ يكون للشّاعر متعلّق عمّا دعا إليه حتّى لايكون دون المعرفة بحقّه حجاب وإن رقّ و ليكون ذلك اخفّ في المؤنة و أسهل في المحنة فلذلك صرف نفسه عن الامور الّتي كانوا يتكلّفونها و و يتنافسون فيها فلمّا طال هجرانه لقريض الشّعر و روايته صار لسانه لاينطق به و العادة توأم الطّبيعه ، فامّا في غير ذلك فانّه إذا شاء كان أنطق من كلّ منطيق و انسب من كلّ ناسب و اقوف من كلّ قائف و كانت آلته اوفروأداته اكمل . . . إلاّ انّهاكانت مصروفة إلى ماهو ابعد وأنسبفبين أن يضيف إليه العادة الحسنة ، وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له فرق . . و من العجب أنّ صاحب هذهالمقالة لم يره في حال معجزة قطّ بل لم يره إلاّ و هو إن اطال الكلام قصر عنه كل مطيل و ان قصر القول اتى على غاية كلّ خطيب وما عدم منه إلاّ الخط و إقامة الشعر فالجاحظ هنا يحامى عن معرفة النبيّ لآداب العرب و عن إلمامه بما كان فخرقومه و محلّ نبوغهم و لما كان أعزّ ما يفتخر به العرب هو البيان فانّه لم يمنع النبيّ مانع اذا أراد البلاغة أن يكون ابلغ البلغاء و إذا أراد الخطابة أن يكون اخطب الخطباء .

و هذا دفاع عن النبيّ الأعظم في معرض مافهم أحد علماء البصرة من اميّة محمّد

وهو دفاع رجل كان يحبّ حياته للأدب بل يهب حياته له وكان يعني بأدب الرّسول و يصف كلامه حين يقول هو [١] الكلام الّذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصّنعة و نزّه عن التكلّف وكان كما قال الله «وما انا من المتكلّفين» فكيف وقد عاب التّشديق و جانب اصحاب التّقعير واستعمل المبسوط في موضع البسط و المقصور في موضع القصر وهجر الغريب الوحشيّ و رغب عن الهجين السوقى فلم ينطق الا عن ميراث حكمة ولم يتكلّم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة و شيّد بالتأييد و يسّر بالتّوفيق وهذا الكلام الّذي ألقى الله المحبّة عليه وغشّاه بالقبول و جمع له بين المهابة و الحلاوة و بين حسن الافهام وقلّة عدد الكلام و مع استغنائه عن إعادته و قلّة حاجة السّامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة ولا زلّت له قدم ولا بارت له حجّة ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطّوال بالكلام القصير، ولا يلتمس إسكات الخصم إلاّ بما يعرفه الخصم، ولا يحتجّ الا بالصّدق، ولا يطلب الفلج الا بالحقّ، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المؤاربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطىء، ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر، ثمّ لم يسمع الناس بكلام قطّ، اعمّ نفعاً، ولا اصدق لفظاً، ولا اعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا اكرم مطلباً ولا احسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحواه من كلامه ﷺ كثيراً . والّذي وصف به الجاحظ كلام الرّسول حقّ من جهة انّ الحكمة تقضي إنّه لا يكتب ولا يقرء ولكن ماقدّره حقّ قدره لأنّه قاسه بنفسه وقال في النبيّ الاعظم ما يناسب شخصه لا مرتبة الرّسالة المحمديّة فهو ﷺ بلغ ما بلغ و علم ماعلم في مكتب وعلّمناه من لدنّا علماً و إن شئت فقل في مكتبة و علّمك مالم تكن تعلم و لكن لا يرى مصلحة نفسه فيتجاهل فهو يقرء ويكتب ولكن ليس له مكتب ومعلّم .

أليس يدرى أنّه ﷺ دعا بالقلم وقال ائتوني بدواة وقرطاس حتّى أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعدي ابداً وهذا في صحيح البخاري حدّثنا يحي بن سليمن قال حدّثني ابن وهب قال اخبرني يونس عن ابن شهاب عبيدالله بن عبد الله عن بن عبّاس قال لمّا اشتدّ النبيّ وجعه قال ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده قال عمر، ان النبيّ ﷺ غلبه

(١) البيان ج ٢ ص ٢٨ .

الوجع و عندنا كتاب الله حسبنا فاختلفوا و كثر اللغط قال قوموا عنّي ولا ينبغي عندي التنازع فخرج ابن عباس يقول انّ الرزيّة كلّ الرزيّة ماحال بين رسول الله ﷺ و بين كتابه . و هذا صريح في انّه ﷺ يريد الكتابة بنفسه و العجب ان الخليفة الثاني لم يقل انّه مايقدر علي الكتابة وكلّ من يقول غيرهذا هواجتهادفي مقابل النصّ و صار هذا محور الخلاف و مدار الاختلاف حتّى يقول بعضهم انّه ﷺ لم يكتب ابداً و بعضهم فصّل بين قبل البعثة و بعد النبوّة فالوصف بكونه اميّاً وبقوله ما كنت تدري ما الكتاب نظراً إلى حاله قبل النبوّة .

التربية و التعليم العام ليت شعري كيف يرضى المسلم ان يقول انّ الرسول الأعظم لايقدر على الكتابة و الحال انّه اوّل من سنّ الكتابة للأكابر لقد عامل المسلمون أسرى الحرب معاملة رحيمة غير مألوفة فاثرت في نفوس كثير منهم وعرفوا للإسلام نبله وقال أحدهم وقد اسلم فيما بعد معترفا بجميل ماعومل به و هو اسير انّ من وكلّ اليهم امره كانوا تقدّمون اليه افضل ما في دارهم من الطعام و يكتفى اهل البيت بالتّمر و الماء و على الرّغم من ان العداوة لم تنته ، فقد كان المسلمون يطلقون سراح اسراهم بمجرّد تسلّم الفدية من الاغنياء و كان يطلق سراح الفقراء بلا مقابل و كان على من يعرفون الكتابة و القراءة ان يعلّموا عشرة من المسلمين قبل اطلاق سراحهم واعتبرت هذه فدية كافية لاطلاق السراح و كانت الفدية ٤٠٠٠ درهم و على ذلك كان تعليم عشرة من المسلمين يساوي ٤٠٠٠ درهم و هذا دليل على تقدير النبيّ ﷺ للعلم والتعليم .

و كان النبيّ يحرّض المؤمنين على تعلّم اللغات الأخرى فشاعت الكتابة بين الصحابة و ابناء الصحابة و بها ضبط الوحي و حفظ القرآن فكانت كلّما نزلت آية كتبها الكاتبون في الحال و كذلك الحديث يكتب على عهد النبيّ على نحو ماكانوا يكتبون القرآن وقد رخّص النبيّ بكتابته كما امرهم بكتابة العلم مطلقا عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قلت يارسول الله أكتب كل مااسمع منك قال نعم قلت في الرضي والغضب قال نعم فاني لااقول في ذلك كلّه إلاّ حقاً .

لما فتحت مكّة قام رسول الله ﷺ فخطب فقام رجل من اليمن يقال له ابوشاة

فقال يارسول‌الله اكتبوا لي فقال ﷺ اكتبوا لأبي شاة .

هذه الاخبار تدلّنا على انّ الحديث كتب ان لم يكن كلّه فجلّه على عهد الرسول واصحابه الكرام و في عصر التّابعين و تابعيهم فقد كانت العناية بكتابة الاخبار أكثر واقبل الناس على اقتناء الكتب قال ﷺ نعم العطيّة ونعم الهديّة كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثمّ تحملها إلى أخ لك مسلم تعلّمه إيّاها تعدل عبادة سنة .

و خرج رسول الله ﷺ ذات يوم فرأي مجلسين أحدهما يدعون الله عزّ وجلّ يرغبون إليه و الثاني يعلّمون النّاس فقال أمّا هؤلاء فيسألون الله تعالى فان‌شاء اعطاهم وان شاء منعهم و أمّا هؤلاء فيعلّمون النّاس و انّما بعثت معلّماً ثمّ عدل إليهم و جلس معهم (١) .

وما انفكّ الرّسول من استشارة أهل الرأي و البصيرة و من شهد لهم بالعقل و الفضل و أبانوا عن قوّة ايمان وتفان في بثّ دعوة الاسلام منهم حمزة وجعفروابن‌مسعود و سلمان و عمّار و حذيفة و أبوذر و المقداد و سمّوا النّقباء لانّهم ضمنوا للرّسول اسلام قومهم و النّقيب الضمّين و كان له عرفاء أي رؤساء جند و يكتب له بعض أجلّة الصّحابة من الكملة وهم الّذين كانوا في الجاهليّة و الاسلام يكتبون بالعربيّة ويحسنون العوم والرّمي . وبلغ كتّاب الرسول اثنين واربعين رجلاً وكان صاحب سرّه حذيفة بن اليمان وفي هذا قصّة طريفة نأتي بها هنا لك للعبرة واوّل كتاب قرأت فيه هذه القصّة مسند الامام أحمد بن حنبل . عن محمّد بن كعب القرطى قال قال فتيً منّا من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان ياأباعبدالله رأيتم رسول‌الله وصحبتموه ، قال نعم يابن أخي قال فكيف كنتم تصنعون قال‌والله لقد كنّا نجهد قال والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض و لجعلناه على اعناقنا قال فقال حذيفة ، يابن أخي و الله لقد رأيتنا مع رسول الله بالخندق و صلّي رسول الله من اللّيل هويّاً ثمّ التفت إلينا فقال من رجل يقوم فينظر لنا مافعل القوم يشترط له رسول‌الله انّه يرجع أدخله الله الجنّة فما قام رجل ثمّ صلّي رسول الله ﷺ هويّاً من اللّيل ثمّ التفت إلينا فقال من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل

(١) احياء العلوم الغزالى .

القوم ثمّ يرجع يشرط له رسول الله الرّجعة اسأل الله أن يكون رفيقي في الجنّة فما قام رجل من القوم مع شدّة الخوف و شدّة الجوع و شدّة البرد فلمّا يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بدّ من القيام حين دعاني فقال لي ياحذيفة فاذهب فادخل في القوم انظر مايفعلون ولا تحدثنّ شيئاً حتّى تأتينا قال فذهبت فدخلت في القوم و الرّيح و جنود الله تفعل ماتفعل لاتقرّ لهم قدر ولا نار ولا بناء فقام أبوسفيان بن حرب فقال يامعشر قريش لينظر امرؤ من جليسه فقال حذيفة فاخذت بيد الرّجل الّذي إلى جنبى فقلت من أنت قال أنا فلان ابن فلان ثمّ قال أبوسفيان يامعشر قريش إنّكم و الله ماأصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع و اخلفتنا بنو قريظة بلغنا منهم الّذي نكره و لقينا من هذه الرّيح ماترون والله ماتطمئنّ لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فانّي مرتحل ثمّ قام إلى جمله و هو معقول فجلس عليه ثمّ ضربه فوثب على ثلاث فما أطلق عقاله إلّا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ لاتحدث شيئاً حتّى تأتيني ثمّ لوشئت لقتلته بسهم قال حذيفة ثمّ رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي في مرط لبعض نسائه مرحل فلمّا رآني ادخلني إلى رحله و طرح عليّ طرف المرط ثمّ ركع وسجد وانّه لفيه فلمّا سلّم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بمافعلت قريش وانشمروا إلى بلادهم.

اخرج الذهبي في تذكرة الحفّاظ أنّ أبابكر كتب أكثر من اربعمأة حديث واخرج ابن عبد البرّ عن معن قال اخرج اليّ عبد الرّحمن بن عبد الله بن مسعود كتاباً وحلف انه بخط ابيه بيده.

و خلاصة القول إنّ الإختلاف فيه كما قال احمد بن حنبل كرهه قوم ورخّص فيه آخرون قال اسحق بن منصور فقلت له لولم يكتب العلم لذهب قال نعم لولاكتابة العلم أيّ شيء كنّا قال أبوزرعه سمعت أحمد بن حنبل و يحيى بن معين يقولان كلّ من لايكتب العلم لايؤمن عليه الغلط وذكر المبرّد قال قال الخليل بن احمد ما سمعت شيئاً إلّا كتبته ولاكتبته الاحفظته ولا حفظته إلّانفعنى و قال بعضهم يعيبون علينا الكتاب وقد قال الله، علمها عند ربّي في كتاب ، واستدل غيره بأنّ تعلّم الكتابة و اخراج العرب من

حجر الاميّة الغالبة عليهم إلى بحبوحة العلم من مقاصد الاسلام و بعثة النبيّ لقوله تعالى هوالّذي بعث في الامّيين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة فالكتاب مصدر كتب كالكتابة .

روي ابن النجّار في كتابه و تاريخه من حديث حذيفة اكتبوا العلم قبل ذهاب العلما و انّما ذهاب العلم بموت العلماء .

تقدير العلم و العالم انّ رجلاً من العلماء كلّم بعض النّصاب فافحمه بحجّته حتّى أبان عن فضيحته فدخل إلى عليّ بن محمّد وفي صدر مجلسه دست عظيم منصوب و هو قاعد خارج الدّست و بحضرته خلق من العلويّين و بني هاشم فما زال يرفعه حتّى اجلس في ذلك الدّست و أقبل عليه فاشتدّ ذلك على اُولئك الأشراف فأمّا العلويّة فأجلّوه عن العتاب و أمّا الهاشميّون فقال له شيخهم يا بن رسول الله هكذا تؤثر عاميّاً على سادات بني هاشم من الطالبيّين و العبّاسيين فقال عليه السلام إيّاكم و أن تكونوا من الّذين قال الله تعالى ألم تر إلى الّذين اوُتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثمّ يتولّى فريق و هم معرضون أترضون بكتاب الله حكماً قالوا بلى قال أليس الله يقول : « ياأيّها الّذين آمنوا إذا قيل لكم تفسّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » إلى قوله «و الّذين اوتوا العلم درجات » فلم يرض للعالم المؤمن إلّا أن يرفع على المؤمن غير العالم كما لم يرض للمؤمن إلّا أن يرفع على من ليس بمؤمن أخبرني عنه قال « يرفع الله الّذين آمنوا منكم و الّذين اُوتوا الم درجات » أو قال « يرفع الله الّذين اُوتوا شرف النسب درجات » أو ليس قال الله « هل يستوي الّذين يعلمون و الّذين لايعلمون » فكيف تنكرون رفعي لهذا لمّا رفعه الله إن كسر هذا الفلان النّاصب بحجج الله الّتي علمه إيّاها لأفضل له من كلّ شرف في النّسب فقال العبّاسى يا بن رسول الله قد أشرفت علينا من هو ذا تقصير بنا عمّن ليس له نسب كنسبنا وما زال منذ اوّل الاسلام يقدّم الأفضل في الشّرف على من دونه فيه فقال عليه السلام سبحان الله أليس عبّاس بايع لأبي بكر و هو تيميّ و العبّاس هاشميّ أو ليس عبدالله بن عبّاس كان يخدم عمر بن الخطّاب وهو هاشميّ أبو الخلفاء و عمر عدويّ وما بال عمر ادخل البعداء من قريش

في الشّورى ولم يدخل العبّاس فان كان رفعنا لمن ليس بهاشميّ على هاشميّ منكراً فانكروا على العباس بيعته لأبي بكر و على عبد الله بن عبّاس خدمته لعمر بعد بيعته فإن كان ذلك جايزاً فهذا جايز فكانّما القم الهاشمي حجراً .

وقال أبو محمّد العسكري عليه السلام في قوله تعالى ومنهم امّيون لا يعلمون الكتاب إلّا أمانيّ منسوب إلى امّه أي هو كما خرج من بطن اُمّه لا يقرء ولا يكتب لا يعلمون الكتاب المنزل من السماء ولا المكذّب به ولا يميّزون بينهما إلّا اماني إلّا أن يقرء عليهم ويقال لهم إنّ هذا كتاب الله وكلامه لا يعرفون ان قرأ من الكتاب خلاف مافيه و إن هم إلّا يظنّون أي ما يقرأ عليم رؤساهم من تكذيب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في نبوّته وإمامة عليّ سيّد عترته وهم يقلّدونهم مع انّه محرّم عليهم تقليدهم فويل للّذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله تعالى هذا القوم اليهود كتبوا صفة زعموا انّها صفة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وهي خلاف صفته وقالوا للمستضعفين منهم هذه صفة النّبي المبعوث في آخر الزمان انّه طويل عظيم البدن و البطن اهدف اصهب الشّعر ومحمّد صلى الله عليه وآله وسلم بخلافه و هو يجيء بعد هذا الزّمان بخمس مأة سنة وإنّما أرادوا بذلك لتبقى لهم على ضعفائهم رياستهم وتدوم لهم أصاباتهم ويكفّوا أنفسهم مؤنة خدمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخدمة عليّ وأهل خاصّته فقال الله عزّ وجلّ فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون من هذه الصّفات المحرّفات و المخالفات لصفة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و عليّ عليه السلام الشدّة لهم من العذاب في اسوء بقاع جهنّم وويل لهم الشدّة في العذاب ثانية مضافة إلى الاُولى بما يكسبونه من الأموال الّتي يأخذونها إذ اثبتوا عوامهم على الكفر بمحمد رسول صلى الله عليه وآله وسلم والجحد لوصيّه أخيه عليّ بن أبي طالب وليّ الله ثمّ قال عليه السلام قال رجل للصادق عليه السلام فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّا بما يسمعونه من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره فكيف ذمّهم بتقليدهم و القبول من علمائهم وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلّدون عليهم فقال عليه السلام بين عوامنا و علمائنا و بين عوام اليهود و علمائهم فرق من جهة و تسوية من جهة أمّا من حيث استووا فإنّ الله ذمّ عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذمّ عوامهم و أمّا من حيث افترقوا فلا قال بيّن لي يا بن رسول الله قال عليه السلام انّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا

علماءهم بالكذب الصرّاح وبأكل الحرام والرّشاء وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات و المصانعات و عرفوهم بالتعصّب الشّديد الّذي يفارقون به أديانهم و أنّهم إذا تعصّبوا ازالوا حقوق من تعصّبوا عليه واعطوا مالا يستحقّه من تعصّبوا لهمن أموال غيرهم وظلموهم من أجلهم و عرفوهم يقارفون المحرّمات واضطرّوا بمعارف قلوبهم إلى انّ من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز قبول خبره ولا تصديقه في حكايته ولا العمل بما يؤدّيه إليهم عمّن لم يشاهدوه ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله صلى الله عليه وآله إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى و اشهر من أن لا تظهر لهم و كذلك عوام أُمّتنا إذا عرفوا من فقهائهم الفسق الظاهر و العصبيّة الشّديدة و التّكالب على حطام الدنيا و حرامها و اهلاك من يتعصّبون عليه و إن كان لإصلاح امره مستحقّاً وبالترفرف بالبرّ والإحسان على تعصّبوا له وإن كان للإذلال والاهانة مستحقّاً فمن قلّد من عوامنا مثل هؤلاء الفقهاء منهم مثل اليهود الّذين ذمّهم الله بالتقليد لفسقة فقهائهم فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً على هواه مطيعاً لامر مولاه فللعوام أن يقلّدوه وذلك لايكون إلاّ بعض فقهاء الشيعة لا جميعهم فإنّه من ركب من القبايح والفواحش مراكب فسقة فقهاء العامّة فلا تقبلوا منهما عنّا شيئاً ولا كرامة و إنّما كثر التخليط فيما يتحمّل عنّا أهل البيت لذلك لأنّ الفسقة يتحمّلون عنّا فيحرّفونه باسره بجهلهم و يضعون الأشياء غير وجهها لقلّة معرفتهم وآخرين يتعمّدون الكذب علينا ليجرّوا من عرض الدنيا ما هو زادهم إلى نار جهنّم و منهم قوم نصّاب لا يقدرون على القدح فينا يتعلّمون بعض علومنا الصحيحة فيتوجّهون به عند شيعتنا و ينتقصون بنا عند نصّابنا ثمّ يضيفون إليه اضعافه واضعاف اضعافه من الأكاذيب علينا الّتي نحن برآء منها فيتقبّله المستسلمون من شيعتنا على أنّه من علومنا فضلّوا وأضلّوا وهم اضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين عليه السلام وأصحابه فانّهم يسلبونهم الأرواح والأموال وهؤلاء علماء السوء النّاصبون المتشبّهون بأنّهم لنا موالون ولاعدائنا معادون يدخلون الشك و الشبهة على ضعفاء شيعتنا فيضلّونهم و يمنعونهم عن قصد الحق المصيب لاجرم انّ من علم الله من قلبه من هؤلاء القوم انّه لايريد الاّ صيانة دينه وتعظيم وليّه لم يتركه في يد

هذا المتلبّس الكافر ولكنّه يقيّض له مؤمناً يقف به على الصّواب ثمّ يوفّقه الله للقبول منه فيجمع له بذلك خير الدُّنيا والآخرة ويجمع على من اضلّه لعن الدُّنيا و عذاب الآخرة ثمّ قال قال رسول الله ﷺ شرار علماء امّتنا المضلّون عنا القاطعون للطرّق إلينا المسمّون اضدادنا بأسمائنا الملقّبون اندادنا بألقابنا يصلّون عليهم وهم للّعن مستحقّون ويلعنونا ونحن بكرامات الله مغمورون وبصلوات الله وصلوات ملائكته المقرّبين علينا عن صلواتهم علينا مستغنون ثمّ قال قيل لأمير المؤمنين عليه السلام من خير خلق الله بعد أئمّة الهدى ومصابيح الدُّجى قال العلماء إذا صلحوا قيل فمن شرار خلق الله بعد إبليس وفرعون ونمرود وبعد المتسمين بأسمائكم و المتلقّبين بألقابكم والاخذين لامكنتكم و المتأمّرين في ممالككم قال العلماء إذا فسدوا هم المظهرون للأباطيل الكاتمون للحقايق وفيهم قال الله عزّ وجلّ أُولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاّعنون .

الشيعية والسنية شهد الله والنّبي الأكرم إنّ من أثقل الأشياء على لساني وقلمي أن يقرن بين كلمتي سنّي و شيعي تتقارنان تقارن افتراق و تتّصلان اتّصال تنافر كقطبي المغناطيس المتماثلين وقد خلقت لهما السياسة الغاشمة هذا التنافر الشّائن يوم خلقت وآن لنا أن نخجل امام الله ورسوله من استمرارنا على هذا الشنآن بين أعداء تستمرّ على مطاردتنا وتستغلّ افتراقنا وما اجدرنا اليوم أن نضرب على هاتين الكلمتين في قاموس اللّغة و نستريح ونعود أُمّة اسلاميّة واحدة كما أرادها الرّسول أو كما قال الله . **و اعتصموا بالله جميعاً ولا تفرقوا ـ ولا تكونوا كالذين تفرقوا .**

نحن نفهم من كلمة الشّيعة إذا قلناها الإماميّة الاثنى عشريّة خاصّة لأنّهم الاكثريّة من بين فرق شتّى وذو والمؤلّفات والمعارف الّتي يقال عنها مؤلّفات الشيعة و معارفها ولأنّهم اليوم شيعة العراق و سوريا و إيران و الإمارات العربيّة على الخليج الفارسي وهند و باكستان و أفغانستان ، و هناك الزّيديّة في اليمن والبهرة في هند أمّا الفرق الاخرى الّتي يعدّدها مثل الشهرستاني في الملل والنّحل وغيره في غيره، فقد اصبحت في خبر كان ولا يعرف لها أيّ أثر في هذه البلاد المترامية الاطراف إلّا بعض فرق لا يسمع لها حسيس في المجتمع الشيعي ولا غيره كالغالية فإذا طوّح القلم بالكاتب اليوم عن

الشّيعة وقرء ماكتبه السّلف عنهم خلط الحابل بالنابل وألصق عقايد تلك الفرق البائدة بعامّة الشيعة و على الاصح بالشيعة بالمعنى المفهوم الآن فكانوا في نظره مرجئة و غالية ومجسّمة و مجبّرة وما إلى ذلك .

وما أجدر الكتّاب أن يتنبّهوا اليوم لهذه النّاحية فلايثيروا كوامن احقاد شائنة بذرتها السّياسة لأغراضها في زمن بعيد لسنا أبناءه و عند ذلك قد نوفّق إلى التّفاهم فالتّقارب حيث تفرضه الاخوّة الإسلاميّة ويكون بحثنا نزيها يتّطلب الحقيقة ليس إلاّ ليتلقّى الطرفان نتايجه بصدر رحيب كما يتلقّون النتايج في أيّ بحث علميّ وتاريخي وكما يقع البحث بين علماء الشيعة أنفسهم وبين مذاهب السّنّة أنفسها مادامت السياسة بعيدة عنه ففي استطاعة الجمعتّين أن يقفا في ملتقى الطريقين ليأخذا بأيدي الفريقين إلى الحدّ المعقول ندعو إلى هذا عقلاء قومنا ليضعوا حدّاً لهذه المهازل و ليقارّوا على خطّة واحدة لحلّ الخلافات و عندي أن يسدل حجاب غليظ على الماضي البعيد فيما يعود إلى الحوادث التاريخيّة الّتي لاتمسّ حياتنا العلميّة اليوم فينحصر في نقطة علميّة لاغنى لنا عنها .

كلّ ماعند الشيعة انّها تتمسّك بعترة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم لانّهم سفينة النّجاة ولكن ليس كعقيدة وموالاة فحسب فانّ هذه عقيدة كلّ مسلم اعتنق دين الاسلام مصدّقاً لماجاء به النبيّ وإنّما نعني من التمسّك بهم أن نأخذ بأقوالهم في أحكام الفقه و نرجع إليهم في دين الإسلام ولا نعرف للتمسّك بهم معنى غير هذا وندلّل على أنّ ما جاء به النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ورثوه عنه وعلمه مكنوز عندهم وهم امناء عليه معصومون لا كسائر الرّواة عنه وعنهم يروون الأحاديث كنقّال يخطؤن في النقل و يصيبون و يصدقون و يكذبون وبهذا بعدت الشقّة العمليّة بينهم وبين إخوانهم أهل السنّة و كثر الخلاف في الفروع الفقهيّة فكان وضوء السّنة ووضوء الشيعة و صلاة السنّة وصلاة الشيعة فان استطعنا ان نتفق وكلّ هذا اللّغز بيننا حلاًّ مرضياً فقد وفّقنا إلى كلّ شيء واستطعنا ان نوجّه جبهة الاسلام كما يشاء ديننا القويم وما هذا على الرّجال المخلصين بعزيز .

الانسان والاجتماع تقوم شرايع الاسلام وآدابه على اعتبار الفرد جزءاً لا ينفصم من كيان الأمّة وعضواً موصولاً بجسمها لا ينفكّ عنها فهو طوعاً أو كرها يأخذ نصيبه ممّا يتوزّع على الجسم كلّه من غذاء ونموّ وشعور وقد جاء الخطاب الالهي مقرّراً هذا الوضع فلم يتّجه للفرد وحده بالأمر و النهي انّما تناول الجماعة كلّها بالتّأديب والارشاد ثمّ من الدّرس الّذي يلقى على الجميع يستمع الفرد و ينتصح . و هكذا اطّرد سياق التّشريع في الكتاب و السّنّة يا أيّها الّذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربّكم و افعلوا الخير لعلّكم تفلحون . وجاهدوا في الله حقّ جهاده .

فإذا وقف المسلم بين يدي الله ليناجيه و يتضرّع اليه لم تجر العبادة على لسانه كعبد منفصل عن إخوانه بل كطرف من مجموع متّسق مرتبط يقول ايّاك نعبد وايّاك نستعين وفيه نكتة ذكرها الفخر الرّازي في تفسيره الكبير انّه قد ورد في الشريعة المطهّرة ان من باع اجناساً مختلفةً صفقة واحده ثمّ خرج بعضها معيباً فالمشتري مخيّر بين ردّ الجميع و امساكه و ليس له تبعيض الصفقة بردّ المعيب وابقاء السّليم و ههنا حيث يرى العابد ان عبادته ناقصة معيبة لم يعرضها وحدها على حضرة ذي الجلال بل ضمّ اليها عبادة جميع العابدين من الأنبياء و الاولياء و الصلحاء و عرض الكلّ صفقة واحدة راجياً قبول عبادته في الضّمن لانّ الجميع لا يردّ البتّة اذ بعض العبادات مقبولة و ردّ المعيب و ابقاء السّليم تبعيض للصفقة وقد عفي عنه سبحانه عباده فكيف يليق بكرمه العظيم فلم يبق إلّا قبول الجميع وهو المراد .

ثمّ يسأل الله من خيره و هداه فلا يختصّ نفسه بالدّعاء بل يطلب رحمة الله له ولغيره « اهدنا الصّراط المستقيم » صراط الّذين انعمت عليهم انّ الله لم يخلق النّاس لينقسموا و يختلفوا. لقد شرع لهم ديناً واحداً وارسل أنبيائه تترى ليقود النّاس كافّةً في طريق واحدة و حرّم عليهم من الازل ان يصدعوا الدين و ان يتفرّقوا حوله عزين بيد انّ الشّهوات النفسانيّة والميول الشيطانيّة تناست هذه الوصيّة الكريمة وتنكّرت للتّراث الالهي العظيم فانقسم النّاس أحزاباً وصار كلّ حزب يكيد للاخر و يتربّص به قال الله تعالى يا ايّها الرّسل كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً انّي بما تعملون عليم

و انّ هذه امّتكم امّة واحدة وانا ربّكم فاتّقون فتقطّعوا أمرهم بينهم زبراً كلّ حزب بما لديهم فرحون ، فذرهم في غمرتهم حتّى حين .

و بين الله عزّ وجلّ لن اتّباع الهوى ومطاوعة البغي هوسرّ هذا الافتراق الواسع و قال سيّدنا عليّ انّ أخوف ماأخاف عليكم اثنان اتّباع الهوى وطول الامل .

العلم عند ماينفصل عن العمل و الفضل عن الفضيله و الثقافة عن الخلق و الملكة الفاضلة و الدّين عن الاخلاص يمسى وبالاً على أهله و على النّاس وقد كان الناس قبل الدّين يجعلهم الجهل في شعابه الجايرة فلمّا جاء الدّين واستبدّ به دهاقينه و تاجروا بعلومه لأنفسهم ومطامعهم تاهت جماهير الشّعوب في سبل جايرة .

الفضل و الفضيلة او العلم و العمل

انّ العلم قد يكون سلاحاً فتّاكا و قوّة هدّامة تدمّر الحضارة و تعود بالانسانيّة إلى ظلمه التوحّش و البربريّة و وسيلة ارعاب النّاس و خوفهم على أرواحهم و اموالهم و تجعلهم في جزع مستمرّ .

و قد يكون العالم قوّة منتجة واداة تطوّر الحياة و تقدّمها و الاسلام يحدّد موقف العلم أو يعيّن مسؤوليّة من في أيديهم قوّة العلم و وسائله و يوجب عليهم ان يستخدموها للحياة لا للمات انّ الاسلام يحثّ على العلم و يرفع من شأن العاملين به «هل يستوي الّذين يعلمون الّذين لا يعلمون يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا العلم درجات وقال الامام على عليه السلام العلم دين يدان به أي انّ العلم حقّ و على كلّ انسان ان يدين بالحقّ ويعمل به وانّما يكون العلم حقّاً و ديناً مقدّساً اذا خلقنا خلقاً جديداً ينهض بنا إلى حياة أفضل كما خلق الاسلام مجتمعاً جديداً في التفكير و المعيشة و السلوك أمّا العلم الّذي ينتهي بنا إلى سوء المصير فقد تعوّذ منه الأنبياء و المصلحون كما تعوّذوا من الشيطان الرّجيم بل تعوّذوا من علم لا نفع فيه قال النبيّ الأعظم أعوذ بالله من علم لا ينفع و قلب لا يخشع و نفس لا تشبع فما قولكم بالعلم إذا صار آلة للصوصيّة أجل إنّ القلب الخرب يجعل من العلم سلاحاً بفساد وقد تأذّي العالم في القديم والحديث من هذا العلم المدمّر و نبّأنا الله عزّ وجلّ انّ العلماء بألسنتهم لا بأفئدتهم هم الّذين مزّقوا

شمل البشر قال الله تعالى شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً والّذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى و عيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء و يهدي إليه من ينيب ثمّ قال وما تفرّقوا إلاّ من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم وما اختلف فيه إلاّ الّذين اوتوه من بعد ماجاءتهم البيّنات بغياً بينهم فانظر إلى ضرارة العلم عندما يفقد الاخلاص لله و الرّفق بالعباد كيف يثير الفرقة و يقطع ماامر الله به ان يوصل ان اختلاف الافهام واشتجار الاراء ليس بمستغرب في الحيات ولكن ليس هذا سبب التقاطع و الشقاق انّما يعود سبب الشّقاق إلى انضمام عوامل اخرى تستغلّ تباين الانظار والأفكار للتّنفيس عن اهواء باطنة و من ثمّ ينقلب البحث عن الحقيقة إلى ضرب من العناد لاصلة له بالعلم البتّة ولو تجرّدت النيّات للبحث عن الحقيقة واقبل روّادها وهم بعداء عن طلب الغلب والسّمعة والرّياء والرّياسة والشّراء لصفّيت المنازعات الّتي ملأت التاريخ بالأكدار والمآسي .

وقد لحظنا أنّ هناك توافه ضخم الخلاف فيها وامتدّ . لأنّ هذا الخلاف اقترن ابتداء بمنافع سياسيّة على حين انكمش الخلاف في مسائل هامّة و تركت وجهات النظر تربو حيث شاعت لأنّ نتايج هذا الخلاف نظريّة بحتة ولمّا كان هذا الاختلاف المغرض مفسداً للدّين و الدّنيا اعتبره الاسلام كفراً انّ الّذين فرّقوا دينهم و كانوا شيعاً لست منهم في شيء انّما أمرهم إلى الله ثمّ ينبّئهم بما كانوا يفعلون .

وحذّر الله المسلمين من الخلاف في الدين والتفرق في فهمه شيعا متناحرة متلاعنة كما فعل الاوّلون ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا و اختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات و اولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيضّ وجوه وتسوّد وجوه فأمّا الّذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ، ان ائتلاف القلوب و المشاعر واتّحاد الغايات والمناهج من أوضح تعاليم الاسلام و الزم خلال المسلمين المخلصين ولا ريب إنّ توحيد الصفوف و اجتماع الكلمة هما الدعامة الوطيدة لبقاء الأمّة و دوام دولتها و نجاح رسالتها و لئن كانت كلمة التّوحيد باب الاسلام فانّ توحيد الكلمة سرّ البقاء فيه و الابقاء عليه

و الضّمان الأوّل للقاء الله بوجه مشرق وصفحة نقيّة وقلب زكّي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم ان ّالعمل الواحد في حقيقته وصورته يختلف اجره اختلافاً كبيراً حين يؤديه الانسان وحيداً ومجتمعاً ان ركعتي الفجر اوركعات الظهر والعصر هي هي لم تزد شيئاً عند ما يؤثر المرء أداءها في جماعة عن أدائها فرادى وفي عزلة ومع ذلك فقد ضعف اجرها ماة مرّة أو يزيد عند ما يقف الانسان مع الجماعة بين يدي الله و هذا اعزاء شديد بالانضواء إلى الجماعة ونبذ العزلة ودفع بالانسان إلى الانسلاخ من وحدته والاندماج في امّته - إنّ الاسلام يكره للمسلم أن ينحصر في نطاق نفسه و ان يستوحش في تفكيره و احساسه و أن ينائى بمصلحته عن مصلحة الجماعة وحياتها .

و في الحديث ثلاث لا يغّل عليهن ّ قلب أمرء مؤمن اخلاص العمل لله و المناصحة لأئمّة المسلمين و لزوم جماعتهم ، فانّ دعائهم يحيط من وراءهم ولكي يمتزج المسلم بالمجتمع الّذي يحيى فيه شرع الله الجماعة للصّلوات اليوميّة و رّغب في حضورها و تكثير الخطا إليها ثمّ الزم أهل القرية الصّغيرة او الحيّ الأهل ان يلتقوا كلّ اسبوع لصلوة الجمعة ثمّ دعا إلى اجتماع اكبر في صلاة العيد جعل مكانه الارض بفضاء خارج البلد ثمّ اذّن إلى حشد اعظم و اضخم يضمّ الشّتات من المشرق و المغرب ففرض الحجّ و جعل له مكاناً معلوماً و زماناً معلوماً حتّى يجعل اللّقاء بين اجناس المسلمين أمراً محتوما .

و كان رسول الله ﷺ شديد التحذير من عواقب الاعتزال و الفرقة وكان في حلّه وترحا له يوصى بالتجمّع و الاتّحاد .

فقال ﷺ : الشيطان يهمّ بالواحد و الاثنين فاذا كانوا ثلاثة لم يهمّ بهم وقد رأي في سفره انّ القافلة عند ماتستريح يتفرّق أهلها هنا وهناك كأنّماليس بينهم رباط فكره هذا المنظر ونفرّ منه .

عن أبي ثعلبة كان النّاس اذا نزلوا منزلاً تفرّقوا فى الشّعاب والأودية فقال النبىّ ﷺ إنّ تفرّقكم هذا من الشيطان فلم ينزلوا بعد إلاّ انضمّ بعضهم إلى بعض حتّى يقال لوبسط عليهم ثوب لعمّهم و ذلك اثر امتزاج المشاعر و تبادل الحبّ و انسجام الصفوف

انّ النّاس إن لم يجمعهم الحقّ شعبتهم الباطل و اذا لم توحّدهم عبادة الرّحمن مزقّتهم عبادة الشيطان وإذا لم يستهوهم نعيم الاخرة تخاصموا على متاع الدنيا . . ولذلك كان التّطاحن المرّ من خصايص الجاهليّة المظلمة و من لادين له قال رسول الله ﷺ لاترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض يعنى انّ هذا العراك الدامى شأن الكافرين المنقسمين على أنفسهم احزاباً متناحرة عن اليمين والشمال عزين .

وقد لان الاسلام لإختلاف العقول و الأفهام و منح المخطى أجراً و المصيب أجرين ثمّ وسّع الجميع في كنفه الرّحب ماداموا مخلصين في طلب الحقّ حرّاصاً على معرفته و العمل به .

فانت ترى رحمة الله لاترتبط بنتايج الفكر قدر ارتباطها بصلاح القصد إنّ الله لاينظر إلى صوركم و إلى اعمالكم بل ينظر إلى قلوبكم و الى نيّاتكم فلم يضيق ذرع البشر بما وسعه دين الله ولم القسوة و الجفاء ، عندما امر رسول الله المجاهدين الخارجين من المدينه ألّا يصلّوا العصر إلّا في بني قريظه تأوّل بعضهم الامر على أن ذلك مالم يضع الوقت وصلّي في الطريق وامضى الاخرون النّص على ظاهره فصلّوا العصر في العتمة وقبل الرسول فهم الفريقين ثمّ صفّهم بإزاء العدوّ جيشاً واحداً .

ذلك روح الاسلام في علاج الخلاف العلمي وذلك ما لامحيص عنه عند ما يستقيم الضماير و القلوب امّا يوم يجعل الخلاف مصيدةً للدّنيا ينصبها العناد و البغض قد ضاعت الدنيا وضاع الدّين قبلها .

قال بعض أهل السنة ان قيل لاحد الشّيوخ ادرك المصلين في المسجد يوشك ان يتقاتلوا قال علام قيل بعضهم يريد ان يصلّى التراويح ثماني ركعات و البعض يريد صلاتها عشرين قال ثمّ ماذا؟ قيل هم في انتظار فتواك قال . الفتوى ان يغلق المسجد فلا تصلّى فيه تراويح البتّة لأنّها لاتعدوا أن تكون نافلة و وحدة المسلمين فريضة ولا قامت نافلة تهدم الفريضة .

ان الاخلاص لله و النّصح للدين ولعامّة المسلمين ابعد مايكون عن الشغب الّذي يحدث في امثال هذه الشؤون و تمشّيا مع تعاليم الاسلام في وقاية الامّة من غوايل الشّقاق

أفتى العلماء بأن تغيير المنكر لايلزم اذا كان يؤدّى الى مفسدة اعظم فإنّ بقاء المنكر ضرر ووقوع المفسدة ضرر أبلغ فيرتكب اخفّ الضّررين ألا ترى انّ الطبيب لايقدم عمل جراحة بالجسم إلّااذا رأي الجسم يطيق اجراءها فاذا رأي فيها خطراً على الحياة توقّف ولو بقيت العلّة .

و كان رسول الله ﷺ يبايع الأنصار على السمع و الطاعة في العسر و اليسر و المنشط و المكره وعلى اثره علينا ، يعني انّ المرء الصالح ينبغي ألّا يكترث لفقدان حظّه من الدّنيا فاذا أُهمل في اسناد منصب اوبخس في تقدير راتب لم يملأ الافاق صياحاً و شغباً فإنّ الغضب للدّنيا على هذا النّحو الشائن من شيم المنافقين ومنهم من يلمزمك في الصّدقات فإن اعطوا منها رضوا وان لم يعطوا منها اذاهم يسخطون ولو غلغلت النظر في كثير من الانقسامات لرأيت حبّ الدنيا والاثرة العمياء تكمن وراء هذه الخزارات و الاتّحاد قوّة و ليس ذلك في شؤون النّاس فقط انّه قانون من قوانين الكون فالخيط الواهى اذا انضمّ اليه مثله و مثله اضحى حبلا متيناً يجرّ الاثقال وهذا العالم الكبير ماهو الاجملة ذرّات متّحدة و قد شرح حكيم لأولاده هذا المعنى عند وفاته ليلقّنهم درساً في الاتحاد قدّم اليهم حزمة من العصيّ قد اجتمعت عيدانها فعجزوا عن كسرها فلما انفكّ الرّباط وتفرّقت الاعواد كسرت واحداً واحداً .

تابى الرّماح اذا اجتمعن تكسّراً و اذا افترقن تكسّرت آحاداً

ان الشّقاق يضعّف الامم القويّة ويميت الامم الضّعيفة ولذلك جعل الله اوّل عظة للمسلمين بعد انتصارهم في معركة بدر ان يوحّدوا صفوفهم و يجمعوا امرهم .

لما تطلّعت النفوس للغنائم تشتهى حظّها و تتنافس على اقتسامها نزلت الاية يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرّسول فاتّقوا الله واصلحوا ذات بينكم واطيعوا الله و رسوله ان كنتم مؤمنين ثم أفهمهم ان الاتّحاد في العمل لله هو طريق النّصر المحقّق والقوّة المرهونة و اطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .

و حذّرهم من ان يسلكوا في التّكالب على الدنيا و الحرص على غنائمها مسلك الّذين لا يرجون عند الله ثواباً ،ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء النّاس

و يصدّون عن سبيل الله ثمّ تلقى المسلمون في اُحد لطمة موجعة أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلا وردّتهم الى المدينة وهم يعانون الأمرّين من خزى الهزيمة وشماتة الكافرين لتنازعهم وانقسامهم و عصيانهم امرالله ورسوله ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسّونهم بإذنه حتّى اذافشلتم و تنازعتم في الأمر و عصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون منكم من يريد الدّنيا و منكم من يريد الاخرة ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكم .

ولوعقل المسلمون احوالهم في هذه المرحلة العصيبة من تاريخهم لاحسّوا بأن ما لحقهم من عار يعود إلى انحلال عراهم وتفرّق هواهم ان الهجوم الصليبيّ المعاصر والهجوم الصّهيوني الّذي جاء في أذياله لم ينجحا في ضعضعة الدولة الاسلاميّة و انتهاب خيرها إلاّ عقب ما مهّدا لذلك بتقسيم المسلمين شيعاً منحلّة واهية و دويلات متدابرة يثور بينها النزاع و تتسّع شقّته لغير سبب و سياسة الغرب في احتلال للشرق و تسخيره تقوم على « قاعدة فرق تسد » انّ الاسلام حريص على سلامة امّته و حفظ كيانها وهو لذلك يطفىء بقوّة بوادر الخلاف ويهيب بالافراد كافة ان يتكاتفوا على إخراج الأمّة من و رهات الشّقاق و مصايرة السوء « يدالله على الجماعة » ومن شذّ شذّ في النار .

و اعداء الاسلام يودّون ان يضعوا أيديهم على شخص واحد ليكون طرفا نائتا يستمكنون منه ويجذبون الامّة كلّها عن طريقه فلا جرم انّه يستأصل هذا النّتوء لينحّى الجماعة كلّها من اخطار لقائه و لذلك يقول رسول الله ستكون هنات و هنات فمن اراد ان يفرّق امر هذه الامة وهي جميع فاضربوه بالسّيف كائناً من كان .

و قال سيّدنا عليّ اميرالمؤمنين فمن دعاكم الى هذا الشعار فاقتلوه ولوكان تحت عمامتي هذه ، جرثومة الشقاق لاتولّد حتّى يولّد معها كل مايهدّد عافية الأمّة بالإنهيار و في الناس طبايع سيّئة قد تموت وحدها في ظلّ الوحدة الكاملة فاذانجمت بوادر الفرقة رأيت المتربّصين والمنتهزين يلتفّون حول اوّل ثائر ظاهر امرهم التجمّع حول مبدء وباطنه دون ذلك .

من أحسن الكفاية استحق الولاية من حقّ الفاضل ان يقدّم ومن حقّ ذى

الكفاية ان تستفيد الأمّة منه على انّ الرّجل مهما اوتى من فضل وكفاية فلن ينفع نفسه ولن تنتفع به امّته اذا كان مريضاً بحبّ الرّياسة فطالب الزّعامة يفوته توفيق الله و المرء الّذي يفوته توفيق الله مشؤوم ولو كان عبقرياً .

حقوق الفرد و الاجتماع : ليست هنا دواع معقولة تحمل الناس على ان يعيشوا اشتاتاً متناكرين بل ان الدّواعى القائمة على المنطق الحقّ والعاطفة السليمة تعطف البشر بعضهم على البعض و تمهّد لهم مجتمعا متكافلاً تسوده المحبّة و يمتّد به الامان على ظهر الارض والله عزّ وجلّ ردّ انساب النّاس و اجناسهم الى ابوين اثنين ليحصل من هذه الرّحم الماسّة ملتقى تتشابك عنده الصّلات وتستوثق يا أيّها الناس انّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا فالتّعارف اساس العلايق بين البشر وقد تطرأ عوائق تمنع هذا التّعارف الواجب من المضيّ في مجراه وامداد الحياة بآثاره الصالحة و في زحام البشر على موارد الرّزق و في اختلافهم على فهم الحقّ و تحديد الخير قد يثور نزاع و يقع صدام بيد انّ هذه الاحداث السّيّئة لا ينبغي ان تنسى الحكمة المنشودة من خلق الناس و عمارة الارض بجهودهم المتناسقة .

و كلّ رابطه توطّد هذا التّعارف و تزيح من طريقه العوائق فهي رابطة يجب تدعيمها و الانتفاع بخصائصها و ليس للاسلام رابطة تجمع بين عدد قلّ أو كثر من النّاس فحسب و لكنّه جملة الحقايق الّتي تقر الأوضاع الصّحيحة بين الناس و ربّهم ثمّ بين الناس أجمعين .

و من ثمّ فاصحاب الاسلام وحملة رسالته يجب ان يستشعروا جلال العقيدة الّتي شرح الله بها صدورهم و جمع عليها أمرهم و ان يولوا التّعارف عليها ماهو جدير به من عناية واعزاز انّه تعارف يجدّد مادرس من قرابة مشتركة بين الخلق ويؤكّد الأبوّة المادّية المنتهية إلى آدم بأبوّة روحيّة ترجع الى تعاليم الاديان الملخّصة في رسالة الاسلام و بذلك يصير الدّين الخالص اساس اخوّة و ثيقة العرى تؤلّف بين اتباعه في مشارق الارض و مغاربها و تجعل منهم على اختلاف الأمكنة و الأزمنة وحدة راسخة الدّعامة الشامخة البناء قصر مشيد لا تحرّكه عاصفة ـ هذه الاخوّة هي روح الايمان

الحيّ و لباب المشاعر الرقيقة الّتي يكنها المسلم لاخوانه حتّى انّه ليحيا بهم و يحيا لهم ـ فكأنّهم اغصان انبثقت من دوحة واحدة او روح واحد في أجسام متعدّدة ـ انّ الاثرة الغالبة آفة الانسان و غول فضائله اذاسيطرت نزعتها على امرىء محقت خيره و نمت شرّه و حصرته في نطاق ضيق خسيس لايعرف فيه الاشخصه ولا يهتاج باالفرح أو الحزن إلّا لما يمسّه من خير او شرّ .

اما الدنيا العريضة و الألوف المؤلّفة من البشر فهو لايعرفهم إلّا في حدود مايصل اليه عن طريقهم ليتحقّق آماله او يثير مخاوفه .

و قد حارب الاسلام هذه الإثرة الظالمة بالاخوّة العادلة و أفهم الإنسان انّ الحياة ليست له وحده و انها لاتصلح به وحده فليعلم انّ هناك اناساً مثله ان ذكرحقّه عليهم و مصلحته عندهم فليذكّر حقوقهم عليه و مصالحهم عنده و تذكّر ذلك يخلع المرء من إثرته الصغيرة و يحمله على الشعور بغيره حين يشعر بنفسهفلا يزيد ولايقتات .

من حقّ اخيك عليك ان تكره مضرّته و ان تبادر الى دفعها فان مسّه مايتأذّى به شاركتهفيالالمواحسستمعه بالحزن . امان تكون ميّتالعاطفة قليل الإكثراتلأنّ المصيبة وقعت بعيدةً عنك فالأمر لايعنيك فهذا تصرفلئيم . وهومنبوت الصّلة بمشاعر الاخوّة الغامرة الّتي تمزج بين نفوس المسلمين فتجعل الرّجل يتأوّه للألم ينزل باخيه مصداق قول رسولالله مثل المسلمين في توادّهم و تعاطفهم و تراحمهم كمثل الجسدالواحد اذا اشتكى منه عضو تداعي له سائرالاعضاء بالسّهر و الحمّي .

و التألّم الحقّ هو الّذي يدفعك دفعاً إلى كشف ضوائق اخوانك فلا تهدأ حتّى تزيل غمّتها وتدير ظلمتها فاذانجحت فيذلك استنار وجهك و استراح ضميرك .

قال رسول الله المسلم اخو المسلم لايظلمه ولا يثلمه ـ من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته . و من فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه بهاكربة من كرب يوم القيمة و من سترمسلماً ستره الله يومالقيمة .

و من علايم الاخوّة الكريمةان تحبّ النّفع لأخيكوان تهشّ بوصوله اليهكما تجتهد بالنفع يصل إليك انت . فاذا اجتهدت في تحقيق هذاالنفع فقد تقرّبت الى الله

بازكى الطاعات و أجز لها مثوبة .

عن ابن عباس انّه كان معتكفاً في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاه رجل فسلّم عليه ثمّ جلس فقال له ابن عبّاس يافلان أراك مكتئباً حزيناً قال نعم يابن عمّ رسول الله لفلان عليّ حقّ ولاء . وحرمة صاحب هذا القبر ماأقدر عليه قال ابن عبّاس أفلا اكلّمه فيك قال ان أحببت قال فانتعل وخرج من المسجد فقال له الرجل أنسيت ماكنت فيه قال لاولكنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله صاحب هذا القبر و العهد به قريب - فدمعت عيناه وهو يقول من مشى في حاجة اخيه و بلغ فيها كان خيراً له من اعتكاف عشر سنين ومن اعتكف يوماً ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النّار ثلاثة خنادق ابعد ممّا بين الخافقين « اوكلّ خندق » ابعد: وهذا الحديث يصوّر اعزاز الاسلام لعلائق الاخاء الجميل و تقديره العالى بضروب الخدمات العامّة الّتي يحتاجها المجتمع لإرساء أركانه و صيانة بنيانه .لقد اثر ابن عبّاس أن يدع اعتكافه والاعتكاف عبادة محضة رفيعة الدرجة عند الله لأنّها استغراق في الصّلوة والصّيام و الذّكر ثمّ هو في مسجد رسول الله حيث يضاعف الأجر الف مرّة فوق المساجد الاخرى و مع ذلك فقه ابن عبّاس في الاسلام جعله يدع ذلك ليقدّم خدمة إلى مسلم يطلب العون هكذا تعلّم من رسول الله .

عن ابن عبّاس قال كنت مع الحسن بن على عليه السلام في المسجد الحرام وهومعتكف و هو يطوف بالكعبة فعرض له رجل من شيعته فقال يابن رسول الله انّ عليّ ديناً لفلان فان رأيت ان تقضيه عنّي فقال و ربّ هذه البنية ماأصبح عندي شيء فقال ان رأيت ان تستمهله عنّي فقد تهدّدني بالحبس قال ابن عبّاس فقطع الطواف و سعي معه فقلت يابن رسول الله أنسيت انّك معتكف فقال لا ولكن سمعت ابي عليه السلام يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول من قضى أخاه المؤمن حاجة كان كمن عبد الله تسعة آلاف سنة صائماً نهاره و قائماً ليله .

عن صدقة الحلواني قال بينا أنا أطوف وقد سألني رجل من أصحابنا قرض دينارين فقلت له اقعد . اتمّ طوافي و قدطفت خمسة أشواط فلمّا كنت في السادس اعتمد عليّ أبوعبد الله عليه السلام و وضع يده على منكبي فأتممت السابع و دخلت معه في طوافه

كراهية ان أخرج عنه وهومعتمد عليّ فأقبلت كلّما مررت بالاخر و هولا يعرف اباعبدالله يرى انّي أوهمت حاجته فأقبل يؤمى إلى بيده فقال ابوعبدالله مالي أرى هذا يؤمى بيده فقلت جعلت فداك ينتظر حتّى أطوف و أخرج إليه فلما اعتمدت عليّ كرهت ان اخرج وادعك قال فاخرج عنّي و دعني واذهب فاعطه .

عن أبان بن تغلب قال كنت اطوف مع أبيعبدالله عليه السلام فعرض لي رجل من أصحابنا كان يسألني الذّهاب معه في حاجة فأشار إليّ فكرهت ان ادع أباعبدالله عليه السلام واذهب اليه فبينا أنا أطوف إذا شار الي أيضاً فرآه أبوعبدالله عليه السلام فقال ياأبان ايّاك يريد هذا قلت نعم قال فمن هو قلت رجل من أصحابنا قال فاذهب إليه قلت فأقطع الطّواف قال نعم قلت و ان كان طواف الفريضة قال نعم قال فذهبت معه .

ان اعباء الدنيا جسام و المتاعب تنزل بالنّاس كما يهطل المطر فيغمر الخصب و الجدب والانسان وحده اضعف من ان يقف طويلا تجاه هذه الشدائد ولئن وقف ، انه لباذل من الجهد ماكان في غنى عنه لوأنّ إخوانه اهرعوا لنجدته وظاهروه في انجاح قصده وقد قيل المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ـ ومن حقّ الاخوّة ان يشعر المسلم بأنّ اخوانه ظهير له في السرّاء و الضراء و انّ قوته لاتتحرّك في الحياة وحدها بل انّ قوى المؤمنين تساندها و تشدّ ازرها قال رسول الله صلى الله عليه وآله المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا .

و من ثمّ كانت الاخوّة الخالصة نعمة مضاعفة لانعمة التجانس الروّحي فقط بل نعمة التعاون المادّي كذلك وقدكرّر الله ذكرهذه النّعمة مرّة ومرّة واذكروا نعمة الله عليكم اذكنتم اعداءاًفألّف بين قلوبكم و اخوّة الدين تفرض التّناصر بين المسلمين لاتناصر العصبيّات العمياء بل تناصر المسلمين المؤمنين المصلحين لإحقاق الحقّ وابطال الباطل و ردع المعتدى و إجارة المهضوم فلا يجوز ترك مسلم يكافح وحده في معترك بل لابدّ من الوقوف بجانبه على ايّ حال لإرشاده ان ضلّ وحجزه ان تطاول والدّفاع عنه ان هو جم و القتال معه إذا استبيح وذلك معنى التناصر الّذي فرضه الاسلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله انصر اخاك ظالماً أو مظلوماً قال انصره مظلوماً فكيف انصره ظالماً قل صلى الله عليه وآله

تحجزه عن ظلمه فذلك نصره .

إنّ خذلان المسلم شيء عظيم و هو إن حدث ذريعة خذلان المسلمين جميعاً اذ سيقضى على خلال الابلاء و الشهامة بينهم و سيرضخ المظلوم طوعاً أو كرهاً لما وقع به من ضيم . ثمّ ينزوى بعيداً و تتقطّع عرى الاخوّة بينه و بين من خذلوه .

وقد هان المسلمون افراداً وهانوا امماً يوم وهت أواصر الاخوّة بينهم و نظر احدهم إلى الاخر نظرة استغراب و تنكّر وأصبح الأخ ينتقض امام أخيه فيهزّ كتفيه و يمضى لشأنه كانّ الأمر لايعنيه انّ هذا التّخاذل جرّ على المسلمين الذلّة و العار وقد حاربه الاسلام حرباً شعواء قال رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقفنّ احدكم موقفاً يضرب رجل ظلماً فإنّ اللّعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه وقال من مشى مع مظلوم حتّى يثبت له حقّه ثبّت الله قدميه على الصّراط يوم تزلّ الأقدام .

و هذا الواجب العظيم يزداد تأكّداً اذا كنت ذاجاه في المجتمع او صاحب منصب تحفّه الرّغبة و الرّهبة ان للجاه زكوة كما تؤتي زكوة المال فاذا رزقك الله سيادة في الارض أو تمكيناً بين الناس فليس ذلك لتنتفخ بعد إنكماش أو تزهى بعد تواضع وإنّما يسّر الله لك ذلك ليربط بعنقك حاجات لاتقضى إلّا عن طريقك فان انت سهلّتها وقمت بالحقّ المفروض ،احرزت الثواب الموعود و إلّا فقد جحدت النعمة و عرّضتها للزوال .

روى عن رسول الله انّ لله عند اقوام نعماً اقرّها عندهم ما كانوا في حوائج المسلمين مالم يملّوهم فاذا ملّوهم نقلها الى غيرهم .

و قال سيّدنا الحسين عليه السلام حوائج الناس اليكم من نعم الله عليكم فلا تملّوا النعم فتحور نقماً .

و استخدام المرء جاهه لنفع النّاس و لمنع أذاهم ينبغى ان يتمّ في حدود الاخلاص والنّزاهة فان فعل احد ذلك لقاء هديّة ينتظرها فقد فقد أجره عند الله وتأكل بعمله السّحت و هناك رذايل حاربها الإسلام لانّها تناقض آداب الاخوّة وشرايطها انّ القاعدة التي تسوّى بها الصفوف تسوية تردّ المتقدّم الى مكانه و تقدّم المتأخّر عن أقرانه هي الاخوّة فاذا نشب نزاع اوحدث هرج و مرج طبّقت قوانين الإخاء على

الكافّة ونفذ حكمها « انّما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم » وقدحذّر رسول الله ﷺ من هذه الرّذايل في حديثه الجليل و هي رذايل تبدوا للنّظر القاصر تافهة الخطر . غير انّها لمن تدبّر عواقبها تصدّع القلوب و تجفّف عواطف الودّ منها قال ايّاكم والظّن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسّسوا ولا تجسّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً كما أمركم الله تعالى المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقّره كلّ المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه التقوى هاهنا ، ثلاثاً و يشير إلى صدره .

في المجتمع المتحابّ بروح الله الملتقى على شعائر الاسلام يقوم إخاء العقيدة مقام إخاء النسب و ربّما ربت رابطة الايمان على رابطة الدّم .

و الحقّ انّ أواصر الاخوّة في الله هي الّتي جمعت الاسلام اوّل مرّة و اقامت دولته و رفعت رايته الخافقة و ساير الخصوم المتربصين ثمّ خرجت بعد صراع طويل و هي رفيعة العماد وطيدة الأركان على حين ذاب اعداؤها و هلكوا .

لاخير للبشر إلّا في الدّين ولا شيء اضرّ عليهم من اللادينيّة وان اعداء الدّين هم اعداء البشريّة .

و من فرّق كلمة المسلمين و سعي في تمزيق صفوفهم فهو خارج عن ربقة الاسلام عدوّ للمسلمين لدود متّصف بصفات المشركين لاتجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الاخر يوادّون من حادّ الله و رسوله ولو كانوا أباءهم او ابناءهم او إخوانهم اوعشيرتهم .

و من سكت عن ردّ شبهات الملحدين الماديّين ولا يهتّم بمقاومتهم فليس من الاسلام في شيء على لسان النبيّ ﷺ لقوله من اصبح ولم يهتّم بامور المسلمين فليس منهم وهو ملعون بقوله اذا ظهرت البدع فعلى العالم ان يظهر علمه و من لم يفعل فعليه لعنة الله . و هو من اتباع الشيطان بل هو الشيطان بعينه بقول امير المؤمنين عليه السلام الساكت عن الحقّ شيطان اخرس .

و هناك افراد من الناس يحملون الاقلام و يسعون في تفريق كلمة المسلمين ولا ندرى هلهم مستأجرون على ذلك فلا يفيد فيهم النّصح لانّهم جاحدون عن يقين امهم

جاهلون يحسبون انّهم يحسنون‌هم الجهّال توهّموا انّهم علماء فلا تنجح بهم المواعظ وهذا هو الجهل المركّب .

نطلب من اخواننا المسلمين عامّة من جميع الطوائف انّهم اذاسمعوا أو رأو كذبة من بعض الطوائف على بعض فلا يصدّقوها وليطالبوا بسندها فانّ ماينسبه بعض‌الافراد إلى بعض ممّا ينافي الكتاب السنّة في اصول العقايد او اصول الاحكام محض افتراء قد يقترفه مستأجرعلى تفريق الكلمة فلايكونوا العوبةالمستأجرين قلت للحاج أيّها المؤمنون هذه الديار المباركة الطيبة الّتي اختارها الله فجعل فيها قبلة العالمين و كعبة الاملين و امرهم ان يولّوا وجوههم شطره وجمع حولها القلوب وجعلها مهوى الأفئدة والأبصار انّنا سعداء جداً و نشكر الله على ماهدانا و انعم به علينا من‌فرصة التمتع بهذه الزيارة المقدسة الا ان مايحزننا هو وضع اخواننا المسلمين‌المعذبين‌تحت ضغط الجوروالاضطهاد اننا مضطرّون بحكم الواجب الدّيني‌على‌ان نبلغ اخواننا المسلمين الذين‌يسعون الآن باداء فريضة الحج‌عمّا يجرى في البلاد الّتي‌يئنّ أهلها تحت كابوس الارعاب والارهاب ليعلموا ان ما يسمعونه من الدموكراسى وادعاء الاسلام لايتجاوز حناجرهم .

رفقا بانفسكم أيها المسلمون ـ ما بال المسلمين لايرأفون بانفسهم ولا يعطفون لما انتابهم في جميع بلادهم يخربون بيوتهم بايديهم و يزيدون الطين بلّة و يضعون على النّارالحطب ولايرقون و يرحمون لملائين من‌البشر اناخ عليهماالدّهر بجرانه وعضّت عليهم الكوارث بانيابها و احدقت بهم الخطوب من كلجانب حتّى انّهم شغلوابانفسهم و تركوا المجال لأعدائهم يفعلون ما يشاؤن و أطمعوا بأنفسهم حتّى الملحدين من منكرى الله و مكذّبى الشرايع ، وحّدواكلمتكم واجمعوا شملكم و كونوا كتلة واحدة ولاقوا عدوّكم بصفّ واحدحتّى‌تنجوا بانفسكم من‌كل‌ّشرّ وتفوزوا بكلّ خيروتحصلوا على السّعادة والفلاح يا أيّها الّذين آمنوا آمنوا .

و علينا ان نوجه الخطاب إلى عامّة المسلمين و نقول لجميع افراد الطوايف الاسلاميّةايّها المسلمون انّ الله واحد و القرآن واحد و القبلة واحدة و الدّين‌واحد وما من مسلم إلّا وهومقرّ بالمعاد فعلام هذا الاختلاف عسى ان ينتبه الغافل .

ان البون شاسع بين الاسلام الّذى انتصر قديما وصبّغ العالم كلّه بحضارة كريمة مثمرة وبين والاسلام الّذى يتعثّر اليوم وينكمش داخل حدوده يستجدى الحيات بعد ان كان يهبها و ينتظر المنافع من ايدي الآخرين بعد إن كان يبدى ويعيد الاحسان إلى نوع الانسان اجمعين ولمّا كانت الأصول العلميّة لهذا الّذين لم يتغيّر في القرون الأخيرة عنها في القرون الأولى إذا القرآن هو القرآن و السنّة هي السنّة فإنّ السؤال الطّبيعى الداير على الشّفاه هو ما السرّ إذن في هذه النّقائض الصارخة بالعجب وما الّذي يجعل أمّة ذات قدر وذات كتاب واحد تتقدّم حتّى. تمسك بالزمام و تتأخّر حتّي تدوسها الاقدام وكثيراً ماسألوا (لم سقطنا وبم نرتقى) ان نفراً من المؤلّفين والكتاب اجابوا عن هذا السؤال وقد التقت اراؤهم عند اتّهام المسلمين المتخلّفين بأنّهم عصاة لاينفذون وصايا دينهم في مناحي المختلفة ونواحى الحياة .

والعليل الّذي يرفض تناول الدواء لو قتلته علّته فلالوم على طبّ ولا عقار بل اللّوم على من ظلم نفسه وآثر الانتحار ، ونتزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين هذا كلام صحيح في جملته ولكن ما هي المعصية . قد يأمرالله بالصّلوة او الصّيام فيتهاون المرء في امرالله ويدع هذه الفرائض المطلوبة اويؤدّيها على نحو سيّئى قليل الجدوى وبهذا العوج مع النّصوص المحدّدة يعتبر عاصياً أليست هذه صورة العصيان كما نفهمها ، انّها كذلك .

ولامراء في انّ هذا الّضرب من مخالفة الشريّعة إثم يستتبع عقابه في الدّنيا والاخرة وتتحمّل الأمّة اوزاره في حاضرها و غدها غير انّ هذا النوع من العصيان ليس اخطر ما تجنى الأمّة ثماره فهناك معاص أخري اساسها عدم فهم القانون لافهمه ومخالفته . ويجب ان نقف طويلا عند هذا النوع الأخير علاجه اشد عناء من غيره .

الأصول الدينيّة في نظر العامّة و الخاصّة من الامم اجمع ـ ما خلاالملحدين تمتاز بأنّها من المناهج القدسيّة المنزّهة عن الادران البشريّة والجامعة لأشتات الفضايل الانسانيّة فإذا امر الآمر بفضيلة او نهى النّاهى عن رذيلة واسند امره ونهيه الى الدّين الذّى يدين له المأمور والمنّهي كان مرجوّاً ان يأتى بالغرض المقصوده لاستناده

إلى قدسيّة الدين لاإلى وضع البشر الذّين يعهد فيهم ارتكاب الجرائم والآثام ويقع منهم التباين في الأقوال والأفعال وتبلغ موعظة الواعظ موضعها من القلوب اذا كان الواعظ محافظاً على شعائر دينه لاينتهك حرماته ولايفرّط في شيئى من واجباته .

لهذه الأصول الدينيّة مقاصد اوّلية و مقاصد ثانويّة هي احدى نتايج المقاصد الاوّليّة أمّا المقاصد الاوّليّة فهى غرس العبوديّة في قلوب البشر لله الواحد القهّار خالق الخلق ورازقهم ومحييهم ومميتهم وجامع النّاس ليوم لاريب فيه يوم يفرّ المرء من اخيه وامّه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرى منهم يومئذ شأن يغنيه ،وإذا صحّ هذا الغرس فأوّل ثمرة تبدو للعيان منه هي الأقبال على العبادات التي افترضها الله سبحانه على عباده من صوم وصلوة و حجّ و زكوة .

وإذا حلّت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

فمن آنس من نفسه تفريطاً في فريضة من هذه الفرايض الدينيّة ولايغتر بطهارة قلبه ولابفلسفة المتفلسفين ، الّذين يخيّلون له ، أنّ التفريط في هذه العبادات ليس بضائر من أحسن المعاملة مع الخلق واحبّ الخير للنّاس اجمع وليعلم انّ غرس الأصول الدينيّة في قلبه لم يأت بأوّل ثمرة ترجى من غرسه لا حرج على الله ان يبتلى عباده و يختبرهم بشئى ممّا احلّ وحرّم ليعلم مقدار رعايتهم لطاعته و قد فعل فمن ذلك انّه أحلّ للمحرم بالحج أن يصيد من البحر ماشاء وحرّم عليه ان يصيد من الطيور والوحوش البرّية شيئاً ابتلاء واختباراً لعبيده حيث قال في كتابه العزيز احلّ لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيّارة وحرّم عليكم صيد البرّ ما دمتم حرماً فمن اعياه العلم بأسرار التشريع في ايجاب هذه العبادات على كلّ من آمن بمحمّد ﷺ و صدّق رسالته فحسبه انّ يعلم أنّ هذه التّكاليف ابتلاء من الله لعباده حيث برهنوا على مقدار إحترامهم لأوامره و نواهيه ووقوفهم عند حدوده ومن يتّعد حدود الله فقد ظلم نفسه فليتّق الله مسلم لايرتاب احد في اسلامه اسلمه النّاس فلذات أكبادهم وعهدوا إليه القيام بتربية إيمانهم بتربية نافعة وليكن شديد الحريص على أداء العبادات الدينيّة في أوقاتها حتّي يتمثّل به تلاميذه ويقتدى به خاصّة قومه و عامّتهم و حتّي يأخذ تأديبه الموضع اللّائق به من قلوب طلّاب الأدب والدّين .

امّا المقاصد الثانويّة الّتي هي احدي نتايج المقاصد الأوّليّة فهي كلّ مايعود بالخير والصّلاح على هذا المجتمع الإنساني إلي ترقية المصانع والمتاجر والعلوم و والمعارف و ما يرجع إلي إقامة العدل بين النّاس و كفّ المظالم و تأمين السبل حتّي يتّسع نطاق العمران ويسهل المواصلات بين الأمم المتنائية البلدان .

الدّين الاسلامى كلّه اسرار و عجايب و يكفيك منه دليلاً على كونه أكبر آيات الله في هذا العالم انه تعالى كوّن به في بضع و عشرين سنة امّة احدثت في الوجود اكبر و أعظم الحوادث الاجتماعيّة و الإنقلابات العمرانيّة و تربّعت في دست الخلافة في الارض قروناً كثيرة كانت في خلالها اعجوبة العالم الانساني دنياً و ديناً و رفعت اعلام الحرّية و الإخاء و العلم إلى أعلى ما يصل اليه امكان البشر ولم تزل اليوم حيّة حياة قوّية و انكانت كامنة كموناً وقتياً يظهر ذلك من انتشار نفوذها الرّوحاني في كلّ الامم بصفة تبشّر بضرورة رجوعها الى مجدها القديم و القبض على زمام امور النوع البشر كلّه بتلك اليد .

وعدالله الّذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الارض و ليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ... وقال تعالى قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة ويكون الدّين كلّه لله .

كلّ اصل و ركن و فرض و سنة من هذا الدين تحته اسرار وانوار تعوز الدرس الطويل والشرح الضّافي و البحث العميق ويدلّ عليه انّ العالم الغربى مسوق بدوافع الطّبيعة ونواميس الحياة الى العمل بتلك التعاليم والاهتداء بنورها في حوالك احوالهم و الاصرار بالاضرارعلى الشرق حسداً من أنفسهم .

لايخفى على المتتبّع فيالدّراسات الاسلاميّة انّهاالشريعة الخالدة شريعةالفطرة و الحق و الخير و السّعادة و الانسانية الكاملة بافرادها و جماعاتها .

يرى شريعة سامية و مبادى عالية في كلّ شأن من شؤون الحياة السياسية و الاجتماعيّة و الاخلاقيّة و الثقافيّة و التربويّة و الاداريّة و القضائية فقد عنيت بكلّ هذه المبادى و غيرها و وضعت لها القوانين الكلّية و القواعد العامّة و الاداب

و الأخلاق الّتي تصحبها و تسيرها .

الفرد المسلم ثمّ الاسرة المسلمة فالجماعة المسلمة امّا الفرد فهو اللبنة الاولى في بناء المجتمع فاذاصلح هذا الفرد صلح المجتمع كلّه و إذافسد فسد المجتمع فوضع له منهجاً أخلاقياً سامياً وامره باتّباعه و الاهتداء بهداه فاذا تمسّك الفرد المسلم بالاخلاق الساميّة و تأدّب بآدابها كان انساناً كاملاً و فرداً مثاليّاً وكما قالت الحكماء يصير عالماً عقليّاً مضاهياً للعالم الحسّي . امر الفرد المسلم بالأمانة و الصّدق و الوفاء و العفاف و الهدى و التقوى و التراحم و التعاطف و التآلف و الاستقامة و الشجاعة و الشهامة و الكرم و الشمم و علوّ الهمة و الغيرة و الاصلاح بين الناس و العدل و الاحسان و الصّبر على مايصيب الإنسان في اجراء هذه الاصول و ان يحبّ لنفسه مايحبّه للناس و يكره لهم ما يكره لها و يسعى في قضاء حوائج الناس والإنفاق عليهم ويبدء بالأقرب فالاقرب واوصاه بالاقتصادوالقناعة والزّهد عمّافي ايدى الجماعة والرفق والحلم والتواضع والأناةفاذا تمسّك بها يصير مسلماًوالمجتمع الّذي يعيش فيه جنّة الرّضوان ولكن الجنّة الّتي دخلها قبل يوم القيمة لازم أن يكون لها ناظماً فلابدّ لكلّ جماعة من وازع وامير يقوم على امرها وتعطيه ثقتها و قيادها هكذا ينظم الإسلام العلاقة بين الفرد والجماعة يصلح الفرد و يطهّره ثمّ يختار له الامير العادل وهذا عليّ أمير المؤمنين واباكريماًلهم صاحب العهد الرائع إلى الاشتر النّخعي عامله على مصر يقول ولا تكونّن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فانّهم صنفان إمّا اخ لك في الدّين أو نظير لك في الخلق أعطهم من عفوك و صفحك مثل الّذي تحبّ ان يعطيك الله من عفوه وصفحه ولا تندمنّ على عفو ولا تبجحنّ بعقوبة يقول جورداق في كتابه صوت العدالة الانسانيّة عليّ اكرم الناس مع الناس و أبعد الخلق عن ان ينال الخلق بالأذى واقربهم إلى بذل نفسه في سبيلهم على أن يقتنع ضميره بضرورة هذا البذل ، أوليست حياته كلّها سلسلة معارك في سبيل المظلومين والمستضعفين ، و انتصاراً دائماً للشّعب دون من يريدونه آلة انتاج لهم (من السّادة ورثة الامجاد العائليّة) ألم يكن سيفاً صارماً فوق اعناق القرشيّين الّذين أرادوا استغلال الخلافة و الإمارة للسلطان والجاه و تكديس الاموال ؟ ألم يضع

الخلافة و الحياة على الارض لانه أبى مسايرة اهل الدنيا في استبعاد اخوانهم الضعفاء و الفقراء و المظلومين أليس عليّ أعظم الناس رفقا بالناس يوم دفع عنه أخاه عقيلا الّذي جاءه يطلب من مال الشعب أليس عليّ أباً كريماً لشعبه في توجيهه الولاة والعمّال نحو الرّفق بالناس و الضرب على ايدى المستغلّين من ذوى الوجاهة و السّلطان مشدّداً في هذا التوجيه مهدداً بالعقاب : أليس عليّ هوصاحب هذه الوصايا المكرّرة في اذن ولاته انصفوا الناس من انفسكم واصبروالحوائجهم فانهم خزّان الرعيّة لاتحسموا احداً عن حاجته ولاتحبسوه عن طلبته ولا تبيعنّ للناس في الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابّة يعتملون عليها ولا تضربنّ أحداً سوطاً مكان درهم وليس غريباً ان يكون عليّ اعدل الناس بل الغريب ان لا يكون ، و ممّالاريب فيه أنّ علياً عليه السلام كان صاحب اكبرعقليّة قضائيّة نظاميّة في هذا العهد فهوقداستفاد من كلّ ما مرّ بالحكم العربيّ الاسلامي من اشكال و أيضاً لمس حاجة المجتمع من وجه و محاسن و مساوى المحاولات الّتى حاولها الخلفاء قبله من وجه آخر فقدّم دستوره التنظيمى العظيم في عهده الى الاشتر النّخعى بعد الاختمار و الاختبار وهذا العهد قد يشك فيه بعض الباحثين مستندين إلى الافكار النظاميّة الّتي يحتوى عليها لاتسمح باضافتها إلى عصر على عليه السلام و ممّا ذكرنا يتبيّن بانه لامحل للشكّ لانّ علياً موهوب في القضاء و الإدارة ما في ذلك شكّ حتّى كان عمر يقول معضلةاوقضيةولا اباحسن لها ولقداهتمّ المشترعون بعد ذلك بجمع اقضيته واحكامه وتنظيماته فألّف الترمذى كتاباً في مجلدين دعاه (اقضية على) وألّف ابن قيم الجوزيّة كتابا في السياسة الشرعيّة ملأه بأقضيته فهذا يدلّنا على ان علياً كان يمتاز بعقليّة نادرة في القضاء المتّصل بالتنظيم ولأنّ المحاولات الّتي صدرت من أبى بكر جاء عمر فجدد فيها و عمر كان أكثر تشبثاً بالتنظيم و ميلا اليه فكثرت في عهده التشكيلات الإداريّة. و يفتّش عن عمّاله و يسأل عن أعمالهم فها هو كلام أميرالمؤمنن عليّ عليه السلام فيه .

لله بلاد عمر فقد قوم الأودوداوى العمد خلّف الفتنة و اقام السّنة ذهب نقيّ الثوب قليل العيب اصاب خيرها و سبق شرّها ادّى إلى الله طاعته واتّقاه بحقّه رحل

و تركهم في طرق متشعّبة لا يهتدى فيها الضّال ولا يستيقن المهتدى .

ثمّ جاء عثمان فاقرّ نظماً و غيّر نظماً واستحدث مثل ذلك و على عليه السلام يرقب كلّ هذا التطوّر النّظامى وهو متّصل بالشعب يرى مقدار رضاه عن هذه التشكيلات فاستفاد من هذه المحاولات الّتى مرّت به الى ماعنده من فطرة قضائيّة خارقة و بذلك استطاع ان يطابق بين اماني الناس وبين النظم الّتي تحكمهم ، وان يعطى أيضاً تشريفات اصلاحيّة تتصل بالاجتماع و السياسة و النظام ، فاذا كان النبىّ صلى الله عليه وآله هو المشرّع القانونى فانّ علياً عليه السلام هو المشترع النظامى على ماقاله العلايلى .

فعهد على عليه السلام الى الأشتر النخعي ليس فيه مايدعونا إلى الشكّ فيه اواستبعاده عنه وهو أوّل دستور حكومى او اعلاميّة لحقّ البشر العمومى صدر في الاسلام .

و يظهر من هذا العهد انّ علياً كان يرمى في مدّة خلافته الى أخذ الشعب الاسلامى الّذي تركب بما شمل من الامم المختلفة بعمل تشيیدی عظيم وكان عملاً موفقاً جداً (١) و نظاميا لانه الطبّ بادواء المجتمعات من النواحى التشريعيّة .ولكن الثّورة الداخليّة الّتي اُثيرت عليه ودارت حول شخصه اعجلته واوقفت كلّ حركاته الاصلاحيّة الّتي ابتدأها بعزم وشدّة .

واهمّ نواحي النظام الّتي يستدير البحث عليها هي نظام الحكم ، نظام المال، نظام الادارة و القضاء ، نظام الجنديّة ـ نظام الاقتصاد ـ كثيراً مايسألونني ان احدّد من أيّ نوع من أنواع الحكومات كانت الحكومة الاسلاميّة في أطوارها الاولى .

يرى ارسطو انّ انواع الحكومة تتمايز بعدد الاشخاص القابضين على زمام السلطة فالدّولة الّتي يدير شؤونها فرد واحد تسمّى ملكيّة والّتى يدير شؤونها جمهور الامّة تسمى جمهوريّة والّتي يدير شؤونها جماعة قليله تسمّى ارستقراطية وهذه الانواع الثلاثة اذا كانت الدّولة صالحة أي كان الغرض منها رعاية مصالح الأمة فاذا ظهر فيها

---

(١) هذا التعبير اخذناه من تعبير الفاضل العلامة العلايلي لان غرضه ان يضيف إلى التشريع معنى الاقتباس .

الفساد و اصبح همّ الحكّام تحقيق مطامعهم الشخصيّة سمّيت الحكومة من النوع الاول الاستبداديّة و من النوع الثانى استئثاريّة و من النوع الثالث حكومة الغوغاء . ثمّ يذهب إلى انهذه الأشكال تتعاقب على الدولة الواحدة في سنّة اجتماعيّة دائمة تقريبا فالدّولة تكون في بدايتها ملكيّة صالحة حتّى إذافسدت طباع الملك إنقلبت استبداديّة غايتها تحقيق شهوات الحاكم فاذا تغلّب عقلاء الأمّة على الملك و تقلّدوا زمام الأحكام اصبحت ارستقراطيّة فاذا خلف من بعدهم خلف وجهتهم الاستئثار بالسلطة و المنافع تحوّلت إلى حكومة استئثاريّة ، فاذاهبت الأمّة لتذود عن مصالحها و تولّت امورها بنفسها اصبحت جمهوريّة فإذا جاوز الافراد حدّ المعقول في استعمال السّلطة وتنازعوا أمرهم بينهم اضحت الحكومة فوضى ، و في هذا الظرف تعود إلى الملكيّة كما بدأت، وقد كانت الثّورة الفرنسيّة مصداق نظريّته من كلّ الوجوه ، و ذهب مونتسكيو الى أن الحكومة لاتخرج عن أن تكون ملكيّة او جمهوريّة اواستبداديّة فالملكيّة عنده ماتولّى الحكم فيها فردبمقتضى قوانين ثابتة و الجمهوريّة ما كانت السّيادة فيها للأمّة او بعضها و الاستبداديّة ما كانت السّلطة فيها بيد فرد يتصرّف فيها بإرادته و اهوائه و قسّم رسو الدّول باعتبار عدد الأشخاص الّذين يتولّون الامر الى ملكية وهي الّتي يدير شؤونها فرد واحد ، وارستقراطية وهي الّتي يدير امورها فئة قليلة و ديمقراطيّة وهي الّتي تستمدّ سلطتها من عامّة الشعب . والديمقراطيّة نوعان (مباشرة) وهي لاتكون إلّا في الجماعة القليلة العدد المحدودة المطالب والحاجات و « غير مباشرة » اونيابيّا .

وزاد بعض كتّاب الالمان نوعاً آخر اسماه الثيوقراطيّة وهي الّتي يستمدّ فيها الحاكم نفوذه من السّلطة الإلاهيّة ان النبي ﷺ جمع السلطة الزمنيّة في يديه إلى جانب السلطة الدينيّة فكان مصدر كافة السلطات . فحكومته على ما وصل إلينا من أخبارها ثيوقراطيّة في جوهرها وديموقراطيّة أيضاً فمن حيث ان الافراد كانوا يبايعونه على اسلام الامر إليه ثيوقراطيّة وديمقراطية حكومة النبي من النوع المباشر و هذا ما يعطيه قوله تعالى وشاورهم في الأمر وأمرهم شورى بينهم .

والّذى يستفاد من مجموع ما قلنا انّ في كلّ من اقسام هذه الحكومات مصالح

كلّية لم تخل في موارد كثيرة من مفاسد ولكن مغتفر في شرع السياسة! وهذا شأن كلّ القوانين الوضعيّة إذا كانت بيد الابناء البشريّة ومن عند انفسهم الطبيعيّة وقد أخذت قوانينهم من عادات البشريّة وآدابها في بعضها يهضم حقّ الفرد لحقّ الإجتماع وقد يعكس و دين الإسلام دين الله يراعى كلا الحقّين والشارع النبي ﷺ ذو العينين و الحافظ للشرع لا المشترع كما سمّى العلايلى، سيّدنا عليّاً امير المؤمنين وكما اقول مجرى احكام الإسلام كما جاء به النبيّ ﷺ نعم إنّ الامام هو القوّة المجرية للأحكام الشرعيّة وتشريع الاحكام بدون قوّة مجرية عبث غير مجد لحفظ النظام وذلك محسوس في هذا العصر فانّ القرآن والسنّة بين ايدينا والنّاس حيارى مضطربون لا يدرون ماذا يصنعون والي من يفزعون لا احديدّلهم على طريق النّجات وليس لهم من يفهمهم سبيل الرّشاد و الخلاص ممّا حاق باهل العالم من الشرّور والويلات والكوارث والموبقات والفساد فالقول بالتوّحيد الخالص المتضمّن للطف الله ورحمته ملازم للقول بوجود إمام في جميع الاعصار يرجع إليه في المشكلات ويفزع اليه في الكوارث والمعضلات.

وإذا نظرنا احوال الأئمة الاثنى عشر واحوال من عاصرهم ممّن ادّعي الخلافة والريّاسة على المسلمين علمنا بيقين انّ الائمة من اهل البيت هم المنصوبون من عندالله لأنّ من عاصرهم كمعاوية و يزيد إلى زمان المعتمد العبّاسى الّذى كان عند ولادة صاحب الزمان كلّهم جهّال اولوا اهواء منهمكون في الشهوات حائدون عن طريق الحقّ والصواب تاركون لتعاليم الكتاب والسنّة فيستحيل ان يأمرالله بطاعتهم و هم لم يطيعواالله ورسوله فكيف يقرن طاعتهم بطاعتهما في قوله اطعيو الله اه أترى انالله اللطيف الخبير يأمر باطاعة مثل يزيد شارب الخمر ورأس الفجور اومثل الرّشيد القاسى الجبّار قاتل اولاد الانبياء الّذي كان يقضي ليله بين الجوارى والمغنيّات ونهاره في قتل الابرياء حاشا لله ولطفه ورحمته ولاشكّ انّ ولاة الامر المعينيّن بهذه الاية هم ائمّة الهدى و مصابيح الدّجى واعلام التّقى فهم الّذين أمرنا بطاعتهم و من المخزى ان يدّعى مؤمن وجوب طاعة مثل الوليدبن يزيد الّذى مزّق القرآن بالنّبال وسخرّ به والّذى كان يلقى نفسه في بركة الخمر فيكرع حتّي يتبيّن النقص فيها ولا يهمه من الدنيا إلّا الراقصات

المغنّيات اللوّاتى كان يقدّمهن على الخلافة بل يقدمهنّ في المحراب .

نعم قد حمل المرأة الفاسقة وجاء بها الى المحراب لحرب الله ورسوله وأبوه الّذي! قال من قال لي اتق الله ضربت عنقه و هذا جزاء من لايقدّر أئمّة الحقّة قدرها هذا جزاء امّة لاتعرف لعليّ عليه السلام حقّه و اين هؤلاء ممّن يقول في جواب الأقوياء و يدافعهم .

اتأمرونى أن أطلب النّصر بالجور فيمن و ليت عليه والله لاأطور به ماسمر سمير وما أمّ نجم في السماء نجماً ، ولوكان المال لى لسويّت بينهم فكيف و إنّما المال مال الله ثمّ قال عليه السلام ألا و إنّ اعطاء المال في غير حقّه تبذير و إسراف وهو يرفع صاحبه في الدّنيا ويضعه في الاخرة ويكرمه في النّاس ويهينه عندالله ولم يضع امرؤ ماله في غير حقّه وعند غيراهله الاحرّمه الله شكرهم وكان لغيره ودّهم فان زلّت به النعل يوماً فاحتاج الى معونتهم فشرّ خليل وألأم خدين .

فإن أبيتم إلّا أن تزعموا أنّى أخطأت وضللت فلم تضلّلون عامّة أمّة محمّد بضلالى و تأخذونهم بخطأى وتكفّرونهم بذنوبى سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء و السّقم وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب وقد علمتم ان رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزّاني المحصن ثم صلّي عليه ثمّ ورثه أهله وقتل القاتل وورث ميراثه اهله وقطع السارق وجلد الزّانى غير المحصن ثم قسّم عليهما من الفيء ، و نكحا المسلمات فآخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حقّ الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ، ثمّ انتم شرار النّاس ومن رمي به الشيطان مراميه وضرب به تيهه .

و سيهلك فيّ صنفان محبّ مفرط يذهب به الحبّ الى غير الحقّ ومبغض مفرّط يذهب به البغض الى غير الحقّ وخير النّاس فيّ حالاً النمّط الاوسط فالزموه والزموا السّواد الاعظم[1] فإنّ يد الله على الجماعة وايّاكم والفرقة فإن الشاذ من النّاس للشيطان

---

(١) ان السواد الاعظم هو الانسان الكامل وليس المراد بلدة الكبيرة أومدينة عظيمة و إذا كان المراد البلدة فباعتبار ان الكبار من الرجال فيها أكثر .

كما ان الشاذ من الغنم للذئب ألا فمن دعا الى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه فإنما حكّم الحكمان ليحييا ما احيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن واحياء الاجتماع عليه و إماتته الافتراق عنه فان جرّنا القرآن اليهم اتبعناهم وان جرّهم إليهم اتبعونا فلم آت لا أباً لكم بجرا ولا ختلتكم عن امركم ولا لبّسته عليكم إنّما اجتمع رأى ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ان لا يتعدّيا القرآن فتاها عنه وتركا الحقّ و هما يبصرانه وكان الجور هواهما فمضيا عليه وقد سبق استثناؤنا عليهما في الحكومة بالعدل والصّمد للحق سوء رأيهما وجور حكمهما .

من طبيعة المجتمعات إنها تضلّ في حالة تغيّر وتزايل دائمة فايّ مجتمع، لا يبقى حافظاً لا وضاعه امداً طويلا بل يطلب اشكالا جديدة و خصوصاً حين يتّصل و يحتك بمجتمعات أخرى فانّه يتأثر بها على نسب متفاوته . وهذا راجع إلى الطبيعة في الكائن الحي الّذي يؤلّف المجتمع فالارتقاء خاصيّة لازمة المجماعة مالم تحلّ الموانع دون عملها وهذا هو التجديد .

اذن فتجدّد المجتمع ضربة لازب وهو بعينه ما صادف المجتمع العربى الوليد حين مالت الجماعة الاولى الى الزّوال ليحلّ محلهم نشءٌ جديد له افكاره وميوله و مذاهبه وهذا النشء بما اجتمع له من إشكال اجتماعية و اوضاع مدنيّة لأمم شتّي كوّن نفسه فكرة ولونا متميّزاً و دخل باشيائه الجديدة في دور صراع مع الجماعة الأُولى بأشيائها القديمة وتفاعل الجديد مع القديم تفاعل تناحر ضرورة أنّ كلاّ منهما يتشبّث باسباب البقاء ـ ولعل احداً لا يشكّ بأنّ محمّد بن ابى بكر كان ينظر الى الحياة من غير النّاحية الّتي ينظر منها ابوه ، فالنظرة العامة له انحرفت في كثير او قليل . كما نلمس ايضاً تأثّر كثير من رجالات القديم بالالوان الجديدة التّى انتقلت الى العرب بضم مجتمعات كثيرة ذات حضارة سامية ، وكان من هولاء طوائف كبيرة من مثل طلحة والزّبير وزيد بن ثابت وعبدالرّحمن بن عوف ويعلي بن اُميّة الّذين أخذوا بالترّف وحياة الغضارة النّاعمة فاستكثروا من الاموال و مالوا الى اعتناق النّظام الارستقراطى

متأثرين بوضع الأمم التي فتحوها وهذا ما كان يتخوّفه النبي ﷺ وحذّرهم بقوله انّما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا و زينتها إنّه لا يأتى الخير بالشرّ وإنّ ممّا ينبت الرّبيع ما يقتل حبطا او يلمّ إلاّ آكلة الخضر فإنّها اكلت حتّى إذا امتلأت خاصرتاها استقبلت الشمس فثلطت وبالت ثمّ رتعت وأنّ هذا المال خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم هو لمن أعطاه المسكين واليتيم وابن السبيل ، فمن أخذه بحقّه و وضعه في حقّه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقّه كان كالّذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيداً عليه يوم القيامة .

وكثرت عدد هؤلاء في خلافة عثمان وهذا هو السبّب في ما آل إليه حال سيّدنا على عليه السلام وخلافته وفي هذا الكتاب كفاية و من كتاب له عليه السلام الى قثم بن عباس وهو عامله على مكّة أمّا بعد فإنّ عيني بالمغرب كتب إليّ يعلمنى أنّه وجه الى الموسم اناس من الشام العمى القلوب الصمّ الأسماع الكمهْ الأبصار الّذين يلتمسون الحقّ بالباطل و يطيعون المخلوق في معصية الخالق و يحتلبون الدنيا درّها بالدين ويشترون عاجلها بآجل الابرار والمتّقين ولن يفوز بالخير إلاّ عامله ولا يجزى جزاء الشرّ إلاّ فاعله فأقم على ما في يديك قيام الحازم الصّليب والنّاصح اللبيب والتابع لسلطانه المطيع لإمامه وايّاك وما يعتذر منه ولا تكن عند النّعماء بطراً ولا عند البأساء فشلا والسّلام .

نعم سار معوية بسيرة الجبابرة و استبدّ و استأثر و تغلّب على الامّة قهراً عليها هذا كلّه و الناس قريبو عهد بالنبيّ والحلفاء وما كانوا عليه من التّجافى عن زخارف الدنيا وقد عرف الناس انّه رجل دنيا لا علاقة له بالدّين وما اصدق ماقال هو عن نفسه فيما حدّث الزمخشرى في ربيع الابرار انّه قال أمّا أبو بكر فقد سلم من الدنيا و سلمت منه وامّا عمر فقد عالجها وعالجته و امّا انا فقد تضجّعتها ظهراً لبطن و انقطعت إليها و انقطعت إليّ وكلّ ذلك التوسّع في الموائد و الوان المطاعم الأنيقه من أموال الأمّة وفيء المسلمين الّذي كان يصرفه الخليفتان في الكراع والسلاح والجند قال المرحوم آية الله كاشف الغطاء في كتابه العزيز اصل الشيعة و اصولها نقلاً عن أبي سعيد المنصور الابي في كتابه نثر الدّرر ما نصّه . قال الاحنف بن قيس دخلت على معاوية فقدّم لي من الحارّ

والبارد والحلو والحامض ماكثر تعجّبي منه ثمّ قدّم لوناً لم اعرف ما هو فقلت ماهذا؟ فقال هذا مصارين البط محشوّة بالمخّ قد قلي بدهن الفستق وزرّ عليه بالطبرزد فبكيت فقال ما يبكيك ؟ قلت ذكرت عليّاً بينا أنا عنده وحضروقت الطعام و إفطاره عليه السلام وسألني المقام فجيىء له بجراب مختوم قلت ما في الجراب قال سويق شعير قلت خفت عليه ان يؤخذ او بخلت به فقال لا ولا أحدهما ولكني خفت ان يلته الحسن أوالحسين بسمن اوزيت فقلت محرّم هو ياامير المؤمنين ؟ فقال لا ولكن يجب على أئمّة الحق ان يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلايطغى الفقير فقره فقال معاويه ذكرت من لاينكر فضله وكم من الوافدين و الوافدات على معاوية ذكروا عليّاً و شهدوا بما شاهدوا منه و ربما بكوا وأبكوا الحاضرين ينبغي أن نأتي ببعضها إن شاء الله لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً عسى أن يأتى بالفتح او أمر من عنده و لقد عهدنا أن نقول و نكتب ما يساعدنا على التقريب ونجيىء بكلّ مقالة وخطابة القينا أوسمعنا من إخواننا الّذين أدركوا ماأدركناه فيتركوا ما تركناه وهذه المقالة الّتي بين يديك ما أدرى من هو صاحبها وقائلها إلّا انّه يوافقنا في المقصود فانظر إلى ماقال ولا تنظر إلي من قال :

اشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له كما شهدت له السّموات والارض وكلّ ماخلق من آياته نطق بتوحيده ودلّ على وحدانيّته و اشهد انّ محمّداً عبده ورسوله كما ان تعاليمه دلّت على صدق رسالته و القرآن معجزته الباقية يراها كلّ شاهد و يسمعها كلّ سامع اللهمّ صلّ على محمّد و آل محمّد واصحاب محمّد و من حذاحذوه و اهتدى بهداه .

انّ النبي صلّى الله عليه وآله جاء بعدفترة من الرسل بكتاب الله فردّ الى المحجّة الواضحة القلوب الجامحة حتّى اوجدامة كانت خيرامّة اخرجت للناس اوجدامة اعزّت الاسلام فاعتزّ جانبها واستمسكت بالقرآن فقويت شوكتها واعتصمت بالدين فسمت الى مدار الافلاك قدقهروا الكافرين وابادوا اعداء الاسلام وغلبوا بالدّين الفئات الكثيرة باذن الله فاذكروا نعمةالله عليكم اذكنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا و كنتم على شفاحفرة من النار واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ـ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا من الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيىء .

اوّل شيء يجب على المسلمين من توحيدالله هو توحيد الكلمة دعى النبيّ الى كلمة التّوحيد وهي توحيد الكلمة و نبذ النّعرات الطائفيّة و الإختلافا المذهبيّة الممزّقة لشمل الاسلام و المفرّقة لجماعة المسلمين و صفوفهم مامعنى وجود الاختلاف و تعدّد المذاهب و تشعّب الأفكار و القرآن يرشدنا والدين يجمعنا وما هذه الفوارق الدّخيلة علينا إلاّ الدسايس الاجنبيّة و الوساوس النفسانيّة و هو اجس الشّيطانيّة الاستعماريّة .

لقد ارتحل رسول الله إلى الرّفيق الاعلى ولم يدع حبل هذه الأمّة على غاربها ولم يترك شأنها تتقاذفها الأهواء و تتلاعب به الاغراض و لكنّه ترك لها تراثاً خالداً يجمع أمرها و يلمّ شعثها و يحكم بينها فاذا اتّخذ المسلمون كتاب الله دليلا فيمايقولون و يفعلون و حكماً فيما يأتون و يذرون يعيدون من غير شك مجداً أضاعه الاهمال و طوّحت به الفرقة و أباده التّخاذل و التنابذ و ايّها المسلمون ما احوجنا اليوم إلى عود حميد الى رسالة الإسلام نرعاها قولا و عملا كما رعاها السّلف الصالح لترعانا و نصونها لتصوننا و تنقذنا من الفوضي الاخلاقيّة والاجتماعيّة والسياسية الّتي تتخبّط اليوم فيها فإذا عدنا الى الله بالتوبة و الطاعة عادالينا بالمغفرة و العزّة و النصر والفتح المبين إن تنصروا الله ينصركم و يثبّت اقدامكم ، وان عدتم عدنا .

ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله بلى بلى،قد قطعنا على انفسنا عهداً لا نخيس فيه ان نضع ايدينا في يد كلّ محبّ للاسلام عامل على رفعته ساهر على اعلائه جاهد في سبيله يسعى في لمّ الشّعث و جمع القلوب حتّى نتمكّن بفضل الاتّحاد والتّضامن و التّعاون و التّآزر من تنشئة جيل يذود عن دينه بأمانة و إخلاص و نصون التّراث الاسلامى بهمّة و نشاط حتّى اذا ارتحلنا من هذا العالم كنّا على ثقة بأن في السّويداء رجالا و ان في العقول تفكيراً سليماً و انّ في الصدور ايماناً صادقاً و ديناً قويماً ــ لقد اكرمنا الله جميعاً بنعمة التّوحيد وامتّن علينا بهداية القرآن المجيد و ملأ صدورنا بمحبّة نبيّه الكريم و آله المعصومين .

نعم كانت المدينّة الّتى احتضنت الاسلام و مجدت كلمته تقيم العلاقات بين

القاطنين و الوافدين على التبادل في ذات الله و الايثار عن سماحة رائعة و المساواة بين الأنساب و الأجناس و تبادل الاحترام والحب و اشاعة الفضل و تقديس الحق واسداء المعروف عن رغبة فيه لا تكلّف به .

و هذه علائم الاخاء الصحيح إخاء العقيده الخالصة لوجه الله لا اخاء المنافع الزايلة ولا الغايات الدنيّة وكانت تعاليم الاسلام ترعى هذا الإخاء حتّى لا يعد وعليه ما يكدّره فلا يجوز لمسلم ان يسبّب لأخيه قلقاً وفزعاً قال النبي ﷺ لا يحل المسلم ان يروّع مسلما . وقال من نظر الى مسلم نظرة يخيفه فيها بغير حق أخافه الله يوم القيمة و بهذه الوصايا كانت الاخوة تاميناً شاملا بثّ في اكناف المجتمع السّلام والطمأنينه .

وهذا ما يسمّونه اليوم بالسّياسة الداخليّة و الحقوق الاجتماعيّة و لسيّدنا الصّادق عليه السلام مكتوباً بهذا الشأن رواه شيخ الأنصارى في كتاب المكاسب وهو المثال المناسب في الحقوق الاسلاميّة وتشكيلاتها الإداريّة .

درس في السياسة الداخلية : روي شيخنا الشهيد الثاني (ره) في رسالة المسمّاة بكشف الرّيبة عن احكام الغيبة باسناده عن شيخ الطّائفة عن مفيد عن ابن قولويه ... عن عبد الله بن سليمان النوفلي قال كنت عن أبي عبدالله عليه السلام فاذاً بمولى لعبد الله النّجاشي ورد عليه و سلّم و أوصل إليه كتاباً ففضّه و قرأه فاذاً اوّل سطر فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء سيّدى وجعلني من كلّ سوء فداه ولا أراني فيه مكروهاً فإنّه وليّ ذلك و القادر عليه .

اعلم سيّدى و مولاى انّي بليت بولاية الاهواز فان رأى سيّدى ان يحدّ لي حدّاً و يمثّل لي مثالا استدلّ به على ما يقرّبني الله عزّ وجلّ اليه و الى رسوله ويلخّص في كتابه ما يرى لي العمل به و فيما ابذله و اين أضع زكوتي و فيمن أصرف و بمن آنس والى من استريح و بمن أثق و آمن و ألجاء إليه في سرّي فعسى أن يخلّصني الله تعالى بهدايتك و ولايتك فانّك حجّة الله على خلقه و امينه في بلاده ولا زالت نعمته عليك .

قال عبدالله بن سليمان فاجابه ابو عبدالله عليه السلام حاطك الله بصنعه و لطف بك بمنّه

وكلاءك برعايته فانه وليّ ذلك امّا بعد فقد جاء إليّ رسولك بكتابك فقرأته و فهمت جميع ماذكرته و سألت عنه و ذكرت انّك بليت بولاية الأهواز فسرّني ذلك و ساءني و و سأخبرك بما ساءني من ذلك وما سرّني لن شاءالله تعالى .

فأمّا سروري فقلت عسى ان يغيث الله بك ملهوفاً من اولياء آل محمّد و يعزّ بك ذليلهم و يكسوبك عاريهم و يقوّى بك ضعيفهم و يطفى بك نارالمخالفين عنهم .

و أمّا الذي ساءني من ذلك فإنّ ادني ماأخاف عليك ان تعثر بوليّ لنافلاتشمّ حظيرة القدس فإنّي ملخّص لك جميع ماسألت عنه فان انت عملت به ولم تجاوزه رجوت ان تسلم انشاءالله .

أخبرني ياعبدالله أبي عن آبائه عن علي عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله انّه قال من استشاره اخوه المؤمن (المسلم) فلم يمحّضه النّصيحة سلب الله لبّه واعلم انى سأستشير عليك رأيى ان أنت عملت به تخلّصت ممّا انت تخافه .

و اعلم ان خلاصك و نجاتك في حقن الدماء وكفّ الاذى عن اولياءالله و الرّفق بالرّعية و التأنّي و حسن المعاشرة مع لين في غير ضعف و شدّة في غير عنف و مداراة صاحبك ومن يرد عليك من رسله وارفق برعيّتك بأن توقفهم على ماوافق الحقّ والعدل ان شاء الله و ايّاك و السعاة و اهل النمايم فلا يلزقنّ بك منهم احد ولا اراك الله يوماً و ليلة و انت تقبل منهم صرفاً ولا عدلا فيسخط الله عليك و يهتك سرّك و احذر مكر خوزيّ الاهواز فان أبي اخبرني عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال انّ الايمان لايثبت فيقلب يهوديّ ولا خوزيّ أبداً وأمّا من تأنس به و تستريح اليه و تلجى امورك اليه فذلك الرّجل الممتحن المستبصر الامين الموافق لك على دينك و ميّز اعوانك وجرّب الفريقين فان رأيت هنالك رشداً فشأنك وايّاه وايّاك ان تعطى درهماً و تخلع ثوباً او تحمل على دابّة في غير ذات الله لشاعر أو مضحك أو ممزح إلاّ اعطيت مثله في ذات الله وليكن جوائزك و عطاياك و خلعك للقوّاد والرّسل و الاحفادواصحاب الرّسايل و اصحاب الشّرط والاخماس وما أردت أن تصرف في وجوه البرّ والنّجاح و و الصّدقة و الحج والشرب والكسوة الّتى تصلّى فيها و تصلى بها و الهدّية التىتهديها

الى الله و رسوله من اطيب كسبك وانظر ياعبدالله ان لاتكنز ذهباً ولا فضّة فتكون من أهل هذه الاية ان الّذين يكنزون الذهب و الفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله ولا تستصغرنّ من حلوا و فضل طعام تصرفه في بطون خالية تسكن بها غضب الله ربّ العالمين و اعلم أنّى سمعت ابى يحدّث عن آبائه عن امير المؤمنين عليه السلام قال يوماً لاصحابه ما آمن بالله و اليوم الاخر من بات شبعاناً و جاره جايع فقلنا هلكنا يارسول الله فقال من فضل طعامكم و من فضل تمركم و رزقكم و خلقكم وخرقكم تطفؤن بها غضب الربّ و سأنبّئك على هو ان الدّنيا وهو ان شرفها على من مضى من السّلف و التّابعين فقد حدّثنى ابى محمّد بن على محاورة عليّ مع الدّنيا فى فدك (اسقطناها إختصاراً ومن شاء فليراجع) إلى ان قال .

فخرج من الدّنيا و ليس في عنقه تبعة لاحد حتّى اقى الله محموداً غير ملوم ثمّ اقتدت به الائمّة من بعده بما قد بلغكم لم يتلطّخوا بشيء من بوائقها وقد وجّهت اليك بمكارم الدنيا و الاخرة عن الصادق المصدّق رسول الله ﷺ فان أنت عملت بما نصحت لك فى كتابى هذا ثمّ كانت عليك من الخطايا كمثل اوزان الجبال و امواج البحار رجوت الله ان يتجافي عنك جلّ وعزّ بقدرته ياعبدالله و ايّاك ان تخيف مؤمناً فانّ ابي حدّثني عن أبيه عن جدّه عن عليّ بن ابيطالب عليه السلام انّه كان يقول من نظر الى مؤمن نظرة ليخيفه بها أخافه الله يوم لاظلّ الا ظلّه و حشره على صورة الذرّ لحمه و جسده و جميع اعضائه حتّى يورده مورده .

و حدّثنى أبي عن ابيه عن آبائه عن عليّ عن النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلم قال من أغاث لهفاناً أغاثه الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه و آمنه من الفزع الاكبر و آمنه من سوء المنقلب و من قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله له حوائج كثيرة احدها الجنّة ومن كسى أخاه جبّة عن عرى كساه الله من سندس الجنّة و استبرقها و حريرها ولم يزل يخوض في رضوان الله ومن أطعم اخاه من جوع اطعمه الله من طيّبات الجنّة و من سقاه من ظمأ سقاه الله من الرّحيق المختوم و من خدم اخاه اخدمه الله من الولدان المخلّدين و اسكنه مع اوليائه الطّاهرين و من حمل اخاه المؤمن على

راحلة حمله الله على ناقة من نوق الجنّة وباهي به الملئكة المقرّبين يوم القيمة ومن زوّج اخاه امرأة يأنس بها وتشدّ عضده ويستريح إليها زوّجه الله من الحور العين وآنسه بمن أحبّه من الصدّيقين من أهل بيت نبيّه و اخوانه و آنسهم به ومن أعان اخاه المسلم على سلطان جاير أعانه الله على اجازة الصّراط يوم زلّت الاقدام ومن زار أخاه المؤمن في منزله لا لحاجة منه إليه كتبه من زوّار الله وكان حقيقاً على الله ان يكرم زائره ياعبدالله وحدّثني أبي عن آبائه عن علي عليه السلام انّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لاصحابه يوماً معاشر الناس انّه ليس بمؤمن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه فلا تتبّعوا عثرات المؤمنين فانّه من تتبّع عثرة مؤمن يتبع الله عثرته يوم القيمة و فضحه في جوف بيته وحدّثني ابي عن آبائه عن عليّ عليه السلام قال اخذ الله ميثاق المؤمن ان لا يصدّق في مقالته ولا ينتصف من عدوّه و على ان لا يشفي غيظه الاّ بفضيحة نفسه لأن المؤمن ملجم وذلك لغاية قصيرة و راحة طويلة اخذ الله ميثاق المؤمن على اشياء أيسرها مؤمن مثله يقول بمقالته يبغيه و يحسده و الشيطان يغويه و يمقته و السلطان يقفو اثره و يتبع عثراته وهو كافر بالّذي هو مؤمن به يرى سفك دمه ديناً واباحة حريمه غنماً فما بقاء المؤمن بعد هذا ياعبدالله من أدخل على أخيه المؤمن سروراً فقد ادخل على أهل بيت نبيّه سروراً ومن أدخل أهل بيت نبيّه سروراً فقد أدخل على رسول الله سروراً ومن أدخل على رسول الله سروراً فقد سرّ الله ومن سرّ الله فحقيق على الله ان يدخله الجنّة ثمّ أُوصيك بتقوى الله وإيثار طاعته والاعتصام بحبله فانّه من اعتصم بحبل الله فقد هدي إلى صراط مستقيم فاتّق الله ولا تؤثر أحداً على رضاه فانّه وصيّة الله عزّ وجلّ إلى خلقه لا يقبل منهم غيرها ولا يعظم سواها و اعلم ان الخلق لم يوكّلو الشيء أعظم من تقوى الله فانّه وصيّتنا أهل البيت فلم يزل عبدالله يعمل بها أيّام حياته لقد بذل الأئمّة الهداة اقصى مالديهم من جهد ليخلّقوا المسلمين باخلاقهم وسلكوا لذلك كلّ سبيل وارادوا ان يخلقوا من كلّ نفس رقيباً ملازماً لها في السرّ و العلانية مسيطراً عليها يقرّبها من الطاعة و يبعدها عن المعصية فمناهج التربيه كانت توجه نحو القيم الروحيّة و توضع في ضوء اصولها و قواعده فهذه خطبهم و كتبهم و مواعظهم و دروسهم و ضرب الأمثال و الحكم و ايراد القصص مع البيان المحكم فهم

اولاد امير المؤمنين لاتأخذهم في الله لومة لائم يخدمون الدين للدّين و يرجون عظمة الاسلام و المسلمين يقولون لله و يقومون لله انّ صلوتي و نسكی و محیای و مماتی لله ربّ العالمين و كان من نتيجة ذلك انّ التعاليم الدينيّة كانت واضحة في أذهان الناس متمكّنة من نفوسهم فيخضعون لامر الشرع و نهيه طوعاً لاكرها حاكما كان المسلم او محكوماً فالاعياد الاسلاميّة تختلف باختلاف الاهداف و الاسباب وكلها ترمز الى المودّة و الرّحمة و الانسانيّة بان يصير كلّ مسلم مظهراً ومظهراً لصفات الالهيّة مثل الرحيميّة و الرّحمانيّة فنصيبه من اسم الرحمن بأن يكون مفيداً للبشريّة و نافعاً للانسانيّة كما قال الله تعالى و قولوا للنّاس حسنا و قال النبيّ الأعظم ﷺ خير الناس من ينفع الناس وحظّه من اسم الرحيم ان يقصد الى توثيق آصرة القربى بين المسلمين على اختلاف مذاهبهم وديارهم ولغاتهم وتذكرهم بانّهم اسرة واحدة حتّى يكون العيد سعيداً والعيش حميداً ما أشدّ حاجتنا نحن المسلمين إلى ان نفهم أعيادنا فهماً جديداً نتلقاها به و نأخذها من ناحيته فتجيئى ايّاماً سعيدة عاملة تنبّه فيها اوصافها القويّة وتجدّد نفوسنا بمعانيها لا كما تجيئى الان كالحة عاطلة ممسوحة من المعنى اكبر عملها تجديد الثياب و تحديد الفراق و زيادة ابتسامة على النّفاق .

فالعيد إنّما هو المعنى الّذي يكون في اليوم نفسه و كما يفهم الناس هذا المعنى يتلقون هذا اليوم و كان العيد في الاسلام هو عيد الفكرة العابدة فاصبح عيد الفكرة العابثه وكانت عبادة الفكرة جمعها الأمّة في إرادة واحدة على حقيقة عمليّة فاصبح عبث الفكرة جمعها الأمة على تقليد بغير حقيقة له مظهر المنفعة و ليس له معناها .

كان العيد اثبات الأمّة وجودها الرّوحانی في اجمل معانيه فاصبح اثبات الأمّة وجودها الحيوانی في اكثر معانيه يوم استرواح القوّة من جدّها فعاد يوم استراحة الضعف من ذلة وكان يوم المبدء فرجع يوم المعاد .

ليس العيد إلاّ أشعار هذه الأمة بأنّ فيها قوّة تغيير الأيام لا اشعارها بأنّ الأيّام تتغيّر وليس العيد للأمّة إلاّ يوماً تعرض فيه جمال نظامها الإجتماعی فيكون يوم الشعور الواحد في نفوس الجميع والكلمة الواحدة فی ألسنة الجميع يوم الشّعور بالقدرة على

تغيير الايّام لا القدرة على تغيير الثّياب كأنّما العيد هو استراحة الاسلحة يوماً في شعبها الحربّي وليس العيد الا تعليم الأمّة كيف تتّسع روح الجوار وتمتّد حتّي يرجع البلد العظيم وكانّه لأهله دار واحدة يتحقق فيها الإخاء بمعناه العملي و تظهر فضيلة الإخلاص مستعلنةً للجميع ويهدي الناس بعضهم إلى بعض هدايا القلوب المخلصة المحبّة وكأنّما العيد هو اطلاق روح الاسرة الواحدة في الأمّة كلّها .

وليس العيد إلاّ إظهار الذاتيّة الجميلة للشّعب مهزوزة من نشاط الحيات ولا ذاتيّة للأُمم الضعيّفة ولا نشاط للأُمم المستعبدة فالعيد صوت القوّة يهتف بالأمّة اخرجي يوم افراجك اخرجي يوماً كأيّام النّصر .

وليس العيد إلاّ ابراز الكتلة الاجتماعيّة للأمّة متميّزة بطابعها الشّعبي مفصولة من الاجانب لابسة من عمل ايديها معلنة بعيدها استقلالين في وجودها و صناعتها ظاهرة بقوّتين في ايمانها وطبيعتها مبتهجة بفرحين في دورها واسواقها فكأن العيد يوم يفرح فيه الشّعب كلّه بخصائصه .

وليس العيد الا التقاء الكبار والصغار في معنى الفرح بالحياة النّاجحة المتقدّمة في طريقها وترك الصّغار يلقون درسهم الطبيعي في حماسة الفرح والبهجة ويعلّمون كبارهم كيف توضع المعاني في بعض الالفاظ الّتي فرغت عندهم من معانيها و يبصّرونهم كيف ينبغي ان تعمل الصفات الانسانيّة في الجموع عمل الحليف لحليفه لا عمل المنابذ لمنابذه فالعيد يوم تسلّط العنصر الحيّ على نفسيّة الشّعب .

وليس العيد إلاّ تعليم الأمّة كيف توجّه بقوّتها حركة الزّمن إلى معنى واحد كلّما شاءت فقد وضع لها الدّين هذه القاعدة لتخرّج عليها الأمثلة فتجعل للوطن عيداً مالياً اقتصّادياً تتبسّم فيه الدّراهم بعضها إلى بعض و تخترع للصّناعة عيدها و توجد للعلم وتبتدع للفنّ مجالي زينته و بالجملة تنشي لنفسها ايّاماً تعمل عمل القوّاد العسكريّين في قيادة الشّعب يقوده كلّ يوم منها إلى معني من معاني النصّر .

هذه المعاني السياسيّة القويّة هي الّتي من اجلها فرض العيد ميراثاً دهريّاً في الإسلام ليستخرج اهل كلّ زمن من معاني زمنهم فيضيفوا إلى المثال امثلة ممّا يبدعه

نشاط الأمّة ويحقّقه خيالها وتقتضيه مصالحها .

وما احسب الجمعة قد فرضت على المسلمين عيداً اسبوعياً يشترط فيه الخطيب والمنبر والمسجد الجامع إلّا تهيئة لذلك المعنى واعداداً له ففى كلّ سبعة ايّام يتشكّل (١) المؤتمر ويجيىء الحاكم والمحكوم والظالم والمظلوم ويقوم الخطيب فيشعر النّاس معنى القائد الحربى للشّعب كلّه . فالواعظ المخلص هو الّذى يشجّع المستضعفين على مطالبة حقوقهم ويقف في وجه القوىّ الظالم يردعه عن ظلم الضعيف المظلوم ويأمر الغنى الغانم أن يعاون الفقير الخادم ويدعو الجماهير على المنابر وفي المحاضر لمكافحة الظلم والظالم وردعه عن الباطل وعلى الواعظ ان يفهمهم انّ الدّفاع عن الحقّ واجب مفروض كالصلاة والصوم و النوم على الضيم والصّبر على الظلم حرام كالخمر والزناء إنّ الله يقول لا يحبّ الله الجهر بالسوء من القول إلّا من ظلم وجاء في الخبر انّ رسول الله ﷺ وزّع بعض الفيىء على الناس واخذ أعرابيّ نصيبه فاستقلّه وبسط يده وجذب الرسول من ثوبه جذباً شديداً و قال زدني فليس هذا مالك ولا مال أبيك و استلّ عمر سيفه صارخاً دعني يارسول الله اضرب عنقه فقال ﷺ دعه ان لصاحب الحق مقالاً فالاعياد لا تختصّ بامّة دون امّة ولا بدين و ملّة دون آخر فنجدها في تاريخ الاُمم وجميع الأديان فى العالم وتنقسم إلى دينيّة وشعبيّة ولمّا كان الشرق مصدر الاديان تراهم يهتمّون ويحتفلون بالأعياد الدينيّة أكثر من الأعياد الشعبيّة ففى العيدين يحتفلون ويصلّون لانّهما من الدين فى الصميم ومع انّ مولد النبي ﷺ من الذكريّات الخالدة الّتي لها اعظم الأثر في تاريخ البشر لم يكن معروفاً في عهد الرسول و الخلفاء لأنّه عيد شعبيّ عند المسلمين ولم يصبح عيداً إلّا في القرن السابع الهجرىّ وهكذا يوم البعثة أى السابع و العشرين من رجب .

مقالة بقلم السيد رضى الدين بن طاوس قبل سبعماة وخمسين سنة

أعلم ان الرحمة الّتي نشرت على العباد وبشرت بسعادة الدنيا والمعاد بالإذن لسيّد المرسلين ﷺ وعلى ذريّته الطاهرين في أن يظهر رسالته عن ربّ العالمين إلى الخلايق اجمعين كانت السعادة بإشراق شموسها و تعظيمها و تقديسها على قدر ما احيي الله جلّ جلاله بنبوّته من موات الالباب وأظهر بقدس رسالته من الآداب و شح

(١) لعلك تقول ينعقد المجلس كما يستعملون ولكن لفة التشكيل احسن اطلاقاً في المورد .

بهدايته من الابواب إلى الصوّاب و ذلك مقام يعجز عن بيانه منطق اللّسان و القلم و الكتاب ولاتحصيه الخواطر ولا تطّلع على معانيه البصاير ولا تعرف له عدداً (قل لو كان البحر مداداً لكلمات البحر مداداً الكلمات ربّي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربّى ولو جئتنا بمثله مدداً) و أنت إذا انصفت علمت أنّ الاُمم كانت تائهةً في الضّلال وقد أحاط بها استحقاق الاستيصال وقد كانت اليهود في قيود ضلالها لمخالفة موسى عليه السلام والنّصارى هالكة بسوء مقالها في عيسى عليه السلام والعرب ومن تابعها سالكة سبيل الدّواب والأنعام وفاقدة لفوايدالأحلام بعبادة الأصنام وبحر الغضب من الله جلّ جلاله قد اشرف على ارواح اهل العدوان وامواج العطب قداحاطت بنفوس ذوى الطغيان ونيران العذاب قد تعلّقت بالرّقاب وسعت إلى الفتك بالاجساد ورسل الانتقام قداشمتت باهل الالحادو العناد و قلوب الاعداء و الحسّاد و اهل الضّلال ذووا عيون غير ناظرة وعقول غير حاضرة وقلوب غير باصرة وجوارح غير ناصرة و قد خذل بعض بعضاً بلسان الحال من شدّة تلك الاهوال فبعث محمد صلى الله عليه وآله من مجلس الغضب والمقت والعذاب و انكاله الى الأمم المتعرّضة لتعجيل العقاب واستيصاله وهو واحد في العيان منفرد عن الاخوان والاعوان يريد مقاتلة جميع من في الوجود من اهل الجحود برأي قد احتوى على مسالك الارداء واستوى على ممالك الأقوياء وجنان قد خضع له امكان الابطال وبيان قد خشع له لسان اهل المقال و الفعال و نور قد رجعت جيوش الظّلمات به مكسورة و رؤس الجهالات بلهبه مقهورة وقدم قد مشى على الرّؤوس والنّفوس و همم قد حكمت بازالة الضرّ والنحوس فسرى نسيم ارج ذلك التمكين والتلقين و روح حيوة ذلك السبق للأوّلين والآخرين في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب بالعجب وشرف المنقلب فاستنشقته عقول كانت هامدة او بايدة واستيقظت به قلوب كانت راقدة و جرى شراب العافية بكأس آرائه العالية في اماكن اسقام الأنام فطردها و احاط بجيوش النحّوس فشرّدها تهدّد نفوس العقول المتهجمة على الغفول فأبعدها حتّى ألّفها بعد الافتراق في الآفاق وعطفها على الوفاق والاتّفاق واجلسها على بساط الودادوالاتّحاد وحماها عن مهاوى الهلكة والفساد فما ظنّك بمن هذا بعض اوصافه ومن ذا يقدر على شرح ماشرفه الله

جلّ جلاله به من ألطافه و بايّ بيان اولسان او جنان يقدر على وصف مواهبه و إسعافه ولقد دعونا العقل إلى الكشف فذهل فدعونا القلب إلى الوصف فرجل فدعونا اللّسان إلى البيان فاستقال فدعونا القلم إلى الإمكان فذلّ و تزلزل و زال فدعونا الجوارح جارحة بعدجارحة فشردت عنّا هاربة ونازحة فاستسلمنا لمّا يدلّ عليه لسان الحال من كمال ذلك الإقبال واستغنّا بصاحب القوّة المعظّمة لذاته أن يعرّفنا قدر ذلك اليوم السعيد وجسيم هباته وصلاته وان يعلّمنا كيفيّة الشكر على ما عجزنا عن وصفه ويلهمنا كشف ما أقررنا بالقصور عن كشفه و يقبل بنا على ما يزيد من القبول و تعظيم المرسل والرّسول .

وسايل الارتباط قسّم الأديب الانجليزي ه . ج ولز تاريخ الإنسانيّة إلى خمسة ادوار قبل الكلام الكلام الكتابه الطباعة الميكانيكا و الكهرباء وليست هذه الادوار فيحقيقتها إلاّ الوسائل الّتي استطاع الإنسان بهاالاتّصال بأخيه الانسانوالتفاهم معه في شؤون الحياة المادّية و الفكريةولم يكتف الّذين على قيد الحياة منهمبالاتّصال والتعاون بلعملوا بواسطة الأدب وبقيّة الفنون الرفيعة الاخرى على الاتّصالبالاجيال اللّاحقة فسجلوا افكارهم وعواطفهم وأخيلتهم بل وطرائق معيشتهم وبذلك ساعدوا تطوّر الإنسانيّة كما حفظوا معظم تراثها على الأجيال والعصور .

ونحن إذا حاولنا تطبيق هذه الوسايل الّتي ذكرها ولز على حواس الانسان نجد الكلام يعتمد على السمع في وصوله إلى العقل و نجد الكتابة و الطباعة تعتمدان على النظر .كما نجد بعض المخترعات الحديثة ـ في عالم الفنون تعتمد علي الحاستين معا كالسّينما الناطقة الّتي تعرض على أبصارنا المناظر و الاشخاص و على آذاننا الحديث و الموسيقي . الا انّ المخترعات الاخرى تقوم على احدىالحاسّتين كالتلغراف اللاسلكى و السلكى والتليفون والراديو ....

وكلّ مورخي الاداب متّفقون على انّ الكلام و الالقاء كان لهما شأن كبيرفي العصورالقديمة فانت تعرف كيف كان ينشد هوميروس الياذته في بداوة اليونان و تعرف كيف كان العرب يجتمعون في سوق عكاظ يتنافسون في القاء الخطب و انشاد القصائد و

لعلّك سمعت هؤلاء الشعراء الجوّالين الّذين يقصون على أبناء الريف أخبار الهلاليّة و الزمانيّة وما إليها واخترعت الكتابة و تطورت على الزمن من الصور الى الرموز أو الحروف ونافست الكلام والالقاء وتغلبت عليهما لانّهما يذهبان بذهاب قائلهما أوسامعهما فإذا وجد من يرويهما فان تنقل الرواية في العصور يجعلهما عرضة للنقص و الاضافة و التحريف اما الكتابة فمحفوظة في الأوراق و الكتب باقية يستفيد الناس منها .

و جاءت الطباعة فاظهرت الكلمة المكتوبة على الكلمة الملفوظة فاذا بالخطباء و الشعراء والكتاب والعلماء وكلّ من له فكر اوخلجة . اذا حاضر لايقتصر الواحدمنهم على جمهوره من السامعين بل يرسل كلمته إلى الصحف والكتب وكما ساعدت الميكانيكا و الكهرباء والطباعة في مضاعفة الانتاج وسرعته كذلك ساعدت في الوقت نفسه في سرعة الانتشار و التوزيع أو قل ساعدت الناس فيسرعة الاتّصال الفكرى والمادى .

فإذا كان الناس قد استطاعوا السفر باجسامهم و متاعهم إلى بلد و قطر فكذلك استطاعت افكارهم ان تعبر المحيطات و ان تصعد الجبال و ان تنحدر في الاودية و السهول .

و المخترعات لم تساعدا الكلمة المكتوبة فقط وانما ساعدت الملفوظة أيضاً ساعدتها بتسجيل الاصوات وانتقالها في الاسلاك و طبقات الهواء .

و على هذا فان اهمّ أثر للإذاعة اللاسلكية في الأدب سيكون من غير شك بمثابة النهوض بالكلام على حساب الكتابه والطباعة .

اللغات والاذاعة ولا يعزب عن بالنا ان الكتابة عند ما ظهرت حاولت تحطيم القيود الّتي كانت تفصل الجماعات الانسانيّة بعضها عن بعض لأنّها كانت ولا تزال من أكبر العوامل في تعاطف الناس و تعاونهم . بيد ان المنافسة بين اللّغات قامت و اشتدّت تبعاً لتنافس الجماعات فكان لا بد من تغلب احدي اللّغات و لعلّها كانت لغة السادّة أو الحكام أوالفاتحين . و هما يكن من شيء فقد كانت لغة المتغلبين تسود بسيادة أصحابها مثال ذلك تغلب اللاتينيّة في الكتابة و العلم في الغرب وتغلب اليونانيّة ثمّ العربيّة في الشرق الا ان اللّغات الاخرى لم تندثر وإنّما انكمشت في حدود البلدان الّتي تنطق بها .

و اللّغات في نضالها كالامم والافراد :ؤثر كلّ واحدة منها في الاخرى بالذات أو بالواسطة وجرت العادة ان تكون اللّغة الغالبة لغة الادب والثقافة أو بعبارة اخرى . لغة الكتابه و التأليف كما تصبح اللّغة المغلوبة لغة الكلام و الحديث لغة الحياة اليومية في المنازل والاسواق ومن هنا نشأت هذه المشكلة الّتي لاتزال قائمة في معظم الامم و الّتي تختلف قوّة وضعفا باختلاف البيئات و الثقافات . وهي الفرق الواضح بين لغة الكتابة و لغة الحديث أو كما نعرفها نحن في مصر والشرق العربي. الفرق الواضح بين اللهجة الفصحى و اللهجة العامية .

و من البديهي ان الإذاعة اللاسلكية لا تقوم على اللّغات المحلّية . و انّما تقوم في اغلب الاحيان على اللّغات الغالبة الواسعة الانتشار و هي بعينها لغات الثّقافة والأدب.

ومن البديهيّ ان الراديو ينتشر بسرعة عظيمة جداً فلن يمضي طويل وقت حتّى نرى أجهزة الراديو تتغلغل في الريف كما تغلغلت في المدن وسيكون لهذا نتيجته المنطقيّة المعقولة وهي محو هذا الفرق (بالتدريج) القائم بين اللهجات الفصحى والعامية الدارجة .

و ليس من شك في ان السنة العامّة ستقوّمها هذه الاذاعة لانّهم سيعملون على محاكاة الراديو راغبين ام كارهين في نطق الالفاظ . كما انّهم سيأخذون منه الكثير من الجمل و التعابير و بهذا يتخلصون من خصائص لغاتهم المحلّية .

اثر الاذاعة فى الخطابه

وكانت الخطابة في دور الكلام ـ ولناخذ تعبير ولز هي الوسيلة الاولى في الإقناع والتأثير وكان الوعظ الدينى لايقوم إلا عليها . كما كانت المنافسة السياسية لاتجد ماتعتمد عليه سواها . ولكنّها بعد ظهور الطباعة والصّحافة قدضعفت شيئاً فشيئاً ولم تكن تنتعش إلاّ في أوقات الثّورات كما كانت تستيقظ في زمن الانتخاب وما اليه من المناسبات الّتي تدعو العامّة إلى الاجتماع . وقد فقدت مكانتها الرفيعة الّتي كانت لها بين الأنواع الادبيّة فاذا ظهر الراديو قوى هذا النوع الادبي واشتدّ ساعده فانت اذا قلّبت الصحف اليومية تقرء ان فلان خطب انصاره في الراديو وان "الاستاذ تحدث إلى الباحثين في الراديو و ان". وان". والخطب الّتي تلقى في المؤتمرات الدوليّة الهامة تذاع على الملائين بواسطة الراديو وليس علينا إلاّ ان ننتظر قليلا حتّى نسمع ونحن جلوس على مقاعدنا الوثيرة المريحة

و في غرفنا الدافئة الهادئة خطباء موهوبين لا يقل الواحد منهم في شيء عن ديموستين وشيشرون وسحبان .

وما نقوله عن الخطابة نقوله عن شقيقتها المحاضرة الّتى لم تصبح مقصورة على المعاهد والجمعيّات العلميّة بل اتسع نطاقها بفضل الراديو واصبحت ربّة المنزل تسمع المحاضرات في التدبير المنزلى كما يسمع زوجها المحاضرات في العمل والعمّال بل كما وجدت السلطات الّتى تقوم على الصحة العامّة وسيلة ايجابية نافعة في نشر الدعوة الصحّية

أثرها فى الشعر واثر الاذاعة اللاسلكية في الشعر اكبر من اثرها في الخطابة والمحاضرة ذلك لإن الشعر كان قد اصبح فناً اثريا قلّما يعنى به النّاس لغلبة التفكير المادى على العاطفة و سيادة الحياة الميكانيكية على الحياة الروحيّة ولكن كلما بعد عهد الناس بالحرب الكبرى وآثارها ونتائجها عادوا إلى المتاع الروحى يلتمسونه عند الفنانين من الموسيقيين والشعراء والرّسامين وآية ذلك هذه الانتعاشة الّتى نشاهدها في جميع ميادين الاداب والفنون حتى بات الذين كانوا يظنون أن دولة الأدب قد دالت وان العلم التجريبي المادّى هو كلّ شيي في هذا العصر (١) يؤمنون بأن آثار الحرب الكبرى كآثار كلّ حرب - وقتيّة تزول بزوال مؤثراتها وانّ شعور الإنسان هو شعور الإنسان في كلّ زمان لا يمكن ان يصيبه التغيّر او الفناء عاد النّاس يهتمّون بالشعر والأدب فلم يكن بدّ للّذين يقومون على الاذاعة اللاسلكيّة من ان يساهموا في احيائه وقد قامت شركة الإذاعة البريطانيّة بالتجارب والتحريات فصحّ لها انّ النّاس على عهدهم في الإهتمام بالشعر ولمّا كان لابد من الالقاء والانشاء فقد ظهر الشعر الغنائى بمقطوعاته القصيرة ثمّ زاوجوا بين الشعر والموسيقى واختاروا ذوى الاصوات السليمة لالقاء الشعر والشعر العربي سيتأثّر بالإذاعة اللاسلكية ، ما في ذلك شك . فعلى الشعراء ان يوجّهوا عنايتهم إلى الشعر اللاسلكى - (إذا صحّت هذه التسمية) الّذي يعتمد على التأثير والموسيقى والعاطفة ونحن نميل إلى ان شعراء المعانى لن يجدوا النجاح الّذي سوف يجده شعراء العواطف والاخيلة والاوزان.

---

(١) وكان الفاضل مينورسكى يشتكى الانكليز فى لندن بأنهم عزلوه عن درسه بل ازالوه عن مقامه مع مكانته فى الادب العربى لانهم لايحترمون الادب ولكنهم يهتمون بما ينفعهم فى الحرب .

القصة و نقد الكتب وقداهتم الاروبيون الّذين يقومون على الإذاعة اللاسلكيّة بقيّة الفنون الادبية الاُخرى فلم يغفلوا القصة واختاروا الاقصوصة الصغيرة الواضحة ذات المغزى الّتي لايقصد بها المؤلّف اشباع شهوة الكتابة في نفسه وانّما يقصد بها الوعظ الخلقى أوا الدّينى أو الإجتماعى كما أذاعوا الاقاصيص الفكهة و الصور الادبيّة (الكاريكاتر) الخفيفة المحببة إلى النفوس .

دفاع وخطابة أبوالكلام : زعيم كبير من علماء الإسلام في الهند وخطيب مفوّه أثار الرأى العام على الانكليز فحوكم في المحكمة الانكليزية و قد القى أمام الحكّام خطبة دفاعيّة مسهبة أظهر فيها جرأة عظيمة .

موقف اصحاب الحق امام المحاكم

إنّ هذه الحالة مثل ساير حالات عصرنا ليست بفذّة فالتاريخ شاهد على انّه كلماطغت القوات الحاكمة ورفعت السلاح في وجه الحريّة و الحقّ كانت المحاكم آلات مسخّرة بايديها تفتك بها كيف تشاء وليس هذا بعجيب فإن المحاكم تملك قوّة قضائيّة و تلك القوّة يمكن استعمالها في العدل والظلم على سواء فهي في يد الحكومة العادلة اعظم وسيلة لاقامة العدل و الحقّ و بيد الحكومات الجايرة اقطع آلة للانتقام و الجور و مقاومة الحقّ والإصلاح .

والتاريخ يدلّنا على ان المحاكم كانت مسارح للفظاعة والظلم بعد ميادين القتال فكما أهرقت الدماء البريئة في ساحات الحروب حوكمت النفوس الزكية في ديوانات المحاكم فشنقت وصلبت وقتلت والقيت في غياهب السجون وليس هنالك عصبة صالحة محبّة للحقّ من الأنبياء والحكماء والعلماء والصالحين إلاّ ونراها واقفة كالجناة و المجرمين في قاعات المحاكم إمام القضات . نعم انّ كرالايّام و مرّ العشي قدمحا كثيراً من مساوى العهد القديم . فلا يوجد الان شيئي من المحاكم الرومية للقرن الثاني المسيحى ولا جمعيات التفتيش السرّية الّتي كانت في القرون المتوسطة ولكنى لااستطيع الإعتراف بأنّ عصرنا هذا قد نجا من تلك العوامل النفسّية الّتي كانت تعمل في تلك المحاكم ـ حقاً ان تلك الابنية الّتي كانت مكامن للاسرار الرهيبة قد دكت دكّا . ولكن

من ذاالّذي يقدر انّ يقلب تلك القلوب الّتي تكمن فيها تلك الأسرار المخيفة لحبّ الذات والظلم .

مقام عجيب ولكنه عظيم

انّ جدول مظالم المحاكم وفظائعها طويل عريض . تلك المظالم الّتي لم يفرغ التاريخ إلى الآن من البكاء منها - فترى فيه إسم المسيح الانسان الكامل الّذي اوقف مع اللصوص في محكمة اجنبيّة . وسقراط الحكيم الّذي اضطر إلى شرب كاس السّم لانه كان أصدق رجل في بلاده . وكذا فلورنس غاليله الّذي لم يكذب مشاهدته العلميّة لانها كانت جناية في عين القضاة والمحاكم - وصفت المسيح بالإنسان الكامل لاني اعتقد انه إنسان . ولكن الملائين من النّاس يعتقدون انه فوق هذا - اذن ما اعجب قفص الجناة وما اعظم شأنه انّه موقف للصنفين معاً : الأبرار والأشرار حتى أنّه كان لائقا بهذا الوجود العظيم .

الاعتراف بالجناية انّ الاستبداد الّذي ابتليت به الهند نوع من ذلك الاستبداد الّذي يصيب الأمم في طور ضعفها ووهنها وهو من طبعه يبغض الحركة الوطنيّة والحريّة والمطالبة بالحقوق بغضاً شديداً .لانه يعلم اذا نجحت سقطت قوته الظالمة وامحى وجوده الفاحش وما من وجود يحبّ سقوط نفسه و زواله مهما يكن زواله ضرور يا في عين الحقّ والانصاف فالتدافع بين الحرّية والاستبداد تنازع للبقاء وتزاحم في الحياة كلّ من الفريقين يجدّ ويكّد للفوز والبقاء ،الأمّة تريد ان تنال حقها المغصوب والإستبداد يأبى عليها ولا يريد التز حزح عن مقامه ولاتثريب عليه لانه - وان،كان وجوده خلافا للحقّ يدافع عن نفسه وحياته وليس لنا ان ننكر مقتضيات الطبيعة فكما يسعى الخير لبقائه يسعى الشرّ ايضاً ومهما يكن ملوما في نفسه لايلام على رغبته في الحياة .

وقد بدء التزاحم في الهند بين هاتين القوّتين الحرية والاستبداد - فليس ببدع ان تكون الحرّيّة والمطالبة بالحقوق جناية في عين الاستبداد وانّ يكون محاربو وجوده الباطل جناة وآثمة واهلاً للعقاب الشديد - فما دام الامر كذلك فإنّي اعلن على مسمع من المحكمة والحكومة بانّني انّا قدارتكبت هذه الجناية ارتكاباً واقترفتها اقترافاً وان كانت الحكومة لاتعلم وهي لتعلم- فلتعلم-الآن إنّي من اولئك الجناة الّذين بذروا بذور هذه

الجناية في قلوب اُمّتهم . و وقفوا حياتهم على سقيها و تنميتها وتثميرها بل انّى ولا فخر ـ اوّل مسلم في الهند دعا امّته من اثنتي عشرة سنة الى هذه الجناية دعوة عامة وحوّل و جهتها في خلال ثلاث سنوات عن العبوديّة الّتي كانت الحكومة زيّنتها لها إلى الحرّيّة الّتى قد اشرقت شمسها الان ولم تنكسف أبداً . فان كنت آثما في زعمها فلتعاقبني ماشاءفها انا ذا معترف بالجناية بصدر رحب ولسان طلق غير جزع منها ولا نادم عليها لانّ هذا ماكنت أتوقعه واعرفه من قبل .

الحكم الشخصى ظلم بالذات إنّي اعتقد انّ الحرّية حقّ طبيعى لكلّ إنسان ولكل امّة فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها ـ و ليس لشخص أو حكومة ان تستعبد عباد الله وتتّخذهم خولاً وسم الاستعباد والرّق بأي إسم شئت غير أنّه على كلّ حال استعباد ورق ومشيّة الله وناموسه يمقته وينفيه وإنّى لأجله لااعترف بالحكومة الهنديّة بل أعدّها حكومة غير شرعيّة لانها مستبدّة طاغية استعبدت البلاد وقهرت العباد داست الشرايع وخانت المواثيق ليسخطها الشعب ويمجها الحقّ فهي معدومة في نظر الاُمّة وإن كانت موجودة بقوّة السّلاح وأرى واجباتي الدينيّة و الوطنيّة و الانسانيّة تطالبني بأن احرّر بني جلدتى من رقّها وعبوديّتها الشائنة و قد كانوا يعتقدون انّ الحقّ للقوّة والتسلّط والقهر والغلبة ولكن الإسلام بمجرد ظهوره أعلن انّ الحقّ ليس في القوّة ولاهو القوّة بل الحق هو الحقّ وانّه ليس لاحد من البشر ان يعبّد عباد الله ويذّلهم ويسخّرهم ثمّ قضي على ساير الامتيازات والمناصب المؤسّسة على الغلبة القوميّة والجنسيّة قضاء تامّاً وبيّن ان النّاس كلّهم متساوون في الحقوق متساوون في الحياة وليس اللون والجنس والنسل معياراً للفضل والحسب وانّما معياره العمل وحده فاعلاهم قدراً واكرمهم حسباً احسنهم عملاً واتقاهم لربّهم يا ايّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر و انثى و جعلناكم شعوباً وقبايل لتعارفوا انّ اكرمكم عند الله اتقاكم .

و لعمري انّ المطالبة من مسلم بان يسكت عن الحقّ ولا يسمّى الظلم ظلماً مثل مطالبته بان يتنازل عن حياته الاسلاميّة فان كنتم لا ترون لأنفسكم ان تطالبوا أحداً بان يرتدّ عن دينه فليس لكم ان تطالبوا مسلما بأن يمتنع عن قوله للظلم إنّه

ظلم لانّ معنى كلتا المطالبتين واحد انّ التصديق بالحقّ واعلانه عنصرضرورىّ للحياة الاسلاميّة فان فصل عنها فقدت اكبر ماتمتاز به لانالاسلام اسّس قوميّة المسلمين عليه وجعلهم شهداء الحقّ على العالم كلّه فكما يجب على الشاهد ان لايتوانى في اداء شهادته كذلك يتحتم على المسلم ان لا يتعتع في اعلاء الحق ولا يبالى في اداء فرضه بمصيبة و ابتلاء بل يصدع به حيثماكان ولولاقى دونه الحمام - وتصير هذه الفريضةأوكدواوجب عند ما يسود الظلم و الجور و يمنع الناس من اعلان الحق بالعنف و الشدّة لأنّه ان أجيز السكوت عنه خوفا من بطش الجبّارين الّذين يقطعون الالسنة ويفتنون الابدان بأنواع من العذاب يصبح الحقّ في خطر دايم ولا يبقى لظهوره وقيامه من سبيل مع ان ناموس الحق فوق القوّة وليس بمحتاج في ثبوته إلى تصديق القوّة ولا يضرّه سكوت الناس عنه قاطبة بل إنّه يظلّ على كلّ حال حقاً حقاً عندمانجد في سبيله مانحبّ ونشتهى وحقاً عند ما يكون دونه الموت الزؤام و هل تصير النار برداً والثلج ناراً لاننانحبس و نسجن قال النبيّ ﷺ من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده فان لم يستطع فبلسانهفان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان و حيث اننالسوء حظّنا لانقدرفيهذه البلادعلى تغيير منكرات الحكومة بايدينا لجائنا إلى الدرجة الثانية الّتي في وسعنا وهي أن نعلن بالسنتنا ظلمها و مساوئها و نندّد بمثالبها ونشهّر بمعايبها قد كان من حيث سفيان إنّه لما آتاه الرسول بكتاب الخليفة كان فيمسجد الكوفة وحوله أصحابه فرمى إليه الرسول الكتاب فلمّا رآه ارتعد و تباعد منه كانه حيّة عرضت له : ثمّ ادخل يده في كمه ولفّها بعباتهواخذ الكتاب فقلّبه بيده ثمّ رماه إلى من كان عنده و قال يأخذه بعضكم يقرؤه: فانى استغفر الله ان أمسّ شيئاً مسّه ظالم بيده فلمّا فرغ من قراءتة قال اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فقيل له يا أبا عبدالله انّه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقيّ فقال اكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه فان اكتسبه من حلال فسوف يجزى به و إن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شيء مسه ظالم عندنا فيفسد علينا ديننا ثمّ قال اكتبوا ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى العبد المغرور بالامال هرون الرشيد الّذي سلب حلاوة الايمان أمّا بعدفانّي قدكتبت إليك اعرفك ان قد صرمت

حبلك و قطعت ودك وقليت موضعك فانّك قد جعلتني شاهداً عليك باقرارك على نفسك في كتابك بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفذته في غيرحكمه ثمّ لم ترض بما فعلته وأنت ناء عني حتّى كتبت إلي تشهدني على نفسك ـ اما انّي قد شهدت عليك أنا واخواني الّذين شهدوا قراءة كتابك و سنؤدى الشهادة عليك غداً بين يدى الله تعالى ـ يا هرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك المؤلّفة قلوبهم و العاملون عليها في أرض الله و المجاهدون في سبيل الله وابن السبيل ام رضى بذلك حملة القرآن و أهل العلم والأرامل و الايتام أم هل رضى بذلك خلق من رعيتك فشد يا هرون مئزرك واعد للمسألة جواباً وللبلاء جلبابا و اعلم انّك ستقف بين يدى الحكم العدل فقد رزئت في نفسك إذ سلبت حلاوة العلم و الزهد ولذيذ القرآن و مجالسة الاخيار ورضيت لنفسك ان تكون ظالماً و للظالمين إماماً يا هرون قعدت على السرير ولبست الحرير و اسبلت ستراً دون بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ثم اقعدت أجنادك الظلمة دون بابك و سترك يظلمون الناس ولا ينصفون : أفلا كانت هذه الاحكام عليك و عليهم قبل ان تحكم بها على الناس فكيف بك يا هرون غداً إذا ناد المنادى من قبل الله تعالى احشروا الّذين ظلموا و ازواجهم اين الظلمة و اعوان الظلمة فقدمت بين يدي الله تعالى ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلّا عدلك و انصافك والظالمون حولك وأنت لهم سابق وامام إلى النّار كانّى بك يا هارون وقد اخذت بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك وسيّئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيّئاتك بلاء على بلاء و ظلمة فوق ظلمة فاحتفظ بوصيّتي واتّعظ بموعظتي الّتي وعظتك بها و اعلم انّي قد نصحتك وما ابقيت لك في النصح غاية والسلام .

فلمّا وصل هذا الكتاب إلى هرون أقبل يقرأه ودموعه تنحدر !

ولم يكن العلماء والأئمّة هم الّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وحدهم بل كان يوجد إذ ذاك من دهماء المسلمين وعامتهم من يؤدّى هذه الفريضة بكل شجاعة و رباطة جاش فبينما كان الخليفة المنصور العبّاسيّ يطوف بالبيت (نقلناه في محلّه).

فهكذا كان المسلمون في الأيّام الأولى يتقرّبون إلى مولاهم بتعرضهم للملوك و

السلاطين وتخشينهم لهم في القول و تقديم مهجهم للهلاك ولقد ظلوا على هذه الوتيرة بعد ولا يزال يوجد فيهم الربّانيّون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حتّى يأتي أمر الله كما ورد في الخبر لايزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لايضرّهم من خذلهم حتّى يأتى امر الله وهم ظاهرون .

أيّها القاضي لقد طال الحديث وآن أوان الوداع فليودّع كل منّا صاحبه وان ما يدور الآن بيننا سيسجّله التّاريخ بين دفاتره ويعتبر به المعتبرون ولقد تشاركنا في ترتيبه على سواء انا من هذا القفص للجناة و أنت من ذاك الكرسيّ للقضاة وإنّي عالم بانّه لا بد من هذا الكرسيّ و القفص فهلّم بنا نفرغ من هذا العمل الّذي سيكون عبرة وتذكرة للآتين فالمؤرخ ينتظرنا والمستقبل يترقب فراغنا لنسرع في المجيىء إليك وتسرع في القضاء علينا وان هذا لا يطول حتّى يفتح باب لمحكمة اخرى فيها قانون الله قضائه حقّ وحكمه نافذ فكانت النتيجة ان برّأته المحكمة بعد هذا الدفاع .

خطابة حربية اطلقت العرب على الاندلس اسم الجزيرة من باب التغليب كما أطلقت اسم الجزيرة على شبه جزيرة العرب فتحوها على يد موسى بن نصير وطارق بن زياد تقدّم طارق بن زياد البربرى من برّ العدوة في اثنى عشر ألف فارس من البربر وبعض العرب صيّرها عسكرين قاد احدهما بنفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق به إلى اليوم وقاد الآخر طريف ابن مالك النخعي و نزل بمكان مدينة طريف فسمي به إلى اليوم .

قيل إنّ الطارق أحرق السفن الّتي حملت جيشه في هذا الزقاق بين العدوتين وخطب جيشه لما اطلّ عليه جيش صاحب طليطلة وممّا قال .

أيّها النّاس أين المفرّ والبحر من ورائكم والعدوّ إمامكم وليس لكم و الله إلّا الصّدق والصبر واعلموا انّكم في هذه الجزيرة أضيع من الايتام في مأدب اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه و أسلحته و أقواته موفورة و أنتم لاوزر لكم غير سيوفكم ولا اقوات لكم إلّا ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم وان امتدّت بكم الايّام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم و تعوّضت القلوب برعبها منكم الجراة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية. إلى أن قال واعلموا انّكم

إن صبرتم على الاشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفس فيما حظكم فيه أوفر من حظي ، وقد بلغكم ما انشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك من الأبطال عربانا و رضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهاراً واختاناً و أوّل من دخل الاندلس مع طارق بن زياد نحو ثلاثمأة من العرب و زهاء عشرة الآف من البربر فلمّا تمّ الفتح ارسل الأمويّون قبائل من الشام أنزلوها في كور مخصوصة من بلاد الاندلس و جعلوا لهم ثلث اموال اهل الذمة طعمة. فنزل في البيرة جند دمشق من مضر و نزل رية جند الأردن وهم من يمن كلهم وابقت العرب سكان البلاد على قضائهم وادارتهم وقلدوهم بعض الوظايف ثمّ وسدوا إليهم الجليل منها فأحب الاسبانيون العرب محبّة خالصة لما رأوا من تسامح الفاتحين و تفانيهم في نشر العدل بين الناس فلم يمض قرن حتّى اخصبت القرى وكثرت المزارع واتّصل العمران و تزاحم الناس بالمناكب في المدن وامست قرطبة عاصمة الخلافة الاندلسية كعواصم اوربا اليوم تنار بالمصابيح ليلا و يستضيء الماشي بسرجها ثلثة فراسخ لاينقطع عنه الضوء و غدت قرطبة عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها الفاً و ستّمأة فيها مائتا الف دار وثمانون الف قصر اجتمع عند المنصور ايّام خلافته جماعة من ولد ابيه منهم عيسى بن موسى و العباس بن محمّد و غيرهما فتذاكروا خلفاء بني اميّة والسبب الّذي به سلبوا عزّهم فقال المنصور كان عبد الملك جبّاراً لايبالي ماصنع وكان الوليد لحانا مجنونا و كان سليمان همّته بطنه و فرجه وكان عمر اعور بين عميان وكان هشام رجل القوم ولم يزل بنواميّة ضابطين لما مهّد لهم من السلطان يحوطونه و يصونونه و يحرسون ماوهب الاسلام لهم مع تسنّمهم معالي الامور ورفضهم أدانيها حتّى افضى امرهم إلى احداث مترفين من ابنائهم فغمطوا النعمة ولم يشكروا العافية واساؤا الرّعاية فابتدأت النقمة منهم باستدراج الله ايّاهم آمنين مكره مطرحين صيانة الخلافة مستخفّين بحقّ الرّياسة ضعيفين عن رسوم السّياسة فسلبهم الله العزّة والبسهم الذّلة وازال عنهم النّعمة سأل المنصور [1] ليلة عن عبدالله بن مروان بن محمّد فقال له الرّبيع في سجن امير المؤمنين حيّاً

(١) شرح نهج البلاغه لابن ابى الحديد و تذكرة العوام لقطب الدين الكيذرى فى مكتبة ملك وانا استنسختها لنفسى وموجود عندى .

فقال المنصور قد كان بلغنى كلام خاطبه به ملك النّوبه لماقدم دياره وانا احبّ أن أسمعه من فيه فليؤمر باحضاره فاحضر فلما دخل خاطب المنصور بالخلافة فامره المنصور بالجلوس فجلس وللقيد في رجله خشخشة قال احبّ ان تسمعنى كلاماً قاله لك ملك النوبة حيث غشيت بلاده قال نعم قدمت إلى بلد النّوبة فأقمت ايّاما فاتّصل خبرنا بالملك فارسل الينا فرشاً و بسطاً و طعاماً كثيراً وافردلنا منازل واسعة ثم جاءنى و معه خمسون من اصحابه بايديهم الحراب فقمت اليه فاستقبلته و تنحّيت له عن صدر المجلس فلم يجلس فيه وقعد على الاوض فقلت له ما منعك من القعود على الفرش قال انّى ملك وحقّ الملك ان يتواضع لله و لعظمته اذا رأي نعمة متجدّدة عنده . ولما رأيت تجدد نعمةالله عندي بقصدكم بلادى واستجارتكم بى بعد عزّكم و ملككم قابلت هذه النعمة بما ترى من الخضوع و التواضع ثمّ سكت و سكّت فلبثنا ماشاءالله لايتكلّم ولا أتكلّم واصحابه قيام بالحراب على رأسه ثمّ قال لى لما ذا شربتم الخمر و هي محرّمة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا بجهلهم قال فلم وطأتم الزّروع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم و دينكم قلت فعل ذلك اتباعنا و عمّالنا جهلا منهم قال فلم لبستم الحرير و الديباج و الذهب وهو محرّم عليكم في كتابكم ودينكم قلت استعنّا في اعمالنا بقوم من ابناء العجم كتّاب دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك اتّباعاً لسنّة سلفهم على كره منّا فاطرق مليّاً إلى الارض يقلّب يده وينكت الأرض ثمّ قال عبيدنا و أتباعنا وعمّالنا و كتّابنا ما الامر كما ذكرت ولكنّكم قوم استحللتم ماحرّم الله عليكم وركبتم ماعنه نهيتم وظلمتم فيما ملكتم فسلبكم الله العزّ والبسكم الذّل و انّ له سبحانه فيكم لنقمة لم تبلغ غايتها بعد وانا خائف ان يحلّ بكم العذاب وأنتم بارضى فينالنى معكم والضيافة ثلاث فاطلبوا مااحتجتم إليه وارتحلوا عن ارضى فاخذنا منه ما تزوّدنا به وارتحلنا عن بلده فعجب المنصور لذلك وامر باعادته إلى الحبس .

الاسلام والتمدن : طلع التمدّن الإسلامي في الشرق و أهل الغرب غارقون في الاعصر المظلمة فلما نضج هذا التمدّن في بغداد والقاهرة و قرطبة وطليطلة وتماسّ أهل

البلدين على الحدود بينهما في الاندلس و صقليّة و إيطاليا و رأى الغربيون ما بلغ اليه المسلمون من العلم و الفلسفة والابّهة و الحضارة وغيرها من اسباب العمران عمدوا إلى الاقتداء بهم و الأخذ عنهم فتعلّموا لسانهم و قرأوا كتبهم و نقلوا علومهم ـ بدأوا بذلك من اواسط القرن العاشر للميلاد (نحو القرن الرابع الاسلامى) و التمدن الاسلامى على ارقى درجاته في الاندلس وقد انشئت المدارس في طليطلة و قرطبة فتقاطر اليها الطلبة من الافرنج يتلقّون العلم باللغة العربيّة كما تتلقّاه اليوم باللغات الغربيّة فلمّا أخذوا منها بنصيب عمدوا إلى نقلها و اقدم المقتبسين من علوم المسلمين الرهبان لانحصار العلم يومئذ في الأديار وأوّل من اشتهر بذلك منهم البابا سلفستر المتوفى ١٠٠٣ للميلاد قدم قرطبة في أواسط القرن العاشر قبل أن يتسنّم عرش البابوية و كان اسمه جربرت فتلقى الرياضيّات والفلك و اشتغل بسائر العلوم و الّف كتباكثيرة ويليه الراهب كراف هرمان فون فهر نجن المتوفى ١٠٥٤ ثمّ قسطنطين الافريقى .

فلمّا كانت الحروب الصليبيّة في أواخر القرن الحادي عشر واهتزّت اعصاب العالم و تحاك القوم بالمسلمين في الشام و مصر و خالطوهم ورأوا علومهم و آدابهم و مدارسهم و ساير اسباب تمدّنهم زادت رغبتهم في نقل العلوم و المعارف و كثر العاملون على تعلّمها و نقلها ولا سيّما الطبيعيّات و الطبّ و الرياضيّات و الفلسفة فاخذوا ينقلونها إلى اللاتينيّة لغة العلم في ذلك العصر ومن اشهر المشتهرين بالنقل ادلاردوس باتونيا نسنس المتوفى في اواسط القرن الثاني عشر و يوحنّا اكريانوس و يوحنا اسبانوس وقد نقل هذا من العربيّة إلى اللاتينيّه نحو عشرين مؤلّفا من كتب ابن سينا والفرغانى والطوسى و البلخى و غيرهم من حكماء الاسلام و فلاسفة المسلمين و منهم كونه يسلانى رئيس لجنة المترجمين الّتى شكلها ريمون اسقف طليطله لنقل العلم من العربيّة إلى اللاتينيّة فنقلت بعض كتب ابن سينا و الفارابى و الغزالى و تيبورتنيس مترجم بعض كتب الحرّانى الكيمياوى و روبرتس ريتنس و هرمانوس دلماتا . ثمّ جيراردوس كريمونيس المتوفّى في أواخر القرن الثاني عشر وهو أكثر أهل ذلك العصر اشتغالا في نقل الكتب العلميّة من العربيّة إلى اللاتينيّة ذكروا انّه نقل نيفاً و سبعين كتاباً في المنطق و الهندسة

و الفلك و الفلسفة و الطبيعيّات و الكيمياء و الطبّ فكأنّه نقل معظم كتب العلم و الثقافة ممّا ألّفه أكبر علماء المسلمين كابن سينا و الفارابي و الخوارزمي و الرازى و الكندى واولاد شاكر وابن الهيثم والزهرى وماترجمه اشهر تراجمة العلم في العصر العباسي كحنين و ثابت من كتب ارسطو و جالينوس و بقراط .

و ربما زاد عدد المترجمين من الافرنج في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر على بضعة و ثلاثين رجلاً من اعاظم العلماء ، والتراجمة نقلوا كتب العلم والفلسفةمن العربيّة إلى اللاتينيّة كما نقلها المسلمون قبل ذلك ببضعة قرون من اليونانيّة إلى العربيّة على انّ اشتغال الافرنج باللّغة العربيّة على ماتقدّم إنّماكان قاصراً على نقل العلوم الدخيلة و قلّما تصدّى أحد منهم العلوم الإسلاميّة اوآداب اللّغة العربيّة ـ وكأنّهم أجّلوا ذلك حتّى هضموا ما ترجموه و تمثّل في أذهانهم فلمّا تمّ لهم هضمه و نضج علمهم و نشاء تمدّنهم الحديث بعد اختراع الطباعة و اكتشاف الدّنيا الجديدة و انشاء المدارس العالية نظروا في الشرق و علومه في أوائل القرن السابع عشر نظرة تختلف عن نظرتهم الأولى اختلافا كلّياً لانّهم في الاولى اشتغلوا بعلوم المسلمين اشتغالهم بالضرورى اللازم فاستضاؤا بها في خروجهم من ظلمة الاجيال الوسطى و هم يعدّون أصحاب تلك العلوم أساتذة لهم يقتدون بهم في انشاء تمدّنهم الحديث . امّا نظرتهم الاخيرة فعلى الضدّ من ذلك لانّهم كانوا قد تقدّموا و تأخّرنا واينع تمدّنهم و ذبل تمدّننا واستنارت عقولهم و أظلمت عقولنا فأخذوا يبحثون بين انقاض تمدّننا فيما بقي من رفات علومنا وآدابنا ليدرسوا تاريخنا و يطلعوا على ما كان من نظام الاجتماع عند اسلافنا . فكانت نظرتهم الثانية تشمل البحث في تاريخ الشرق و اخلاق الشرقين و النظر في علومهم الدينيّة و و آدابهم الاجتماعيّة ولا يتيسّر لهم ذلك إلّا بالاطّلاع على ماخلّفه المسلمون من كتب الدّين و الأدب و كانت دول اروبا قدنهضت لاحياء لغاتها فاخذوا في درس تلك الكتب او ترجمتها فكان أكثر ما نقلوه إلى لغاتهم الحديثة الفرنساوية و الايطالية و الانجليزيّة و غيرها و سمّوا بالمستشرقين و ينقسم اشتغالهم بالشرق و تاريخه و آدابه إلى ثلاث درجات :

١ ـ نشر الكتب العربيّة بالطباعة أو الاحتفاظ بها خطّاً في المكاتب والمتاحف بعد ان كادت تذهب بها يدالزمان .

٢ ـ نقل بعض هذه الكتب إلى ألسنتهم .

٣ ـ التاليف في تاريخنا و آدابنا من عند أنفسهم بعد درس تلك الكتب و اقدم ما اشتغلوا بطبعه هو ترجمة القرآن و سيرة النبيّ بدأوا بذلك من القرون الوسطى بقصد الطعن في الإسلام والمسلمين اثناء الحروب الصليبيّة فجاءت مؤلّفاتهم الاُولى محشوّة بالمطاعن و المفتريات حتّى اذا تمدّنوا وتعوّدوا البحث والتحقيق اصبحوا كلّما تقدّموا في معرفة تاريخ المسلمين تدرّجوا في تقديرهم فلمّا اتسعت العلائق بين الشرق و الغرب نشرت كتب التاريخ و الجغرافيا و الأدب أوترجمت كابي الفداء و الطبرى وابن الاثير و ابن خلكان ومعجم ياقوت وأصبح القوم علىهدى فيما يكتبون فالاعتراف بالخطاء هدى وصواب مثل الّذي كتب الكتاب وسمّاه محمّد النّبيّ الّذي ينبغي ان يعرف من جديد .

لقد افلت بعض بني مروان من شرك السفاح و نجا بنفسه واهله إلى الاندلس و البلاد تنتظر يومئذ من يلمّ شعثها و يجمع شملها فانها بالخلاف بينالمضريّةواليمنيّة تضطرب من شتات فكان عبد الرحمن الداخل هوالوارد والحاكم واستولى بمعونةاليمنيّة ونشر علم الأمويّة ! في قرطبة و تعاقب على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر كعدد زبانية جهنّم صاروا ملوكاً فيالجنّة فياربعة و ثمانين و مأتي عام حتّى اصابهم داءالامم فتمزّقوا وتفرّقوا وانحلّ ملكهم الىدويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف كبني جهور في قرطبة و ابن عباد في اشبيليه وابن الافطس في بطليوس فاقتبس الاسبان ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم و تكلّموا بلغتهم وتعلّموا آدابهم وهجروا اللاتينيّة حتّىأنسوها قال كاهن قرطبة انانحب ان نقرأ الشعر و القصص و ندرس الدين و الفلسفة في اللغة العربيّة فنتعلم لغة عذبة الالفاظ بليغة الاداء جميلة الانشاء ، ولا تكاد تجد فينامن يقرأ الكتب المقدّسة باللّغةاللاتينيّة و شبّابناالاذكياء جميعاً لايعرفون غيرلغة العرب وادابهم وكلّما قرأواكتبها و درسوا أدبهاأعجبوا بها فاذا حدثتهم عنكتاب من الكتاب اللاتينيّة سخروا منه و قالوا انّ الفائدة منه لاتساوى التعب في قراءته و هكذا نسي المسيحيون

لغتهم وجهلوا كتابتها و بلاغتها و حذقوا في العربية و تكلّموا اللسان العربي ويكتبونه نثراً و نظماً باسلوب أنيق و تصوير دقيق يفوقون فيه العرب أحيانا وقداعترف بعض كتاب الافرنج ان الشعر العربي على جملته أنقي شعر عرفه العالم بما حوى من العواطف الرقيقة واقرب إلى معاني الرجولة و الشرف و هذا ماقاله الاستاذ جول لومتر في مقدمته لكتاب حديقة الزهور لواصف باشا وقال لويس فياردوا في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب والبربر في اسبانيا كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لاعن اليونان والرومان لانّهم لم يقفوا على هذا و ذاك قبل القرن الرابع عشر حتّى يقلّدوه .. ولقد اخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب .

و هذه الصناعة جاءتنا من الاندلس عن طريق مرسيليا و طولون مع التّجار الاسبان الّذين كانوا يفدون اليهما و كانت سياسة الامويّين في الغرب غير سياستهم في الشرق فقد كانوا في دولتهم الاولى يترفّعون عن الاختلاط بالفرس ويسمّونهم العجم و الموالى و يعتزّون بعصبيّة الجنس واصبحوا في هذه الدولة مدنيّين يمهّدون لهم سبل الاندماج فيهم فكان من نتيجة هذا الارتباط و الاختلاط ان حدث في الاندلس ماحدث في العراق من امتزاج الجنسيّة الساميّة بالجنسيّة الآرية كما صنع العباسيون في ابناء الفرس فازدهر الاندلس بحضارة اسلاميه مادّتها من الشرق و بناتها من العرب كما ان حضارة الاسلام في بغداد كانت من صنع الفرس لان العرب كانوا ورّاث بداوة وجهالة و الفرس ورّاث ملك و حضارة و علوم و فلسفة فانتقل كلّ أولئك إلى الاسلام بانتقالهم إليه كذلك كان اوربا « يومئذ كانت تخبط في دياجير الجهالة و ترسف في اغلال الاميّة و كان الامويّون و عرب الاندلس لاينفكون ملتفيتن إلى الشرق موطن الجنس و الدين و اللّغة و الادب والحضارة فيسيرون على ضيائه ويستمدّون من زعمائه وعلمائه ويحذون في سياستهم وادارتهم حذو العبّاسيّين فشيّدوا المدارس الجامعة و انشأوا المكاتب العامة و نشطوا حركة التأليف . واذكوا نهضة الادب و رفعوا مجد الفنون و عقدوا مجالس المناظرة و المحاضرة بلغت الاندلس من ذلك كله الحظّ الموفور في عهد عبد الرحمن الثاني و بلغت اوج سلطانها و غاية عمرانها و تمام بنيانها في عصر عبد الرحمن الثالث

وابنه الحكم وهو عصرها الذهبي الّذي بلغت فيه من السطوة والقوة و الثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والادب ما كانت تضارع به بغداد وماأدهشت به المورّخ دوزى حتّى قال ان عبد الرّحمن الناصر اولي ان يكون من ملوك العصر الحديث لامن القرون الوسطى وهكذا كانت حضارة الاسلام تشعّ في بغداد و قرطبة في وقت واحد ولكن تمام الشيء مبدء نقصانه . **قال صالح بن شريف :**

لكلّ شيء إذا ماتمّ نقصان فلا يغرّ بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهدتها دول من سرّه زمن ساءته أزمان
و هذه الدار لايبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شأن
يمزّق الدّهر حتماً كلّ سابغة إذانبت مشرفيّات و خرصان
و ينقضى كلّ سيف للفناء ولو كان ابن ذى يزن والسّيف غمدان
اين الملوك ذوو التيجان من يمن و أين منهم اكاليل و تيجان
و أينما شاده شدّاد في إرم و أينما ساسه في الفرس ساسان
و أينما حازه قارون من ذهب و أين عاد و شداد و قحطان
أتى على الكلّ أمر لامردّ له حتّى قضوا فكأنّ القوم ماكانوا
فجايع الدّهر أنواع منوعة و للزمان مسرّات و أحزان

فلم تكد خلافة الحكم ابن الناصر تنتهى حتى دبّ في خلافة بني مروان دبيب البلى و الهرم . و آل سلطانها إلى ملوك الطوائف فاضطلعوا بهقليلا ثمّ أوهن كواهلهم داء الانقسام و فساد النظام وعاداهم المرابطون من البربر فقوضّوا اركانهم و نازعوهم في سلطانهم و راوحهم الافرنج متكاتفين فاستلبوا الملك من ايديهم مدينة بعد مدينة حتّى تمت الهزيمة و عمّ الجلاء بفرار أبي عبد الله المعروف بالشقي .

وقف أبوعبدالله آخر ملوك غرناطة بعد إنكساره إمام جيوش الملك فرديناند و الملكه ايزابلا على شاطى خليج الرومى تحت ذيل جبل طارق نزوله إلى السفينة المعدّة لحمله الى افريقا وقد وقف حوله نساءه و أولاده وعظماء قومه من بنى الاحمر فالقى على ملكه الذاهب نظرة طويلة لم يسترجعها إلاّ مبلّلة بالدمع ثمّ ادنى رداءه من وجهه و

انشأ يبكي بكاءاً مرّاً و ينشج نشيجاً محزناً حتى بكى من حوله لبكائه و اصبح شاطئ البحر كأنّه مناحة قائمة تتردّد فيها الزفرات و يستبق العبرات . فانّه لواقف موقفه هذا وقد ذهل عن نفسه و موقفه اذ احسّ هاتفا يهتف باسمه بصوت كأنّما ينحدر إليه من علياء السماء فرفع رأسه فاذا شيخ ناسك متكّيء على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر اليه و يقول .

نعم لك ان تبكي ايّها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء فانّك لم تحتفظ به احتفاظ الرجال انّك ضحكت بالامس كثيراً فابك اليوم بمقدار ماضحكت بالامس فالسرور نهار الحياة و الحزن ليلها ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

لو ان ماذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر . او نازلة من نوازل القضاء من حيث لاحول لك ولاحيلة لهان أمره عليك أماوقد اضعته بيدك وأسلمته الى عدوك باختيارك . فابك عليه بكاء النادم المتفجع الّذي لايجد له عن مصابه عزاءً لايظلم الله عبداً من عباده . ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشؤون شرّاً ولاضيراً ولكن النّاس يأبون الا أن يقفوا على حافة الهوّة العميقة فتزلّ بهم اقدامهم و يمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

لم تقتنع بما قسم الله لك من الرزق فابيت الا الملك والسلطان فنازعت عمّك الامر واستعنت عليه بعدوّك وعدوّه فتناول رأسيكما معاً وما زال يضرب احدهما بالآخر حتّى تحت قدمكما قليب من الدم فغرقتما فيه معا .

لي فوق هذه الصخرة يابني الاحمر سبعة اعوام انتظر فيها هذا المصير الّذي صرتم اليه واترقب الساعة الذي أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لارجعة له من بعدها . لاني اعلم أن الملك الّذي يتولى امره الجاهلون الاغبياء لادوام له ولا بقاء اتّخذ بعضكم بعضاً عدوّاً . واصبح كلّ منكم حربا على صاحبه فسقتم المسلمين الى ميادين القتال يضرب بعضهم وجوه بعض والعدوّ رابض من ورائكم يتربّص بكم الدوائر و يرى أن كلاً منكم قائد من قوّاده ينبعث بين يديه لقتال اعدائه والمناضلة عن ملكه حتّى رآكم تتهافتون على انفسكم ضعفا و وهناً فاقتحمكم فما هي الاجولة اوجولتان

حتّى ظفر بكم معاً ستقفون غداً بين يدي الله ياملوك الاسلام . و سيسألكم عن الاسلام الّذي اضعتموه وهبطتم بهمن علياء مجده حتّى الصقتم انفه بالرّغام . وعن المسلمين الّذين اسلمتموهم بايديكم الى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين وعن مدن الاسلام وامصاره الّتي اشتراها آباؤكم بدمائهم و أرواحهم ثمّ تركوها في ايديكم لتذودوا عنها. وتحموا ذمارها فلم تحرّكوا في شانها ساكناً حتّى غلبكم اعداؤكم عليها فاصبحتم تعيشون عيش الأذلّاء و تطردون منها كما يطرد الغرباء . فماذا يكون جوابكم ان سئلتم عن هذا كله غدا .

ماهي النواقيس ترنّ في شرفات المآذن بدل الأذان و هاهي المساجد تطأ نعال الصليبيّين في تربتها مواقع جباه المسلمين . وهاهوالمسلم يفرّ بدينه من مكان إلى مكان و يلوذ باكناف الهضاب والشعاب . لايستطيع ان يؤدّى شعيرة من شعائر دينه إلّا في غار كهذا الغار الّذى أعيش فيه .

ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان كما يعيش اليهود المشردون في آفاق البلاد .

فقد كان ذلك خيراً لهم من ان يتولّى أمرهم رجال أمثالكم طامعون مستبدّون يلفون على اعناقهم جميعاً غلا واحداً يسوقونهم به إلى موارد التلف و الهلاك من حيث لايستطيعون زوداً عن انفسهم وما تفعل الفوضى بامة مايفعل بها الاستبداد يسألكم الله يابنى الاحمر عنّى وعن اولادى الّذين انتزعتموهم من يدى انتزاعاً احوج ماكنت اليهم وسقتموهم الى ميادين القتال ليقاتلوا اخوانهم المسلمين قتالاً لاشرف فيه ولافخار حتى ماتوا جميعاً موت الاذلّاء الأدنياء فلا انتم تركتموهم بجانبي آنس بهم في وحشتي و ألجاء الى معونتهم في شيخوختي ولا أنتم ذهبتم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزّى عنهم من بعدهم بانهم ماتوا فداءً عن دينهم و وطنهم .

فها أنذا عائش من بعدهم وحدى في هذا الغار الموحش فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم و أسأل الله ان يلحقنى بهم فمتى يستجيب الله دعائى .

ثمّ اختنق صوته بالبكاء فادار وجهه ومشى بقدم مطمئنة يتوكّاء على عصاه حتى

دخل مغارته و غاب عن العيون .

فنالت كلماته من نفس الامير مالم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه فصاح ماهذا بشراً إنّما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي فليصنع الله بي مايشاء فعدل منه كلما صنع .

ثم انحدر الى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشقّ عباب الماء شقا فسجّل التاريخ في تلك الساعة أن قدتمّ جلاء العرب عن الاندلس بعد ما عمروه ثمانمأة عام .

تأثير المحيط في الادب

ذلك مجمل من مفصّل تأثير البيئة والطبيعة في الشعر والأدب فقد وجد شعراء العرب في اروبا مالم يجدوه في آسيا من الحيوة المتنّوعة والجواء المتغيّرة والمناظر المختلفة والامطار المتصّلة والخمائل الجميلة والادواح الظليلة والانهار الرّوية والسهول الغنيّة والجبال المؤزرة بعميم النبّت والمروج المطرزّة بالوان الزهر فصفت اذهانهم وسما وجدانهم و عذب بيانهم و وسعوا دائرة الادب وهذبوا الشعر فتأنقّوا في الفاظه وتنوّقوا في معانيه ونوّعوا في قوافيه وتفنّنوا في خياله و دبجوه تدبيج الزهر و سلسلوه سلسلة النهر و أكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة حتى ضاقت اوزان العروض عما تقتضيه رقّة الحضارة ورقى الغناء و صرفّوا الشعر في اغراض شتّى كالمدح و الغزل و الرثاء والدعاء و الزهد و التصوف والفلسفة و المزاح والمجون و عالجوا سياسة الاجتماع و نظموا حوادث التاريخ و ابدعوا ماشاء الابداع في الوصف فوصفوا الابنية و التماثيل و القصور والحدائق و المروج و الاودية و الأنهار والأشجار و الرياح كلّ ذلك في حلاوة لفظ ورقة اسلوب ودقّة صنعة و انّك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لاشعار الافرنج و لوطال على الاندلسين الأمد في الحضارة و تعاقبت اطوار الرقى على اللغة و ادابها لا توابا بلغ ممّا جاء به روسو و هوجو ولامارتين ولكن فاجاهم الانقسام وداهمهم الخصام فانشقت عصاهم وانفصمت عراهم ونضبت قرائحهم وامحلت عقولهم و صار بأسهم بينهم شديد فذهبوا كامس الدابر ومفتاح الشرور الخمور والمصاد هي وهنّ من اداة الفساد في الخدور والقصور والشوارع والاديار

وراهبة اغلقت ديرها فكنّا مع الليل زوّارها
هدانا إليها شذى قهوة تذيع لأنفك اسرارها
طرحت بميزانها درهمي فأجرت من الدّن دينارها
تفرّس في شمسه طيبها مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتّى درى عصير الخمور و إعصارها
يعدّ لما شئت من قهوة سنيها و يعرف خمارها
وعدنا إلى هالك اطلعت على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم تثور فيقتل ثوّارها
وقد سكنت حركات الأسى قيان تحرّك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها و تلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حساب يدنقرت طارها
وقُضبٍ من الشمع مصغرة تريك من النّار نوارها
كان لها عمداً صفقت وقدوزن العدل أقطارها

الى ان قال .

ذكرت صقلّيّةً والأسى يهيّج للنّفس تذكارها
و منزلة للتصابى خلت وكان بنو الظرف عمّارها
فان كنت اخرجت من جنة فانى احدّث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ء حسبت دموعي انهارها

و قال الوزير ابن زيدون و هو سجين .

ما على ظنّي بأس يجرح الدهر و ياسو
ربما اشرف بالمر ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفال و يرديك احتراس

و المحازير سهام و المقادير قياس و لكم اجدى قعودولكم اكدى التماس
وكذا الحكم اذاما عزّ ناس ذلّ ناس و بنوا الأيام أخياف سراة و خساس
تلبس الدنيا ، ولكن متعة ذاك اللباس يا اباحفص وماسا واك في فهم إياس
من سنا رأيك لي في غسق الخطب اقتباس لايكن عهدك وردا انّ عهدى لك آس
وأدر ذكرى كأساً ماامتطت كفك كاس و اغتنم صفوا لليالى انما العيش اختلاس
ماترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا اذؤب هامت بلحمي فانتهاب و انتهاس
كلهم يسأل عن حالي وللذئب اعتساس إن قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس
ولئن أمسيت محبوساً فللغيث احتباس ويفتّ المسك في الترب فيوطأ ويداس

كان سقوط غرناطة الاندلس حادثا عظيم الاثر في علايق الشرق و الغرب . وكان خاتمة محزنة لماض مجيد باهر ولكنّه كان خاتمة محتومة لم يك ثمّة ريب فى وقوعها. ولم يك ثمّة سبيل إلى اجتنابها . (١) ذلك لأنّ الاندلس كانت منذ القرن الثانى عشر - منذ عهد الطّوايف - تسير إلى فناء بطيء ولكنّه محقّق وكانت قواعدها الزاهرة تسقط تباعاً في يد اسبانيا النصرانيّة . وكانت الحياة الجديدة الّتى اسبغتها صولة المرابطين ثمّ الموحدين على الاندلس خلّبا قصيرة المدى - ثمّ سطعت مملكة غرناطة في جنوب الاندلس مدى حين و لكنّها كانت تعانى نفس الداء الذى اودى بالاندلس الكبرى . داء الخلاف الابدى فلم تلبث ان عصفت بها ريح التفرق ومزقتها الحروب الأهليّة . واستطاع رجال ثاقبوا النظر كابن الخطيب وابن خلدون ان يستشفوا من وراء هذا الشّقاق الهائل خطر الفناء المحقّق وان يتنبأوا به قبل وقوعه باكثر من قرن .

و وقعت الخاتمة المحتومة و سقطت غرناطة الاندلس في يد اسبانيا النصرانية في ديسمبر ١٤٩١ (صفر ٨٩٧) وكان الامير الّذي شاء القدر أن يقع ذلك الخطب في عهده و على يديه هو السلطان أبوعبدالله محمّد بن السلطان ابي الحسن النصري . فهوآخر ملوك

---

(١) مأساة شهيرة بين الشرق و الغرب ، تثير حوادثها و ظروفها المؤثرة فى النفس شجناً واسى و تجعل منها عبرة خالدة فى صحف التاريخ الاسلامى تلك هى المأساة الاندلسية التى اختتمت بسقوط غرناطه وذهاب دولة الاسلام و انهيار صرح المدنية الاسلامية فى الغرب

الاندلس المعروف بالشقي وهو خاتمة ذلك الثبت الحافل من ملوك بني الأحمر الّذين انشأوا مملكة غرناطة ولبثوا مدى قرنين يسهرون على مصائرها ويرعون حضارتها الزاهرة و يدفعون عنها خطر الفناء الداهم .

و كان من المقرّر ان يقيم أبوعبدالله بعد ذهاب ملكه وسلطانه في جنوب الاندلس في اقليم البشرات في كنف ملك اسبانيا و تحت حمايته و لكنّه لم يلبث ان عاف تلك الحياة الذليلة فغادر الوطن القديم في غمر من الحسرات و الأسى وجاز البحر بأهله و ماله إلى المغرب سنة ١٤٩٣ و نزل اولا بمليلة ثمّ قصد إلى فاس واستقرّ بها . و تقدّم إلى ملكها السلطان محمد شيخ بني وطاس الّذين خلّفوا بني مرين في ملك المغرب مستجيراً به مستظلاً بلوائه معتذراً عمّا اصاب الاسلام على يده متبرّئاً ممّا نسب إليه من اثم و تفريط في حقّ الدين والوطن .

و هذا الدفاع الشهير الّذي يقدّمه أبوعبد الله عن موقفه و تصرّفه . قطعة رائعة من الفصاحة السّياسيّة والبيان السّاحر وهو يدلّ في روحه و قوّته و روعته على فداحة التبعة الّتي شعر أبوعبدالله انّه يحملها أمام الله و التاريخ و أمام العالم الاسلامى كلّه . و أمام الأجيال القادمة دون أن يبسط للتّاريخ قضيّته و يبدى كلمته فيحكم عليه في ضوء أقواله و دفاعه .

و قد كتب هذا الدفاع الشهير الفريد في التاريخ الاسلامي . على لسان ابى عبدالله وزيره وكاتبه محمد بن عبدالله العربي العقيلي في رسالة مستفيضة قويّة مؤثّرة موجّهة إلى ملك فاس و عنوانها الروض العاطر الانفاس في التّوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس — وقد كان العربي من اعلام البلاغة في هذا العصر وله آثار في النظم والنثر كانّها لروعتها نفثات أخيرة لآداب الاندلس المحتضرة و كان دفاع أبي عبدالله من ابدعها واروعها و قد نقل المقرى هذا الدفاع الشهير بنصه في نفح الطيب ويستهلّه العربي بعد الديباجة بقصيدة هذا مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم	رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن	جار الزمان عليه جور منتقم

حتّى غدا ملكه بالرغم مستلباً ... وافظع الحظ مايأتى على الرغم
حكم من الله حتم لامردّ له ... و هل مردّ لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الاساد في الأجم
كنّا ملوكا لنا في ارضنا دول ... نمنا بها تحت افنان من النعم
فأيقظتنا سهام للرّدى صببت ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظلّ الملك نومتنا ... واىّ ملك بظل الملك لم ينم
وابسط لنا الخلق المرجوّ باسطة ... واعطف ولا تنحرف واعذرولاتلم
لاتأخذونا باقوال الوشاة ولم ... تذنب ولوكثرت اقوال ذى الوخم
فما أطقنا دفاعاً للقضاء ولا ... ارادت انفسنا ما حلّ من نقم

وهى طويلة جداً يمتدح فيهاملوك فاس و يشيد بعلا يقهم القديمة مع بنى الأحمر ملوك غرناطة و يشير أبوعبدالله في دفاعه المنثور بعد ذلك إلى حوادث اندلس و يعتذر عن نكبته و يعترف بخطئه في عبارات مؤثـرة نقتطف منها .

وما الّذي يقوله من وجهه خجل و فوأده وجل وقضيّته المقضيّة عن التنصّل و الاعتذارتجل بيداني[1] أقول لكم ماأقوله لربّي واجترائي عليه أكثرو اجترامي إليه أكبر اللّهمّ لا بريء فأعتذرولاقوى فانتصر. لكنّي مستقيل مستنيل مستغيث مستغفر . ومابرّيء نفسي انّ النفس لامّارة بالسوء .... بيد انّه يدفع عن نفسه تهم التفريط و الزيغ و الخيانة بقوّة و يقول . أفمثلى كان يفعل أمثالها و يحتمل من الأوزار المضاعفة احمالها و يهلك نفسه و يحبط اعمالها . عياذاً بالله من خسران الدّين و إيثار الجاحدين و المعتدين قد ضللت اذاً وما انا من المهتدين . و ايم الله لوعلمت شعرة في فودى تميل إلى تلك الجهة لقطعتها بل لقطفت ما تحت عمامتى من هامتى و قطعتها . غير انّ الرعاع في كلّ وقت و أوان للملك أعداء و عليه أحزاب و أعوان ولقد قذفنا من الأباطيل باحجار ورمينا بما لايرمى به الكفّار فضلاً عن الفجّار أكثر المكثرون وجهد في تعثير نا المتعثّرون ورمونا عن قوس واحدة ونظمونا في سلك الملاحدة أكفراً عياذاً بالله كفراً غفراً

---

(١) وهذا فى التوسل والتبرء والاعتذار وهو لب موضوعها .

اللّهم غفراً ... وهل زدنا على ان طلبنا حقّنا ممن رام محقه و محقنا فطاردنا في سبيله عداة كانوا لنا غائظين فانفتق علينا فتق لم يمكنا له رتق وما كنّا للغيب حافظين .

ثمّ يقول أبوعبدالله لئن كان مروعا مصير غرناطه و مصير ملكها و انجادهافأنّها لم تنفردبين قواعد الاسلام بذلك المصير المحزن . ألم يقتحم التّتار بغداد عروس الاسلام ومثوى الخلافة ومهد العلوم . ويستبيحوا ذمارها وحرمها . ويسحقوا الخلافةوكلّ معالمها و رسومها وماذا تستطيع غرناطة ويستطيع ملكها ازاء قدر محتوم وقضاء لامردّ له ويشير ابو عبدالله إلي رفضه لما عرضه عليه ملك اسبانيا من الاقامة في كنفه وتحت حمايته . ولقد عرض علينا صاحب قشتاله مواضع معتبرة خيّرفيها واعطى من امانه الموكّد فيه خطّه بايمانه مايقنع النفوس ويكفيها فلم نرو نحن من سلالة الاحمر مجاورة الصفر ولاسوّغ لناالايمان الإقامة بين ظهراني الكفر ماوجدنا عن ذلك مندوحة ولوشاسعة . وامنا من المطالب المشاغب حمة شرلنا لاسعة . . . ثمّ يشير ايضاً إلى أنّه تلّقى دعوات كريمة من المشرق للذّهاب و الاقامة فيه ولكنّه آثر الجوار الى المغرب دار آبائه من قبل ولم يرتض الانضواء إلاّ لذلك الجناب (بنى مرين) الّذى اوصى آباؤه واجداده بالانضواء اليه وقت الخطر الداهم .

و يختتم أبوعبدالله دفاعه برثاء مؤثر لملكه وقدره : ثمّ عزاءً حسنا وصبراًجميلاً عن ارض أورثها من شاء من عباده معقّباً لهم و مديلاً وسادلاً عليهم من ستورا لاملاء الطويلة سدولاً سنة الله الّتي قدخلت من قبل ولن تجد لسنةالله تبديلا فليطر طائر الوسواس المرفرف مطيراً كان ذلك في الكتاب مسطورا لم نستطع عن مورده صدوراً وكان امرالله قدرا مقدوراً[1] .

---

(١) اقتطفناها من الهلال ٤٤ ولما وجدنا القطعة المعروفة من ابيات وثوق الدولة مناسبة لما نحن فيه اوردتها فى الذيل .

چون بد آيد هرچه آيد بد شود	يك بلا ده گردد و ده صد شود
آتش از گرمى فتد مهر از فروغ	فلسفه باطل شود منطق دروغ
كور گردد چشم عقل كنجكاو	بشكند گردونه‌اى را شاخ گاو←

قال الشريف المرتضى قدس الله روحه وجدت جماعة من أهل الأدب يستبعدون أن يرتجّ على إنسان في خطبة أو كلام قصد له فينبعث منه في تلك الحال كلام هو أحسن ممّا قصد إليه و ابلغ ممّا ارتجّ عليه دونه ويقولون انّ النسيان لا يكون إلّا عن حيرة وضلالة فكيف يجتمع معهما البراعة الثاقبة والبلاغة المأثورة مع حاجتهما إلى اجتماع الفكر وحضور الذكر و ينسبون جميع ما يحكى من كلام مستحسن و لفظ مستعذب عمّن حصر في خطبته او في منطق إلى انّه موضوع مصنوع .

وليس الّذى استبعدوه ببعيد ولا منكر لأنّ النسيان قد يخصّ شيئاً دون شيء و يتعلّق بجهة دون جهة وهذا امر متعالم متعارف فلا ينكر ان ينسى الإنسان شيئاً قصده و عزم على الكلام فيه وقد يكون مع ذلك ذاكراً لغيره متكلماً فيه بابلغ الكلام واحسنه بل ربما كان الحصر والذّهاب عن المقصد يحميان القريحة ويوقدان الفكرة فيبعثان على احسن الكلام و ابرعه ليكون ذلك هرباً من العيّ وانتفاء من اللكنة ومن احسن ماروى وأبرعه من الكلام في حال الحصر والانقطاع عن المقصود ما أخبرنا أبو عبيدالله المرزبانيّ قال حدثنا ابن دريد قال حدثنا أبوحاتم ثمّ قال المرزبانيّ و اخبرني ابن دريد مرّة اخرى و قال حدثنا السكن بن سعيد عن محمّد بن عباد عن ابن الكلبى قالا صعد خالد بن عبدالله القسري يوماً المنبر بالبصرة فارتجّ عليه فقال أيّها النّاس انّ الكلام و قال أبوحاتم انّ هذا القول يجيء أحياناً ويذهب احياناً فيتسبّب عند مجيئه سببه و يعزب عند عزوبه طلبه و ربما كوبر فأبى وعولج فأبطا و قال ابن الكلبى ربّما طلب فأبي و عولج فقسا فالتأنّي لمجيئه اصوب من التّعاطى لابيّه ثم نزل فماروى حصر ابلغ منه و قال أبوحاتم

←پهلوانی را بغلطاند خسی	پشه‌ای غالب شود بر کرکسی
نیکبختان راست ابرفروردین	زیب بخش ملك و مشاطهٔ زمین
تیره بختان راست باران بهار	سیل خرمن کوب و برق شعله بار
آن یکی چون مرغ پرّد برائیر	درنوردد شش جهت را روی وزیر
نه بلا دامی براهش افکند	نه کمند حادثه بروی تند
این یکی آهسته پیماید رهی	لغزدش پائی و افتد در چهی

و الترك لابيّه أفضل من التعاطي لمجيئه وتجاوزه عند تعذّره اوّلى من طلبه عند تنزّحه و قد يختلج من الجرّى جنانه و يرّتج على البليغ لسانه ثم نزل .

و اخبر نا بهذا الخبر أبوعبيدالله على وجه آخر قال أخبر نا إبراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي قال كان خالدبن عبدالله حين ولاّه هشام بن عبدالملك يكثر الخطب والتبالغ فقدم و اسطاً فصعد المنبر فحاول الخطبة فارتجّ عليه فقال أيّها النّاس انّ هذا الكلام يجيىء أحيانا و يعزب أحياناً فيعزّ عند عزوبه طلبه و يتسبّب عند مجيئه سببه وربّما كوبر فأبى و عوسر فقسا والتأتّى لمجيئه اسهل من التعاطى لابيّه وتركه عند تعذّره أحمد من طلبه عند تنكّره فقد يرتجّ على البسيط لسانه فلا ينظره القول اذا اتّسع ولا يتيّسر اذا امتنع و من لم تمكّن له الخطوة فخليق ان تعزله النبوة .

وأخبر نا المرزباني قال اخبر نا أبوعبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدّثنا أبو عبّاس المنصور قال صعد أبو العبّاس السّفاح المنبر فارتجّ عليه فقال أيّها النّاس إنّما اللّسان بضعة من الإنسان تكلّ إذا كلّ و تنفسخ بانفساحه إذا انفسخ نحن أمراء الكلام منّا تفرّعت فروعه و علينا تهدّلت غصونه ألا و إنّا لانتكلّم هذراً ولا نسكت إلاّ معتبرين ثمّ نزل فبلغ ذلك أباجعفر فقال لله هو لوخطب بمثل مااعتذر لكان من اخطب النّاس .

و هذا الكلام يروى لداود بن عليّ بهذا الاسناد عن محمد بن الصّباح عن قثم بن جعفر بن سليمان عن أبيه قال أراد أبوالعبّاس السّفاح أن يتكلّم في أمر من الأمور بعد ما أفضت الخلافة إليه وكان فيه حياء مفرط فارتجّ عليه فقال داود بن عليّ بعدان حمدالله و أثنى عليه انّ أمير المؤمنين الّذي قلّده الله سياسة رعيّته عقل من لسانه عند ما تعهّد من بيانه و لكلّ مرتق بهر حتّى تنفسه العادات فابشروا بنعمه الله في صلاح دينكم و رغد معيشتكم .

و اخبر نا أبوعبيد الله قال أخبر نا إبراهيم بن محمد بن عرفة قال حدّثنا عبد الله بن اسحق بن سلام قال صعد عبدالله بن عفّان المنبر فارتجّ عليه فقال أيّها الناس سيجعل الله بعد عسر يسراً و بعد عيّ نطقاً و إنّكم إلى إمام فعّال احوج منكم إلى إمام قوّال .

و روى محمد بن يزيد النحوى هذا الكلام بعينه عن يزيد بن أبي سفيان وقد

خطب على بعض منابر الشام و ان عمرو بن العاص لمّا بلغه كلامه قال هنّ مخرجاتي من الشام استحساناً لكلامه .

روي عن محمد بن يزيد النحوى قال بلغني ان رجلاً صعد المنبر ايام يزيد و كان والياً على قوم فقال لهم أيّها الناس إن لا اكن فارسا طبّاً بهذا القرآن فان معي من أشعار العرب ماارجوا أن يكون خلفاً منه وما اساء اخوالبراجم حيث يقول :

وما عاجلات الطير يدنين للفتى رشاداً ولا من ريثهنّ نحيب
و ربّ امور لاتضيرك ضيره وللقلب من مخشاتهنّ وجيب
ولا خير فيمن لايوطّن نفسه على حادثات الدهر حين تنوب
وفي الشكّ تفريط و في الحزم قوّة و يخطى الفتى في حدثه و يصيب

فقال له رجل من كلب إنّ هذا المنبر لم ينصب للشعر بل ليحمد الله عليه و يصلّي على النبيّ ﷺ و للقرآن فقال أما لوانشدتكم شعر رجل من كلب لسرّكم فكتب إلى يزيدبذلك فعزله وقال كنت أرى أنك جاهل ولم احسب انّ الحمق بلغ بك هذا كلّه فقال احمق منّي من ولاّني وكان يزيد بن المهلّب ولّى ثابت بن قطنة بعض قرى خراسان فصعد المنبر فحصر فنزل وهو يقول :

فان لم أكن فيكم خطيبا فإنّني بسيفي اذا جدّ الوغي لخطيب

فقيل له لوقلت هذا على المنبر لكنت اخطب الناس فبلغ ذلك حاجب الفيل فقال :

أباالعلاء لقد لاقيت معضلة يوم العروبة من كرب وتحنيق
أما القرآن فماتهدى لمحكمه ولم تسدّد من الدنيا بتوفيق
لمّا رمتك عيون الناس هبتهم وكدت تشرق لما قمت بالرّيق
تلوى اللّسان إذا رمت الكلام به كما هوى زلق من جانب النيق

و روي انّ بعض خلفاء بني العباس واظنّه الرّشيد صعد المنبر ليخطب فسقطت ذبابة على وجهه فطردها فعادت فحصر فارتجّ عليه فقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرّجيم يا أيّها النّاس ضرب مثل فاستمعوا له انّ الّذين يدعون من دون

الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب فاستحسن ذلك منه .

الدكتور برناد و المحسن الكبير هو رجل عظيم قد قامت عظمته باحياء النفوس المائته وانتشالها من وهدة الفقر و الباساء كان اسباني" الاصل والانجليزى مولداً ١٨٤٥ ـ ١٩٠٥ لما ترعرع دخل احدى مدارس الطب" استعداداً للخدمة في الصين كاحد المرسلين فرأي ذات يوماً غلاماً رث" اللباس مستفع السحنة فر"ق له و سأله من حاله فأخبره الغلام أنّه يتيم لا مأوى له يأوي اليه ولا سند يعتمد عليه و ان" له رفقاء كثيرين حالهم شر" من حاله فطلب برناردو منه ان يريه إيّاهم فمشى امامه إلى حيث كانت زمرة منهم نائمة .

قال الدكتور يصف ذلك المنظر (فرأيت احد عشر غلاماً نائمين في العراء على سطح احد المنازل وقد اتخذوا الحجارة مسنداً لرؤوسهم والتحفوا السماء وادخلوا اقدامهم في الميازيب طلباً للدفء فمنهم من اضطجع على جنبه و جمع رأسه إلى رجليه كما تفعل الكلاب امام النار ومنهم من انضم" الى رفيقه تخفيفاً لألم البرد كما تفعل الغنم و لاح لى ان عمر اكبرهم نحو ١٨ سنة و البقيّة بين (٩ و ١٤) فراعنى هذا المنظر أنهم كلهم لا مأوى لهم ولا من يعولهم و قلت في نفسي ما هؤلاء المساكين إلّا بعض من كل" و شعرت كان يد الله مدّت وازاحت الستّار من امام عيني" لأرى خلفه ما يقاسيه كثيرون من الاولاد في لندن من الشدّة والبرحاء فعقدت النّية اولاً على فعل ما استطيع فعله وحدى و هو انقاذ الولد البائس الّذى كان اوّل من رأيت من هؤلاء المساكين ثم" السّعي في إنقاذ امثاله .

و حدث بعد ذلك ما فتح الباب في وجهه وشدّد عزيمته على السعي و العمل وهو انّه عقد إجتماع للمرسلين في أحد احياء لندن وغاب بعضهم فطلب رئيس الاجتماع من برنارد و ان يتكلّم بدلاً منه و كان لا يزال تلميذاً في مدرسة الطب" فتمنّع عن الكلام تهيباً لانّه لم يكن قد خطب في حفلة عمومية من قبل ولكن الرئيس وقف و قال انّه نظراً إلى غياب بعض الخطباء طلبت من أحد تلامذة الطب ان يقص" علينا شيئاً عن

اشغاله المدرسية قبل سفره إلى الصين قريباً . فصفق السامعون فلم يسع برنارد وان ذاك إلّا ان يستشل فنهض و هو لايكاد يعي ممّا عراه من الحياء و بدأ الكلام وعيناه مغمضتان يستجمع شوارد الموضوع و ينسى مكان و جوده فجعل يتعثّر اولاً و يتمتم حتى إذا امتلك قواه اخذ يتدفق في الكلام تدفق السيل و يصف هول المناظر الّتى رآها في ايست اند أحد أحياء لندن و نسي نفسه و سامعيه حتّى بلغ كلامه اعماق القلوب ولما فرغ من الكلام دوّت جوانب القاعة بالتّصفيق الشّديد علامة الاعجاب والاستحسان وماكاد ينزل عن المنبر حتّى استقبلته فتاة خادمة و قالت له ، قد جئت إلى هذا المكان لمساعدة المرسلين و جعلت دأبي الصّلوة لاجلهم منذ سنين . وانا لست إلّا خادمة فلا يسعني بذل الكثير فوفرت كلّ مااستطيع لهم و لكنّني لمّا سمعت كلامك علمت انّ الوثنى على أبوابنا لا في اقاصي الصّين وحدها فالتمس منك ان تقبل منّى لاولادك المساكين ماجمعته لمساعدة المرسلين ثمّ وضعت في يده صرّة نقود وذهبت في سبيلها ولم يرها بعد ذلك ولمّا وصل إلى منزله فكّ الصرّة فاذا فيها نحو ثلاثة غروش و كانت أوّل الدّراهم الّتى جاءته من الجمهور و البذرة الّتى نبت منها نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وهو ماجمعه مدّة خدمته البالغة نحو أربعين سنة .

و نشرت الجرايد خطبته و اطلّع عليها لوردشفتسبرى فاثّرت فيه تأثيراً شديدا فدعا برناردوللعشاء عنده و بعد العشاء سأله وهو بين مصدّق و مكذّب هل تظن انّنا نرى غلماناً نائمين في العراء في هذه اللّيلة فاجاب بالايجاب فانكر بعض الحاضرين قوله و طلبوا منه ان يدلّهم على المكان الّذي يظنّ الغلمان نياماً فيه فقام أمامهم وتبعوه على الاثر واللورد معهم حتّى وقفوا حيث رأوا بعيونهم ماتحقّقوا به صدق قوله . وكان ذلك بدء عمل من أعظم الأعمال الخيريّة ومبرّة من أشرف المبرات فجمع برناردو على أثره نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات كما تقدّم ربّى بها نحو خمسين ألف يتيم و يتيمة فخرجوا من ملجأه شباناً وشابات ليعضدوا المجتمع الانساني بما استفادوه علماً وعملاً .

ولم يقف عند هذا الحدبل شرع يفكّر في طريقة يمكّن بها الّذين يخرجون من ملجاءه من العمل خارجه فاهتدى إليها و هي انّه انشأ ادارة للمهاجرة و جعل يسفّر

الشبان و الشّبانات إلى كندا حيث اشترى مزارع و حقولا تقدر مساحتها بالالوف من الافدنة و ترك كبار الشبان يعملون فيها و اما الصّغار و البنات فاعطوا اعمالاً اخرى و كان يرسل كلّ سنة من ١٠٠٠ الى ١٥٠٠ نفس من ملجاءه إلى كانادا فيجدون لهم اعمالا ويفلحون كلّهم ماعدا ٢ في المئة على وجه التعديل وفي يوليو الماضي نشرت جريدة التيمس عريضة بامضاء كثيرين من كبار رجال الدين والسّياسة والادب في لندن مثل اسقف لندن و اسقف ستابنى واللوردبروتس و المسترستد صاحب مجلّة المجلات وغيرهم وقد طلبوا فيها من الامة الانكليزية ان تقدم على الاكتتاب بالاموال لمساعدة ملاجىء برناردو تذكاراً لعيد ميلاده وارسلت اليه جلالة ملكة الانكليز رسالة برقية في يوم عيده تهنّئه بها و تدعو لعمله بالنجاح العاجل مشى في مقدمة جنازته الوف من الاولاد الّذين في ملاجئه وقد صفّوا صفوفاً عديدة على حسب سنّهم ومشى خلف نعشه كثيرون من علية من القوم ونخبة الامة فياسعد رجل يعيش و يموت في امة تعرف اقدار الرجال .

السعادة : صفة بارزة في الحياة ينشدها جميع النّاس على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ويفهمونها على غرار ملابساتهم وأحوالهم وميولهم النفسيّة فدوّنوها في مباحثهم وقصصهم و مثّلوها في مسارح تمثيلهم وصوّروها بمختلف الصّور و تباين الاغراض والمرامي .

و مع انّ للحياة غرضاً واحداً هو العيش على أكمل الأحوال و الحصول على أكبر قسط من السعادة الممكنة إلاّ أنّ الإنسان قد تعمى عليه الطريق الّتي توصله إلى الغرض فيبحث عنها في توفية جميع شهواته بما يسعه إمكانه من متاع مادّى وعقلىّ .

فناس يرون السّعادة في الكون وروعته و يلمحونها في الطّبيعة السّاحرة يرون في الكون الواسع المدى جمالاً اخّاذا ويرون فيه الكواكب الزّاهرة والسّحب الماطرة و الامواج المتكسّرة و يرون الجمال الفاتن في زرقة السّماء و رهبة الصحراء والمروج الخضراء و في هدير الماء وهديل الحمام وثغاء الشاء وحنين الابل وناس يرونها في الحبّ و يرون فيه انّه عصارة السحر :

هو السّحر إلاّ ان للسّحر رقية ... و انّى لاألقى من الحبّ راقيا

و يرون فيه أنّه ارتياح في النّفس و فرح يجول في الرّوح وسرور ينساب في

جميع أجزاء القوى . و يقولون انّه بقدر مايكون الانسان حصيفاً راجح العقل يكون حبّه صحيحاًعذرياً يسير بهإلىمستوىالفضايلوالمكارم . ذلك لانّ للحبّ غصونا تغرس في القلوب فتثمر على قدرالعقول ولولم يكن فيه الا انه يشجّع الجبان و يصقّل الاذهان و يبعث حزم العاجز لكفاه شرفاً و ناس يرون العادة في الصحّة و الشباب ففي الصّحة تذوق العيش الهنيء والحياة الصّافية و في الشباب لذة الفتاء و الصبوة والاماني المعسولة الحلوة و يقول المتنبّي في ذلك آلة العيش صحّة و شباب فاذا وليّا عن المرء ولّى و ناس يرونها في المال و في البنين زهرة الحياة الدّنيا و زينتها . و يقول الطغرائى مشيراً الى ان المال ليس محبوباً لذاته .

اريد بسطة كفّ استعين بها على قضاء حقوق للعلى قبلى

و من الناس من يراها فيسعادة الوطن وانسعادته مرتبطة بسعادته فهويتها لك في محبته ويضحي بنفسه في الدفاع عنه ويتغنى بانشودته وذكرى صباه في مربعه و مروجه و يقول أبوالحسن عليّ بن عبّاس الرومى .

ولى وطن آليت إلّا ان لا أبيعه وأن لا ارى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما بصحبة قوم اصبحوا في ظلالكا
وحبّب اوطان الرجال اليهم مارب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوّا لذلكا
فقد الفته النفس حتّى كانها لها جسد ان بان غودر هالكا

و من النّاس من يرى السّعادة فيجمال الزوجة وفي البطولة و العظمة وفي الرياسة و الملك وفي الغناء و التّصوير والفنون الجميلة ذلك الّذى قدّمناه وغيره ممّا لا يحصى مايفهمه سوادالناس من السّعادة واين تثوى . وعلى هذا يقولونفلان حياتهسعيدةوفلان شقّيوهمفي ذلك واهمون فان السعادة الحقيقةليست فياتباع الأهواء واشباع الشهوات وإن كانت مشروعة فجميع السعّادات الجزئيّة فانية متّحولة و ليس لها اعتبار إلّابقدر ظلّها المنتقلوثباتها الضّيئل فالصحّة تضمحل والثّروة تفنيوالولديموت و الشهرة تزول وهكذا ، فيصبح المرء وقدا نجفلعنه النّاسوتنكّرت له الأيّام فلاتبقى له بهجة الحياة

وصفو العيش ان السعادة التى تبيدو تفنى ليست سعادة بالمعنى الحقيقى أمّا السعادة الكاملة قبل استكمال القوانين العلميّة و العمليّة هى تزكية النفس بالعلم وتكميلها بالفضايل فمتى تحلّى الانسان بالعلوم والمعارف وعمل بما علم كانت حياته حافلة بأنبل العواطف و اشرف الغايات . وكلّما تزيد الإنسان من هاتين القوتين كان ادنى من السعادة واقرب الى الخير ولقد بلغ الانبياء والرسل درجة الكمال فيهما فكانوا اسعد الحق في هذه الحياة وكانوا أكثر اثماراً في الدّعوة إلى الخير وجلاء اسرار الجلال ثم الّذين ترسّموا خطاهم من مصلحي الأمم و حكمائها و ذوى القدرة الحسنة فيها كلّ على قدر درجته من العلم والعمل .

محال ان يصل المرء إلى السعادة الحقيقة الّتى ينشدها طلاب الكمال في هذه الحياة بغير طريق العلم واخذا لنفس بكماله المعنوى فالعلم حياة والجهل موت . من الغريب ان الانسان قد يطلب العلم لغاية مادية فاذا امامعن فيه انقلب هو نفسه غاية وأصبح يطلب لذاته وكان لذةً من لّذات النّفس بالغة الأثر عميقه التكوين ولسنا نجد له ضريباً في ذلك سوى المال عند عبيده ولكنّ المال قد يعقّب عند هولاء حسرة دائمة وعيشاً نكدا امّا العلم فلا خطر فيه ولا يخشى من مغبته و العلم إذا اثمر فضيلة و خلقاً كان اجدى لصاحبه و أعوذ بالخير عليه و هم يقولون ان هناك رابطة بين التربية العقلّية و الخلقيّة و ليس ذلك موضوع بحثنا الآن وإنّما نريد ان نكرّر ما قلناه وهو ان السعادة الحقيقة هي في رياضة العقل بالبحث العلميّ واخذا لنّفس بتطبيق نظريّاته عملاً وخلقاً وبذلك يكون الانسان هو المظهر للأخلاق العالية و قدوة صالحة وعاملا قوياً في استقامة الحياة و هداية خلق كبير - الم تر إلى العرب قبل الإسلام كيف كانوا جفاة غلاظاً لا يقيدون بخلق ولا يستنيمون لفضيلة . فلّما جاء الإسلام و انار كتاب الله عقولهم ونبّه فيهم حاسّة الخير انتقلوا من وحوش كاسرة إلي هداة مصلحين . وفتحوا بلاد القياصرة والأكاسره بقواتّهم المعنويّة أكثر ممّا فتحوا لقواتهم المادية العظمة و البطولة و قيادة الجماهير إلى خير السبل وتجديد الامم بالاصلاح والعمارة كلّ ذلك نشيجة العقول المستيزة بالمعرفة و العامرة بالاخلاق و هذه هي السعادة المنشودة و الّتى هى خير سبيل إلى اصلاح الحال في الدنيا والاخرة

ولقد تجد اولئك العظماء والابطال والقادة الّذين استنارت عقولهم وكملت أخلاقهم لا يرون في الحياة الا ما في سبيل خدمة الحقّ ونصرة الإنسانيّة وهم يستعذبون العذاب والالام في سبيلهما .

و التاريخ ينبئنا في كلّ جيل عن رجال من ذلك الصّنف ظلّوا يجأرون بالاصلاح و يعملون على انهاض اممهم فى طريق ذلك بالتشريد و التطريد و الويلات فى النّفس والمال والولد وهم عاكفون على دعوتهم وتوجيه نفوسهم الى المثل العليا في الحياة راضون عن كلّ ما يلحقهم من الأذى غير ساخطين على القدر ولا زارين بالقضاء والامم الّتى عمرت بالعقول الراجحة والاخلاق المستقيمة عاشت سعيدة و الّتى حرمت الامرين لا قيمة لحياتها بل تكون قطيعاً من البهايم السائمة واذا اكثر المتعلّمون فيها من غير ان تكون محصلة للاخلاق كانت على نفسها شراً من الامّة الجاهلة فانّ العلم يفتح لها ابواب النّزق فتتّردى فى اودية الهلاك والضلالة امّا ان تكون امة ذات خلق بغير علم ومعرفة فذلك لم نصل الى معرفته ولم نعرف باحثاً وصل اليه [1].

الظلم في العدل قلّما اجتمع الضدان كما اجتمعا في القصّة التالية ويقال انّها وقعت في امريكا فاوردناها عبرة و ذكرى لان امثالها تقع عندنا و عند غيرنا .

في سجن من سجون امريكا رجل محكوم عليه في قتل . نادى السجّان رجلاً وقال علّي بنمرو كذا يريد المحكوم عليه . فذهب الرجل وعاد بكهل قضى في السجن أكثر من عشرين سنة فشيبّته اللّيالى و انحلّت جسمه الاسقام . فوضع السجان يده على كتفه و ادنى منه كرسيّاً وقال له اجلس . عندى لك بشرى تسّرك فقدمات رجل في سجن جيورجيا و قبلما أسلم الروح اعترف انّه هو قاتل الرجل الّذي اتّهمت أنت بقتله و شرح كيف قتله . وقد ثبت بعد البحث والتحرّى انّ اعترافه صحيح و هنا المستندات الّتى تؤيّد ذلك قتله هو ورجل آخر منذ اثنتين و عشرين سنة و قدمات شريكه فى الجريمة قبله لكنهما تمكّنا من النجاة حين قتلاه واخذت انت بجريرتهما خطأً لانك ارشدت إلى القتيل ولم تستطع ان تبرّى نفسك وقد نظر مجلس العفو في أمرك فعفا عنك ولا حق للحكومة

---

(١) مجلة الهلال سنة ٤٢ .

بعدالآن ان تبقيك في سجنها اسم هذا الرجل جون كلتين ، فخرج من السجن وكان الفصل شتاءً و رقع الثلج تتساقط من الجو فتبعث بها الرياح وهو نحيف الجسم مضيّع الأفكاروكان السّجان اعطاه عشرة ريالات كرماً منه فدفع منها اجرة سكّة الحديد الى المدينة الّتي كان بيته فيها . و كان في صناعته مهندساً ميكانيكياً وله دكان فيه الآلات يبيعها فلمّا وصل إلى المدينة سدّد خطواته إلى حيث دكانه فوجد هناك معملا كبيراً جداً بدل دكانه فوقف حائراً في أمره و قرأ اسم المعمل فإذا هولبرتول واولاده فإنغض رأسه و سار إلى حيث كان بيته وكان قدترك فيه زوجته و ابنته فوجد انّه صار نزلا فيه غرف للتأجير فدخله واستأجر غرفةً فيه . و إذا هى الغرفة الّتي كان ينام فيها و إلى جانبها الغرفة الّتي كانت لزوجته . ثمّ عرف ان زوجته حاولت الاحتفاظ بدكانه و بيته بعد سجنه ولكن ركبها الدّين فاضطرت ان تبيع الاثنين وتوفّيت وتركت ابنتها لرحمة الّذين يعنون بالمنقطعين .

و قام في اليوم التّالى يفتّش عن عمل يعمل به و هو يحسب انّه لايستطيع ان يعمل كمهندس ميكانيكى لانّ هذا الفنّ تقدم كثيراً مدّة الاثنين و العشرين سنة الّتي قضاها في السّجن وقدنسى أكثر ماكان يعلمه مناصول الهندسة لانّ العمل الّذى اعطيه في السّجن وهو نسج الحصر يخمل به العقل مهما كان ذكياً وزد على ذلك انّه شاخ و ضعف وخارت قواه فقصد معملاً ظنّ انّه يستطيع انيجد فيه عملاً ولمّاسئل عنماضيه ذكر انه سجن خطأ ثمّ اطلق سبيله فقال له مدير المعمل انّ كلّ الّذين كانوا ملائكة قدسجنوا خطأ فلا عمل لك عندى .

فخطر له ان يذهب إلى الّذين كان على معرفة تامّة بهم قبلما سجن و بعضهم من اعزّ اصدقائه فقصدهم واحداً بعد الآخر فلم يجد منهم إلّا الجفاء وان تلطّفوافالاعتذار بالأسف . وأخيراً ذهب إلىمحام كان صديقاًله فوجده غايباً سافر طلباً للصحة فأسقط في يده وضاقت الدّنيا فيعينيه لانّ النقودالقليلة الّتياعطاه ايّاه السجّانكادت تنفد لكنّه اكتشف حينئذ ابنته و اسمها حنّة وقد صارت صبيّة وهي فيمحلّ تجارى كاتبة و هناك شاب إسمه بولدن احبّها و أراد ان يقترن بها فامتنعت لسبب يجهله وكان هذا الشاب

مخبراً لجريدة (المورنيخ تلغراف) وهي من الجرايد ذات الشأن فلمّا رأي أباها وعلم انّه سجن اثنين وعشرين سنة خطأ استقص القصة منه وكان من مهرة الكتاب يصوّر الحوادث فيما يكتب تصويراً يختلب الالباب فكتب هذه القصة على اسلوب يحرّك الاشجان فلما اطّلع عليها صاحب الجريدة واسمه ماكندس وكان قد اشتراها لغرض سياسى ضد الحكومة ابرقت اسرّته ونهض و التفت إلى رئيس التحرير وهو يقول ماشاءالله انظر فضايع الحكومة انظر مايفعلون انشرها انشرها في صدر الجريدة انشرها تحت عنوان (فضايح) هذه بلاد الدستور بلاد العدل و يظلم الناس فيها هذا الظلم الفاحش . انشرها بحروف كبيرة في اظهر مكان من الجريدة .

فنشرت القصة كما كتبها بولدن ولم تكد تخرج من المطبعة و تنتشر في البلاد حتّى قام لها الناس وقعدوا وكثر التحدث بها . امّا بولدن فوضع نسخةً منها في جيبه و اسرع بها إلى حنة فرأي ان أباها خرج من البيت و اخذ امتعتة امّا هي فكانت جالسة في غرفتها تبكى فانها قرأت قصّة أبيها في الجريدة فكادت نفسه تطير شعاعاً .

ولما وصل بولدن توسّلت إليه ان يزيدها شرحاً وبياناً فقال سأفعل فقالت ولكن عليك أن تذهب وتعود بأبي فقال إلى أين ذهب فقالت إنّه عاد إلى السجن الّذي خرج منه لانّه وجدانّ المدينة لاتصلح له . ألم تعطه امس خمسة ريالات فهي اجرة السفر إلى السجن وقد اخذها لهذا الغرض فصار عليك ان تذهب وتعود به .

فقام في الصباح وقصد السجن فلقيه السّجان عند الباب وقال له ان كلتين اتى امس طالباً العودة إلى السجن فلم نر كيف يجوز لنا أن نجيب طلبه ولكن الحكومة مدينة له بعدان سجنته و منعته عن الاكتساب اثنتين و عشرين سنة وكنت انا غايباً فابى وكيلى ادخاله السجن فعاد على طيته فقال بولدن ألايخطر ببالك اين يحتمل أن يكون قد ذهب فقال ان من كان في حالته وقد تولاّه القنوط فالمرجّح انّه يذهب إلى حيث لايعود ولكن يحتمل ان يخطر بباله ان له رزقا ولا بدّ من طلبه بايّة وسيلة كانت ولو افضى به ذلك إلى دخول السّجن ثانية وكثيرون يفعلون ذلك .

أمّا بولدن فكان صحافيّاً ماهراً يعرف كيف يجد ضالّته ففتّش عن كلتين في

المستشفيات و مراكز البوليس و اماكن عرض الغرقى واستعان بكثيرين من اخوانه فلم يعثر عليه لكنّه لم يقنط بل ظلّ يفتّش إلى ان لقيه هائماً على وجهه في طريق منفرد فامسك به وارجعه إلى بيته وهو على تلك الحال و الظاهر انّه لم يعرف من هوالّذي ارجعه .

و في مساء اليوم التالى اخبر حنّة بالحالة الّتي وجدأباها فيها وكيف انّه لم يعرفه فطلبت منه أن يذهب بها إليه فلم يشاء اشفاقاً عليه فقالت لابد من أراه فانّه مهماكانت حالته فهو أبى . ثمّ قصّت عليه قصّتها كيف وضعت في ملجإ المنقطعات و كيف كان سائر البنات يتجنّبها لان أباها قاتل و ذات يوم أتى بعض الزّوار و شاهدوا البنات و التفت إليها رجل على انفراد واعطاها خمسة ريالات و كان عمرها حينئذ اثنتى عشرة سنة فحسبت انها صارت من اغنى البنات وهربت تلك الليلة من الملجاء . قالت ولاأدرى ماذا كان يمكن ان يحلّ بي لولم تجدني مسزرندل و هى امرأة ديّنة فاخذتنى و ادركت حالا سبب كرهى للملجإ المنقطعين فلم أُخبرها شيئاً عن أبى بل قلت لها ان ليس لي قريب ولا احد الجاء إليه و ان اسمى حنّة اغدن . واغدن اسم عائلة امّى ولم اخبرها باسم عائلة أبى لانني لم أشك في انّه قاتل وهذا هو السبب الّذي جعلني ارفض الاقتران بك اما تلك السيّدة الفاضلة فوضعتني في بيت احسبه الآن مثل بيتي ولماوصلت إلى هذا الحد من قصتها كانا قد وصلا إلى البيت الّذي فيه أبو ها فقال لها بولدن حسبي الآن وقرع باب الغرفة الّتي فيها أبوها فلم يسمعا مجيبا ففتح الباب و إذا بابيها جالس امام النار ذاهلا كانه في غيبوبة .

فلمّا ذهب بولدن في الصباح التالى إلى ادارة الجريدة وجد مالم يكن ينتظره مئات من التلغرافات والوسايل وفيها كلّها السّخط الشديد على الحكومة لسجنهاكلتين وهو بريء وفي بعضها تحاويل ماليّة له فقال له ماكندس صاحب الجريدة هو ذاالمحامى باغلى فاخبره بكلّ ما تعرفه من قصة كلتين . و كان باغلي هذا من اشهر المحامين و أقواهم حجّة وأرقّهم قلبا وهو الّذي قصده كلتين فلم يجده فقصّ عليه بولدن القصّة

من أوّلها إلى آخرها على اسلوب يحرك الاشجان و لما أتمّها قال ما كندس للمحامي أما من سبيل لمداعاة الحكومة و جعلها تكافيء كلتين عمّا الحقت به من الضرر فقال كلّا ما من حكومة في الأرض إلّا و تفعل ذلك . هذا ظلم قديم في العدل ولا حيلة لنا فيه ولكن قد يمكن أن نفعل شيئاً فقال ماكندس انّ هذه القضيّة قد حركت الرّأى العام وللرّأى العام إليدا لطولى في كلّ المسائل العموميّة و نحن امّة نحب العدل و الانصاف فكلّ وسيلة تتّخذ لمحو هذا الظلم تقع أحسن موقع من الرّأى العام فإذا وجدت لذلك سبيلاً قانونياً فإنّنا نعضدك بكلّ جهدنا .

هنا رجلان باغلي محام شهير كبير النفوذ وما كندس سياسي قدير و على ثروة طائلة و في يده جريدة كبيرة الشأن ولكن أيقدر هذان الرجلان ان يصلحا ما افسده الدهر ويلزما الحكومة ان تعترف بخطاءها وتصلحه مرّت الاسابيع و عادت حنّة إلى البيت الّذي ولدت فيه و اقامت في الغرفة الّتي كانت لامّها و بقيت مصرّة علي رفضها الاقتران بيولدن .

وذات يوم جاء المحامي باغلي وطلب من حنّة وأبيها أن يكونا على استعداد للسفر معه صباح اليوم التالى فقالت حنّة انّها لاتستطيع مالم تستأذن الرجل الّذي هي كاتبة (سكرتيرة) عنده فقال المحامي انا استأذنه لك . وجاء في الصباح و أركبها معه في اتومبيله (سيّارته) و أخذ بولدن أيضاً و ساروا إلى ان بلغوا مدينة و شنطون عصر النهار و في اليوم التالي سمع كلتين المحامي يقول بصوت جليّ رزين أيّها السادة اعضاء مجلس العفو هذا هو جون كلتين الّذي اذنتم لي في احضاره إلى هنا و هذه هي ابنته والآن ياكلتين ان وكيل الوالي وساير الاعضاء طلبوا أن يسمعوا قصّتك من فمك فقصّها عليهم فكان هذا الطلب مثل سحر أزال الغشاوة عن عيني كلتين والضباب الّذي يغشى ذاكرته فاندفع بسرد سيرة حياته ذاكراً لمخترعات الّتي اخترعها و احوال عائلته قبلما حكم عليه وما لقيه في السجن وما حلّ بزوجته و ابنته بعده على ما بلغه . فاصغى الاعضاء إليه إلى ان تمّ حديثه ثمّ اشار الرئيس إلى باغلي فامسك بيد كلتين وساربه إلى غرفة اخرى حيث كان بولدن في انتظارهم و هو على مثل جمر الغضاء وعاد المحامي إلى المجلس و بعد ساعة

زمانيّة رجع إليهم وقادهم إلى غرفة اخرى فيها رجل شيخ كلّل الشيب رأسه فامسك بيدكلتين وقال أهذا هوجون كلتين فقال باغلي نعم ياحضرة الوالي وهذه ابنته وهذا بولدن الّذى نشر قصّته في طول البلاد وعرضها بقلمه البليغ .

فقال الوالي مخاطباً كلتين لقد اصابك أيّها الرّجل ضرر كبير و ليس في طاقتنا ان نصلح كلّ مافات ولكنّنا نستطيع ان نعيضك بعض الشيء فان حكومة هذه الولاية قد وضعت في يد مجلس العفو مبلغاً من المال وفوضّت انفاقه في السبيل الّذي يراه إذا ايّد الوالى ذلك فقرّر المجلس اليوم بالاجماع ان يعطيك خمسة و عشرين الفريال بدل ما خسرته مدّة اقامتك في السّجن ظلما و انا مسرور لانّني خوّلت تأييد هذا القرار .

ثمّ أفاض في كلام التعزية والتشجيع قائلاً انّ الحكومة الّتي اتهمتك خطأ و حكمت عليك ظلماً اطلقت سبيك حالما اكتشفت خطاءها وسعت ان تعوضك عمّا اصابك من الضرر بسببها وبعملها هذا محت ما اصابك من العاربين قومك .

فانتعشت روح كلتين من تلك الساعة و كانت حنّة قد وضعت يدها في يد أبيها فوضعت يدها الاخرى في يد بولدن حينئذ وانتبه الوالي إلى ذلك فابتسم و هنّاهما و قال للمحامي و اهنّاك أنت أيضاً لأنّك لاتزال المحامي الّذي الفوز حليفه دائماً .

انتهت القصّة و المرجّح انّا موضوعة ولكن ما أكثر أمثالها . وقد يكون لها امثال في هذا القطر الآن وغرضنا من ايرادها ان تهتم الحكومات الانسانيّة باطلاق الابرياء من ابنائها المسجونين ظلماً ومعاملتهم بكرمها وحبّذا لوفعلت ذلك الحكومة الاسلاميّة و كلّ الحكومات . بل حبّذا لو نهض نوّاب الممالك و اصلحوا قوانينهم وعدّوا حكوماتهم مسؤولة عما تفعله برعاياها إذا اخطأت في فعلها مسؤولة جنائيّاً ومدنيّاً فان القاضي مأجور لاكتشاف العدل و الحكم به فاذا اخطأ في اكتشافه أو في حكمه فشأنه شأن كلّ من يناط به عمل ولا يحسن القيام به أو يعمل عملا منه خسارة مالية والعامل مسؤول عن عمله قال النبيّ ﷺ كلّكم راع وكلّكم مسؤول عن رعيّته .

الحضارة وموازينها ميزان كلّ شيء هو المعيار الّذي يعرف به قدر ذلك الشيء فلا يكون الا من جنسه و ممّا يناسبه على اختلاف اجناس الموزونات كذى الكفّتين و القبّان وما يجرى مجراهما للاجرام و الأثقال و الاسطرلاب للمواقيت و الارتفاعات والفرجار للدّوائر والقسّي والشّاقول للأعمدة و الأبنية و المسطر للخطوط و العروض للشعر و المنطق للفلسفة و الحسّ و الخيال و العقل الكامل للكل و سمّى المنطق بالميزان كما قال الحكيم السبزواري :

نحمد من علمنا البيانا و قارن الكتاب و الميزانا

ألّفه الحكيم رسطاليس ميراثذي القرنين القدّيس

وقال صدر المتألّهين وتابعه الفيض الكاشاني وقال ـ فميزان يوم القيامة اعني ما يوزن به العلوم والاعمال فيعرف قدرها هو نفس العقايد الحقّة والأعمال الصالحة التامّة من وجه وأهلهما الهادون إليهما من وجه آخر و علي الأوّل قيل الميزان هو كلمة لا إله إلاّ الله فانها هي الفاصلة بين الاسلام و الكفر و المائزة بين أهل الجنّة و النّار و في الحديث الصلوة ميزان من وفي استوفى هذا في الاعمال وذاك في العقائد و العلوم و قس عليها ساير العقايد والعلوم والأعمال وعلى الثاني ورد في الاحاديث انّ الموازين القسط هم الأنبياء و الأولياء روى الصدوق بأسناده عن هشام بن سالم عن الصّادق عليه السلام هم الأنبياء و الأولياء و في رواية اخرى نحن الموازين القسط و انا أقول جاء في احدى زيارات سيّدنا أمير المؤمنين السلام عليك يا ميزان الأعمال فلكلّ شيء صورة في نشأة غير صورته الّتى في النشأة الاخرى وقد تتبدّل بتبدّل النشآت و المواطن .

لقد قال الكاتب الفاضل محمد قطب احد اقطاب العلم و الأدب وقد افاد و اجاد في مقالته احببت ان اذكرها هنا فانّها مقالة مفيدة جداً نقلاً من كتاب النفس و المجتمع .

حضارة الكيلوواط قال لي أحد الشيوعيين مرّة و هو يجادلني ان مقياس الحضارة الحديثة هو مقدار ما يستهلكه الفرد من التيّار الكهربائي فبقدر ما يستخدم

من آلات حديثة تستهلك تيّاراً كهربائياً تقاس حضارته . وقد بلغت حضارة امريكاكذا كيلواط في المتوسّط لكل فرد ولم تبلغ بعد في روسيا هذا الرقم . ولكنّها في طريقها إليه لان استهلاك الفرد هناك يرتفع بسرعة سنة بعد سنة .

قلت له ولكن هذا معناه ـ بمقياسك ـ ان الشيوعيّة ماتزال متأخّرة عن الرأسمالية فكيف يتّفق هذا مع كونها ـ في رأيك ـ حركة تقدّمية عن الرأسمالية .

وفوجىء محدّثي الشيوعي بهذا القول مفاجأة تامة وبدا عليه الزعر، لان المقياس الّذي يتّخذه لقياس الحضارة قد خذله على حين غرّة منه و راح يحاول التخلّص من المأزق بأن يقول : ان الشيوعيّة لم تأخذ مداها بعد وحين تصل إلى قمّتها ستفوق الحضارة الأمريكية قلت له لا تهرب ، انا اسألك عن الفكرة الشيوعيّة ذاتها : أهي ارقى من الرأسمالية الأمريكيّة حتّى قبل ان تبلغ قمّتها . أم هي متخلّفة عنها ؟ وسكت . فلم يهتد إلى جواب ومنذ أيّام قرأت حديثاً جرى بين احدى الأمريكيّات اللّواتي يردن بلادنا و بين إحدى الصحفيّات عن مقياس الحضارة بالكيلواط ، فبقدر ما يستهلك الفرد من التيّار الكهربائي تقاس درجة تحضّره ! لما ذا ينحرف النّاس هناك هذا الانحراف ؟ لما ذا تختلّ القيم في موازينهم إلى هذا الحد ؟ الّذي يثير السخريّة حين يتمعّن فيه الإنسان .

إنّها المقائيس الخاطئة تؤدّي حتما إلى النتايج الخاطئة . وبقدر ما يكون الخطاء في المقائيس يكون الانحراف في النتيجة ـ و المسألة إذاً في حاجة إلى تصحيح القيم... تصحيح المقائيس ، كيف نقيس الانسان هل هناك مقياس (موضوعي) لا يخضع لرأى و رأيك . بل يعتمد على اسس ثابتة يمكن الرجوع إليها لتصحيح المقائيس كلّما اختلت في أيدى البشر .

فلننظر في هؤلاء البشر كيف اصبحوا بشراً فلعلّنا ان نصل ـ عن هذا الطريق ـ إلى المقياس الصحيح واسهل طريق نصل منه إلى النتيجة . وهو كذلك اضمن طريق ان نوازن بين الانسان و الحيوان فالفرق المبتغى في الميزان هو حقيقة الانسان والفروق بين

الانسان والحيوان كثيرة لانظنّها تحتاج إلى جدل كثير،أحد الفروق بطبيعةالحال انّه يستخدم عقله في التفكير والتعلم والاختراع واحد الفروق كذلك انّه يستلزم الإرادة الضابطة في تنظيم ميوله الفطرية و توجيهها ذات اليمين و ذات الشمال .

ومن هذا الفارق اخير أو من كليهما معاكفّ الانسان ـ على مدار الزمان ـ عن الاستجابة المباشرة لميوله الفطرية على طريقة الحيوان وراح ينظمها ويهذّبها ويستجيب له آخر الأمر ولكن بعد ان يقطع بها شوطا بين المنبع و المصب و على ضفاف هذا الشوط من المنبع إلى المصب نبتت الفنون والعقائد والأفكار والفلسفات والعادات والتقاليد كالزهور الجميلة تنبت في وسط الطين ولكنّا شيىء آخر غير الماء و الطين إلى هذا الحدّ يتّفق النّاس في حكمهم على الإنسان فنكتفى إذن بهذا القدر ولاضرورة الآن لذكر الرّوح مادام النّاس غير متّفقين على انّها من مزايا الإنسان الّتي تفرّقه عن الحيوان (الكلّيّة الإلهيّة أو النفس الناطقة وما هو المراد من النطق) .

واذن فحين نتحدّث عن الحضارةالإنسانيّة ينبغي ان نرجعها إلى مقائيسها تلك البديهة الظاهرة التي يتميّز بها الإنسان عن الحيوان وإلّا فستكون مقائيسنا خاطئة قاصرة لاتصل بنا إلى الجواب الصحيح العلم و الاختراع . . . لا شك انّه نتاج انساني أصيل فالحيوان لايخترع ولا يحسن أن يكيف حياته على اساس الاستفادة الواعية ممّا حوله من ذخاير الوجود ولكن القياس بهذا المقياس وحده لايكفى ولايؤدّي إلى نتيجة صحيحة تصوّر انك تحاول رسم دايرة بفرجار (برجل) ذي قائمة واحدة : هل يمكن؟ هل تصل إلى نتيجة ؟ أم انّه لا بدّ من القائمتين معاً تركز بإحداهما في مركز الدائرة و توجّه الاخرى على الورقة حتّى يتمّ الرسم العلم أو الاختراع .. هو مركز الدائرة هو احدى قائمتي الفرجار ولكنّه وحده لا يغنى شيئاً ولا يرسم صورة فالعلم يمكن أن يستخدم للخير و للشرّ . يستخدم في التدمير و يستخدم في البناء ، والعلم يمكن أن يستخدمه الرجل الفاضل والرجل المنحرف، فانا استطيع أن استخدم الغسالة الكهربائيّة في بيتي وأنا رجل هابط منحرف أكيد للناس و اتمنّى لهم الشرّ ـ سواء نفذت هذا الشرّ في صورة جريمة ام بقى احساساً

كامناً في نفسي كما استطيع ان استخدم هذه الغسالة الكهربائية وانا رجل نظيف المشاعر احب للناس الخير واسعى لهم في الخير فاذا كنت استخدمها في الحالتين فكيف تصلح في ذاتها ان تكون مقياساً لانسانيّتي او تحضّرى والغسالة الكهربائية شأنها شأن المحراث الميكانيكي وشأن الراديو والتليفزيون والسينما والمطبخ الكهربائي والقطار الكهربائي والانسان الآلى والمخّ الإلكتروني . . . إلى آخر هذه الآلات الّتي تعمل بالكهرباء وتستهلك الكيلواط ! لايمكن ان تكون في ذاتها مقياساً للحضارة ولا مقياساً للآدميّة لسبب بديهي بسيط هو ان الجميع يستخدمونها بما فيهم من خير وشر و صعود و هبوط و اذن فلا تصلح لقياس الصعود والهبوط في مقائيس الانسانيّة .

و إنّما هي تصلح حين نضيف اليها القائمة الاخرى من قائمتي الفرجار لترتسم الدائرة وتتضّح الصورة للعيان قلنا ان الفارق بين الانسان و الحيوان ـ إلى جانب العلم والاختراع ـ هو تحكّمه في نوازعه الفطريّة و عدوله عن الاستجابة المباشرة إليها ممّا نشأ عنه الفنون و العقايد و الفلسفات و الأفكار والتقاليد والعادات .

تلك هي القائمة الّتى ترسم الدائرة . امّا الاخرى فهي فقط محور الارتكاز وعلى قدر المسافة الّتي أفتح بها القائمة الثانية تكون الدايرة ضيقة أو واسعة محدودة أوشاملة بينما القائمة الاولى ثابتة في جميع الأحوال في نقطة الارتكاز .

فعلّي اذن حين ابحث في مدى حضارة إنسان معيّن . أوشعب معيّن ان ارى الدائرة الّتي يعيش فيها . الدائرة الّتى يرسمها لنفسه بقائمتي الفرجار .

فاذا كان هذا الفرد أو هذا الشعب يستخدم التليفون و التليفزيون و الغسالة الكهربائيّة و المطبخ الكهربائي ويستهلك اكبر قدر من الكيلواط في اليوم ثمّ يكذب وينصب ويستغل الاخرين اسوأ الاستغلال و تفوح من تصرّفاته روح الغدر و الخيانة و الأنانيّة البغيضة . أوإذا كان يستهلك هذا القدر من الكهرباء ثمّ يتنازل عن آدميّته عن فنونه وعقايده وآرائه وفلسفاته وتقاليده وعاداته و يرتدّ كالحيوان يستجيب لميوله الفطرية استجابة مباشرة فكيف اقول انّه متحضّر بل كيف اقول انّه انسان وما قيمة هذه الكيلواطات كلّها و هي لاترفع مشاعره مرة إلى احساس نبيل أو رغبة في التعاون مع بني

البشر على الخير ـ امريكا هى البلد الّذي وصل إلى القمّة في استهلاك الكهرباء ـ و امريكا هي الّتي تعامل الزنوج تلك المعاملة البشعة الّتي لم يسمع عنها الا في شريعة الغاب فكيف تكون امريكا متحضرة ولو استهلكت من الكهرباء اضعاف ما تستهلكه اليوم بحساب الكيلواط ؟!

وإذا كان العلم والاختراع شيئاً مشتركاً أو يمكن ـ على مدار الزمن ـ أن يكون مشتركا بالنسبة للجميع فالمقياس الآخر اذن هو الّذى يحدّد النتيجة و يرسّم الصورة الآدميّة أو الحيوانيّة، الارتفاع عن عالم الضرورة أو الهبوط إليه الاحساس بالاخرين على انّهم زملاء في البشرية أو اعداء يجب تحطيمهم والاستئثار دونهم بطيّبات الحيات أو عبيد يستغلّون لحساب سيّدهم هذا هو المقياس و بقدر مايرتفع الانسان أو يهبط في هذا المقياس تكون درجة تحضّره لأ نّها درجة الانسانيّة .

فالّذي يغرق في شهواته و لذائذه لا يرتفع عنها ، حيوان مرتدّ عن الانسانيّة .

والّذي ينبذ عقايده وتقاليده و اخلاقه ، حيوان مرتدّ عن الانسانيّة .

والّذي يسعى إلى ايذاء الاخرين من بني البشر . حيوان مرتدّ عن الانسانيّة .

ولو استخدم كلّ آلات الأرض و استهلك كلّ ما فيها من كهرباء .

والّذي يكتفى من متاع الجسد بالقدر المعقول و يملك حريّته ازاء شهوته .

والّذي يربط قلبه ووجدانه بعقيدة تقيه من الهبوط و ترفع وجهه إلى السماء و هو يمشي بقدميه على الارض .

والّذي يحس بالكيان البشرى للاخرين فلا يستعبدهم ولا ينابذهم ولا يستأثر دونهم بالخير ذلك هو الانسان المتحضّر ولو لم يستهلك كيلواطاً واحداً من الكهرباء هل تلك مقائيس شخصية تقديريّة ؟ كلّا ! فقدرددناها إلى اصولها البسيطة الّتي ينبغي ان تردّ اليها و هي الفوارق الّتي تفرق بين الانسان و الحيوان . و كلّ مقياس لا يدخل هذه الفوارق في حسابه فهو مقياس خاطى لانّه لايقيس حقيقة الانسان و إنّما يقيس جانباً واحداً منه لا يعبر بذاته وليس له وحده دلالة . و إنّما يعبر فقط حين يتبيّن اتّجاهه

و يرسم له الخط الّذي يسير فيه ومن هنا تبدو تفاهة المقائيس الغربيّة الّتي تقيس الحضارة بالكيلواط .

هل معنى ذلك ان ننفض ايدينا من ثمار التقدّم العلمى مادام ليس لها وزن في الميزان كلاّ ، لا اريد ان أقول ذلك ـ فالعلم كما قلنا نتاج بشرّي اصيل . والاستفادة من ثماره وتكييف الحياة على اساسها خصلة مميّزة للانسان فاذا ابى الانسان ذلك أو نكص عنه فهو لا يريد ان يستغل كلّ كيانه و كلّ طاقاته . وهو إذن ناقص الكيان ولكنّي اريد ان اثبت حقيقة هامّة ـ انّ الإنسان يستطيع في سهولة ان يعوّض ما ينقصه في جانب العلم و الاختراع إذا كان غنيّ النفس بالجوانب (الإنسانية) الاصيلة الّتي يرتفع بها عن عالم الضرورة ويشعر بزمالة البشر في الانسانيّة فيتعاون معهم على الخير المشترك للجميع ولكنّه لا يستطيع بالعلم وحده ان يعوض ما ينقصه في الجانب الانساني ولو اضاف كلّ يوم مائة اختراع جديدة ولو استهلك كلّ يوم الف كيلواط ، و من ثمّ يكون المقياس الآخر هو المقياس الحاسم ولا يكون الاوّل الا (شيئاً) في الميزان ـ و اروبا اليوم تفسد مقياس الحياة لانّها ـ اليوم تملك السيطرة و السلطان ! و ربّ قائل يقول وكيف ملكت القوّة والسلطان وكيف ملكت ان تفرض المقائيس الخاطئة للبشريّة أليس بالعلم والاختراع واذن فهذا هو المقياس و ذلك حقّ يؤدّى إلى باطل .

فامتلاك السيطرة ليس حتماً أن يكون على حساب الانسانيّة الحقّة . وقد كان العالم الاسلامى في وقت من الأوقات يملك كلّ وسايل القوّة المادّية و كلّ ثمرات العلم ومع ذلك كان يرتفع في مقياس الإنسانيّة إلى الحدّ الّذي شهد به اعداؤه من الصليبيّين وما يزالون يشهدون به في كتب التّاريخ و من جهة اخرى فان امتلاك اروبا للقوّة المادّية على غير رصيد نفسيّ نظيف قداد ّى إلى هذا الصراع الرهيب في حربين متواليتين في ربع قرن و الثالثة على الأبواب تنذر بتدمير الحياة على وجه الارض .

ويوم تصل البشريّة إلى استخدام ثمار العلم في تهذيب النفوس والارتفاع على عالم الضرورة فيومئذ فقط تكون قد ارتقت حقاً في مقياس الحضارة الاصيل و في ختام مقالة

الاستاذ الفاضل المعاصر محمد المعروف بالقطب نورد قصيدة معروفة عند العارفين وهي لأبي الفتح البستي أحد شعراء ايران و بلغائها لكى تحفظها الطلبة الجامعة وتعمل بها .

زيادة المرء في دنياه نقصان	و ربحه غير محض الخير خسران
و كلّ وجدان حظّ لاثبات له	فإنّ معناه في التحقيق فقدان
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً	تا الله هل لخراب الدهر عمران
ويا حريصاً على الأموال تجمعها	أنسيت ان سرور المال احزان
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته	أتطلب الربح فيما فيه خسران
اقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
دع الفؤاد عن الدنيا و زبرجها	فصفوها كدر و الوصلُ هجران
و اوع سمعك امثالاً افصّلها	كما يفصّل درّ و مرجان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم	فطالما استعبد الإنسان احسان
و ان اساء مسيءٌ فليكن لك في	عروض زلّته صفح و غفران
وكن على الدهر معواناً لذى امل	يرجو نداك فإنّ الحرّ معوان
و اشدد يديك بحبل الله معتصماً	فانّه الركن ان خانتك اركان
من يتّقي الله يحمد في عواقبه	و يكفه شرّ من عزّوا ومن هانوا
من استعان بغير الله في طلب	فان ناصره عجز و خذلان
من كان للخير منّاعاً فليس له	على الحقيقة اخوان واخدان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة	اليه و المال للانسان فتّان
من سالم الناس يسلم من غوائلهم	و عاش وهو قرير العين جذلان
من مدّ طرفاً لفرط الجهل نحو هوى	اغضى على الحقّ و هو خزيان
من عاشر الناس لاقى منهم نصباً	لأنّ اخلاقهم بغى و عدوان
من كان للعقل سلطان عليه غدا	وما على نفسه للحرص سلطان
ومن يفتّش على الاخوان يقلهم	فجلُّ اخوان هذا العصر خوّان
ولا يغرّنك حظ جرّه خرق	فالخرق هدم و رفق المرء بنيان

فالروض يزدان بالأنوار فاغمة والحرّ بالعدل و الاحسان يزدان
صن حرّ و جهك لاتهتك غلالته فكلّ حرّ لحرّ الوجه صوّان
و ان لقيت عدوّاً فالقه أبداً و الوجه بالبشر والاشراف غضّان
من استشار صروف الدهر قام له على حقيقة طبع الدهر رهّان
من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة و لحصد الزّرع ابّان
من استنام إلى الاشرار قام و في قميصه منه صلّ و ثعبان
و رافق الرفق في كلّ الامورفلم يندم رفيق ولم يذممه انسان
أحسن إذا كان امكان و مقدرة فلن يدوم على الإنسان امكان
دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يسعد بالخيرات كسلان
لا ظلّ للمرء احرى من تقى ونهى وان اظلّته اوراق و اغصان
الناس اخوان من والته دولته و هم عليه إذا عادته اعوان
سحبان من غير مال باقل حصر و باقل في ثراء المال سحبان
لا تحسب الناس طبعاً واحداًفلهم غرائز لست تحصيها و اكنان
ما كلّ ماء كصدّاء لوارده نعم ولا كلّ نبت فهو سُعدان
و للأُمور مواقيت مقدّرة و كلُّ امر له حدٌّ وميزان
فلا تكن عجلاً في الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران
حسب الفتى عقله خلّاً يعاشره إذا تحاماه اخوان و خلّان
هما رضيعا لبان حكمة و تقى و ساكنا و طن مال و طغيان
إذا نبا بكريم موطن فله وراءَه في بسيط الأرض أوطان
يا ظالماً فرحاً بالعزّ ساعده ان كنت في سنة فالدهر يقظان
يا أيّها العالم المرضيّ سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريّان
ويا أخا الجهل لواصبحت في اللّجج فأنت ما بينها لا شكّ ظمآن
لا تحسبنّ سروراً دائماً ابداً من سرّه زمن ساءته أزمان
إذا جفاك خليل كنت تألفه فاطلب سواه فكلّ النّاس اخوان

و ان بنت بك أوطان نشأت بها　　فارحل فكلّ بلاد الله أوطان
خذها سوائر امثال مهذّبة　　فيها لمن يبتغى التبيان تبيان
ماضر حسّانها و الطبع صائغها
ان لم يصغها قريع الشعر حسّان

الشخصية و العظمة ليس فينا من لم يتأثّر برجل من الرجال و يخضع له و يشعر حياله باحترام مقرون بالتقدير والاعجاب وليس فينا من لم يتهيّب النّظر إلى مخلوق أو التحدّث إليه أو التقرّب منه أو مناقشته أومعارضته سواء كان رجلاً أو إمرأة فهذه الهيبة المشوبة بالخوف هو الدليل البالغ على اكتمال قوّة الشخصيّة و الواقع أن القدرة على تكوين عناصر الشخصيّة من الاغراض العسيرة الشّاقّة الّتي لا نستطيع الفوز بها الابعد جهاد طويل . ولكن الظفر بها آخر الأمر يفتح لنا أبواب الحيات و يمكننا من تحقيق مثلنا العليا و يوحى إلى الغير الثقة بنا و يخوّ لنا حقّ الاضطلاع بعظائم الاعمال وما تاريخ العالم في الحقيقة إلّا تاريخ الرّجال أصحاب الشخصيّة القويّة . وقد تحدث ظروف البيئة وأساليب التربية وأنواع الثقافة وتطوّرات الحياة الاقتصاديّة أكبر الأثر في تكوين الرجل العظيم . ولكن شخصيّته القويّة هي الّتي تنتفع بالحوادث و توجّه الظروف و تسير المقادير وتخلق حالات انسانيّة جديدة تتطور بالامم و الشعوب تطوراً يقيم حضارة ويهدم اخرى ويقوّض نظاماً ويبني آخر .

فصاحب الشخصيّة القويّة يشارك الطبيعة في عمليّة التطوّر . و كلّما كان عقله ثاقباً و خياله متقداً وارادته حديديّة صلبة . كان افعل في التأثير على محيطه و اقدر في توجيه شعبه و حضارة عصره وجهة خصبة جديدة ولقد كان (يوليوس قيصر) يقول لم احتج في بعض ظروف حياتي الّتي امتازت بخطورتها إلاّ إلى نظرة القيتها من عيني المتقدمتين على إنسان كي يصدع هذا الإنسان لأمرو ينزل على ارادتي ويعمل بمشيئتي و سلطاني . ولا يتوهمن البعض ان أذكياء العقل كانوا يخضعون لي لأنّي قيصر فانا نفسي كنت أتوهّم ذلك ولكن بعد ان خبرت شخصي و انعمت النظر في اخلاقي وفي اسلوب تفكيري وفي خصايص مسلكي

حيال مرؤوسي ادركت ان قوّة شخصيتي الّتي ابدعتها من عصارة فكري ارادتي هي الّتي كانت تشع مني بالرغم منّي و هي الّتي تسيطر على كلّ من يتّصل بي ومثل هذه القوّة تحدّث عنها نابلئون و بسمارك ومعظم القادة الّذين خلقتهم الطبيعة فخلقوا انفسهم ثمّ خلقوا التاريخ وليس للفرد العادى ان يتوهّم في نفسه العجز عن مجاراة اُولئك الابطال . ففي وسع كلّ منّا ان يكون بطلاً في ميدانه . وفي مقدور كلّ منّا أن يساهم في تطور بلاده وعصره وفي مستطاع كلّ منّا أن يكون قويّ الشخصية موفور عناصر الارادة و النجاح على شرط ان يعرف كيف يهذّب شخصيّته وينميها ويتبيّن جوانب قوّتها وضعفها ويجاهد جهاداً يومياً مطرداً لإكسابها ذلك الطابع التأثيري الّذي يعجب به النّاس و ينشده المجتمع وتدين له الظروف و تتحقّق بواسطته الاعمال الجديرة بان يعيش الإنسان و يفكر و يتألّم و يضحى من أجلها فخير الطرق لاحراز شخصيّة قويّة و للتفوق بهذه الشخصيّة على النفس و على الغير هو موضوع هذا البحث و هو ما سنحاول عرضه و تحليله .

ان حوادث الحياة تمرّ بنا كما تمرّ السفن على سطح المحيط فنحن ملك العالم الظاهرى يتصرف فينا ويوجّهنا اىّ الوجهات يريد وما حياتنا إلّا حلم من احلام اليقظة ولهذا نجهل حقيقة انفسنا وانه لمن اشق الامور علينا ان نكتنه بواطن شخصياتنا مادمنا لم نتحرّر من مؤثرات الحياة الظاهرة ولم نفصل بين عقلنا و العالم ولم نستفق من ذلك الحلم الذى تنقضي فيه اعمارنا فاوّل شرط من شروط الفوز بشخصيّة قويّة هو ان نبدّد عنا سحب الحياة ونقصّي اوضاع المجتمع و نهبط الى اعماق انفسنا مجردين من كلّ غاية منزهين عن كلّ غرض حاملين مصباح العقل كما يحمل المعدّن مصباحه في قاع المنجم .

ولا ريب في ان لكلّ مناخاصّة ممتازة أوملكة نادرة اوموهبة بارزة فهذه الملكة او الموهبة هي الّتي يجب ان نستوثق منها قبل كلّ شيء وهي الّتي يجب ان نبحثها و نحلّلها و نلاحظ أعراضها و نرى ما إذا كانت وثيقة الصلة بالواقع متّفقة واسباب الحياة العمليّة فاذا ماأدركنا بعد طول الدرس و الاختبار انّها كامنة فيناحقا وانها زاخرة بالنشاط حافلة بالحركة فلنبرزها و لنصقلّها ولنهيّيء لها الظروف الصالحة لنموّها و

لنخضع ساير قوانا و نسخّرها لخدمتها و في غضون هذا السعي المتواصل ينبغى ان نلم إلماما تامّا بما فينا من نواحي الضعف الّتي قدتعطّل حركة مواهبنا وتعرقلها وتحول بينها و بين الظهور والاكتمال .

واشد مايعطل المواهب و يفسدها فساد الاخلاق . وقد يكون الرجل ذكيّاً ثمّ يكون بليداً و قد يكون نابغاً في علم من العلوم اوفن من الفنون ثمّ يكون خائر النفس منهوك الأصابع يائساً عاجزاً متبرّماً وقد يكون من كبار السّاسة و من اقطاب رجال الدولّة ثمّ تستخفّه الزّلفى ويطربه الملق وقد يكون من اعلام الفضيله ثمّ يعبث بالفضيلة فيصيب الدين في الصّميم .

فمعرفة النّفس حقّ المعرفة و الوقوف على مافيها من مواطن النّبوغ و التفوّق ثم تغذية هذا النّبوغ قدر الطّاقة ثمّ تمهيد السّبل لنمائه وازدهاره بالحرص على الاخلاق القويمة تلك هي العناصر الرئيسية الاولي لتكوين الشخصيّة إذا كان من البديهى أن تنهض الشخصيّة القويّة على قاعدة التفوّق في علم او ادب أوفن فمن العبث اظهار قوّة الشخصيّة بدون اخلاق . فالعلم وحده لايكفى و التفوّق الذهنى ايّاً كان لايكفى و ليست العبرة في ان تكون نابغاً في ان يقترن نبوغك باخلاق ممتازة تؤكّد قيمتك وتعزّز سلطانك و تحمل الناس على الثقه بك والتسليم لك بمعالجة ادقّ المشاكل واخطرها و الاعتماد عليك في تحقيق عظائم الامور و الظاهرة الملحوظة ان عددالنوابغ كثيرة ولكن عدد النوابغ المشهورين بالخلق القوى و الّذين يمكن الاعتماد عليهم في ساعة الشدة جد قليل فالمجتمع لايقدّرالنّبوغ الذّهنى الا مقترناً بالاخلاق ولا يعترف لصاحب هذا النبوغ بقوّة الشخصية الامتى اكتمل فيه سلطان الاخلاق ولكن ماهي هذه الاخلاق الّتى تكوّن الشخصيّة .

١ ـ **حب العمل** : و الانكباب عليه و الاستمرار فيه و الدأب على تجويده تثير الاعجاب وتستفزّ شعور المحاكاة وتتّخذ مثلاً وقوّة .

٢ ـ **الترفع عن مغريات المادية** : هذه الخاصّة يعلّق عليها المجتمع اعظم اهتمام إذالولع بالمادّة لابد أن يغلب في الفرد مصلحته الخاصّة على مصلحة الجماعة

ومتى تغلّبت المصلحة الخاصة وتمكّن من النفس حبّ المال فسد العمل والضمير فالاخلاص التّام للعمل و ان لم يتناسب الجهد مع الاجر و الاستعداد الدايم لمقاومة الاغراء المادّى و الامتناع المطلق عن استخدام المنصب أو النفوذ لكسب ربح شخصى و التوجّه المطّرد بالفكر و القلب و الضمير صوب الخدمة العامة كلّ هذه العوامل المنطوية على روح البذل والتّضحية تولّف في الواقع جانبا رائعاً من جوانب الشخصيّة القويّة .

٣ ـ **الصراحة في القول** من حقّ السياسى وحده أن يراوغ ! بل قد يكون هذا واجبه و برهان قوته . اماغير السياسى فصراحة القول يجب ان يكون شعاره .

والصراحة من ادلّة الإباء و عزّة النّفس و علوّ الهمّة وحبّ الاستقامة . و اما المراوغة و المماطلة و التّسويف و اخلاف الوعود و التّردّد في ابداء الرأى الحاسم او كتمانه و ايثار حجبه تحت ستار المجاملات فمن ادلّة ضعف الفكر وضعف الخلق و نقص الشجاعة .

ونحن في الغالب نأبى المصارحة برأينا الصحيح في مسألة من المسائل خشية ان نخرج على مألوف عاداتنا و نفقد راحتنا ونؤلّب علينا الغير ونصطدم بمعارضة قويّة و نثير العواصف حول انفسنا وقد يكون الجهر بالرأي في مصلحتنا فنضحى بهذه المصلحة الخاصّة بغية الاحتفاظ بهدوئنا وقد يكون الجهر بالرأي في مصلحة وطننا فنضحى بهذه المصلحة العامة ونسيىء إلى بلادنا وهكذا ننشر الجبن وندعوالى النّذالة ونروّج رذايل العبث والنفاق والاستخفاف وعدم الاكتراث .

فالقوى حقّاً هو الّذي يفكّر ويقول و ينفذ هو الّذي يصارع ويتحدّى ويتحمّل وقد تختلف نسب المصارحة باختلاف القدرة على تحمّل نتائجها ولكن المهم ان يوفّق الانسان بين قدرته على المصارحة و مدى استعداده لتحمّل نتائجها وما دام قدوطن العزم ولو على تحمّل بعض تلك النّتائج فقد دنا من الغاية و شارف حدّ الشخصيّة القويّة .

٤ ـ **الثبات و الاستقامة** لاريب في ان الثبات على المبدأ من اظهر صفات الرجل القوى . ولكن حبّ الحقّ من اخصّ صفاته ايضاً . كما تبدو قوّته في استمساكه بفكرته

وثباته عليها وصلابته في الدفاع عنها كذلك متى تبد و في رغبته الشديدة في الاذعان للحق متى اهتدى اليه بعد تفكّر طويل فهو في الحقيقة لايثبت على مبدأ معيّن إلّا ليقينه بأنّ هذا المبدأ هو الحق ولو طالبناه بالثبات علي غير ما اصبح يعتقد أنّه الحقّ لجعلنا منه رجلاً متعصّبا وجرّدناه بالتالى من احد مظاهر العظمة والتفوّق .

و من النّاس من لايفرّق بين فضيلة الثبات على المبدأ و رذيلة التعصّب واللّجاج للمبدأ . وهذا خلط شائن اذالثبات على المبدأ قوّة ايجابية تنبع من الفكر لتستقرّ في العاطفة اما التّعصب للمبدأ فقوّة سلبيّة تنبع من العاطفة لتستقرّ في العاطفة .

و اذن فبقدر ما يشترك الفكر في تكوين المبدأ يكون حظّ المبدأ من التوطّد على اساس الحقّ و بقدر ماتشترك العاطفة في تكوينه يكون حظّه من الرسوخ على اساس الباطل لان العاطفة تؤخذ بالظّواهر و تخدع بالالوان وتفتّن بالصّور . وقلّ ان يتكلّف اصحابها البحث عن الحقايق فسرّ القوّة في الثبات على مبدء يوحى به العقل والفكر ويمحّصه الذهن الحرّ الخالص من شوائب التعصّب العاطفى .

٥ ـ **احترام النفس** إن لم يحترم الانسان نفسه فلن يحترمه الناس و احترام النفس معناه اقامة حاجز من التحفّظ النفسى بين الفرد و بين من هم اقلّ منه ادراكا و اضعف منه عقلاً ونفساً وخلقاً معناه تجنّب المجون واتّقاء شرّ التّبذل وعدم الاسترسال في المزاح و اتّباع روح الجدّ والظهور على الدوام بمظهر الوقار والرصانه ولا ينبغى ان يتطوّر شعور احترام النفس فيبلغ حدّ الغطرسة والكبرياء بل يجب ان يكون شعوراً بالكرامة نقيّاً سليماً يقترن فيه التّرفع بالتواضع والشدّة باللين عند الاقتضاء ولكن احترام النفس لن يكون عميق الاثر في الناس الامتى تجلّى في احتقار الملق و ازدراء المداهنة وكره التّمسح بالكبراء وذوي الجاه وليس شكّ في انّ صاحب الشخصيّة القويّة يعرف باكتفائه بنفسه واعتماده على ذاته وتعويله على عمله وتبرّمه التام بمختلف اساليب الكذب والنفاق وشتّى انواع المداجاة والزلفى .

٦ ـ **خشونة الحياة** من اروع مميّزات الشّخصيّة القويّة نفورها من الحياة النّاعمة الرّخوة و اقبالها على كلّ عمل فيه جهد و فيه خشونة و فيه رجولة فازدراء

اسباب الشّرف والعزوف عن ابسط المتع والتجرّد والتقشّف عند الحاجة من الفضايل الدالة على احساس متأصّل بالقوّة وعلى رغبة صادقة في الاخلاص لفكرة والتضحية من اجل مبدأ أوعمل و الحق أنّ الحياة الفاتره الهادئة المزدانة بالوان الرّفاهية والنّعمة تخنّث الطبايع وتقضى على المواهب وتفسد الرّجولة وتضعّف خاصّة الاقدام والمغامرة وتزعزح الارادة من الاعماق .

فالقوّة و الحالة هذه تقتضى في بعض الاحيان التغلّب على مفاتن ومباهج المدنيّة و العودة بالنفس و الجسد إلى بعض نوازع الفطرة السليمة . و الارتداد بالحياة الى اصولها الوحشيّة الاولى خدمة للفكر و الحياة .

٧ ـ **كبح الاعصاب** التّحكم في الاعصاب ميزان القوّة . فكلّما استطعنا كبح اعصابنا ازداد تأثير نا على الغير ورسخت في النفوس عظمة شخصيّتنا . و رياضة الأعصاب تمكّن من رياضة العقل لأن ضبط انفعالاتها يسهّل علينا مراجعة تفكير نا و التعمّق فيه واقناع خصمنا بصوابه وانتهاءنا الى الفوز عليه والملاحظ ان لاشيء يقلق الناس ويربكهم و يستفزّ احترامهم و يوحى اليهم الهيبة اكثر من مثولهم في حضرة انسان قادر على كبح اعصابه . و ذلك لانّ هدوءه يخفرهم الى الهدوء ويرغمهم على التعقّل ويضطرّهم إلى استخدام الفكر في فضّ مشاكلهم بدلاً من استخدام التهيّج و العنف وحيث ان الناس في مجموعهم لايحسنون التفكير لفرط خضوعهم لسيطرة أعصابهم فالذي يعرف كيف يكبح اعصابه يتفوّق عليهم بعمق تفكيره و هكذا يسوقهم الى طاعته و يجبرهم الى احترامه فمهما حاولت فلن تكون قويّ الشخصيّه اذا كانت اعصابك اقوى منك .

واما الاساليب التى تؤدّى بك الى التّسلّط على اعصابك فيجب ان تبتكرها بنفسك وتوّفق بينها بين خصائص مزاجك .

ولقد كان فولتير يضمّ شفتيه ويطرق برأسه الى الارض ويلوذ بالصّمت دقايق طويلة كلّما اوشكت ان تعصف به العصبيّة .

و كان مونتسكيو يردّد في خاطره بضع مقطوعات شعريّة يحبّها كلما أحسّ انه سيهتاج وينفعل .

و كان تولستوى في مثل تلك اللّحظات يرفع بصره إلى السّماء و يتمتم صلاة قصيرة .

و كان الرّوائى ستندال يقتدى بنابلئون فيذرع الحجرة جيئةً وذهاباً ليطرد عنه دوافع الغضب .

وامّا موليرفكان لشدّة خوفه من عواقب ثورانه يقهقه قهقهةً يخفّف بهاعن صدره و يرتدّ الى عقله .

فهذه الأساليب الّتى اتّبعها العظماء في وسعنا ان نأخذ بها او نبتدع غيرها تفادياً لنا من التّضحية ساعة الانفعال بجميع الفضايل الّتي اقمنا عليه صرح شخصيّتنا .

وصفوة القول انالعوامل السبعة التي ذكرناهاهى الّتى تشترك في تكوين الشخصيّة القويّة فكلّ من استطاع توفير عناصرها في نفسه واستكمال جوانبها في طبيعته واحساسه والتّوفيق بينها و بين مقتضيات مزاجه و إجادة تطبيقها على الحياة الواقعة فهو الرجل المعدّ لجلائل الاعمال وهو الانسان العظيم الممتاز بقوّة الشخصيّته .

باى ميزان تزن الحياة ذلك السرّ الغامض الّذي يبدء بالميلاد وينتهى بالوفاة ذلك السرّ الغامض الّذي نسمّيه الحياة و نرى أنفسنا في غماره متدافعين إلى الأمام أو متراجعين إلى الوراء ذلك البحر الخضم الّذي تلقينا بين أمواجه يوم نولد قوّة خفيّة ، حتّى إذا سبحنا فيه شوطا قصر اوطال ، نزعتنا منه تلك القوّة الخفيّة حين يحلّ الأجل هذه المعركة الّتي نساق إليها غير مختارين و نفصّل عنها غير مختارين هذه الحياة ماهي ؟ وما غايتها ؟ ولما ذا ولدنا ؟ ولما ذا نموت ؟ ليت أحداً يستطيع الجواب عن هذا السؤال في كلمة أوكلمات . إذن لاستراح الفلاسفة و أصحاب المذاهب المختلفة في كنه الحياة . فقديماً كان وإلى اليوم مازال هذا السرّ الرّهيب موضوع البحث المهم و مثار الجدل العنيف بين العلماء والمفكّرين . وليس عجباً أن يفكّر الفلاسفة في مرمى الحياة. وإنّما العجب أن لايفكّر في مرمى الحياة جميع النّاس .

نولد أجنّة و ندرج أطفالا و ننشأ صبية و نراهق فتياناً ونستوى رجالاً و نبلغ

الكهولة و تدركنا الشّيخوخة إن قدّر لنا ان نبلغ ارذل العمر ، ثمّ ماذا ؟ ثمّ تجفّ الشجرة وتذوى الأزاهير ويتساقط الورق ، وما هو إلاّ نفس اخير نلفظه فإذانحن رفات وذلك دون ان نفكّر يوماً لما ذا ولدنا ولما ذا حيينا ولما ذا نموت ، ودون ان نفكّر من اين جئنا وإلي اين نعود . و هل جئنا من عدم لنعود إلى عدم أو جئنا من وجود لنعود إلى وجود ؟ .

وأنت مع ذلك إذا أخذتك سنة من النوم ثمّ استيقظت فوجدت نفسك في غرفة لاعهد لك بها فلن تستقرّ على حال من الدهش حتّى تعرف ماهذا المكان ومن ذا جاء بك إليه وكيف جاء بك ولما ذا ؟ ستطّل من نوافذ الغرفة لترى على أيّة حديقة أوفناء تشرف ستفتح الباب فإن كان موصدا عالجته حتّى ينفتح أو ينحطم ، فإذا خرجت من الغرفة جعلت تنظر يمنةً ويسرةً في ذهول وحيرة . ثمّ جعلت تطوف بارجاء الدارمسائلا نفسك اين أنا وما هذه الدار ولمن هي و في ايّ مدينة . ولن يهدأ لك بال أو يستقرّ لك حال حتّي تلقاك سيّدة هي أشبه ما تكون بالممرضات فتنبّئك بأنّ هذه الدّار عافاك الله مستشفى وان اغماءة طارئة غشيتك فخاف عليك والدك فاسرع بك إليه . حتّى إذا بشّر الطبيب اباك بأن الأمر هيّن لاخطر فيه . آثر لك الاقامة هُنا أيّاماً إلى أن تستعيد صحّتك فترجع إلى دارك سليماً معا فى حينئذ تدرك حقيقة المكان ومن جاء بك إليه وما السبب فإذا عرفت أنّ الغاية هي استشفاءك ممّا بك لم يزدك علمك بهذه الغاية إلاّ أخذاً بأسبابها و استيفاءً لشرائطها . حتّى يتمّ لك منها ما أراده والدك وما أصبحت تريده لنفسك .

هذا شأننا من الدهش و التساؤل إذا طوحت بنا الطوائح إلى مكان نجهله . فما بالنا تبعثنا إلى هذه الدنياقوّة خفيّة على غير قصد منّاولا اختيار ثمّتوفّانا مستضعفين على غير قصد منّا ولا اختيار نظهر و نختفى على سطح هذا المحيط الهائل . كالفقاقيع تنتفخ وتنفجر في مثل لمح البصر ، دون أن يأخذنا دهش يدعونا إلى الحيرة و التساؤل و التفكير .

لما ذا بعثتنا القوّة الخفيّة القديرة الجبّارة إلى هذه الدنيا . ألنقضى في هنائها أو عنائها . في صحّتها أو مرضها ، في غنائها أو فقرها ، في عدلها أوظلمها ، في إخائها أو أولدها ، في رفقها أو جفائها ، أو في مزيج من هذا كلّه ستّين أو سبعين عاماً إذاطال بنا العمر .

وما ستّون أو سبعون عاماً في امتداد الأزل الّذي لا أوّل له . و في امتداد الأبد الّذي لانهاية له . انّ العلماء ليحصون السنين الّتي سلختها الإنسانيّة على هذا الكوكب بالملائين لا بالألوف . و يقدّرون لها البقاء فيه ملايين اخرى تربو على الاحصاء . فما أنا وما أنت . وما نصيبي وما نصيبك في هذا السرمد الّذي تحار فيه الألباب ذرّة ضئيلة من جبل أشم ، قطرة هيّنة من محيط مترام .

واذن فما حياتك وما حياتي وما حياة هذا الجيل كلّه وماحياة الامم الحاضرة كلّها حتّى نجعل موضوع هذا البحث (بأيّ ميزان تزن حياتك ؟ إنّ التّاريخ المدوّن أو المكتوب لايعدو ستّة آلاف من السّنين وهي الّتي شغلت أقلام المؤرّخين ، و هي الّتي ظهرت فيها حضارات واختفت حضارات وارتقت أمم وأنحطت امم ، و هي الّتي وقع فيها من المظالم والحروب و طغى فيها من الرقّ والاستعباد ، وتقلّب فيها من العقايد والأديان واختلف فيها من طرائق الخير والشرّ ، وتعاقب فيها على الجماعات والأفراد من السعادة والشّقاء وأظلم فيها من الضّلالات والجهالات ، وأضاء فيها من المعارف والعلوم (ماتضيق عن الاحاطة به مئات الألوف من المجلّدات ومئات الألوف من العقول . وهذا كلّه تراث ستّة آلاف من السنين . وما هي من ماضى الانسانيّة المجهولة ومن تاريخها غير المكتوب وما هي من مستقبل الإنسانيّة الّذي لا تترامى إلى حدوده عين الخيال) إلّا بمثابة الدقيقة الواحدة من ألوف الاعوام .

اذن أليس من الغرور أن أتكلّم أواكتب عن حياتك و حياتى و من ميزان حياتك وحياتى ماحياتك وما حياتى اذاقستها بهذا المقياس المخيف إنّك لو نظرت اليها بالميكرسكوب لعزّ على الميكرسكوب أن يكشفها لمن ينظر اليها من افق الأزل القديم و الأبد الخالد

ألا تصدق ؟ إذن ،ألا تعلم أن كوكبك هذا الّذي عاش فيه اجدادك من البشر ملايين السنين وسيعيش فيه احفادك ملايين اخرى لايحصيها العدّ ، إن لم يصطدم به جرم سماوى آخر فاذا أرضك هباء في مثل قصف الرعد اوخطف البصر (ألاتعلم أن هذه الارض بماضيها الزّاخر و مستقبلها العظيم الباهر إنّما هي شظية تطايرت من الشمس كما تتطاير الشرارة من التنوّر الهائل المستعرّ ، فجالت شرارتك في الفضاء حتّى أخذت مدارها من نظامنا الشمسى واستحالت حصاة (مستقلّة ذات سيادة) انا وانت وهو وهي وهم وهنّ آحاد في عداد ملايين الامة الايرانيّة و الامّة الايرانيّة احدى العشرات الكثيرة من امم هذا العصر . وامم هذا العصر حلقة قصيرة من سلسلة ترجع إلى ماض لايدرك الخيال مبتدأه و تمتّد الى مستقبل لايدرك الخيال منتهاه على هذه الأرض وهذه الأرض شظية كانت ملتهبة تناثرت من الشمس فدارت من نظام الكون حيث تدور فماذا عسى تكون حياتي وماذاعسى تكون حياتك . لاسيّما و أنت تعلم ان نظامنا الشّمسى ليس إلّا واحداً من نظم كثيرة تماثله . لواطلنا التفكير في كنهها و في تلك القوّة الخفيّة الّتى تسخّرها لقضينا اعوامنا السّتين او السبعين في التفكير ، دون ان نزداد في تفهّمها إلّا ذهولاً وحيرة ايّها القرّاء الكرام و الطلّاب العظام هل تحتملون منى كلمة جريئة إذا كانت الحياة هي الأعوام السّتّون أوالسبعون الّتي نعيشها في هذه الدّنيا . من غير أن نكون مرتبطين قبل قدومنا بقوّة هي الّتي بعثتنا لحكمة ، و من غير أن نكون مرتبطين بعد رحيلنا بقوّة هي الّتي استدعتنا اليها لحكمة ، اذا كانت الحياة مصدرها العدم و مصيرها العدم ، إذا إذا كان مولدنا في هذه الارض مصادفة لم تقصدها قوّة مريدة مدبّرة ، وكان موتنا مجرّد انتهاء لهذه المصادفة ، إذا كان وجودنا مجرّد نتيجة آلية عضويّة لمجرّد تفاعلات آلية عضويّة ، وكان زوالنا مجرّد نتيجة مادّية لاسباب مادّية لاأقلّ ولا اكثر ، اذاكانت أيامنا في هذه الدنيا برزخاً تاعساً بين بلقعين : بلقع الماضى قبل ان نولد . و بلقع المستقبل بعد أن نموت ، اذاكنّا في هذه الدنيا مجرّد احلام زائلة واشباح هائلة اذاكان كلّ هذا العناء و هذا الكدح و هذه الآلام و هذه الأمراض و هذه الخطوب الّتى نشاهدها أو نحتملها أو نكافحها في سبيل الإنسانيّة ، إذاكانت كلّ هذه الحضارات وهذه العلوم وهذه

العلوم وهذه الفنون وهذه الاداب تسموا إليها الأمم جيلا بعد جيل، إذا كانت هذه الشرور كلها وهذه الخيرات كلها ليس وراءها إلّا مطلب واحد (هو ان يعيش كلّ فرد من الناس خمسين اوستّين عامًّا محدودة بحدّين ، عدم مطلق منذ الأزل وعدم مطلق إلى الأبد ماعدا هذه الأعوام الخمسين اوستّين . (اذا كان الامر كذلك ، فما أحقّ الاحياء الّذين يؤمنون بهذا العدم من قبل ومن بعد بالموت لم يعيشون ؟ إنّ الانتحار أولى بهم وأجدر إنّ هذه الاعوام الستّين الّتي يعيشها المرء في هذه الدنيا لاتساوى في ذاتها عضّة الفقر ولا ذلّة الحاجة عاماً واحداً .

انّها في ذاتها لاتساوى برحاء المرض الممّض نصف عام . انّها في ذاتها لاتساوى احتمال ظلم الظّالمين ولا جبروت المتجبّرين . إنّ المرء ليصادف في هذه الاعوام الستين او السبعين من ضروب الأذى ما لايحتمله إلّا لشعور واحد ، هو أنّ الحياة سرّ قديم خالد . لاحياة الجماعة فحسب بل حياة كلّ فرد من أفرادها كبر أو صغر ، جلّ في نفوس الناس أوهان اذا سألت بعض علماء المادّة الّذين يرون حياة الفرد مسبوقة بعدم منتهية إلى عدم ، إذا سألتهم لماذا يعيشون . قالوا نعيش طوعاً لغريزتين عزيزة الحرص على على بقائنا وغريزة الحرص على بقاء النوع .

امّا حرصنا على بقاء انفسنا فواضح حتّى في الطفل يتجنّب السقوط من عل و يتجنّب النّار اللاذعة و الحفرة العميقة و أمّا حرصنا على بقاء النوع فواضح في الامّ تسهر على ذراريها ، و الأب يعول أبناءه . حتّى ولو كانت الامّ حيواناً أعجم و نحن نفهم هذا التعليل بقوّة العزيزة من غير السادة العلماء ، فأمّا وهم من اهل التفكير الّذين من شأنهم أن يرجّحوا حكم العقل على اندفاع الغرائز ، فقد كان الاولى بهم اذا لم يؤمنوا بأنّ لحياة الفرد اتّصالا وثيقاً بالخلود كان اولى بهم أن يدركوا هذه الأعوام القليلة التي ستسلمهم عمّا قريب إلي فناء لاوجود لهم بعده ، هذه الاعوام لاتستحقّ منهم عناء البحث والتّنقيب في مظاهر كاذبة وزبارج باطلة ولا تستحقّ منهم هذا العكوف على المعامل والآلات و المنظار المكبّر والمنظار المصغّر و التعليل و التحليل والكدح

باللّيل والنّهار . للوصول الى حقايق مهما تكن في نظرهم جليلة فهي تافهة مادامت هذه الخلايق الانسانيّة ، و السادة العلماء في طليعتها . كائنات تافهة تظهر اليوم من ظلام العدم . لتنتهى في الغدالى ظلام العدم . كان أولى بهم أن يقفوا مبشّرين بالفناء ، و ان يقولوا للناس فيم الكدّ . وفيم العناء في سبيل غاية مقفرة مظلمة . الى العدم العاجل بيدك أنت أيّتها الانسانيّة مختارة طائعة فذلك اكرم وأروح للبال من ان يحلّ بك العدم غير طائعة ولا مختارة .

يقولون انّ حياة الانسانيّة شيء وحياة الفرد شيء آخر . حياة الفرد الى العدم فأمّا حياة الانسانيّة فالى البقاء . لذلك يخدمون الانسانيّة بالعلم و الفنّ و الأدب ليجيء الجيل اللاحق خيراً من الجيل السّابق ، ولتجيء الحضارة الآتية اعظم وأروع من الحضارة الماضية وهذا في الحقّ سخف عظيم . لأنّ معناه انّ جميع الاجيال الماضية وجميع الاجيال الآتية كانت وستكون مجرّد عتبات ومدارج ، أومطايا وبراذع . يعلوها في النّهاية آخر جيل تتمحّض عنه الإنسانيّة ، فإذا استوى الجيل الأخير على قمة المجد لم يكن مجده خالداً . بل كان مجده زائلا كذلك ، ولو عمر الإنسان الأخير بفضل العلم الف سنة . ثمّ ينقضى هذا الجيل الأخير بانقضاء صلاح الأرض للحياة .

وانتهت الدنيا إلى غايتها . وفنيت حضارة الشمس ، وانطفأ ضياؤها . واستحالت البحار جليداً والشّجر والنبات هباءً أمست الإنسانيّة عدماً مطلقاً إلى آخر نسمة فيها (ولم يبق للانسان المسكين حتّى ولا الذكرى إذ من ذا يذكر الإنسان وقدانمحى من صفحة هذا الكون آخر انسان ، و انمحى لا ليسموا إلى عالم آخر ولكن ليبقى غريقا في غمرات الفناء خالداً فيها أبد الآبدين .

هل هذه اذن غاية الإنسانيّة هل غايتها أن تقضى مئات الملايين من السّنين لتنضج جيلاً واحداً هوالجيل الأخير ، ثمّ يكون هذا مصير ذلك الجيل الأخير أتعرف الساحر الّذي يخرج علبة من جوف علبة ثمّ يخرج الثالثة من جوف الثانية والرابعة من جوف الثالثة و الخامسة من جوف الرابعة وهكذا حتّى تعد عشرات من العلب يخرج بعضها من جوف بعض : حتّى ينتهى بك إلى علبة لاتكاد تراها لضؤولتها ، ثمّ يوهمك بأنّ فيها

قطرة من سائل هو ماء الحياة ، فإذا تناولها المتناول و أسرع بالقطرة إلى فيه ليرزق الخلود خرّ على الأرض فاقد الرّوح تلك صورة فكاهية من الحياة الإنسانيّة كما يفهمها اُولئك المادّيون .

عفواً ايّها القراء الكرام هل تريدون مني كلمة جريئة اخرى . هذا الإنسان أكبر وأعظم من الاعوام السبعين أو المأة الّتي تمتدّ إليها حياته في الدّنيا . لكن هذا الإنسان متناقض عجيب أتذكرون أيّامه الغابرة ؟ أيّام كان يأوى إلى الكهوف ويأكل الصّيد نيئاً . و يضرب في الغابات عاريا . ولا تكاد تميّزه من ساير الحيوان .

هذا الإنسان ما الّذى هداه إلى ما هو اليوم فيه ؟ ما الّذي صعد به إلى المستوى الّذي بلغه في القرن العشرين معجزة القرون ، في الدنيا حروب وفيها عدوان وفيها آفات وفيها عيوب ولكنّها عيوب الصاعد إلى المثل الأعلى رويدا رويدا ولا سبيل إلى أن ينجو من تراث الماضي و غرائز الأنانيّة الأولى كلّ النّجاة في ألف عام كلاّ ولا في عشرة آلاف .

قد يشنّ الحروب ويعتدى على الحقوق ولكن لطيفة خفيّة تنزع به إلى السلام والانصاف بعض النزوع . له اليوم قوانين وشرايع ان طغت عليها يد العدوان يوماً فانّ الجماعة كفيلة بردّ الحقّ إلى نصابه وان كره المعتدون . له اليوم علوم قيّمة و فنون جميلة وآداب افسحت امام عقله سبحات الهناءة المعنويّة . له تعاون على البرّ والاحسان يلطف من تعاون الاشقياء على الغدر و الاساءة . له أديان مشروعة و مثل من الاخلاق موضوعة . له طائرات في الجوّ وغائصات في البحر وله أسباب ممدودة تراها العين اسلاكا برقيّة أو تلفونيّة ، أولا تراها لانّها أسباب من الاثير تحمل الأصوات و تخفى عن النظرات وهو مع ذلك متناقض عجيب . ذلك الّذي دوّخ الأرض وسخّر الجوّ والبحر و نفذ في الصخر و كشف من الاسرار عجائب كانت قبل عشرين اعوام أو خمسين في عداد المعجزات ، ذلك الّذي يقف وراء المدفع الضخم فيطلقه على البرج المشيّد أو القرية العامرة فإذا هي اطلال ، ذلك الّذي كشف اسرار الأفلاك و الكواكب و النجوم و عرف مزاج بعضها وتأليف موادّه وتركيب عناصره وقاس أبعادها وحذق حسابها حتّى ليتنبّأ

لها بحوادثها و بجريانها قبل ان تقع بمئات الأعوام ، ذلك الّذي اضاء الّليل بثريات مكهربة فكأنها شموس وأقمار ذلك الّذي اتّخذ من الغاز سموماً ومن الهواء غذاءً ومن حرارة الشّمس و هدير الماء قوّة مستعملة أو مذخورة ذلك الّذي يطوف الآن حول الأرض على متن الهواء قبل أن يطوف أخوه مناخ قبيلته على ظهر حماره ذلك الّذي كشفت له الأشعّة مكنون الجسوم واخترقت له حجب الغيب ، فاصبح يرى مالم تكن تراه العيون .

ذلك الإنسان تقتله البعوضة وتمرضه نسمة الهواء . وتشرقه جرعة الماء ويصرفه الهوى عن الجادة و يريد الأمر المستطاع فيصرفه عنه التخاذل . ذلك الإنسان يعدل و يظلم ويقسو ويرحم و يتّخذ العلم للشرّ ويتّخذ العلم للخير . فما هذه القوّة وما هذا الضعف وما هذا النّور الساطع وماهذا الحلك الدامس وكيف يجتمعان ولأيّهما الغلب آخر الأمر . وهل يستطيع أن نستخلص من بين هذه الأطوار المتنافرة والمظاهر المتناكرة حقيقة الحياة و غاية الحياة و ميزان الحياة هل تفضّلون أم هل تريدون منّي كلمة جزئية اخرى .

نحن تلاميذ القوّة العظيمة الّتي بعثتنا إلى هذه الدنيا يوم ولدنا والّتي تتوفّانا يوم يحلّ الأجل نحن تلاميذها وهي تعلمنا من حيث لانراها وقد أودعتنا سراً يسمّيه الفلاسفة عقلاً وتسمّيه الأديان روحا ولا يهمّنا ماذا نسمّيه . هو قبس من هذه القوّة العظيمة وشعاعة من نورها وليس يولد إنسان إلاّ وينطوي على هذا القبس أوهذا الشعاعة كامنة ! وإنّما توقظها تجاريب الحياة من ألم ولذّة وحرمان و احراز ومرض وصحّة و اخفاق ونجاح ! فالألم يوقظ هذا السرّ الكمين ، و يروضه على النظر كيف ينجو من الألم . واللّذة تبعث فيه حبّ الاستزاده فحبّ الحركة في سبيل احراز تلك اللّذّة ، و الحرمان يبعث فيه حب التحصيل و الاحراز ولذّة الاحراز تدفعه إلى طلب المزيد . و المرض يعلمه التّوقى ويعلمه الصبر و الجلد و الصحّة تشعره الهناء ، و الاخفاق يغريه بالكدح و معاودة العلاج والنّجاح يزيده همّة وعزيمة .

كان هذا منبت الغرائز في الإنسان الأوّل ثمّ رأى ذلك التلميذ الناشىء على كرّ

الأجيال ان في بعض لذاته ايلاما لاخوته و ان في بعض سعادته شقاء لسواه فازدادت فيه الحساسية ، فوازن قليلاً بين سعادته وشقاء الآخرين ، فانصرف قليلاً قليلاً عن الأنانية المطلقة ، ومازج تقديره شيء من العطف على سواه .

السر الدفين يستيقظ الشاعة الكمينة ترسل ضوءها خارج نفسها لأول مرة ، بذرة الانصاف و العطف والغيرية تستحيل بنته مزهرة . التلميذ يتعلم في مدرسةالحياة درس العدالة . فيحاكى المعلم الأعظم الّذي بعثه إلى مدرسة الحياة ، التلميذ يدرس منهاج الفضايل في مدرسة الدنيا مكرمة بعد مكرمة ومهمة بعد مهمة . أليس المعلم الأعظم كريماً حميداً ، و هذا تلميذه أودع فيه قبسه لينقدح بزمام الحوادث و التجاريب . أهى البسالة و الاقدام ؟ إنّ المعلم الأعظم يعلو عن المخاوف فهو القوى المتين ! أهو الدأب والكفاح و العزيمة لاتعرف اليأس ولا القنوط . انّ المعلم الأعظم شديد المراس يعلو عن الفترة و الوهن ! أهو البر والاحسان ؟ المعلم الأعظم هو المحسن البار وهو ينبوع البر والاحسان .

وما من فضلة ولا مكرمة إلّا اشتق أصلها من تلك القوة المهيمنة ومن ذلك المعلم الأعظم . ولكن المعلم الأعظم لايعلمنا الشجاعة ولا قوة العزيمة ولا البر والاحسان إلّا عن طريق الحوادث و التجاريب . فقبل الشجاعة ساد الجبن حتّى استيقظت شعاعة المعلم الأعظم في التلميذ فاحتقرت الجبن والجبناء . وقبل الوفاء ساد الغدر وقبل البر والاحسان سادت القسوة و الجفاء وفي هذه المدرسة مازال التلاميذ يدرسون ولن يزالوا . وإلى جانب الاخلاق الّتي تروضهم عليها حوادث المدرسة و يقظة السر الكمين ، يتجه ذلك القبس إلى محاكاة المعلم الأعظم في العلم و القدرة و الارادة فلا تفتأ الاشعة الأزلية الخالدة الّتي تصل قلوبنا بعظمته ، لا تفتأ تبحث وتنقب في اسرار هذا الوجود فتستكشف اليوم قانوناً من قوانين الطبيعة وتستكشف غداً جوهراً من جواهرها الخفية حتّى استطاع التلميذ بحركه من أصبعه أن يحيل الغرفة المظلمة نوراً وهاجاً لانعرف سر الكهرباء ، فما كان بالامس معجزة يرتاب في جوازها العقل ، أصبح اليوم حقيقة مألوفة لايدهش لها الأطفال .

واستطاع التلميذ ان يشافه صاحبه بكلمات تلوكها الالسن و تسمعها الآذان ، هذا في جنوب المعمور و ذاك في شماله من غير حاجة إلى أسلاك ، واستطاع التلميذ أن يشارك الطّير في ارتياد الجوّ فكأنّ كلّ محلّق في الجوّ سليمان . وغاص مع الاسماك في مساربها . و تتبعها إلى مهاربها .

ذلك انّ المعلّم الأعظم يريد لتلاميذه ان يحاكوا عظمته في العلم والارادة والقدرة كما يريد لهم أن يحاكوه في المحامد و المكارم! أليس المعلّم الاعظم قديراً على كلّ شيء، أليس فعّالاً لما يريد ! أليس يقول للشيء كن فيكون ! وهاهونا تلميذه ، وهاهو ذا سرّه و قبسه في هذه الدّنيا ــ الانسان ــ قد استطاع أن يسخّر الهواء و الماء والكهرباء ، و كثيراً ممّا نرى ولا نرى من قوى هذه الطبيعة العذراء اذن لا يروعنّكم أن تكونوا نوادر ذرّات صغيرة الأحجام محدودة الأعمار في هذه الدّنيا ، اذن لا تستهينوا بأنفسكم إذا قستموها بما سبقكم من الأجيال وما يخلفكم منها حتّى إذا رجع الماضى إلى الازل وأمتدّ إلى الأبد ولا يهولنّكم أن يكون كوكبكم شظية تناثرت من الشّمس فكلّ واحد منكم يحمل بين طواياه سرّ الوجود . هذه الأرض ستفنى و الشّمس الّتي هي أصل الارض ستفنى ، و النظم الشمسيّة على اختلافها قد يجعلها المعلّم الأعظم مظاهر اُخرى لقدرته وصوراً جديدة لإرادته . لكن ذلك القبس الّذي هو نفخة من روحه جلت روحه و علت عن الارضين والشّموس والأقمار ، ذلك القبس الّذي يصلكم بصلة أزليّة خالدة لا تنفصم ذلك القبس هو سرّ الوجود .

فبأيّ ميزان تزن الحياة ، أبميزان الطّعام والشّراب و الفقر والغنى والدّور و القصور والبذخ و المناعم و الوظائف و المناصب ، أم بميزان المحامد و المكارم والعلم و الارادة وكبريات الصفات الّتى تحاكى بها معلّمك الاعظم ؟ نحن لا نحتقر الطيّبات من الرّزق ولا نبغض إليكم كسب المال و انفاقه في سبيل الخير ، بل نحضّ على ذلك ففيه حفز للهمم وعود على النفس و ذوى القربى و أهل الخصاصة بالمتاع الحلال . ولكنّ الامر كلّ الامر الّذي أريد أن أذكر نفسي به و أذكركم ، هو انّ كلّ مرافق الحياة من متاجر ومزارع و صناعات ، و من مطاعم ومشارب و مساكن ، هي أدوات ووسائل لا بدّ

منها ولكنّها ليست غاية الغايات أذكر نفسي بهذه الحقيقة الأوّليّة واذكر بها حضراتكم لا غضاً من الوسائل ولا صرفاً لكم عن اتّخاذ الادوات ، ولكن لانّك لو احصيت في في زماننا هذا اولئك الأيقاظ الّذين لم تصرفهم وسائل الحياة عن غاية الحياة ،لألفيتهم نزراً يسيراً لا يبلغ عددهم فيما احسب واحداً في كلّ ألف .

أُولئك يزنون الحياة عامة ، و يزنون حياتهم خاصة بما تحوى جيوبهم من مال لابما تحوى نفوسهم من خصال و بما يشغلون من مناصب لابما يخدمون من مبادي .

هذه الارض مدرسة بعثنا إليها بديع السّموات والا رضين . وهذه حقيقة الحياة . حياة الافراد وحياة الأمم . وغاية هذه الحياة هي ان نحاكي صفات المعلّم الأعظم ، نحاكى عظمته في غير صلف ، نحاكى رحمته في غير ضعف نحاكى علمه وقدرته في غير زهو ولافخار نحاكى ارادته في غير تجبّر ولا غرور .

في هذه المدرسة الربانيّة الكبرى تلاميذ مختلفة درجاتهم فمنهم المبرّز و منهم المتخلّف . فلاتعجبوا إذن لبعد ما بين النّاس من تفاوت في الاخلاق والعزائم والعرفان . لكن حين يعلم النّاس أنّهم هاهنا تلاميذ ، و أنّهم لم يرسلوا إلى الحياة لعباً ولا لهواً ، و إنّ معلّمهم هو ينبوع النّور و العرفان و الفضائل في كلّ قلب مضيء و رأس عامر بالعلم و نفس خفاقة بالشّعر أو ببدايع الفنّ الجميل حين يعلم كلّ ذي موهبة . وكلّ ذي فضيلة وكلّ صاحب اختراع وكلّ مستكشف لسرّ من اسرار الطبيعة. أن ملهمه و مرشده هو ذلك القبس المستمدّ من قوّة الله حينئذ يبطل الغرور حياءً من الله و تتضاعف الهمم مرضاة للمعلّم الأعظم . و يكون ميزان حياتك هو مبلغ محاكات لصفات المصدر لكلّ عظيمة من عظائم الصفات .(١)

جئت لاأعلم من أين ولكنني أتيت	ولقد ابصرت قدامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت	كيف جئت ؟ كيف أبصرت طريقى
	لست أدرى

---

(١) خطبة القاها الاستاذ توفيق يبحث عن حقايق الوجود لاهل التوفيق فمزنها بحقايق افكار منظومة ودقايق أسرار شعرية وما يعقلها إلا العالمون .

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود   هل أنا حرٌّ طليق أم أسير في قيود
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟   أتمنّى أنّني أدري ولكن
لست أدري

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟   هل أنا اصعد أم اهبط فيه و أغور؟
أ أنا السائر في الدرب ام الدّرب تسير؟   أم كلانا واقف و الدهر يجرى؟
لست أدري

ليت شعرى وأنا في عالم الغيب الأمين   أتراني كنت أدرى أنّني فيه دفين
و بأنّى سوف أبدو و بأنّي سأكون   أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟
لست أدري

أتراني قبل ما أصبحت إنساناً سويّاً   كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيّا؟
ألهذا اللغز حلٌّ؟ ام سيبقى أبديّاً   لست ادرى ... و لما ذا لست أدرى؟
لست أدري

قد سألت البحر يوماً هل أنا يا بحر منكا؟   أصحيح ما رواه بعضهم عنّى و عنكا
أم ترى ما زعموا زوراً و بهتاناً وأفكا؟   ضحكت أمواجه منّى و قالت؟
لست أدري

ايّها البحر أتدري كم مضت ألف عليكا   وهل الشاطيء يدرى انّه جاث لديكا
وهل الأنهار تدري أنّها منك اليكا   ما الّذي الامواج قالت حين ثارت؟
لست أدري

أنت يا بحر أسير، آه ما أعظم أسرك!   أنت مثلى ايّها الجبّار لا تملك أمرك
أشبهت حالك حالى وحكى عذرى عذرك   فمتى أنجو من الأسر و تنجو؟
لست أدرى

ترسل السحب فتسقى أرضنا والشجرا   قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا   أصواب ما زعمنا أم ضلال؟
لست أدري

قد سألت السحب في الافاق هل تذكر رملك وسألت الشجر المورق هل يعرف فضلك
وسألت الدر في الاعناق هل تذكر أصلك؟ و كأني خلتها قالت جميعاً
لست أدري

يرقص الموج وفي قاعك حرب لن تزولا تخلق الاسماك لكن تخلق الحوت الاكولا
قد جمعت الموت في صدرك والعيش الجميلا ليت شعري أنت مهد أم ضريح
لست أدري

كم فتاة مثل ليلى وفتى كابن الملوح أنفقا الساعات في الشاطىء تشكو وهو يشرح
كلما حدّث أصغت و إذا قالت ترنح أحفيف الموج سرّ ضيّعاه
لست أدري

كم ملوك ضربوا حولك في الليل القبابا طلع الصبح ولكن لم يجد إلّا الضبابا
ألهم يا بحر يوماً رجعة أم لا مآبا؟ أهم في الرمل ؟ قال الرمل : انّى
لست أدري

فيك مثلي ايّها الجبّار أصداف ورمل انّما أنت بلا ظلّ ولي في الارض ظلّ
إنّما أنت بلا عقل ولي يا بحر عقل فلما ذا يا ترى أمضي و تبقى ؟
لست أدري

يا كتاب الدهر قل لي أله قبل و بعد؟ انا كالزورق فيه و هو بحر لا يحدّ
ليس لي قصد فهل للدّهر في سيري قصد؟ حبّذا العلم ! ولكن كيف أدري ؟
لست أدري

ان في صدري يا بحر لأسرار عجابا نزل الستر عليها و أنا كنت الحجابا
ولذا أزداد بعداً كلما ازددت إقترابا و أراني كلما أو شكت أدري
لست أدري

انّني يا بحر بحر شاطئاه شاطئاكا الغد المجهول والامس اللذان اكتنفاكا
وكلانا قطرة يا بحر في هذا وذاكا لاتسلني ماغد ماامس ؟ انّي
لست أدري

في الدير

قيل لي في الدير قوم أدركوا سرّ الحياة غير أني لم اجد غير عقول آسنات
و قلوب بليت فيها المنى فهي رفات ما انا أعمى فهل غيري أعمى ؟
لست أدري

قيل أدرى الناس بالاسرار سكّان الصوامع قلت ان صحّ الّذي قالوا فان السرّ شائع
عجباً كيف ترى الشمس عيون في براقع و الّتي لم تتبرقع لا تراها؟
لست أدري

ان تك العزلة نسكا وتقى فالذئب راهب وعرين الليث دير حبّه فرض وواجب
ليت شعري أيميت النسك أم يحيي المواهب كيف يمحو النسك اثماً وهو إثم؟
لست ادري

إنّني ابصرت في الدير وروداً في سياج قنعت بعد الندى الطاهر بالماء الأجاج
حولها النور الذي يحيي وترضى بالدياجي أمن الحكمة قتل القلب صبراً؟
لست أدري

قد دخلت الدير عند الفجر كالفجر الطروب وتركت الدير عند الليل كالليل الغضوب
كان في نفسي كرب صار في نفسي كروب أمن الدير أم الليل اكتئابي ؟
لست أدري

قد دخلت الدير أستنطق فيه الناسكينا فاذا القوم في الحيرة مثلي باهتونا
غلب اليأس عليهم فهم مستسلمونا و اذا بالباب مكتوب عليه
لست أدري

عجباً للناسك القانت وهو اللوذعي هجر الناس وفيهم كل حسن المبدع
ومضى يبحث عنه في المكان البلقع أرأى في القفر ماءً ام سراباً؟
لست أدري

---

(١) ايليا أبوماضي من شعراء المهجر . الطلاسم ، البحر ، في الدير

كم تماري ايـّها الناسك في الحق الصريح　　لو أراد الله ان لا تعشق الشيء المليح
كان اذ سوّاك سوّاك بلاقلب وروح　　فالّذي تفعل اثم . . . قال إنـّي
لست أدرى

ايـّها الهارب انّ العار في هذا الفرار　　لاصلاح في الّذى تصنع حتّى للقفار
انت جان أي جان ، قاتل في غير ثار　　أفيرضى الله عن هذا و يعفو
لست أدرى

الايمان بالله و الاعتماد بالنفس

يجب على كل امّة ان تعرف تاريخها قديمه وحديثه لان ماضى الامّة يلعب دوراً كبيراً في حاضرها و مستقبلها ولا يمكننا أن نتناسى الماضى لأن عقائدنا و افكارنا كلّها آتية منه . و هو الّذي يكوّن روح الامّة و شكلها و لذلك كلّما كانت الاُمّة عريقة في المدنيّة و ذات مبادى حقّة كان نسلها ذا استعداد طبيعى لكل تقدّم ورقيّ ، قال الدكتور جوستاف لوبون حظّ الشعب متوقّف على ما يعتقد انه الحقّ وان التطوّرات الاجتماعيّة والتأسيس أو هدم الممالك و التقدم أو انحطاط المدنيّة ناتجة عن العقايد الّتي ينزل من النفوس منزلة الحقايق وهي تمثّل مسايرة الشعب الوراثيّة وفقاً لحوادث الدّهر ان من اخطر الغلطات في العصر الحاضر ترك الماضي وعدم الاعتراف به و كيف يمكن ذلك؟ان ظلّ الاسلاف يحكم أرواحنا وهو يكوّن الجزء الاكبر منّا كما عليه ينسج القدر حظّنا . و ان حياة الموتي أكثر بقاءً من حياة الأحياء لا يمكن لاىّ مدنية أن تبقى بدون مرشدين أقوياء من العلماء والمتعلّمين أو بالاحرى بدون مبادي عامّة قويّة لأنّ قوة الأخلاق أو القوّة المعنوية هي الآن المحرك الحقيقي للعالم .

معرفة الماضي يجب أن تكون اداة لإزكاء روح الحميّة و الغيرة و العزّة والرفعة و الاستقلال و هنا حدود الوطنيّة البرئية و لكن لا يجوز أن تتعدّاها إلى الصّلف و الكبرياء و العزلة و الاغترار بالنّفس و عدم الاعتراف للغير بفضائله و محاسنه فهذا هو الطيش و الحزق .

قامت في ايران الفكرة القومية أو الدعوة الوطنيّة منذ نشأتها على أساس صحيح

معقول و هي تحرير الوطن من كلّ غاصب مغتال أو صاحب محتال حتّى تصبح مرافق الأمة في ايدى أبنائها و أن يكون اعتماد الأفراد على أنفسهم في سبيل تحرير بلادهم .

و انّما رجل الدنيا و واحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجل

وقد وصف الطغرائى الوزير الكبير في لاميّته كثيراً ممّا يجب على كلّ وطنيّ عمله انّ الامم لا تنهض إلّا بنفسها كالأفراد ولا تكون آمنة على نفسها إلّا إذا كانت قوية بنفسها ولا تستردّ استقلالها إلّا بمجهوداتها ان قانون الحاكم في معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم . فان رآهم أمواتاً في ازياء احياء يقولون مالا يفعلون ولا يعتقدون و يطلبون من الاصلاح كما يطلب السائل الاحسان لا كما يطلب صاحب الحقّ حقّه استبدّ فيهم وسخّرهم لسلطته كما تسخّر الأنعام ، فالتّسامح إذا صحّ في بعض الأمور و في ظروف معيّنة . فانّ التّسامح في الوطنيّة إعدام لها وقضاء عليها و انّ من يتسامح في حقوق بلاده و بنى وطنه ولو مرّة واحدة يبقى ابد الدّهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان فالحياة والمستقبل مرتبطان بمقدار قوّة روح الوطنيّة والاستقلال ، والوطنيّة الصحيحة لا تقوم إلّا على الاخلاق الفاضلة وهذه بذورها تستمد قوّتها من الدّين الحنيف و تاريخ ايران قديمه وحديثه شاهد على ما نقول ولذلك كان من أهمّ اغراض المستعمرين طمس معالم التاريخ القديم لتعليم النشء في المدارس لتضعف فيهم روح الاعتزاز بالماضي ويلقون في روعهم انّهم عالة على الأمم الاخرى و محاربة الدّين الاسلامي خاصاً لأنّه يبعث في نفوس النّاشئة الاحتفاظ بالكرامة و مبادى الحرّية والشجاعة وهذا مالا يتفق مع سياستهم في اخضاع الأمم الاسلاميّة و إذلالها .

فالّذين يدعون إلى الوطنيّة وترك الدّين جانباً إنّما يدعون إلى قضيّة محقّقة الخسران . لانّهم يدعون إلى مبادي لا روح فيها ولاحياة . إذ كيف يكون حال الناشئة إذا كان خالياً من مبادى الفضيلة و مراقبة الله في السرّ و العلن هؤلاء لا تكون لهم إلّا سياسة واحدة و هي سياسة المنافع و المغانم وقد قال لامارتين ان ضميراً خاليا من الله كالمحكمة الخالية من القاضي انّ السّاعة الّتي تسرب فيها الالحاد و الشرك إلى العقيدة الإيرانيّين كان ذلك نذير زوال مجد ايران واستقلاله وعظمته لاسمح الله .

الدين الحنيف الاسلامي لم يبخس الوطنيّة حقها بل جعل حبّ الوطن من الايمان و ان تحرير الأوطان لا يكوى إلّا بالدّأب على العمل وقل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله ، والثمر متوقّف على بذل الجهد و ان ليس للانسان إلّا ماسعى لقد اعلن دعاة السوء دعوة على غير وجهها و أذاعوها من انّ المصريّين هم الاقباط و السوريّين هم فينيقيّون و العراقيين هم كلدانيون و الايرانيّون هم الزّردشتيّة يريد الإستعمار ان تتمسّك كلّ طائفة بمجدها التّالد و تحتبس في حدودها غير ناظرة إلى ما يهدّدها من المخاطر من جراء عزلتها الّتي تجعلها فريسة سائغة لكلّ مستعمر قوى محتال فالدّعوة القوميّة في الممالك الاسلاميّة الّتي أذاعوها دعاة الاستعمار لا تتّفق مع مصالحنا ولامع مصالح المبادى الإسلام السّليمة و نحن في عهد تحالف واتّفاقات دوليّة أصبحت احدى وسائل القوّة و المنعة ومن عاش منفرداً في هذا الزّمان عرض نفسه إلى السلب و القهر بل إلى الاندهار و الانتحار .

يكثر في الجرايد ذكر استقلال الامم و قلّما تذكر شيئاً في استقلال الأفراد الّذى هو أصل استقلال الجماعات والشعوب ، استقلال الآحاد نوعان استقلال الفكر واستقلال الإرادة و هذان النوعان هما الجناحان للانسان يطير بهما إلى الكمال في العلم والعمل و يكون حظه من النجاح على قدر حظّه من قوّتهما و حسن استعمالها .

استقلال الفكر يكون ببلوغ العقل اشدّه و ارتقاءه إلى مستوى رشده فإنّ العقل القاصر هو الّذي يتبع مذهب التقليد في كلّ مايلقى إليه كما نرى من الاطفال ومن هم في حكمهم من اشباه الرجال فالمستقل في فكره هو الّذى يستعمل عقله في البحث عن الحقّ والصواب في معارفه و التميز بين النّافع و الضارّ من مصالحه أو مصالح اُمّته عند ما يبحث فيها فلا يقبل من هذا و ذاك قول من هو مثله إلّا إذا ظهر له انّه الحقّ والصواب.

انّ الّذى لا يعرف الحقّ والصواب بالنظر والاستدلال لا يعد عالماً ولا سياسيّاً بل لا يعدّ عاقلاً لانّ مايحفظه من اقوال الناس في الكتب و الجرايد أو البيوت والمحافل لا يرفعه إلى مرتبة العقلاء الّذين يميّزون بين الأقوال بالدليل العقلي فإنّ الاطفال المميّزون يحفظون الأقوال مثله ولا يعدّون من العقلاء إلّا إذا اُريد بالعاقل من ليس

مجنوناً يجب ان ينساق إلى التيمارستان (مستشفى المجاذيب) فإن هذا الاصطلاح يسمح لنا أن نطلق لقب العاقل على الإمعة الّذي لارأي له و إنّما يتابع كلّ واحد على رأيه لاسيّما إذا لم يكن متّهماً عنده بعداوته لسبب من اسباب التهم .

استقلال الفكر طبيعي في البشر كما ان ضدّه وهو التقليد طبيعي فيهم! فاما التقليد فهو طبيعي في الرّاشدين ولولا ذلك لما ارتقوا في علم ولا عمل ولسار جميعهم على ماكان عليه أوّل واحد منهم فكانوا كالبهايم متساوين في علمهم وعملهم هل يستوى الّذين يعلمون والّذين لايعلمون .

لوترك النّاس وفطرتهم لاعطوا طور القصور حقّه وطور الرشد حقّه ولكان معظم الأفراد الّذين بلغوا أشدّهم مستقلّين في أفكارهم مستدلّين على آرائهم ولكانت أعمالهم على حسب أفكارهم لاستقلال ارادتهم المعبّر عنه بالحرّية الشخصيّة في عرف هذا العصر ولكنّ الرؤساء المسيطرين قدتصرّفوا في الفطرة والفكرة تصرّفاً ذهب بالاستقلال الّذي لايتفق مع الاستبداد و لذلك ترى أهل البداوة أقرب إلى الاستقلال من أهل الحضارة المحكومين بسلطة استبداديّة فإن شئت فقل بالاستقلال الإجباري حتّى قال بعض الظرفا ان بعض الأقوام محكومون بالاستقلال .

اوّل مايجب علينا ان نتولّى نحن بأنفسنا اصلاح امورنا ولا نتّكل على الحكومة في عمل من الاعمال الّتي يفرضها القانون على رجال الحكومة فحسبنا من هؤلاء أن يقوموا بما عهد إليهم بالصدق و الاستقامة و يجب أن يكون لهم منّا عون و مساعد على ذلك وان نتولّى نحن سائر الامور الّتي تحتاج إليها الامّة كتربية الا ولاد وما يتعلق بالاقتصاد قدتعودنا ان ننتظر كلّ إصلاح من الحكومة ولذلك أصابنا ذلك الفساد الكبير بفسادها ولا يزال كثير منا ينتظرون ان تصلح لهم الحكومة ماءالبلاد وتمهّد لهم الطرق وتمدّ لهم خطوط الحديد وان اتّكال الامّة على الحكومة في كلّ من الأمور العامّة صار مذا ليوم من التناقض اومما يستلزم التناقض فبيناهي تفتخر بانهاصارت حاكمة لنفسها متولّية لامورها إذا هي تتبرّأ من كلّ عمل لها وتلزّه بحكومة لزّاً وتلصقه بها الصاقا، وإن لم يكن ممّا يعمل مثله الحكّام فالحكومة على المعنى الأوّل أفراد من الامّة ــ تستأجرهم بمالها

للقيام باعمال مخصوصة لا تستغنى الهيأة الاجتماعيّة عنها على الوجه الّذي تحدّده قوانينها الّتي وضعها نوّابها الّذين اختارتهم لذلك وهي على المعنى الثاني عبارة عن رعاة و الأمة رعية لهم ليس لها من امرها شيىء فهم يسوسونها كما يسوس الراعى غنمه اوسادة يتصرّفون في ملكهم وعبيدهم فما هذا البون العظيم؟ .

انّ الاصلاح الحقيقي الّذي يثبت ويدوم إنّما يكون بتربية الامّة وتعليمها حتّى تصير امّة دستوريّة بالطبع لا تقبل الحكم الشخصي بحال من الأحوال ولكنّهم رأوا هذا الطريق طويلا يحتاج إلى عشرات من السنين ورأوا الاخطار مهطعة إلى الدّولة واعناق الدّول الطامعة ممتدة إليها و براثنها ناشبة باطراف جسمها فعزموا على سلوك الطريق القريب وهو جعل الاصلاح من جانب الحكومة فعملوا ولا يشكّ عاقل في كون الاصلاح إذا جاء من جانب الحكومة يكون اسرع من مجيئه من جانب الامّة إذا هو ثبت ودام و لكن ثباته و دوامه عزيز المنال بل هو مع جهل الامّة من قبيل المحال انّ الاصلاح في الامم لا يأتى إلاّ بالتدريج و هو إنّما يكون أوّلاً بنبوغ بعض الرجال فيها ثم لا يزال يزيد النابغون حتّى تكون بهم الأمّة قويّة عزيزة حيّة .

انّ اوّل من يجب علينا ان نوجّه همّتنا و عنايتنا إليه هو التربية و التعليم اللذّان يكثران فينا عدد النابغين فانّ الاحرار الّذين هم حجر الأساسي للحرّية من ذوى التربية العالية لانّ الغرض من مدارس الحكومة هو تعليم طائفة من الامة ما يقدرون به على القيام باعمالها على وجه السداد وليس في وسع الحكومة ان تعلّم جميع أفراد الامّة جميع ما يحتاجون اليه و إنّما تقدم بذلك الامّة نفسها .

كيف تقوم الامّة بذلك و إنّما تكون ذالك بالجمعيّات فهذا زمن الجمعيّات ولم ترتق امّة بغير الجمعيات لا ينتشر العلم في هذا العصر إلاّ بالجمعيّات ولا يقوم أمر من الامور العامّة إلاّ بالجمعيّات فعلينا أن نبدء قبل كلّ شيىء بتأسيس الجمعيّات الخيريّة الّتى تنشىء لنا المدارس و الكتاتيب و ان نعضدها بأموالنا على قدر استطاعتنا فبذلك نكون اهلاً لترقية انفسنا و تجارتنا و اقتصادنا ان في بلادنا خيرات كثيرة منعنا من الاستفادة منها الجهل و الاستبداد الّذي يضطهد العلم و يؤيّد الجهل .

الحرية طريقنا الى المثل الاعلى

ان مثل الحضارة الأعلى هو ان يتفوق الشعب على عواطفه و غرائزه و يقود الحكومة برأيه وفكره ويشرف على تصرّفاتها اشرافاً مستمراً دايماً .

ولكن هذا التفوّق مستحيل التحقّق مادام الشعب يخضع لمبادي تقليدية ويتّعصب لافكار ليس لها دليل فإذا شئنا تكوين الديمقراطية الصحيحة فيجب أن نعلّم الشّعب و نروضه على حسن استخدام حرّية الفكر . و متى تعلم و تحرّر استل الفكر من غريزته جرثومة التعصّب وقاده على مهل إلى الغاية الّتي ننشدها له وهي الأشراف على اعمال الحكومة و توجيهها الوجهة الصالحة .

ونحن ان فرضنا على الشّعب الخضوع لسلطان الحكومة وقيّدنا حرّيته الفكريّة وباعدنا بينه و بين الاستقلال العقلى انحدرنا به إلى محيط غرائزه و دفعناه بايدينا إلى التعصب الاعمى لتقاليده و المشاهد في حوادث التاريخ انّ كلّ شعب اجبرته الحكومة على الطاعة انقلب رجعياً واشتد في تعصّبه لكلّ قديم انّ دين الاسلام قد كتب للحرّية اجلّ الصفحات واروعها وقرّر من مبادى الاخاء اسماها ومن قواعد المساواة اعلاها فكان دين الديمقراطيّة من الوجهتين العلميّة و العمليّة .

الديمقراطيّة في إصطلاح العلوم السياسيّة هي النّظام الّذي يحكم الشعب فيه نفسه بنفسه امّا مباشرة أو بواسطة ممثّلين يختارهم عنه و بعبارة اُخرى انّ الديمقراطية هي النظام أومجموعة النظم الّتي تحقق مبادي الحرّية والمساوات بين النّاس بقدر مايمكن أن يكون الانسان حرّاً و بالقسط من المساوات الّذى لايصطدم مع النواميس الطبيعيّة فالحرّية و المساوات هما الدّعامتان اللتان يقوم عليها صرح الديمقراطية .

كلما اتّسع افق المعارف الانسانيّة . شعر الناس بالكرامة واحسّ العقل البشرى بالعزّة فتطلقوا إلى تحقيق المثل العليا و طمحوا الى توسيع قاعدة إشتراكهم في ادارة الشؤون العامّة والاشراف على امور الدولة وهيأة الحاكمة لذلك كان النّضال حاداً عنيفاً

(١) الهلال سنه ٤٦ ص ٦٣٠ .

بين الشعوب الطامحة إلى الحرية و الطغاة المستبدّين الّذين يصدّونهم عن سبيلها و التباغض شديداً بين طبقة الاشراف الّتي تنعّم بالامتيازات . وطبقات الشعب الّتي تتطلع إلى تحقيق مبادي المساوات و اذن ينبغي أن يقال ان تاريخ الديمقراطيّة هو تاريخ الحضارة الانسانيّة .

و ما انصف كارل ماركس الحقيقة و التاريخ حين يقول بان البطون هي مصدر الانقلابات في كلّ أدوار التاريخ و انّ النّاس حين هبوا يسفكون دماءهم و يزهقون أرواحهم فإنّما كانت نهضتهم و قيامهم للخبز . لاللحرّية و نهضتهم في سبيل اغراض مادّية لالتحقيق المثل العليا و السعى وراء الكمال الإنساني .

و ما انصف من قبله بعض القادة في روما حين قالوا انّ الشعب الرومانيّ يجتزىء بالخبز و الملاهي عن الحريّة السياسيّة والاشتراك في الادارة و تسيير اداة الحكم وإذا كان قداتيح لفريق من الرومان ان يقولوا ساخرين متهكمين : لدى الشعب اصوات انتخابية و ليس لديه خبز . فقد كان ذلك من جراء فساد النظام وانحطاط اداة الحكم لامن جراء مسخ الطبيعة البشرية .

تميّز تاريخ روما القديمة بسلسلة من المناضلات متّصلة الحلقات بين المترفين الأشراف وطبقات الشّعب لتحقيق مبادى المساوات ـ على ان تربة روما لم تكن صالحة لنموء بذور الديمقراطيّة و كلّما اتّسع ملك الرومانيّين و بسطوا سلطانهم في الأرض طلّقوا مبادي الديمقراطيّة و اعتنقوا روح الاستعمار و أقاموا بناء امبراطوريّتهم على الغلبة و القهر و اصبحت الامم المغلوبة على امرها اسلابا تقتنى و ضياعاً تستغل .

كان المسلمون إذا فتحوا امة تركوا لاهلها حرّية العقيدة و حريّة العبادة وخلّوا بينهم و بين املاكهم و ضمنوا لهم امنهم و ارواحهم وسوّوا بينهم في المعاملة وهتفوا فيهم بذلك المبدء القويم (لهم مالنا وعليهم ماعلينا) اودّ ان اضع تحت الانظار صورتين متباينتين لامة اليونان القديمة و امة العرب قبل بزوغ فجر الاسلام لتروا باعينكم و تلمسوا بايديكم إلى اىّ حد وفق دين الهدى والحق إلى صبغ جزيرة العرب بصبغة الديمقراطيّة و طبع اهلها بطابع المساوات .

كانت اليونان القديمة بطبيعة تكوينها و مزاج اهلها مهداً صالحاً للديمقراطيّة فقد كانوا يقيمون بالمدن ولا مشاحّة في ان الحضارة و المدن هي مواطن الديمقراطيّة و كانت ميول اليونانيّين متجانسة ومشاعرهم منسجمة ومصالحهم متحدّة تجمعهم ذكريات تاريخيّة مشتركة و تؤلّف بين قلوبهم مثل عليا واحدة .

و على النقيض من ذلك تجد سكّان الجزيرة فقد كان العرب يسكنون مضارب الخيام وانقسموا إلى شعب وقبائل وكانت اهواؤهم مختلفة ومصالحهم متفرّقة ومنازعاتهم دائمة و حروبهم متّصلة وكان بأسهم بينهم شديد وما يفرقون بين القريب والبعيد .

قيل ان كليبا كان عزّ و ساد في ربيعة فبغى بغيا شديداً و كان هو الّذي ينزّلهم منازلهم ويرحّلهم ولا ينزلون ولا يرحلون إلّا بامره فبلغ من عزّه وبغيه انه اتّخذجرو كلب فكان إذا نزل منزلاً لكلأ قذف ذلك الجرو فيه فيعوى فلا يرعى احد ذلك الكلأ وكان يفعل هذا بحياض الماء فلا يردها احد الا باذنه أومن آذن بحرب فضرب به المثل في العز فقيل اعزّ من كليب وائل و كان يحمى الصيد و يقول صيد ناحية كذا و كذا في جوارى فلا يصيد احد منه شيئاً و كان لا يمرّ بين يديه احد إذا جلس و كان لمرّة بن ذهل بن شيبان عشرة بنين جساس اصغرهم و كانت اختهم عند كليب و خالة جسّاس البسوس و هي التي يقال لها أشأم من بسوسة فنزلت على ابن اختها جساس و كان لها ناقة فخرجت في ابل جساس و هو خليط كليب تسرح ابلهما جميعاً فكان كليب يدور في حماه فاذا هو بناقة لم يعرفها فرماها ولما رآها جساس ثار لناقة خالته و عطف عليه فرسه فطعنه برمح وقتله فلمّا قتله امال يده بالفرس حتى انتهى إلى اهله وتقول اخته حين رأته لأبيها إنّ ذا الجسّاس أتى خارجا ركبتاه قال والله ما خرجت ركبتاه إلّا لامر عظيم قال فلما جاء قال ماوراءك يابنىّ قال ورائى انّى قد طعنت طعنة لتشغلنّ بها شيوخ وائل زمناً قال أقتلت كليباً قال نعم قال وددت انك و اخوتك كنتم متّم قبل هذا : مابى إلّا ان تتشاءم بى ابناء وائل .

و كان همام بن مرّة آخى مهلهلا أخا المقتول و عاقده ان لا يكتمه شيئاً فجاءت امّه له فاسرّت إليه قتل جساس كليبا فقال مهلهل ما قالت فلم يخبره فذكره العهد بينهما

فقال أخبرت ان جساساً قتل كليبا فقال مهلهل است أخيك اضيق من ذلك ! وتحمل القوم و غدا مهلهل بالخيل و وقعت الحرب و تكلم في ذلك عند الحرث بن عباد فقال لا ناقة لى في هذا ولا جمل و هو اوّل من قالها و ارسلها مثلا قالوا جميعا كانت حربهم اربعين سنة فيهن خمس وقعات مزاحفات و مغاورات وقتلوا همّام بن مرّة وصار حرث بن عباد رئيس بكر و هو الّذى اعتزل يوم قتل كليب فلما أخذ بجيرإبنه تواً بواردات وانّماسلّ ولم يؤخذ في مزاحفة قال له مهلهل من خالك يا غلام قال امرؤ القيس بن أبان التغلبي لمهلهل انى ارى غلاما ليقتلنّ به رجل لا يسأل عن خاله و ربّما قال مهلهل في واقعة كليب قالها بعد قتل بجيرابن الحرث بن عباد عن حاله فلم يلتفت مهلهل الى قوله وشد عليه وقتله .

أليلتنا بذى حسم أنيرى ... إذا أنت انقضيت فلا تحورى
فان يك بالذنائب طال ليلى ... فقد أبكي من الليل القصير
و أنقذني بياض الصبح منها ... لقد أنقذت من شر كبير
كان كواكب الجوزاء عود ... معطفة على ربع كسير
كأنّ الفرقدين يدا بغيض ... الحّ على افاضته قميري
ارقت و صاحبى بجنوب شعب ... لبرق في تهامة مستطير
ولو نشر المقابر عن كليب ... لأخبر بالذنائب أي زير
و يوم السّبعتين اقرّ عيناً ... وكيف لقاء من تحت القبور
على إنّي تركت بوارادات ... بجيراً في دم مثل العبير
هتكت به بيوت بني عباد ... و بعض القتل أشفى للصدور
و همّام بن مرّة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور
قتيل ماقتيل المرء عمرو ... و جساس بن مرة ذوصرير
كان التابع المسكين فيها ... أجير في حدابات الوقير
على ان ليس عدلا من كليب ... إذا خاف المغار من المغير
على ان ليس عدلا من كليب ... إذا طرد اليتيم عن الجزور

على ان ليس عدلاً من كليب إذا ماضيم جار المستجير
على ان ليس عدلاً من كليب إذا ضاقت رحيبات الصدور
على ان ليس عدلاً من كليب إذا خاف المخوف من الثغور
على ان ليس عدلاً من كليب إذ طالت مقاساة الأُمور
على ان ليس عدلاً من كليب إذا هبت رياح الزمهرير
على ان ليس عدلاً من كليب إذا وثب المثار على المثير
على ان ليس عدلاً من كليب إذا عجز الغنى عن الفقير
على ان ليس عدلاً من كليب إذا خرجت مخبّأة الخدور
على ان ليس عدلاً من كليب إذا هتف المثوّب بالعشير
تسائلني اميمة عن أبيها وما تدرى أميمة عن ضمير
فلا وأبى اميمة ما أبوها من النّعم المؤثّل والجزور
و لكنّا طعنّا القوم طعناً على الاثباج منهم والنحور
نكبُّ القوم للأذقان صرعى ونأخذ بالترائب و الصدور
فدى لبني شقيق حين جاؤوا كاسد الغاب تجلب بالزئير
كان رماحهم أشطان بئر بعيد بين جاليها جرور
غداة كأنّنا و بني أبينا بجنب عنيزة ركنا ثبير
كان الجدى جدى بنات نعش يكبُّ على اليدين بمستدير
و تخبوا الشّعريان إلى سهيل بلوح كقمّة الجبل الكبير
فلولا الريح اسمع من بجير صليل البيض تقرع بالذكور
وكانوا قومنا فبغوا علينا فقد لاقاهم . لفح السعير
تظلُّ الطّير عاكفةً عليهم كان الخيل تنضح بالعبير

الانانية وحب الذات

أفعال الإنسان قائمة على مبدء مشترك بين ساير الكائنات فناموس الالفة في الجماد وحبّ الذات في الإنسان من مبدء واحد و لغاية واحدة أي حفظ الكيان و افعالهما

البسيطة أي المجرّدة من كل فكر ورويّة واحدة أيضاً في رفع الأذي و جلب المنفعة و تسمى الطبيعة في الجماد و بديهة في الإنسان وهي كامنة في النّبات ولا عبرة بالاسم و إنّما العبرة في انّ كلّ العوالم الثلاثة من جماد ونبات وحيوان خاضع لنفس هذا الناموس في حفظ كيانه فإذا نظرنا إلى هذه الافعال و الغاية المترتّبة عليها و هي حفظ الذات لايسعنا إلّا ان نقول انّ الغاية الأولى منها ليست الشر بل الخير وخير المحبّة ماابتدء بالذات فإنّ الجماد الّذي يفكّ ائتلاف سواه إنّما يضرّ بذلك الغير وكذلك النبات الّذي تنطبق أوراقه على الذباب الواقع عليه حتّى يموت والحيوان الّذي يفتك بسواه لمصلحة نفسه فان مثل هذا الفعل المترتّب عليه الخير الذاتي لم يقع بدون الاضرار و الطفل في أوّل ولادته لايعرف إلّا نفسه ولا يحبّ إلّا شخصه يظن انّ كلّ من حوله مسخّرون له يأمر و ينهى و يبطش و يرضى على حدّ قول الشاعر :

له حقّ وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميلا

وقال النبي الأعظم ﷺ : صغرائهم امراؤنا وكبراؤهم أعداءنا ان عاشوا فتنونا وان ماتوا حزنونا

ثمّ يأخذ جسمه في النشوء و ادراكه في النموء فاذا تكامل عقله وتم نماؤه أدرك انّ له أباً واُماً واخوة و مدينة ومدنيّة و أحكاماً دينيّة و أحوالاً شخصيّة و أخلاقاً انسانيّة فعليه حقوق و تكاليف و يكون له تلامذة وأساتذة ذرّيّة و عشيرة و يحسّ في نفسه بحبّ غريب لهم وكلّما أزداد شعوراً وعقلاً أزداد بحبّ الناس حتّى انّ الحكماء والفلاسفة والعلماء احبّ الناس إلى الناس بعد الأنبياء وأئمّة الدّين يحبّون لهم الخير على مقدار علمهم وعلى مقدار النقص يكون ينقص الحبّ للنّاس و نرى هناك تناسباً عجيباً بين الامّ نحو أبنائها وبين الأنبياء واُممهم فهذه تحنوا على طفلها وتسهر عليها و تعطى للطبيب ماتملكه لأجل طفلها وهكذا القائدون و المصلحون و العلماء الصالحون والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم و أنفسهم و تريهم يزهدون في لذيذ العيش و يبيتون ساهراً وبالنهار عاملاً لإسعاد النّاس و خير لقب ينتخبونه لأنفسهم خادم البشر خادم الإنسانيّة ولكنّهم قليلون في كلّ الأعصار وقلّما كانوا معاصروهم يعرفونهم ويقدّرونهم

حقّ قدرهم وهم لا يريدون جزاءً ولا شكورا إنّما يخدمون البشر لله همّهم رفع الهمّ وهمّتهم تخفيف مصائب الإنسان و دفع الآلام ومصاعب البشر ولهم في التاريخ يد بيضاء أسماهم عقلاً و أعلاهم همّة الّذين قلبوا بتعاليمهم وجه الهيأة الاجتماعيّة وارتفعوا رؤوس بني نوعهم بمفاداتهم : فضل الله المجاهدين على القاعدين اجراً عظيماً .

العقائد والحقايق

انّ العقايد الّتي يفرض علينا الدّين أن نؤمن بها ما هي إلّا حقايق ثابتة في نفسها لها وجود واقعي و هي تفترق في هذا عن المبادى و الأحكام الّتي هي من قبيل الإنشاء والّتي تشرع للنّاس بعد ان لم تكن و تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان وتقبل النسخ في عهد الرسالة فقط .

و إذا أردنا أن نعبّر عن هذا المعنى بالتعبير الفنّي المستعمل في علم اصول الفقه فإنّنا نقول انّ العقايد من باب الإخبار و الأخبار لا تقبل النسخ ومعنى كونها من باب الإخبار ان الشارع لا ينشئها ولكن يخبر بها و يحدّث عنها و يكشف للناس عن واقعها و حقيقتها و إنّما كانت غير قابلة للنسخ لأنّ النسخ هو الإبطال والإزالة ورفع الحكم الأصلي و الحقايق لا تزول ولا تبطل ولا يمكن رفع حكمها و يأتي بعد ذلك دور التكليف بها و إيجاب اعتناقها على جميع المكلفين .

و إذن فالعقايد يتّصل بها حكمان حكم طبيعي أو عقلي . و ذلك هو ثبوتها في نفسها وتقرّرها في واقع الأمر وعدم قابليّتها للإلغاء والإبطال وحكم تكليفي فهي هو كون الإيمان بها بعد انكشافها وتبيّن واقعها واجباً على كل مكلّف .

والحقايق الثابتة في نفسها كثيرة في هذا العالم الّذي نعيش فيه وفيما وراءه وليس من شأن الدّين ولا من غرضه الّذي يرمي إليه ان يعرّف النّاس بكلّ الحقايق ويقرّرها لهم ولكنّه إنّما يهتم بنوع خاصّ من الحقايق هو الّذي يترتّب عليه تربية خلقيّة يصلح عليها الفرد و المجتمع .

فالاديان لا يهمّها ان اعتقد مثلاً ان هناك كوكباً معيناً اسمه المرّيخ اوانّ هذا الكوكب فيه حياة أوليست فيه حياة ولا تترتّب على هذا الاعتقاد ـ ايجابيّاً كان اوسلبيّاً

تكليفاً ولا حساباً ولايهمّها ان اعتقد انّ الارض كرويّة الشكل أوليست كرويّة ولاان أعتقد أنّ لها دورتين او دورة واحدة... إلى غير ذلك من القضايا العلميّة و الحقايق الكونيّة .

و ليس معنى ذلك انّ الدين لايهتمّ بالعلم . ولا يلقى باله إلى مافي الكون من حقايق و سنن ولكن الكلام إنّما هو في اعتقاد شيء من ذلك اعتقاداً دينيّاً أوعدم اعتقاده فما دام لم يرد به نصّ قاطع ولم يصادم الاعتقاد به أصلاً من اصول الدّين فالأمر به طلق ولا ضير في الدّين من اثباته أو إنكاره .

و الحقايق الّتي عنى الدّين ببيانها لما يترتّب عليه من تربية خلقيّة و تهذيب و تقويم في العمل و السلوك ترجع إلى جوامع خمس لكلّ منها مايتّصل به و يأتي مكمّلاً له وهي التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد .

فالتوحيد حقيقة يتّصل بها كثير من الحقايق كصفات الله الثبوتيّة و السلبيّة والأسماء الجماليّة و الجلاليّة أواللّطفية و القهريّة وهذه الدائرة أوهذه الجامعة من شأنها ان توجّه الإنسان إلى الصراط المستقيم لانّه إذا علم ان للكون إلهاً واحداً وإنّ كلّ ما و من سوى هذا الإله الواحد خاضع له مدين لحكمه عرف قيمة نفسه بالنسبة للآخرين و سار في حياته في ظلّ الشعور بالمساوات لابالضعف ولا بالذلّة و الهوان ثمّ عرف قيمة نفسه بالنسبة إلى ربّه و خالقه الّذي يجب أن يكون إلهه و مقصده في جميع أعماله وتوجيهاته .

فالالوهيّة و صفاتها وما يتّصل بموضوعها حقايق ثابتة وهذه الحقايق لها قيمتها التوجيهيّة في حياة الإنسان ولذلك بيّنها الدّين وكشفها للناس أجمعين ثمّ أوجب عليهم الإيمان لها ولا يقبل فيها مهادنة ولا مجاملة ولاتبديلاً ولا تحويلاً ولم يكلهم في شأنها إلى أنفسهم كما وكلهم في الحقايق الدنيويّة .

و أمّا العدل فهو الأصل الثاني من أُصول الدين عند الشّيعة وهذا الاصل من الحقايق الثابتة انّ ربّك ليس بظلام للعبيد فالظلم قبيح عقلاً وان لم يكن دين وكتاب وقد نهى الله عن الظلم في جميع كتبه على لسان رسله وأمر الناس بالحرب مع الظالمين .

وقد ثبت في محلّه ان الحسن والقبح أمر ان عقليّان و الأديان معاضدة للأحكام العقليّة ولذا قالوا انّ العقل نبي من داخل كما انّ النبي عقل في الخارج فكلّ عاقل يدرك وجداناً انّ له إرادة و إختياراً في أعماله ويحسن عند العقل مدح المحسن وقدح المسيء انّ القضاة يقولون إنّا في المحاكم نرى العصاة كثيراً و بعباراتهم الفنيّة المتهمّون إذا جاؤا في المحاكم ينكرون الجرم او لاً و بملء الفم يكذّبون الأتّهام ولما يثبت الموضوع والجرم تحمرّ الوجوه هنالك يعرف المجرمون بسيماهم نراهم يرتعدون و يرتعشون يعترفون بأنّهم مجرمون ماسمعناهم إلى الآن ولا واحداً منهم يقول أنا مجبور وليس الأمر بيدى وهذا برهان قوىّ على أن الفطرة الإنسانيّة يعتقد بحسن الإختيار عند إحسانه وبسوء إرادته و اختياره عند الظلم والعدوان كلّنا ندرى بان لنا اشياء نخلقها في أنفسنا بقدرتنا واختيارنا فالصباحة و الملاحة و الطول و القصر في القامة ليست اُموراً اختياريّة ولذا لم يلم أحد احداً لأجل هذه الطبيعيّات الغير المكتسبة وامّا الصداقة او الصراحة والكذب والخيانة فهى امور اختياريّة اكتسابيّة نثاب ونجزى او نعاقب و نؤأخذ بها في الدنيا والآخرة .

واما النبوة من حقّ الناس أن يسألوا كلّ رجل يدعى أنّه مرسل من عندالله الدليل على رسالته فاذا قدّم لهم معجزة قبلوه وهذا النوع من الاستدلال يقوم على تفهيم الناس انّ الشخص الّذي يحدّثهم لايمثّل نفسه ولكن يمثّل ربّ الأرض والسماء ويعمل بقوته المطلقة لابقوى البشر المحدودة وقد فزع موسى إلى هذا الدليل لما كذّبه فرعون في دعواه انّه مرسل من ربّ العالمين وكذلك عيسى وكل نبيّ عرض نفسه على اُمّة ونبّأهم بأنّه رسول الله قالوا ماأنت إلاّ بشر مثلنا حتّى إذا أتي بمعجزة فريقاً هدى وفريق حقّ عليهم الضلالة والدليل على صدق أيّة دعوى قد يكون بامور خارجة عنها أو يكون بحقيقتها في نفسها فقد يزعم أحد الناس انّه مهندس ويقول دليلى على ذلك أنّى استطيع السّير بقدمى على الماء أو الطيران في الهواء فإذا فعل ذلك سلّمنا له و قد يقول دليلى على ما اقول : انّى أبنى عمارة مدعمة الاركان أو أصل بين شاطئين بجسر متين

فإذا فعل ذلك فقد دلّ بقدرته الهندسيّة على انّه مهندس يقيناً بل قد تستريح النفس إلى هذا الاستدلال أكثر من راحتها إلى البراهين الخارقة الاولى .

قال الحكيم ابن رشد ان" دلالة القرآن على نبوّة محمد ليست كدلالة انقلاب العصا حيّة ولا احياء الموتى وابراء المرضى فانّ تلك و إن كانت أفعالا لاتظهر إلاّ على أيدي الأنبياء . و فيها ما يقنع الجماهير من العامّة إلاّ انّها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوّة واهداف الوحي ومعنى الشريعة امّا القرآن فدلالته على صفة النبوّة وحقيقة الدين مثل دلالة الابراء على الطب ومثال ذلك لوانّ شخصين ادّعيا الطب فقال أحدهما . الدليل على أنّي طبيب انّني اطير في الجوّ و قال الآخر دليلي أني أشفي الأمراض و اذهب الاسقام لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى من المرض قاطعاً وعند الآخر مقنعا فقط فالمعجزات اذن تكون ذاتية في الرسالة وقد تكون خارجة عن جوهرها جرت سنّة الله في أنبيائه جميعاً أن يؤيّدهم بالمعجزات الواضحة وأن يسوق بين أيدهم من الخوارق مايلفت الأنظار و يستهوى الأفئدة ثمّ مايبنى معالم اليقين ودواعي الطمأنينة في النفوس وعناصر الاستقرار فطبّ عيسى غير انجيله و عصا موسى غير توراته فقد كان التعويل في العصور الاولى على الخوارق المادّية فحسب و لمّا جاء الإسلام فغضّ من شأن الاعجاز المادّي - ونوّه بالاعجاز العقلي والقيم المعنويّة للرسالات وكانت معجزة الرسالة الاخيرة شيئاً لاينفصل عن جوهرها فجعل حقايق الرسالة و دلائل صحّتها كتاباً واحداً ومن ثمّ كان القرآن كتاباً انسانيّاً و خطاباً عقليّاً ومادام البشر يحترمون عقولهم فستبقى لهذه المعجزة قيمتها لانّه اهدى هاد وأكبر معلّم وقد أستدلّ على وجوب ارسال الرسل وانزال الكتب بادلّة عقليّة واضحة كتب ربّكم على نفسه الرحمة وهذا مايسمّونه بدليل اللّطف وليس فيه مايخالف العقل كيف وهما رسولان من الله ولا نفرّق بين أحد من رسله فكلّما حكم به العقل حكم به الشرع .

الاسلام والمسيحية قرات في مذاكرات شبلي شميل كلمة لمسيحيّ استعار لنفسه اسماً مسلماً واجتهد أن يوفّق بين الإسلام والمسيحيّة في حقيقة المسيح .

وقد بني هذا الكاتب فكرته على ان كلتا الديانتين حقايق مبهمة فاذا كان الغموض يكتنف أوصاف المسيح و علاقته بربّ العالمين في النصرانية فكم في الإسلام من غيوب غامضة ! فهذه بتلك ... ولا داعي لاعتبار التثليث معضلة تنافي التوحيد الواجب لله .

قال الكاتب، جهل اكثر كتّاب المسلمين عقيدة النصارى في الاله الواحد الّذي ليس بمادّة كما جهل أكثر كتّاب النصارى عقيدة المسلمين و لكن لظهور الصعوبة في فلسفة العقيدة النصرانيّة يقول النصارى انّ في الدّين شيئاً هو فوق العقل و يعدّون ذلك من مفاخرهم في تديّنهم فيظنّ المسلمون انّهم يريدون بقولهم فوق العقل انّه غير معقول و ليس هذا هو المراد بل المراد ان العقل لا يكاد يدركه و كان مثل هذا القول شايعا و معروفا عند المسلمين و لكن بعض كتابهم في هذه الأيّام قاموا ينادون بأنّ الدّين الاسلامى وحده دين العقل والعلم و يفسرونّه بأنّ العقل يدرك كلّ شيء فيه ويوافقه العلم الصحيح .

و لسنا ندرى كيف يدرك العقل امور العالم الغيبي مثل أنهار اللّبن و العسل في الجنّة و مثل عالم الارواح المجرّدة و عالم الملائكة .

ولا نعرف كيف يستطيع اولئك العقلاء تفسير النار التى رآها موسى فلما أتاها نودى ان يا موسى إنّى أنا ربّك فاخلع نعليك انّك بالوادى المقدّس طوى .

أىّ عقل يدرك حقيقة هذا النداء الّذي سمعه موسى وكيف يدرك معنى فلمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكّاً وخرّ موسى صعقا ! وأي عقل يدرك حقيقة نفخ الله في مريم كما جاء في القرآن ومريم ابنة عمران الّتي احصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا .

النصراني يقول الاله واحد كما يقول المسلم ثمّ يقول النصراني ان عيسى كلمة الله و روح الله و هكذا يقول المسلم أيضاً والنصراني يقول انّ مريم عذراء حملت بعيسى الّذى هو روح الله و كلمة الله من غير ان يمسّها بشر و هكذا يقول المسلم .

فانا اسأل إخواني المسلمين أن يبيّنوا لى الفرق اوّلاً بين هذه التعابير وان يفهموها جيّداً قبل ان يجادلوا النصارى على التعبير بالاب و الابن و الروح القدس و قبل ان يسألوا عن هذه الفلسفة الّتي تبيّن أنّ هذه الكلمات الثلاث تدلّ على حقيقة واحدة ظهرت في ثلاث مظاهر و ما نار موسى عن القارى ببعيد .

هذا الكلام ينطوى على مغالطة بيّنة لان العقل يفرّق بين ما يصعب على العقل ادراكه و بين ما يجزم العقل باستحالته ففى عالمى الغيب و الشهادة حقايق شتّى نوقن

بوجودها و نجهل كنهها و جهلنا بكنهها لا يخدش وجودها الثابت و في كلتي العالمين امور نحكم بامتناعها ولا يمكن تلبيس الممكنات الغامضة بالمستحيلات المعدومة .

و بعبارة اخرى فرق بين أن يحكم العقل باستحالة شيىء و بين ان يعلن عجزه عن فهم شيىء فالعقل يحكم بان اجتماع النقيضين محال فالضوء مثلا لا يكون موجوداً ومعدوماً في وقت واحد ولكنّ العقل الذى حكم ببطلان هذا يعجز عن فهم حقيقه الضوء ماهو كنهها و ما انتقالها بهذه السرعة الهائلة و هذا العجز الظاهر لا يمسّ حقيقة الضوء ولا يمسّ وجودها فعدم علمك بشيىء غير العلم بعدم ذلك الشيىء فالقول بانّ الثلاثة واحدة كالقول باجتماع النقيضين ليست مسألة غامضة بل مستحيلة بالبداهة .

كانت الاديان السابقه لا تدعم مدعيّاتها بدليل ولا تستند إلى برهان بل كانت توجب التصديق والاذعان بكل ماتقول وان كانت مخالفة للعقول وتحرم المطالبة بالدليل و البيّنة و شعارها غمّض عينيك وسدّ اذنيك وصدّق بما تقول من تجسّد الله وتجسّمه والتثليث في عين التوحيد والتوحيد في عين التثليث ولمّا جاء الاسلام صرّح اوّلا بان لا اكراه الدين وثانياً افتح عينيك واذنيك الذين يستمعون القوم فيتبعون احسنه وصرّخ قائلا قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وجعل شعاره الله اكبر فبهذا الشعار يسير الاسلام امام العلم ولا يبلغ بهذا الشعار و هذا من خصايص الاسلام فلو فرض ان العلم يكشف ان قطعة من الفضاء قدرت مسافتها بسير النور الف مليون من السنين كما قال رئيس جامعة كاليفورنيا ان تلسكوب كاليفورنيا اكتشف كوكباً لا يصل نوره إلى ارضنا إلاّ في مدّة الف مليون من السنين . في حين ان النور يطوى في كلّ ثانية ثلثمائة الف كيلومترای مائه وستّة وثمانين الف من الاميال لو فرض ذلك و فرض ان العلم يكشف اضعاف اضعاف هذه المسافة من الفضاء بالمليارات او بما لا يتناهى بنظرنا ، نرى الاسلام امامه يقول الله اكبر ولوان ما في الارض من شجرة اقلام و البحر يمدّه من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله و قال تعالى قل لو كان البحر مداد الكلمات ربى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا .

---

(١) دين الله لا يصاب بالعقول وامثاله .

ومن جهات الاعجاز في القرآن انه خالف في الفلك والنبات و الحيوان والمعادن و الانواء و المطر و الهواء و الفضاء و الطب ومعرفة اعضاء الانسان و الحيوان والفلسفة و الطبيعيات و غيرها من العلوم كلما كان شايعاً في عصره من فلسفة اليونان وعقايد الحكماء و علومهم ولم يبال بمخالفتهم حتّى جاء العلم بعد الف سنة و المكتشفات فصدّقت قوله وكذّبتهم فبينما كان علماء عصره يعتقدون بوجود الفلك المحيط بالارض والافلاك المحيطة بعضها ببعض وانها غير قابلة للخرق والالتيام كان النبي ﷺ يقول انه عرج إلى السموات حتّى بلغ منها الاقصى فكانوا يسخرون من قوله بقولهم من لزوم الخرق والالتيام في الفلك و هما محالان فما لبث ان سخر العلم منهم وصدّقه إذ أثبت انه لا وجود للفلك كما كانوا يزعمون و ان الفضاء قابل للسير فيه و هذا هو ما اطمعهم في السفر إلى القمر و السّير إلى كرة المرّيخ و كان علماء عصره يزعمون ان الذكورة و الأنوثه مختصّتان في جنس الحيوان و بعض النبات فردّ زعمهم بقوله و من كل شيء خلقنا زوجين فجاء العلم و ابطل مزاعمهم و أظهر للحس صحّة ما يقول القرآن إذ أثبت ان كل موجود مادّي من أصغر ذرّة في الارض إلى اكبر كرة وشمس في الفضاء والسماء مركبّ من زوجين وهذا مثال ما عبّر القرآن عنه ولم ينكشف لجمهور الناس انكشافاً تامّاً إلاّ بعد نزوله بقرون كون الثمار و غيرها أزواجا منها الذكر و الانثى قال تعالى ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ـ وقال و من كل شيء خلقنا زوجين ٤٩/٥١ و كانوا يحملون الآيات على المجاز ـ و كون الرياح تلقح النبات و ارسلنا الرياح لواقح وقد جعله بعض المفسرين تلقيحاً مجازيّاً من أنّها تلقح السحاب فيدرّ كما تدرّ اللقحة ولكن هذا القول المقتبس من التنزيل بنور الفهم الصحيح لم يزل خفيّاً في تفصيله حتّى عن العرب الذين كانوا يلقحون النخيل ـ إلى ان اكتشف للنّاس اعضاء الذكورة و الانوثة في النبات و كونها تثمر بالتلقيح و كون الرياح تنقل مادّة الذكورة من ذكرها إلى انثاها فتلقحها به و لما علم الافرنج بهذا قال بعضهم ان اصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل ان يعرفها اروبا بثلاثه عشر قرناً و مثال ما عبّر القرآن عنه مما يشمل ما لم يكن في زمن تنزيله ولا فيما قبله بحسب ما يعلم البشر هذه الآية الّتي ظهر تفسيرها في هذا

الزمان هذه الحروب الاروبيّة التى لم يسبق لها نظير فقد ارسل الله على الامم عذابا من فوقها بما تقذفه الطيارات و المناطيد من المقذوفات الناريّة التى لم تعرف قبل الحرب فوق مقذوفات المدافع و غيرها مما كان معروفاً قبلها و لكن بعد تنزيل الآية ، وعذاباً من تحتها بما يتفجّر من الالغام الناريّة و بما ترسله المراكب الغوّاصة في البحر الّتي اخترعت و لبسها شيعا و أذاق بعضها بأس بعض فحلّ بها من التقيتل و التخريب مالم يعهد له نظير في الارض ولا شك في انّ دلالة الآية على هذه المخترعات مرادة لان الله تعالى منزّل القرآن علاّم الغيوب وفي الحديث المرفوع ما يشير إلى ذلك فقد روى احمد و الترمذى من حديث سعد بن أبي وقّاص سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم اومن تحت ارجلكم او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض فقال (أما انها كائنة ولم يأت تأويلها بعد) يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى قصعتها - فقال قائل و من قلة نحن يومئذ ؟ قال - بل انتم يومئذ كثير و لكنكّم غثاء كغثاء السيل وسينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم وليقذفنّ في قلوبكم الوهن - قال قائل - و ما الوهن قال حبّ الدنيا و كراهية الموت رواه ابو داود في سننه و البيهقى في دلائل النبوة ومن تفرّقها شيعاً و وقوع بأسها بينها وغير ذلك.

و اعلم ان ما اصاب الامة الاسلاميه بسوء فهمها لهذه الاحاديث بعد فشوّ الجهل فيها هو نحو مما اصابها بسوء فهمها لتلك النصوص و الحكم التى اشرنا إليها في المثال وطنّ جماهير المسلمين انفسهم منذ قرون على الرضا بجميع الفتن و الشرور التى انبأت الاحاديث بوقوعها في المستقبل فقعدت هممهم عن القيام بما امر الله تعالى به من الامر بالمعروف و النهى من المنكر و دفع المكروه والدفاع عن الحق بقدر الاستطاعة معتذرين لانفسهم بان ذلك مقدّر وقد ورد بوقوعه الخبر فلا مهرب منه ولا مفرّ كما يعتذرون لانفسهم عن ترك مجاراة الامم العزيزة في اسباب العزّة و طرق الثروة بالنصوص و الحكم التي وردت في التنفير عن الطمع و الجشع و تراهم قد تركوا السعى و العمل لما و عدوا به في الآيات و الروايات من الخير و السعادة و السيادة كما كان يسعى سلفهم و من تلك الوعود مالم يأت تأويله ولابدّ من إتيانه وكان وعد الله مفعولا وحقيقة الامر انهم رزئوا بالجهل

والخمول والكسل. وسقوط الهمة فهم بجهلهم يتعبون ويشقون في اتّباع اهوائهم والسعى لحظوظهم الشخصيّة الدنيئة ولايفكرون في المصالح العامة ولايعقلون وجه ارتباط المنافع الخاصة بها بل يتركونها زاعمين انهم قد وكلوا امرها إلى الله و عملوا بهدى دينه فيها بل لا يخطر في بال احد منهم هذا الزعم إلاّ إذا عذله عاذل او وبّخه موبّخ على تفريطه في حقوق امته و ما يجب عليه لملّته فح يعتذرون بالاقدار او بان الاخرة لهم و الدينا للكفّار و قال سيّدنا امير المؤمنين عليه السلام انا قد اصبحنا في دهر عنود و زمن شديد يعد فيه المحسن مسيئاً و يزداد الظالم فيه عتواً لا ننتفع بما علمنا ولا نسأل عمّا جهلنا .

ان لأحوال الامم العامّة تأثيراً عظيماً في فهم افرادها نصوص الدين وغيرها من اقوال الحكماء و الشعراء فهى في حال ارتقائها بالعلم و الحكمة و ما يثمران من العزّة و القوّة تكون اصحّ افهاماً و اصوب احكاماً و اكثر اعتباراً و ادّكاراً و احسن استفادة و استبصاراً و في حال فشوّ الغباوة و الجهل و ما ينتجان من الضعف و الذّل تكون بالضدّ من ذلك و اضرب مثلا لذلك النصوص و الحكم المنثورة في ذم الطمع و الحرص على المال و زينة الدنيا و ما يقابلها من تعظيم امر الآخرة و الترغيب في معالى الامور و بذل المال في سبيل الحق لم تكن تلك النصوص و الحكم و الاشعار و الامثال بصادّة للأمّة في طور حياتها و ارتقائها عن الفتح و الكسب و احراز قصب السبق في جميع ميادين التنازع على السيادة و موارد الرزق بل كانت هى الحافزة لها إلى ذلك بقصد اعزاز الملّة ورفع شأن الامّة لذلك كانوا يبذلون تلك الاموال بمنتهى السخاء في سبيل البرّ واعمال الخير ولو حفظ المتأخرون منّا ما حبسه المتقدّمون من الاوقاف على جميع المصالح العامّة وانواع البرّ لوجدوا ان جميع ما ملكوه من الارض كان وقفا بل وقف مراراً لان الخلف الطالح صار يحوّل اوقاف السلف الصالح إلى ملك حتّى يقول السيد رشيد رضا عن قول عم والده ابو الكمال كان يقول على سبيل المبالغة في كل مائة سنة يتحوّل كل وقف في طرابلس الشام ملكا و كل ملك وقفا، نعم كانت تلك النصوص والحكم للأمّة في تلك الحياة كالغذاء الصالح للجسم السليم يزيده قوةً و يحفظ له حياته ويعوّضه عن كل ما ينحلّ منه من الدقيق الميتة مادّةً حيّة خيرا منها ثم صارت في طور الضعف كالغذاء الجيّد في الجسم

العليل لا يزيده إلّا ضعفاً وانحلالاً إذصاروا يفهمون منها ان الكسل والخمول والتواكل و الفقر و الذل من مقاصد الدين فصاروا لا يستفيدون منها إلّا ضعفاً وعجزاً ولا يزدادون معذلك إلّا حرصاً و بخلاً اذا تدبّرت هذا المثال فاجعله مرآة لما ورد في الاحاديث من انباء مستقبل الامة الاسلامية كسعة ملكها في مشارق الارض و مغاربها ثم تداعى الامم عليها لم يخبرامته بما سيقع فيها من البدع الّا لأجل ان يكونوا على بصيرة في مقاومة ضرّها و اتّقاء شرّها .

لقداصيب المسلمون بامراض اجتماعية كبرى منها حبّ الاستبداد بالسلطة والانفراد بالسودد والانغماس في حماة الشهوات ودبت عقارب الخلاف بينهم فانقسموا وتفرّقوا و تحاربوا انقياداً لأهوائهم وارضاء لشهوات أنفسهم فدالت منهم الدولة ولعبت بهم الايّام و فقدوا استقلالهم و اعتاضوا عنه بالذلّة و الهوان قال الله ولا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم ورغماً عمّا وصلوا إليه من الانحطاط السياسى كانوا يحافظون على كثير من الاخلاق الفاضلة والشيم الكريمة إلى ان داهمهم ابناء الغرب في عقر دارهم و قال سيّدنا على فوالله ما غزى قوم قط في عقر دارهم إلّا ذلّوا ، جاؤا من اروبا واكتسحوا ممالكهم واحدة بعد اخرى وهم يريدون القضاء على البقيّة (لاقدر الله) فانصب عليهم تيار المهاجرين حاملين معهم مالهم من المساوى فانّهم في بلادهم غيرهم في بلادنا ، في اروبا وامريكا محاسن كثيرة و اخلاقاً عالية وعلوماً نافعة و اموالا و حرّيّة قانونيّة ولكن جاؤا بفجورهم و خمورهم وبغاياهم وساقنا الجهل إلى الاسراع في تقليدهم،قلّدناهم في الازياء والعوائد و الاخلاق الّتي لاتناسب بيئتنا ولا تلائم مع آدابنا انهمكنا في الفجور والخمور و خلعنا جلباب الحياء وارتدينا اثواب الخزى والعار وتجاهرنا بكلّ رذيلة ونقيصة و بذلك وجد فاسد و الاخلاق في وسطنا مجالاً فسيحاً لترويج آثامهم و غرس بذور الفساد في تربتنا وبثّ سموم المهالك في وسطنا فاصبحنا على ما يسوء الصديق ويسر العدو فما احتفظنا بديننا وآدابنا و اخلاقنا و عوايدنا ولا اعتضنا عنها بغيرها من آداب تلك الامم وعلومهم وجميل سيرتهم في مضمار الحياة ذلك شأننا نحن الايرانيّون وساير الشعوب الاسلاميّة الّتي منيت بفقد عظمتها وتحكم الغربى في بلادها كنّا لعهد غير بعيد على جانب عظيم من

مكارم الاخلاق من اجلّها و اسماها الحياء نعم الحياء خلق كريم يبعث النفوس على توقير أهل العلم والفضل وذوى الإسنان ويحمل على المبالغة في التستّر وعدم المجاهرة بالقبيح حتّى في الأمور الّتي لا يابأها الشرع وإنّما تقبحها العادة وينكرها العرف و يصون اللسان عن هجر القول وفاحش اللفظ إلى غير ذلك من فضايل الأوصاف و شريف الخصال انعكست الاحوال وفسدت الاخلاق وارتفع برقع الحياء عن الوجوه واصبح الناصحون و المرشدون محل البعث والازدراء من الاوباش والسفهاء وتجاهر السفهاء بكلّ وقاحة و دناءة وتفنّنوا في اساليب المفاسد و تسابقوا إلى ركوب متون المهالك بجرأة و اقدام و اطلقوا لالسنتهم اخرسها الله ـ العنان في كلّ قول بذى و لفظ فاحش حتّى قرأت في مقالة لاحد من التّونسيين انّه صار سبّ الخالق والدين (نعوذ بالله) من الامور المعتادة الّتي نسمعها صباحاً ومساء ولا قدرة لنا على تغييرها والحكام يقولون ان لا نصّ في قانوننا التونسى يوجب العقاب على ذلك فإليك اللّهم معذرتنا فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منّا فجهلهم و فساد تربيتهم و قصر مداركهم جعلهم يحسبون ان ذلك منتهى ما تطمح إليه النفوس من الحرّية وغاية ما تجنح إليه من المدنيّة تعساً لهاته الافهام الضالّة والعقول الزائغة ما ابعد الحريّة عنكم وما اضلّكم عن طرق التمدّن والحضارة . اين الحرّيّة الحقّة فدون الوصول إليها خرط القتاد و اين الحضارة فطريق البلوغ لها شاسع مديد .

طال بى القول وشاء اليراع ان يجرى في هذا المجال طلق العنان فقد وجد مكان القول ذاسعة أثار منى هذا الموضوع زفرات كامنة و اهاج عواطف طالما غالبتها و اجّج في فوادى الكليم نار الاسف والاسى ـ كلّما اجلت النّظر في حالتنا وما آلت إليه اخلاقنا وما وصلنا إليه من اهمال أوامر الدين وترك ما هدانا إليه من طرق الصلاح والسداد إلّا واضطرمت نار الحزن بين جوانبي واعترانى من الهمّ والغمّ ما يجعلني على درجة اليأس والقنوط لولا ان حسن الاعتقاد يملى عليّ قول الله الكريم ولا تيأسوا من روح الله انّه لاييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون . نعم أردّ جماح اليراع واقف عند هذا الحد من إعلام الخطر ملفتاً إلى هذا الأمر الخطير انظار اخوانى قادة الافكار و سادة الاعلام و حملة الأقلام و هداة الدين ونصراء الفضيلة الذّين اوتوا العلم و القلم .

الصحافة والحرية ان بعض الصحف كبعض الشعراء يقول الحقّ في بعض الأوقات وبعضها تقول بعض الحقّ في كلّ الأوقات و امّا الّتي تقول كلّ الحقّ في كلّ الاوقات فلم نر في الصّحف ولكن سمعنا بعض الشعراء حافظوا على حريّتهم وحفظوا قدرهم حتّى زيّنوا كتب الأدب بآثارهم وفي عزمي ان اقول كلّ الحقّ لدى الاقلام الثلاثة .

الاقلام ثلاثة قلم يكتب ليعيش ، قلم يكتب ويعيش ، قلم يعيش ليكتب ، لعلّكم تنتظرون تعبيراً اوضح من هذا ، قلم تجارى ، قلم سياسى ، قلم حرّ ، أراكم غير قانعين بهذا تحبّون انّ القائل يميط لكم قناع الاجمال عن تمام محيا المقال .

الأوّل قلم يسعى وراء خدمة الذات و يطلب اللذّات وراء جمع المال،وراء تمهيد العيش،لنفس كاتبه العزيزة ،وراء استدرار الدينار والدّرهم فلا ينفكّ لامحالة من تصديق الكذب الفاضح و تكذيب الصدق الواضح و مدح مستحقّى الذم و ذم مستحقّى المدح كبعض الجرايد الساقطة الّتي لا يهمّها إلّا ما يكسبها ديناراً تدير به ادارتها و درهماً تقتات به صاحبها كبعض الشعراء الّذين لا ينظمون إلّا فيمن يظنّون به الافادة الفعليّة مدحاً اوهجاءً فضلاً عمّن لا ينظمون إلّا في الخالة والخلخال وشؤون ذوات الغنج والدلال كبعض أبناء الوقت و اشباه الرجال وهؤلاء كالذباب يكثرون في امم دنس فنائها الجهل و الخلق الدميم و يقلّون في امّة العلم والتهذيب .

٢ ـ قلم يكتب و يعيش ، قلم يسعى وراء خدمة النوع في عصر اومصر هو فيه قلم يحب المدح و الشهرة و الاوهام الّتى تعشقها النفوس السياسية قلم يحفظ الشرافة لذاته قلم يخدم الامّة ولكن في وسط ضيق وزمان محدود وقلم يراعى الرأي العالم وميل الجمهور قلم يبطل الحقوق النوعيّة و يحقّق الاباطيل العمومية فجناية هذا القلم على المجتمع البشرى لا تقاس ولا تقدّر بالنظر الى القلم الاول (حنانيك بعض الستراهون من بعض) فان هذا يهضم حقّ جمّ غفير مقبل بصبغة سياسية مزخرفة كذئب في زيّ شاة وذاك يهضم حق الحاضرين بصورة يفضح نفسه .

والّذي يهوّن الخطب على القلم الأوّل انّه يفتضح ايّاما قلائل تجاه عدّة يسيرة ولكن القلم الثانى يشرى لنفسه الفضيحة الدائمة في قرون طويلة لانّ مااستحسنه لديهم

اواستهجنه عليهم في زمانه لم ينطق به نطق ناطق مشفق ناصح يبوح بالحقايق مهتوكة السربل اقرّهم على ماهم اليه نظراً إلى ميلهم اليه حسناً كان اوقبيحاً ضارّاً او نافعاً ليحمد عنه الجمهور و يروّج متاعه الكاسد .

وحينما تنتبه الامّة من رقدتها وتنقشع عن افكارها غيوم جهالة متلبدة وتهرب من الضارّ وان كان حبيبها وتحنّ الى النافع ولو كان بغيضها .

تقوم حينئذ ثائرة على من جاملها في شهواتها وسايسها في حركاتها وح تقول ربنا هولاء أضلّونا فاتهم عذاباً ضعفاً من النار . ياويلتا ليتني لم اتّخذ فلانا خليلا ، لقداضلّني عن الذكر وح ترى للقلم الحر درجة يغبطها جميع الاقلام .

٣ ـ قلم يعيش ليكتب فانّه قلم يخدم الحق والحقيقة لاغير ولواضرّ نفسه اوأساء جنسه لعلمه انّ الحقايق هي الّتي تبقى و يفنى كل شيء و هي الّتي تنفع الامم طول حياة العالم فيقاوم القيامات القائمة عليه و مكايد الشدايد المتوجّهة اليه طامحاً بالنظر إلى نظارة العالم لمستقبل العالمين مشتريا سخط الخلق بمرضاة الحق .

و يمسى كالطبيب الّذي يمقته المريض لعلاجه بمالايشتهى اليه او المؤدّب الّذي يبغضه الطفل لأمره بمايصعب عليه ولكن سل المريض عن طبيبه اذا برء والطفل عن معلّمه اذابلغ اشدّه وعرف رشده تجد المريض يشكر الطبيب يكاد ان يعبده و ترى الطفل يخضع لمؤدّبه خضوع العبد لسيّده اواشد فان الاوّل قدافاض على صاحبه حياة المادّية والثاني افاد الحياة المعنويّة لايخضع لغير البرهان ولا يطمع فيماعدا ثواب الرّحمن قلم واىّ قلم حرّ لاتجاريّ ولا سياسي لاشرقيّ ولا غربيّ قلم يعيش ليكتب قلم يخدم الحق والحقيقة ويسعى في تحسين مستقبل الامّة قلم تجرّد من العنادوالعصبيّة منزّه من اغراضه الشخصيّة قلم ترك السياسة لأرباب الرّياسة و رفض المصانعة قلم يستعيض من الله و يستعيذ بالله من كلّ مجامل قلم لايكتب للمدح و الشهرة قلم جعل نفسه اضحية في سبيل البشريّة قلم أحدّ من السيف واجدربا لاكرام من الضيف .

هناك انواع من المقالات يصح ان نسميها مقالات علمية بالمعنى الواسع فتشمل المقالات الاجتماعيّة كما تشمل بحث مسألة ادبيّة بحثاً علميا . و هذا النوع سهل على

متى تيسّرت له ادوات البحث من كتب و مراجع و توفّر له حسن الاستعداد من معرفته بمناهج البحث واساليبه فكل وقت صالح لكتابة مثل هذه المقالات واعدادها مالم يكن الكاتب في حالة استثنائيّة من مرض و نحوه وهناك نوع من المقالات هي المقالات الادبيّة بالمعنى الخاص واعنى بها الادبيّة ادباً إنشائيّاً صرفاً لاادب بحث ودرس ـ وهذه اصعب من الاولى من حيث انها تتطلب ـ فوق حسن الاستعداد ـ (والمزاج الملايم) فليس الكاتب في كلّ وقت صالحاً لها . بل لا بد أن يكون مزاجه ملائماً للموضوع الّذي يريد ان يكتب فيه فان كان الموضوع فكهاً مرحاً فلابد ان يكون مزاج الكاتب من هذا القبيل ولذلك قديمٌ على الكاتب الاديب اوقات خلع ضرسه اهون عليه من كتابة مقالة و اذا هو حاول ذلك فكانه يمتح من بئر او ينحت في صخر ذلك لان هذه المقالة الادبيّة لابد ان تنبع من عاطفة فياضة و شعور قوى فاذا لم يتوفر هذا عند الكاتب خرجت المقالة فاترة باردة لايشعر القارىء بروح ولايحس منها حرارة وقوة . ولا يكفى ـ عند الكاتب وجود العاطفة القوية . بل لابد ان تكون هذه العاطفة من جنس الموضوع الّذي يريد معالجته فويل له ان اراد رثاء وقلبه ضاحك مرح او اراد فكاهة وقلبه بائس حزين ومن اجل هذا يحاول الكتاب ان يتهيّأوا نفوسهم للموضوع أوّلاً فيستلهموا كتابا أو قصيدة او منظراً طبيعياً او نحو ذلك من الوسايل الصناعيه ـ ان عدموا الوسايل الطبيعيّة ـ حتّى تهيج مشاعرهم من جنس الموضوع ثمّ يأخذوا في الكتابة فتتدفق معانيهم و تعزز افكارهم و مشاعرهم .

وشأنهم في ذلك شأن كل فنان من موسيقى ومصوّر ومثّال فهؤلاء لايحسنون الاخراج وخاصة إذا ارادوا الانشاء ـ إلّا في ساعات خاصة هى ساعات هياج مشاعرهم من جنس موضوعهم .

امّا البحث في ،لم تهتاج المشاعر في بعض الاوقات ولم لاتهتاج في بعضها؟ وما الوسايل لذلك ؟ فبحث بسيكولوجى لايعنينا هنا وانكان الباحثون فيه الى الان لم يحيطوا بدقائقه وتفصيلاته واسبابه .

امّا موضوع **المقالات الادبية** فكلّ شيء في الحياة صالح لان يكون موضوعاً من الذرّة إلى الذرّة ومن الطمس الى الشمس ومن الرذيلة الى الفضيله و من كوخ الفلّاح الى قصر الملك و من الماضى الغابر إلى المستقبل والحاضر و من اقبح قبيح إلى اجمل جميل ومن الحياة الى الموت ومن الزهرة الناضرة إلى الزهرة الذابلة ومن كل شيء الى كل شيء و الكاتب الفني من استطاع أن يجد من كل شيىء نواة يولف حولها ما يصلح لها حتى يخرج موضوعه منسقا تنسيقاً يبهر السامع والقايل و هو في تأليفه قد يضم الشيىء إلى الفه وقد يضمه الى نقيضه وقد يصل به الكلام في الذرة الى الكلام في الشمس . وقد يصل به الكلام في النّملة إلى الكلام في الله ولكن القارى لا يشعر بمفارقات ولا يشعر بهوّة بين اجزاء الكلام و يسير مع الكاتب كانه في حلم لذيذ او قصّة محبوكة و الفرق بين كاتب وكاتب في شيئين التلقى و الاذاعة فالفرق في التلقى هوان الكاتب قد يكون دقيق الحس يسمع حفيف الاشجار و دبيب النمال و يرى دقيق الأشياء في الظلماء . ويرى قلوب الناس في اعينهم و دخائلهم في صفحات وجوههم وقد يرى باذنه و يسمع بعينه وقد يرى مالا يري الناس و يسمع مالا يسمعون وقد يدرك الجمال لكلّ شيء فيه و يدرك القبح بكلّ شيىء فيه حتّى كانه قدمنح من الحواس مالم يمنحه الناس . وكأنّ حواسه ليست خمسة وانما هي خمسون او خمسماة اوماشئت على حين اخاه الكاتب الاخر لم يبلغ هذا المبلغ من الذوق قدفاق المألوف من الناس ولكن الى حد وتسامي ولكن بمقدار ـ و يفضل الكاتب الكاتب ايضاً في التلقى من ناحية ان كاتباً قد تتعدد مناحي ادراكه تعددا متشعباً فالطبيعة توحى اليه بأسرارها و المجتمع يملى عليه بواطنه و الحياة كلها لا تضنّ عليه بخفاياها والملح و الفكاهات تدخر له احسن ما لديها والجد لا يضن عليه بخير ما عنده فهو مستودع الاسرار وملتقى البحار و الانهار و من يأمنه كلّ على سره ويفضى اليه كل بما يضنّ به على غيره ـ على حين ان اخاه الكاتب قد يصل الى بعض الاسرار و يدرك بعض الاتجاهات و يعجز عن ادراك البعض قد يجيد فهم الطبيعة ولا يفهم للمجتمع سراً وقد يجيد فهم الجد ولا يفهم للدعابة معنىً ذكّى في امر وغبى في آخر منير في جانب مظلم في جانب اترك ما للحديث من شعب ،فالكاتب قد يسرّ بقلمه كغرور المرء بماله وحسبه والحسناء بجمالها

وثيابها وثقة الانسان بنفسه تاجراً اوقوي العضل إلى آخرما يجمح بالمرء من زهو وهوى فاحصر الكلام بالغرور وثقة بالنفس من وجهين العلم والحكم لاعتقادى ان في هذين الوجهين شاناً لتطور في البلاد قريب نحن في فجر هذا العهد الجديد في حاجة الى علم صحيح لاالى مظاهر من العلم كاذبة ان هذه الارض الطيبة هي منبت الادمغة الكبيرة وتلك السماء الصافية هي مجلى القدرة الاكتسابية الواسعة وقد اثبت الايرانى في كل أدواره انه كفو الاجادة اللغات العديدة و تحصيل العلوم الواسعة المختلفة وان له ميزة في ذلك الاستعداد الطبيعي على سواه من ابناء الامم الاخرى فلاعذر للايرانى - و الحالة هذه - يبرر تقصيره ولا سبب يفسر ضعفه إلاّ اكتفاؤه بالقليل زهوا و غرور ذلك الغرور الذي يسقط مستوى الامة الادبي وما مستواها الادبي إذا كان رفيعاً الاحجر الزاوية في استقلالها وعبثاً تطلب امة مركزاً لها بين الامم اذا هي لم تقم دعائمه على العلم الصحيح والعلم محترم بذاته فالعاقل لايستعبد عالما . و العالم لايكون عبداً مهما كانت الانظمة ان فريد ريك كان يتملق لفولتر ولويس الرابع عشر كان يقف على باب المراسح لاستقبال المدعوين الى رواية من راسين نعم العلم الناقص يؤدى الى الغرور وهو من مقوضات البناء في مقدرات الأمم والعلم الصحيح يولى الثقة بالنفس . وهي من المقدمات البانيه في تطور الامة .

الثقة بالنفس هي ان يشعر الطفل في بداءة مشيه انه اذا وقع في المرة الاولى عليه ان يستعيد قواه و يستعد لوقعة ثانية و ثالثة ورابعة حتى يمشى ولا يقع .. تلك الثقة تكفل للطفل فعليه القوة والعزيزة ولولاها لما عرف للمشى سبيلا .

الثقة بالنفس هي ان يستعد الطالب المجتهد لامتحانه فيقحمه غير هياب وقد تكون قلة ثقة الطالب بنفسه سبباً كافيا امالاحجامه واما لسقوطه .

الثقة بالنفس هي ان يكد الجراح و يحي الليل حتى يشعر من علمه كفاءة لحمل المسوولية فيقدم على تسير مبضعه في جسم مريضه واثقاً ان ذلك المبضع يحيى ولا يميت .

الثقة بالنفس هي ان يعلم الشعب ان الامر له لاسواه - و ان الحكم له لالغيره فاذا سئل لايسجل على ذاته انه غير كفوء - واذا لم يسأل طالب هو بحقه .

ولا يقال للطالب ليس في الامتحان خطر السقوط فاقدم لا يقال للطفل لا تحاول المشى وحدك فتقع ولا يقال للجراح ان المبضع الّذي يحيي يميت فلاتستعمله .

ولا يقال للشعب انت ضعيف تقع او تخاذل فلا تستلم حكمك بنفسك بل يقع الطفل حتى يمشي بل يشعر الطالب بالخطر حتّى ينجح ، يميت الجراح حتّى يحيى و الشعب الشعب وحده له اجنحة و تقص له همة وتخمد له حقوق وتهضم له حياة يريدها الشرق مهبط الوحي و الحكمة و عنه اخذ الغرب مبادى العلوم و المعارف فعند ما كانت مدارس الشرق زاهية كان الغرب يتسكّع في دياجير الجهل غير ان الزمان قلّب ان دان يوما لشخص ففى غدٍ يتغلّب ، فكما اهتدى الغرب بانوار تهذيب الشرق و علومه قديماً اصبح اليوم من واجب الشرق ان يهتدى بالأساليب العلميّة الجديدة الّتي يكتشفها علماء الغرب فان ّ طلب العلم فريضة على كل شخص من مسلم ومسلمة مهما كانت مصادرها قال النبي ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها » .

على ان الشرقين تنبّهوا إلى هذا الامر منذ نحو نصف قرن وزاد نشاطهم وتألّفت نهضتهم العلميّة الادبيّة مؤخرا ولاسيّما بعد الحرب العالميّة الّتي احدثت ثورة فكرية في العالم عموماً وفي الشرق خصوصاً فازدادت النوادى العلميّة وانتشرت الصحف والمؤلّفات وتعدّدت المدارس الوطنيّة واظهر مديروها ومعلّموها مقدرة في تعليم الاحداث بالاساليب الجديدة ربما فاقت مقدرة الاجنبى لان ابناء الشرق (الأدنى) مشهورون باقتدارهم على اقتباس الاساليب الجديدة و مباراة اهلها فيها ـ و لقد كثر القائلون بوجوب تعليم المرأة و تهذيبها لانها مربّية الجيل و هذه الفكرة لابد ان تتّسع دائرتها ولا تسأل عن البركات الّتي يحصدها الوطن من ذلك اذ يخرج من مدارسه مئات سنويّاً باستطاعتهم ان يرفعوا شأن البلاد بشرطها وشروطها اهمّها ان نعلم ما نتعلّم ، اى ما يجب ان نتعلم قلت ان الشرقى بارع في اقتباس طرق التعليم وسوف لا يمرّ زمن طويل حتّى تصبح اساليب مدارسنا في تلقين العلوم كمدارسها غير انه يعترض امامنا فكر و هو ما الّذي يجب ان نعلّمه لاحداثنا وكيف نربّى شبّاننا حتّى يعرفون الاسلام كما هو و يعلمون انه دين الشرف و الفضيلة والمساوات والحرّيّة و التاريخ شاهد ومشهود لنا .

كان المسلمون إذا همّوا بفتح أمة خيّروا اهلها بين الاسلام او الجزية اوالحرب و ذلك هو اقصى ما يبلغ إليه التسامح - فاذا أدخل الاسلام بلداً تحت ظلاله خلّى بين المحكومين و بين حرّيتهم الدينيّة وما يكلفهم إلاّ بجزية يؤدّونها صيانة لأنفسهم و محافظة على أمنهم في ديارهم وذوداً عن عقايدهم و معابدهم ، لهم مالنا و عليهم ماعلينا - من آذى ذميّاً فليس منا - انّ المسلمين يسعى بذمتّهم أدناهم ، ذلك هوشعار الاسلام في معاملة الذميّين روى البلاذرى انّه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع . و بلغ المسلمين اقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردّوا على اهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، و قالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فانتم على امركم . فقال اهل حمص لولايتكم وعدلكم احبّ الينا ممّا كنّا فيه من الظلم و الغشم . و لندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم و نهض اليهود و قالوا . و التورية لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّان نغلب و نجهد فاغلقوا الابواب وحرسوها ، من ذلك يُعلم ان الجزية كانت تؤخذ مُقابل الدفاع، يقولون انا في عصر الذرّة و الأتم ومضى عهدالاحلام والحالمين ، بل نحن في عصر مادى فترت فيه حرارة الناس في التعلّق بالمثل العليا و انعدم ايمانهم بالمبادى السامية اوكاد واصبح من يتشبّث فيهم بتلك المبادى يسمى خياليّاً يعيش في السحاب .

وترى خصوم الديمقراطية يهاجمونها بعنف و شدة ، فهذا يهاجمها باسم العلم و ذاك باسم الواقع و غيرهما يتكلم عن ازّمة الديمقراطيّة ، ورابع يخوض في حديث إفلاسها.

يقولون ان النواميس الطبيعيّة لا تعرف المساواة وان الارستقراطيّة هى دعامة الحضارة و الرّقي ، وان من الناس من يجب ان يعمل بيده و منهم من يجب ان يتوافر على الاعمال العقلية و ان حكماء اليونان لهم بعض العذر حين ذهبوا إلى تبرير الرّق لضرورة ان يتفرّغ الحكماء لادارة شؤون الدولة ولاشك ان الديمقراطيةّ تعانى اليوم ازمّة شديده بدليل ان الديكتاتورية قد غلبتها على امرها على ان البقاء الاصلح من المبادى و الفوز معقود بلواء الديمقراطيّة في النهاية - فالذين بنوا الحضارة هم من الطبقات الشعبيّة لامن طبقات الاشراف .

و الاسلام الّذى وقف طوال العصور في وجه العواصف الهوج كالجبل الأشمّ هو

الاسلام الّذى يقف اليوم معقلاً حصيناً يردّ عن الاسلام عادية خصوم الديمقراطية .

فإذا دعونا للتشبّث بمبادئه و التعلق بتعاليمه فانما ندعو إلى الاحتفاظ بمعقل الديمقراطية إنّما ندعو إلى الذودعن الحرّية و الاخاء و المساوات .

لما سيّر العرب جيوشهم على مصر وعلى رأسها عمرو بن العاص ارسل ملك مصر من يستطلع طلع تلك الحملة فماراعه إلاّ ان يرى عمرو القايد للجيش يتبسط في تناول الطعام مع جنوده على الارض . فلما ارتد الرسول فاعطى الملك تلك الصورة الرائعة قال: ان قوماً ذلك شأنهم و تلك حال كبارهم مع صغارهم محال ان تجد الهزيمة إلى صفوفهم سبيلاً .

هؤلاء قوم سمعوا اورأوا من رسول الله ﷺ يوم فتح مكة و هو في امنع ايّامه حيث قال لرجل اظهر الخوف منه وما يقدر على التكلّم لما اخذته ابّهة النبيّ و روعته فقال ﷺ هوّن عليك انا لست بملك بل إنّي ابن امرأة كانت تأكل القديد .

اذا اعتبرنا ميلاد الديمقراطيّة الغربية اعلان حقوق الانسان في الانقلاب الفرنسى الكبير عام ١٧٨٩ بعد ان كانت ثلاثة قرون كاملة حفلت بالثورات الدمويّة في سبيل تقرير قواعد الديمقراطيّة العصريّة في اوربا . شهدت انجلترا انقلابين في سنة ١٦٤٢-١٦٨٨ وفي عام ١٧٦٦) وقعت حرب استقلال امريكا لخلع نير الاستعباد البريطانى واضطرمت نيران الثورة في فرنسا وكأنّ شجرة الحرّية كانت لا تزال في حاجة لدماء لترويها ، والديمقراطية بضحايا و شهداء لتغذيها فتاججت نيران الثورة في ١٨٣٠ و ١٨٤٨ و تواصلت الثورات في اوربا بين ١٩٠٦ و ١٩٢٠ فانتم ترون ان النصر لم يعقد بلواء الديمقراطيّة إلاّ في القرن التاسع عشر .

وفي اواسط القرن الثامن عشر في فرنسا لم تكن حرّيّة سياسية ولامساواة اجتماعية حتّى هب فوليتر و روسو يبشران بمبادى الحرّية و المساواة . و تشبع لافايت بتعاليم الديمقراطيّة فلما عاد ورفاقه إلى فرنسا حملوا اليها بذورها الصالحة وجعل روسو براعة الاستهلال في كتابه (العقد الاجتماعى) ولد الانسان حرّاً على انا نراه في كلّ مكان يرسف في القيود واعلنت الثورة الفرنسية حقوق الانسان في عام ١٧٨٩ و جرت المادة الاولى من

اعلان الحقوق : يولد الناس احراراً و يبقون أحراراً ومتساوين .

وقد جاء الاسلام في اربعة عشر قرون قبل فاعلن حقوق الانسان اى قبل الثورة الفرنسية باكثر من ١٢٠٠ سنة ولاننسى انّ الفيلسوف الرياضى الاديب الفرنس باسكال اعلن وقال في النصف الاول من القرن السابع عشر يجب ان ننظر إلى سلسلة البشر خلال عصور التاريخ كانها رجل واحد يعيش ابداً و تعليم بدون انقطاع وكانت ايطاليا وفرنسا المركزين الرئيسين و انطلقت الشرارة المباركة الى اروبا وقد شهد هذا العصر حركة الاصلاح الديني الّذي تحقّق على يد الرّاهب مارتن لوثر و هي ناجمة عن مطالبته و جماعته بترجمة التورية للغة الشعب حتّى تتاح له قراءتها و يستقيم له ان يقف بنفسه على محتوياتها وكانت ترجمتها ممنوعة وكان من حقّ رجال الدين وحدهم الاطلاع عليها ثمّ يبلّغوا مافيها إلى الشعب على مايطيب لهم وخلاصة الخبر ان خلافاً حدث في المانيا بين طبقتين من رجال الدين فوقع اختيارهم جميعاً على الراهب مارتن لوثر ليذهب الى روما فيسجد امام البابا ويشرح له الامر ويتلقى منه الحل ، ذهب الراهب إلى روما وكانه وقع تحت السحر لما يشاهد من الامبراطوريّة .

لقد شاهد عدداً عظيماً من الكرادلة والاساقفة يرتدون من الملابس مالم يحلم بمثله فهاله هذا الثراء و هذا البذخ على اكتاف المجموعة الاروبية الفقيرة و شاهد حجّاب البابا يمشون و يحملون مراوح من ريش الطاووس وآخرين يحملون صلباناً من الذهب والفضة وآخر يحمل تاج السدة البابويّة وهو مزيّن بما يكفى لإطعام شعب جايع من الماس والجواهر النادرة امّا البابا فقد شاهد عدداً من الرجال يحملونه فوق اكتافهم جالساً في كرسى صنع من الذهب الخالص و إلى جانبه رجل يحمل الصولجان الذهبى و وراءه الكرادله والاساقفة و الامراء و الوجهاء .

و عرف كذلك قبل وصوله إلى روما ان هذا البابا نفسه كان قد الّف جيشاً عظيما حارب به فرنسا كما عرف انّه كان قد هاجم بجيوشه مدينة ميراندولا الايطالية وحاصرها وشدّد الحصار ثمّ اصدر اوامره كقائد عام لهذه الحملة بتحطيم جدران المدينة بالمدافع وما لبث ان امتشق سيفه ودخل المدينة يتبعه جنوده الذين فتكوا بالاهلين ثمّ عرف ايضاً

ان البابا عاد الى محاربة فرنسا ثانية والتقى الجيوش الفرنسية في احدى ساحات ايطاليا حيث وقع الالوف من القتلى .

عادلوتر الى المانيا وقلبه يفيض بالاسى ! ثمّ ماذا كان بعد ذلك ؟ كان ان توفّى البابا جوليوس الثانى و خلفه البابا ليون العاشر الّذي صرف همّه الى تزيين كنائس روما . وكان ازدهار الحركة التجارية في اروبا والذهب الّذى يتدفق عليها من امريكا المكتشفة حديثا قدشجّعا البابا الجديد على طلب المزيد في سوق من يزيد من المال فاوفد راهباً آلمانيّاً من ليبزيك يدعى جون تيزل لجمع اموال جديدة من الاروبيّين تضمّ إلى كنوزها .

و راح صاحبنا لايترك بلداً إلّا ليدخل في آخر طلباً للمال يواكبه الحرس و النافخون بالأبواق الّذين يعلنون نبأ وصوله الى هذه المدينة أوتلك فيخرج اليه الناس بالالوف وهم يحملون الأعلام و الشموع الموقدة و يحرسونه في مركبته الذهبيّة الّتي يجرّها ثلاثة أحصنة و يعزفون له الموسيقى و ينشدون الأناشيد حتّى اذا بلغ الكنيسة واستوى إلى جانب المحراب أنصت القوم و حنوا رؤوسهم ليستمعوا اليه و هو يقول « تعالوا ايّها الناس واشتروا منى صفحى و غفرانى ! بامكانكم اليوم ان تنجوا : انتم و اصدقاؤكم من عذاب الجحيم » ! .

و يلحظ تيزل هذه الموجة العاطفيّة الّتي غمر بها القوم فيصمت قليلاً و يعبس طويلاً و يتفرّس في الوجوه استرعاء للانتباه من جديد ويتابع قائلاً .

في اللحظة الّتي تشترون بها الغفران وتضعون المال في هذا الصندوق تطير ارواح اصدقائكم المذنبين من النار الى الجنّة !

و واصل الراهب الآلمانى سيره حتّى بلغ مسقط رأسه ليبزيك في ألمانيا . و اقبل الناس بمئات الالوف يشترون الغفران من رسول البابا و هدّد الراهب من لا يشترى الغفران بالحرمان فهلع الناس و أسرع المتخلّفون إلى سوق خلاص النفوس يشترون البطاقات الموصلة إلى الجنة و من الناس من اشتروا الغفران مراراً .

و في ليبزيك جرت حادثة طريفة أرويها هنا لما فيها من ظرف و خفّة ظلّ ، ثم لما تحتويه من مغزى عميق الدلالة في هذا الشأن .

جاء رجل آلماني يشترى الغفران من رسول الباباقائلاً له :

هل يمكنك أيّها الاب المقدّس ان تغفرلى منذ الان خطيئة أنوى أن اقترفهافي المستقبل؟فاجاب الراهب : استطيع ذلك دون شك فان البابا سيّد الارض وحامل مفاتيح السماء قد أعطاني القوة الكاملة لكي افعل ما اريد . فقال الرجل : إذا كان ذلك فأنني سوف اعاقب رجلاً عقاباً بسيطاً جداً لا يؤذيه ولا يسيء إليه إلاّ قليلاً فكم تطلب ايها الاب لغفران خطيئة بسيطة كهذه ؟ اطلب ثلاثين دولارا - أنا فقير و المبلغ كثيرغيرأنني استطيع ان ادفع لك عشرة دولارات - لا كيف يمكنني أن اغفرلك ماتنوى ان ترتكبه من الإثم - ولو بسيطا بمثل هذا المبلغ القليل ؟ وعلى كل حال استطيع ان ابيعك الغفران بخمسة و عشرين دولارا .

- قلت إنّني فقيرو انّى لااملك هذا المبلغ كلّه سوف اعطيك خمسة عشردولارا فقط فقال الراهب - لا تكثر من المجادلة ان غفران الذنوب له ثمن معروف فاذاشئت ان اغفرلك ماسوف تقترفه من ذنب بسيط فادفع عشرين دولارا على الأقل فقال الرجل - هل تعتقد ايّها الاب ان هذا المبلغ كاف لان يمنحنى الغفران في الارض و في السماء ؟ - لا شك في ذلك . ألاتعلم أنّني رسول البابا و أنّني افعل مايريده وان ارادته هي ارادة الارض و السماء - اذن لقد اطمأنّ قلبى خذ المال وذهب الرجل وقد حصل على وثيقة الغفران و على حماية القانون له من كل عقاب فيما سوف يقترفه من ذنب بسيط !

و واصل الراهب بيع الغفرانات وجمع الاموال الكثيرة ثم رحل إلى مدينة اخرى تدعى زو تربوك . و فيما كان في طريقه إليها مرّ بغابة كثيرة الشجر . فخرج عليه أفراد عصابة من قاطعى الطريق برزواله من بين الاشجار وقبضوا عليه واوثقوه ثم أخذوا صناديقه و استولوا على ما فيها من اموال طائلة و فرّوا هاربين في شعاب تلك الغابات .

و طار صواب الراهب فقداً خذمنه المال الّذى حصل عليه ثمناً لألوف الغفرانات و هرع إلى محافظ المنطقة وهومن الدوقات ساخطاً لاعنا منقطع النفس وصاح! سرقت ؟!

و لما وقف المحافظ الدوق على تفاصيل الحادث ثاروخار ونبح و هدر و اصطكّت أسنانه و جحظت عيناه و تورّم خدّاه فكيف يعتدى اللصوص على رسول البابا سيّد الارض و حامل مفاتيح السماء ؟ ثم كيف يسطون على اموال البابا في منطقة هو حافظ الامن فيها و هو الحسيب النسيب الدوق بن الدوق ؟ وا زداد شخيره و نخيره ورفع قبضته مهدّداً قائلا ــ سوف أقبض على اللصوص و أحرقهم جميعا .

و تمّ القبض على اللصوص وأُحضروا امام هذا الدوق فقال لزعيمهم ــ لقد اقترفت إثما عظيماً بالاعتداء على رسول البابا وسرقة امواله فماذا تقول ؟ فاجابه زعيم العصابة.

لقد اشتريت الغفران سلفاً من رسول البابا ، وأخبرته انّني انوى ان أقترف إثما فباعنى الصفح راضياً مختاراً وقبض الثمن و هذا هو الإثم الّذي كنت عازماً على ارتكابه و اليك و ثيقة الغفران ! وقرأ المحافظ الدوق وثيقة الغفران فاذا هى تغفر لحاملها إثما سوف يرتكبه و تجعله في حلّ من كلّ عقاب في الارض و في السماء !

و نظر كل من الدوق و الراهب إلى الآخر نظرة تدل على الخيبة ذلك انّ وثيقة الغفران لها صفة القانون فالحاكم لا يستطيع معاقبة السارق الذى غفر له ذنبه سلفاً . و هو فوق ذلك لا يمكنه ان يسترجع المال المسروق لان في استرجاعه ما يفقد الراهب هيبته و يحمل الناس على الاعتقاد بأنّ وثيقة الغفران لا قيمة لها ؟ وفي مثل هذا الاعتقاد ما يدفع الناس في طريق الحرّية التى يكره الدوق و الراهب اسمها .

و هكذا حصل الرجل الفقير الذكّي الظريف على الاموال التي جمعها الراهب وهو في مركبته الذهبيّة من الجماعات الجاهلة و عاش بها عيشة مترفة !

وراح الراهب يبيع الغفرانات من جديد في الأراضى الالمانية .

وأقبل احد الاعياد ورسول البابا في مدينة غوتربيرغ وكان الراهب الدكتور مارتين لوثر في المدينة ذاتها. فاقبل الناس على لوثر بمناسبة العيد ليعترفوا له بخطاياهم ويستمنحونه الغفران . فقال لهم: لااستطيع ان أمنحكم الغفران . إنّ منح الغفران تدجيل و الطريق الوحيدة الّتي عليكم ان تسلكوها للحصول على الغفران هي ان تقلعوا عن ارتكاب الآثام و تعيشوا في رضي من ضمايركم .

فتعجّب الناس من هذا الراهب الغريب و قالوا له ـ ان لنا الحرّية التامة في اقتراف ما نشاء من الآثام ـ من أعطاكم حريّة ارتكاب الاثم هذه ؟ اشتريناها من رسول البابا و اليك وثائق الغفران و دفعهم لوثر عنه مؤنّباً ساخطاً قائلا . هذه الوثائق لاقيمة لها ! وعرف رسول البابا بأمر هذا الراهب فبلغ منه الغضب مبلغاً عظيماً واعتلى منبر الوعظ في كنيسة المدينة واشتعلت شفتاه بنار القداسة الربانية و زعق في الناس قائلاً ـ ان هذا الراهب ملعون على كل شفة و لسان ـ انّ لدّى اوامر من سيّدنا وسيّد الارض بأن أحرق في الحال كلّ مارق يجرؤ على معارضة و ثائق الغفران ونزل عن المنبر و الناس خائفون واجمون! ثمّ مالبث أن أمر باشعال نار عظيمة في الساحة العامة لكي يعرف جميع الناس ايّ مصير ينتظر المارقين والهراطقة وانه سوف ينفذّ تهديده اذا فكّر احد الناس بمعارضة وثائق الغفران .

واشتعلت النار في الساحة طول النهار وفي الوقت ذاته الذى ارتفع فيه اللهيب حتّى ملأ الفضاء كان الراهب مارتين لوثر يعلق على باب الكنيسة ورقة كتب عليها بخطّ يده سطوراً كثيرة رآها الناس فهرعوا اليها مسرعين وقرأوا في جملة ماقرأوا .

انّ الّذين ندموا على مافعلوا من آثام و كانوا في ندمهم صادقين و الّذين أقنعوا ضمايرهم بضرورة الكفّ عن الذنوب منذ الآن نالوا المغفرة كاملة و ليست بهم حاجة لوثائق الغفران !

يقول جولد تزيهر في ص ٢٢٢ من الترجمة الانجليزية ان من الحقايق الاوليّة ان مسألة الخلافة قسمت المسلمين الى فرقتين : اهل السنة والشيعة ، وكان لاهل البيت فريق يعترف سرّاً بحقوقهم حتّى في عهد الخلفاء الثلاثة الاولين ، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام . و بعد عصر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كلّ من حكم من غير أبناء عليّ ، وكانت هذه المعارضة موجّهة اوّل الامر الى الأمويّين . ثمّ الى من بعدهم ممّن لم تتوفّر فيهم الشروط الّتي يوجبها الشيعة في الإمام وهم حين يبيّنون وجوه النقص في هؤلاء الحكام يقرّرون الحقوق الشرعيّة لأبناء النبيّ صلى الله عليه وآله ممثّلة في ذريّة على و فاطمة عليهما السلام وكما انّهم اتّهموا الخلفاء الثلاثة الاوّلين سرّاً بانّهم مغتصبون ظالمون

فكذلك عارضوا النظام السياسى في الدولة الاسلاميّة سرّاً وجهراً في كلّ العصور .

وقد ادّت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها في صورة تغلب عليها الصبغةالدينيّة.

وعلى حين انّ الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الانسانيّة فانّهم يقولون إنّ الرئيس الشرعيّ الوحيد من الناحية الروحيّة و الزمنيّة هو الامام المعصوم الّذى يعيّن تعييناً ويكون من أبناءالنبيّ ﷺ وفي ص ٢٣٠ تكلم جولدتزيهرعن الفرق الأساسى بين الخليفة عند اهل السنة والامام عند الشيعة ، اوجب اهل السنة تنصيب خليفة مهمته تنفيذ احكام الشريعة وفروضها . وحماية بلاد الاسلام والدفاع عنها والإشراف على تعبئة الجيوش ، وأخذ مافرض على المسلمين في اموالهم و تقسيم غنايم الحرب بينهم بالعدل وغيرذلك من المهام ، وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائيّة والادارية والحربية وهو مجرّد خليفة لمن تقدّمه ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب او بتعيين سلفه له) لسياستهم . ولا يشترط فيه ان يكون أعلم المسلمين .

اما الامام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين و معلّمهم بفضل ماوهبهالله من الصفات و بحكم وراثته للنبيّ ﷺ و روح الامام أنقى من ارواح سائر الناس لانّه مبرّأ من بواعث الشرّ متحلّى بالفضائل الالهيّة و هذه هى صفات الامام عند المعتدلين من الشيعة .

و في ص ٢٥٤ ومابعدها ينبه جولد تزيهر على أخطاء شائعة فيمايتعلّق بالشيعة.

١ ــ يذهب البعض إلى ان الفرق بين مذهب اهل السنّة و مذهب الشيعة ان الاوّلين يعترفون بانّ السنة اصل من اصول العقايد والاحكام الدينيّة بعد القرآن وانّ الشيعة يرفضون السنّة !

يقول جولد تزيهر : انّ هذاخطأ جوهرى في فهم مذهب الشيعة ، و منشؤه اختلاف التسمية بين الفريقين . فليس بين الشيعة من ينكر السنة بل هم يقرون بالسنة الّتي حملها اهل البيت و يذهبون الى ان خصوم الشيعة يعتمدون في اخذ السنة على الصحابة وثمّ احاديث مشتركة بين الشيعة واهل السنّة لاتختلف إلّا في السند، والشيعة يقبلون الاحاديث الّتي رواها اهل السنة و الّتي تؤيد الشيعة او على الأقل لاتعارض

مذهبهم ، ومن امثلة ذلك ان من الشيعة المتشدّدين من يعتمدون على احاديث البخاريّ و مسلم و يقرؤونها أيّام الجمع . و نستطيع معرفة شأن السنة عندهم من ان كثيراً من قول عليّ في القرآن و السنة يؤخذ ممّا رواه الشيعة عن علي عليه السلام فاحترام السنّة من مستلزمات مذهب اهل السنة والشيعة على السواء وممّا يدلّ ايضاً على اعتداد الشيعة بالسنة النبويّة انّهم كتبوا الكثير في السنّة وما يتعلّق بها وانّهم وضعوا احاديث كثيرة وأذاعوها؟! فالشيعة لا يعارضون اهل السنة بصفتهم منكرين للسنة بل بصفة أنهم أولياء اهل البيت او الخاصّة الّذين يمتازون على العامّة .

٢ ـ و من الاراء الخاطئة[١] القول بأن منشأ التشيّع يرجع إلى مذاهب الفرس و تأثيرها في الاسلام وهذا ناشيء عن خطأ تاريخى وقد رفضه فلها وزن في بحث له وذلك ان حركة التشيّع نشأت على تربة عربيّة خالصة ، هذا إلى انّ الاصول النظريّة الإماميّة بما تتضمّنته من النظر إلى الدولة نظرة دينيّة لادنيويّة .

وقد ذهب إلى قول الشيعة اهل النظر العقلى بين العرب وكذلك الفرس وقد رحّب الفرس بمعارضة الشيعة لاهل السنّة وأخذوا بمذهب الشيعة ولكن الاصول الاولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبيّ بل هى عربيّة في صميمها .

٣ ـ ان الشيعة هم اصحاب الفكر الحرّ خلافاً لأهل السنة الجامدين و هو ما ذهب إليه اخيراً البارون كرادقو . و هذا الرأى لا يقبله من له علم بمذهب الشيعة فمن المؤكّد ان تقديس عليّ عليه السلام هو محور الاعتقادات الدينيّة عند الشيعة ، و كلّ ماعدا هذا فهو ثانوىّ المرتبة وان الشيعة بتفضيلهم الامام المعصوم من غير اعتماد على قوة الرأى العام قد نبذوا ما نراه في مذهب اهل السنة من عناصر التفكير الحرّ وعلى هذا فان خضوع الشيعة لمذهب يتلقّونه عن سلطة معصومة لا تقبل معارضة هو ما يتميّز به الحياة الدينيّة

---

(١) إشارة إلى النظرة الخائنة التى صرح بها احمد امين الجانى بالادب العربى والخائن بالدين الاسلامى أما جنايته بالادب فقد كشفها مصطفى الرافعى فى سلسلة مقالات فى (الرسالة) و أما خيانته بالدين وتحامله على المسلمين وعلى الشيعة الايرانيين فمشهورة تحكى عن خبث النفس ولا تخفى حتى على المصريين أنفسهم و سنتكلم فيها إن شاء الله تعالى .

عندهم وقد نقل جولد تزيهر في آخر الفصل الخاص بالزهد و التصوف من كتابه المتقدم ما ذكره الغزالى في فيصل التفرقة من ان ّاساس الايمان الاعتقاد بالاُصول ، اما الخلاف في فروع العقايد و العبادات ولو كان فيه إنكار الخلافة التي يقول بها اهل السنة . كما فعل الشيعة فلا يكفى لاعتبار صاحبه زنديقا . وقد اوصى الغزالى بامساك اللّسان عن تمزيق اعراض اهل القبلة وقد افاد وأجاد و لعمرى أنّ في تكفير المؤمن من غير تفكير جرأة عظمية على الاسلام لأنّ الحكم على انسان مؤمن بالكفر معناه ان الحاكم بذلك قد علم علماً يقيناً ليس بالظن .

ان المحكوم عليه انطفأ نور الايمان من قلبه و انقطع الربط بينه و بين الخالق فليس في قلبه إلّا الظلمات و الضلالات و بهذا اصبح المحكوم عليه كافراً مباح الدم ليس له و لماله حُرمة فاذا قتل لا يغسل ولا يكفن ولا يصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين و تقطع الصلة بينه و بين اخصّ الناس به ولا تجوز لاحد ان يستغفر له .

و هذا هو معنى الحكم على احد بالكفر و لذلك تجد علماء هذه الامة من اوّلها لليوم يتحرجّون اشد التحرّج من الحكم على احد بالكفر ولا يكادون يصدرون هذا الحكم إلّا إذا ظهر لهم ظهور الشمس ان المحكوم عليه ليس عنده أدنى تأويل او شبهة فيما يقول ويفعل من كفر هذا عملهم المحفوظ عنهم قرناً بعد قرن. ولشدّة حرصهم على حفظ دماء الناس علمّوا من بعدهم كيف يكون حالهم إذا عرض عليه متّهم بالكفر فلا يصدرون على مؤمن حكماً بالكفر إلّا إذا اغلقت في وجوههم ابواب الايمان فلا يجدون منها باباً واحداً ينفذون منه إلى الحكم بالايمان و لكن منى الاسلام بناس غلب عليهم سوء الظن بالمؤمنين اوالجهل بالايمان، هيّن عليهم جداً الحكم بالكفر على المؤمنين فتسابقون إلى الحكم بالكفر ولو تمكّنوا من قتله لفعلوا ذلك بل يتقرّبون إلى الله بدمه و بهذا يفهمون في انفسهم انهم اعظم النّاس ايماناً و غيرة على ربهم و دينه و رسوله و هذا كما قلنا هو الجهل بدين الله اما العلماء بهذا الدين فحالهم كما سمعت من التحقيق في امر من قال او فعل ما يوهم الكفر فاذا ظهر لهم ما ينفى ذلك الوهم و فرحوا بهذا الفهم من قول اوفعل ما يدرء عنه و احياناً يعلّمونه ما يبعد عنه سوء الظن و الاتهام و ان ظهر لهم انه

واقع في مكفّر نظروا في امره فان بدالهم انّه جاهل لا يقصد ما يفهم من قوله او فعله لا يكفّرونه ابداً وان بدالهم انه عالم فاهم يعلم ما يقول ولكن عنده شبهة عالجوه حتّى يزيلوا هذه الشبهة فان نفع العلاج و رجع عما هو عليه حمدوا ربهم الذى انقذبهم من الضلال عبداً من عبيده .

اشعة و ظلمات
الظلمة و النور

انحجب النور و استولت الظلمة ، اشتد الحلك اختفت الاشباح و علا الصياح نعق البوم و سرحت الوحوش و دبّت العقارب و سرى الفسادوتكاثرت البلايا و كان الليلمستودع الويل والظلام مستقرّ السقام ـ الظلمة الظلمة ما اضرّها بالعيون و ما ارهبها على القلوب وما اقربها رمزاً إلى الجحيم و العذاب الدايم . العياذ بالله من الظلمة و اهل الظلمة و مخبئات الظلمة ـ بزغ الصباح و طلع النورفتلاشى الظلام و ظهرت الاشباح و باتت الكواسر و زقزقت الطيور و دمدمت الحشرات و قام الانسان لاعماله و السعى وراء رزقه فمااحلى النور وأبهاه للعيون و ما أحقه رمزا للطهر و العفاف و النعيم الدايم فالسلام على النور و اهل النور و مظاهر النور .

لننتقل ايها السادة من مكان الخيال إلى مكان الحقيقة و من حيّز الموهوم إلى حيّز المعقول ما من لغة مهذبة الا و تعنى بديار الظلمة تلك الديار التى تكاثرت فيها الشرور و تضاربت فيها الويلات وحجبت عن سطحها انوار التمدن و الحرّية ، انوار العلم و الادب .

تلك الديار التىضل ساكنوهاواي ضلالمبينضلّ الجميع فمامن أحديطلب الصواب تاه الجميع فمامن أحديطلب الهداية . لعبت بالعقول ايدى الطمع وحب الذّات والدناءة و الرذيلة وعدم الشفقه وفعل المنكر و القتل و نهب اليتيم وسلب حقوق الضعيف فرمتها و مارمية شرّ من تلك في وهدة جهنميّة يالله ما اهولها تلك والله حالة تستلزم الشفقة و الرحمة يابن آدم خلقت بارض النور فلم اخترت ارض الظلمة مرتعاً خلقت ملاكاً فلما اخترت ان تكون شيطاناً خلقت صالحاً و اراك هجرت الصلاح خلقت ذا احساس و

اراك فقدت الاحساس خلقت انسانا واراك وحشا ضاريا . خلقت من لحم و دم لادم فيك ولا .خلقت لعمار الكون و اراك تسعى لدماره . خلقت لنفع البشريّه و أراك تعمل على ضررها .

ارتعدى أيتّها الجبال واضطربى أيتّها الارض . و ارتجفى أيتّها البحار فان السموات حزينة و مغتاظة للغاية . هاهى سمعت صوتاً بشريا ينادى إلى الهلاك ونظرت إلى اسفل فرأت اولئك الاقوام الاشرار فحرقت الارم غيظا و بكت عليهم بكاء الشفقة و الحنان قم يابن آدم و ارجع إلىالارض التي خرجت منها هناك ترويك ينابيع مائها الصافية . هناك يابن آدم تشبع نفسك بالمنّ والسلوى . وتستنشق الهواء النقى الخالى من الفساد ، هناك يابن آدم تظلك راحة الضمير وتريك الارض خصبها والطبيعة جمالها. هناك يابنآدم يشرق عليك نور الله فتنقشع عنك الظلمة . كثيرون هم الّذين يجهلون حقيقة ماهم عليه كثيرون هم الّذين يحسبون تأخّرهم تقدّما و جهلهم تعقّلا و ظلمتهم نوراً فلينتبه اولئك القوم لمعرفة نفوسهم فان خير الناس من عرف الداء و تطّلب الدواء .

لاتكن كمن يغمض عينيه لئلايرى زلاّته فيشق عليهالأمر بل فلتكن عينك نقادة تخرق الحجاب فترى ماوراء الحجاب وايقن ان الانسان مهما يكن ذاحسنات و افعال وصفات ممدوحة و مزايا جليلة مما تكن منزلته من الآداب و حسن السريرة فلابدّ من زلاّت يرتكبها و وصمات يقع بها مازال الانسان انسانا . غير ان من الناس من يرون السيّئة الّتي صدرت عنهم فلا يفكرون برفعها فتأخذ تلك البزرة الصغيرة بالنموّ الخفيّ إلى ان تصير شجرة كبيرة تعشّش فيها القبايح ويصعب استئصالها ومنهم من يرون السيّئة الصادرة عنهم فيشق عليهم الامر و تمرّ الساعات و الايام وهم يقلّبونها في مخيّلتهم إلى ان يصمّموا على عدم ارتكابها ثانية لانّها تسبّب لهم ألماً في النفس و انقباضاً في الفؤاد يعرف اولادالنور بالاستقامة وحرّية الضمير فيجميع معاملاتهم لامؤاربة عندهم ولا رئاء ولا خداع ولا شيئاً من الامور الّتي تحطّ بشرف الانسانية . تحت حجاب الّليل يسرق السارق ويجنى الجانى اولئك يأمون وادي ظلال الظلمة ليخبئوا انفسهم عناعين اخوتهم

بنى الانسان ليخبئوا انفسهم عن عين الله وما شيء يخفي عنه . ليخبئوا انفسهم . عن ذواتهم عن عين الضمير نفسه وهذا لاينحصر في الانسان بل يتناول الحيوان أيضاً . ألا ترى أن الحيوانات المفترسة تربض في عرينها سحابة النهار ولاتبدىء تجو'لاتها المهلكة الا بعد الغروب في حين ان الحيوانات الأليفة وهى الأنفع والأحب إلى الانسان تعمل اعمالها في النهار وتستريح في الليل .

يعرف اولاد النور بالتواضع والدعة . بالاعمال الصالحة الّتي تنبعث عنهم كما تنبعث الأشعّة من الشمس بخلاف اولاد الظلمة الّذين لا نور عندهم سوى مايتولّد من احتكاكهم في المظالم والمنكرات .

يعرف اولاد النور بالاجتهاد والقيام بالواجب حق القيام فهم كالشمس تسير ابداً على الخط المرسوم لها منذ البدء بيد مبدع الكائنات لاهم لهم سوى التفانى في سبيل الواجب النافع للقريب .

يعرف اولاد النور بالنقاوة والطهارة فهم كالنور لايفسده طارىء ولكنه يطهّر الاشياء الفاسدة وينقّيها .

يعرف اولاد النور باشراق الوجوه وخفّة الروح . اوليس النور علّة فرح الطبيعة بكمالها أولا ترى كيف ان الطبيعة تبتهج ابتهاج العاشق بملاقاة الحبيب عند ماتبرز تلك الغزالة من خدرها تبتسم لقدومها واى ابتسام .

الطيور تحيّيها باحسن نغماتها واوراق الاشجار تصفق تيهاً ودلالاً . الغيوم الحزينة الحاملة الدموع بعينيها تتزيّن بحللها الملوّنة بالوان قوس السحاب الباهرة حين ترمى بلمعانها عليها والأزهار تهب من نومها وتعد نفسها للقيام باستقبالها لابسة افخر الملابس ومتحلية بابهى الحلى واللآلى .

اخيراً يعرف اولاد النور بالتّروى والتّبصر، عيونهم ترى مالاتراه عيون الاخرين يشعرون في داخلهم بما لايشعر به غيرهم من نبى جنسهم ينظرون إلى البحار فيعلمون ما وراءها و الى الغيوم فيعلمون مافوقها . يجوبون الارض طولا وعرضاً وهم جالسون يقلّبون صفحات الكتب يصعدون تارة الى الجو وينزلون طوراً إلى قعر البحار واعماق

الارض افكارهم وراء الصالح المفيد وآمالهم على التقدم والنّجاح في اعلاء شان البشريّه .

الحكم و الامثال

انّ للعارف تحت كلّ نقطة نكتة وفي ضمن كلّ قصّة حصّة وفي اثناء كلّ إشارة بشارة وفي طيّ كلّ حكاية كناية و لذلك تراهم يستكثرون من الحكايات في تضاعف محاوراتهم ليأخذ كلّ من السامعين مايصيبه ويحظى بما هو نصيبه على حسب الاستعداد وقد علم كلّ اناس مشربهم و على هذا ورد انّ للقرآن ظهراً وبطناً إلى سبعة ابطن فلا تظنن انّ المراد بالقصص والحكايات الواردات في القرآن العزيز القصّة والحكاية لاغير فانّ كلام الحكيم يجلّ عن ذلك .

قال الراغب في الذريعة اعلم انّ كلّ كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الاختيار فليس كذباً في الحقيقة ولهذا لا يتحاشى المتحرّزون عن الكذب من التحدّث به كقولهم في الحثّ على مداراة العدوّ والتلطّف في خدمة الملوك ان أسداً وذئباً وثعلباً اجتمعت على عيروظبي وارنب فقال الأسد للذئب اقسم فقال العير لك و الظبي لي و الارنب لثعلب فوثب عليه فادماه ثمّ قال للثعلب اقسم فقال هو مقسوم، العير لغدائك والظبي لمقيلك والارنب لعشائك ، فقال الاسد من علّمك هذه القسمة فقال علّمني الثوب الأحمر الّذي البسته الذئب وعلى المثل قوله تعالى انهذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها و عزّني في الخطاب وقد أذن لنا أن نضرب الأمثال كما ضرب في القرآن الحكيم و صرّح بأنّ المقصود هو الاعتبار تلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلاّ العالمون وقد افاد الادباء في اوربا و اجادوا في آمريكا و خدموا العلم و إليك يا أيّها العاقل هذا المثل الكامل حكمة فافهم و اغتنم .

بقدر الصعود يكون الهبوط ولدجاكوب كانس في زيلند من اعمال هلند سنة ١٥٧٧ وكان محامياً و سياسيّاً وسفيرا وشاعراً وبعد ماجال في اوربا ووقف على ما شاء من شؤون الناس و اطوارهم عاد إلى بلاده واشتغل بالمحاماة .

ومع شدّة انكبابه في حياته الطويلة على العمل بصناعته هذه كان من وقت إلى

آخر يتفرّغ لنظم ما يعرف بالشعر الغنائي ووضع القصص الادبيّة المغزى بألسنة الطيور و الحيوانات على مثال كتاب كليلة ودمنة المشهور فلقيت قصائده وقصصه استحسانا عظيماً عند قرائها .

وكان الهولنديون لفرط شعورهم بمحبّته لهم وعطفه عليهم وتحرّيه عمل كلّ مافيه خيرهم و صلاحهم يلقّبونه بالاب وكانت قصص الاب كاتس مع قصرها تمتاز ببساطتها و وضوح معانيها و كونها موضوعة لتثقيف العقول و تهذيب النفوس كالقصّة الآتية

ران الغرور على قلب غيلم (ذكر السلحفاة) كما يرين على قلوب كثير من الناس . فخيّل إليه انّه ليس كمثله في عظمة الأهمّية و خطورة الشأن . و سوّلت له نفسه ان يراعي النظير بين حالة عقله و صورة جسده فيستبدل بجبلّته الترابيّة جبلّة اكرم مادّة و اسمي عنصراً وكان عشراؤه و اصدقاؤه قد أمعنوا في التأمّل فلم يستطيعوا ان يتبيّنوا فيه أقل شيء من ادلّة التفوّق والنبوغ . ولكنّه عزا حكمهم هذا إلى عجزهم عن إدراك ما بلغته قواه العقليّة من السموّ والارتقاء . واصرّ كل الاصرار على السعي في إقناعهم باستطاعته ان يتألق في كرة لا يقدرون على بلوغها مهما تشرئب اعناقهم إليها وحدث ذات يوم انّه رأى نسراً واقعاً على شجرة يستريح من عناء طيران طويل المدى قضاه في اعلى طبقات الجوّ . فدنا منه . وبعد ما تلطّف في تحيّته والسلام عليه سأله أن يحمله على منكبيه و يوغل في الارتفاع به إلى اسمى درجة يستطيعها لكي يبرهن لأبناء جنسه (الغيالم والسلاحف) - انّه أهل للارتقاء إلى مقام ارفع جدّاً من مقامه على الأرض ويتمكّن من الاشراف علي مجالي الأرض الرائقة ومظاهر البحار الشائقه و يراقب بزوغ الغزالة من خدرها في الاءلي ووقوع أنوارها الباهرة وعلى سطح الأرض حيث الغيالم والسلاحف يخبطون في ليل الجهل و يسقطون إلى أسفل دركات الانحطاط فلمّا فرغ من كلامه أدرك النسر ماكان عليه ذلك المأفون من شدّة الزهو والغرور فبشّ به وقال له انه بملاء الارتياح مستعد ان يضيب سؤله و ينيله ماتصبه نفسه اليه - وما عتمّ ان اقلّه و طار به محلقاً في عنان السماء حتّى يبلغ من الإرتفاع مبلغاً اعيا الغيلم ان يرى منه وجه الأرض أو يتبيّن اثراً لما يدبّ علي سطحها ، وما ابطأ ان اصابه دوار شديد جشأت به نفسه و

و تملك الانزعاج فؤاده فودّ لو انه كان باقياً على الارض ولم يطع نفسه الأمّارة بالسوء ولم تكن حالته هذه بخافية على النسر لكنّه تجاهلها و ظل يمعن في الصعود به قائلاً . له انه عامل بما اراد و بالغ به ذُروة الرفعة والسودد ـ وظل النسرّ يسمو به و يعلو حتّى ارتقى إلى حيث لا ترى العين سوى ضياء الشمس ولا تسمع الأذن غير حفيف النسيم . و حينئذ التفت إلى الغيلم و سأله هل طابت نفسه وقرّت عنه بهذه الرحلة الجوّية ونال فيها ما شاء من الارتقاء إلى اعالى السماء و هل يودّ الصعود إلى ما هو اسمى و ارفع ؟ وهل يعدّ السكنى هنا افضل منها على سطح الارض ولكن الدوار والهلع كانا قداخذا من الغيلم كلّ مأخذ وبات من جرّائهما ينظر فلا يرى وينصت فلا يسمع و يحاول الكلام فلا يستطيعه . و إذ ذاك زعق به ابوالابرد زعقة الهزء و الاحتقار و قذف به من على ظهره فهوى متخبّطاً في انحداره حتّى سقط على صخرة صمّاء فتحطم و ذهب ضحيّة غرور أطمعه بالمحال و علّله بنيل مالا ينال .

و في كل زمان و مكان اناس كهذا الغيلم يخدمهم الحظ او يصعدهم مع ضعة اصلهم و خسّة نفوسهم و ضعف عقولهم فيرتقون بغتة إلى أعلى المناصب و المراتب بلا شيء من الاهليّة و الاستحقاق و كثيراً ما يعقب هذا الصعود السريع هبوط أسرع منه ينحدرون فيه اشد إنحدار إلى قرارة الذلّ و العار ولله در القائل .

بقدر الصعود يكون الهبوط فاياك و الرتب العالية
و كن في مكان إذا ما سقطت تقوم و رجلاك في عافية

نعم كلما ازدادت الخساسة والعبودية ازداد الطغيان والجور وكلما ازدادت الحريّة ازداد التساهل لذلك كان علي عليه السلام مظهر العفوو الرحمة و سيادته سيادة الحب ولو تكلم كلام ذى سلطان فهو العليّ العظيم و الصراط المستقيم قام أو قعد ، هبط أم صعد .

و العياذ بالله من الانذال الذين يرفعهم الزمن ولك في الحجّاج بن يوسف الجزار طاغية القرن الأوّل الاسلامى و في كافور صاحب المتنبى اوضح البراهين .

الانسان يجب ان يبقى حرّاً لاحيال السادّة فقط بل حيال العبيد أيضاً لأنّ اخطر ما يهدّد حرّيته ميله إلى التحكّم وحب السلطان ولو في الامور التافهة فيتحكم الاب في

اُسرته و صاحب الدكان في دكّانه ومن الغرابة ان يزداد زهوالانسان و ميله إلى الامرة كلما صغرت وظيفته و حقرت ينظر إلى الناس من عليائه الشاهق كانّهم بعض ديدان الأرض .

فرئيس المحكمه اكثر تواضعاً من حاجبها ورئيس الشركة أودع من جابي الشركة ولا بأس ان نقص على القارى تجسيداً لهذه الفكرة النادرة التالية واقعة كانت أم قصّصية .

قيل إنه كان في حلب على عهد العثمانيّين موظّف تركي ربطته بأحدوجوه الحلبيّين صداقة وثيقة و نقل التركي إلى مجلس المابين الهمايوني واصح ذا نفوذ عظيم . وتوفّى صديقه الحلبي بعد سنين تاركاً ولداً وحيدا عرف من امّه نباهة الصديق القديم و عظم شأنه . فقصد الآستانه و واجه الرجل فرحّب به كثيراً وسأله عن حاجة يقضيهاله فاجابه الشاب انه جاء يطلب وظيفةً و توقع التركي ان يسأله ابن صديقه القديم مركزاً نابهاً كالقائمقامية مثلا ، و لشدّما كان عجبه عند ما طلب ان تسند اليه وكالة المسجد الجامع في حلب و تمّ الامر على أيسر ما يكون فعاد صاحبنا إلى الشهباء و استهلّ مهمته بأن كسر الاباريق الموجودة الّتي يستعملها المصلّون للوضوء واشترى عشرين ابريقاً جدداً نصفها أحمر ونصفها أبيض صفّها بجانب الماء وركز كرسيّه على مقربة منها فكان إذا جاء قاصد الوضوء و امسك الابريق الاحمر يأمره بالعدول عنه إلى الابيض فاذا امسك الابيض أمره بالعدول عنه إلى الاحمر و هكذا اغتبط صاحبنا بانه يأمر و ينهى ويطاع في الحالين .

وقف احنف بن قيس ومحمد بن الاشعث بباب معاوية بن ابى سفيان فاذن للأحنف ثم لمحمّد بن الاشعث فاسرع محمدبن الاشعث حتّى دخل قبل الاحنف فلما رآه معاوية قال إني والله ما أذنت له قبلك وانا اريدان تدخل قبله . و إنّا كما نلى اموركم كذلك نلى ادبكم و ما تزيّد متزيّد إلّا لنقص يجده من نفسه .

فهذا الذي لا حظه معاوية على محمد بن الاشعث يسمّى عند علماء التحليل النفسى (مركب النقص) و هوشعور بالضعة و المهانة منشأه نقص في بعض الكفايات والمؤهّلات ينقلب إلى التظاهر بضدّ ذلك و انتحال الرّفعة و الكمال فيه .

لكلّ انسان مهما كان عظيما قويّ الارادة و الرأى جانب ضعيف من جوانب مداركه يؤخذ به و ينقاد بزمامه فتراه ثابت الجاش باهر الحزم محسناً مجيداً في أكثر اعماله واقواله ولكنّك ترى هوالشيء قدغلب عليه فاقتاده كما يقاد الطفل الصغير ولولا يكون ذلك الشيء أوهو يكون على الغالب مما يحتقر لاجله حتّى ادنى العوام لوارتكبه وعلق به ولكن ذلك العظيم يفعله و يأتيه جهاراً مضطراً اليه بحكم ذلك الجانب حتّى ليقال ان نلسن العظيم الرأي والتدبير الّذي كان يقود اساطيل انجلترا جميعاً ويهزم بها اساطيل نابلئون الكبير كان ذاجانب ضعيف شين به قدره في اواخر ايّامه وابتذلت من اجله كلّ عظمته و قديكون اكثر العظماء مثله كان الطبيعة تريد ان تصرف عنهم عين السوء بسوء تلصقه بهم اوانها تريد الزيادة من تحقيق القول بأن الكمال لله وحدو يكون لهؤلاء الّذين ضعفت احدى جوانبهم تعبير آخر وهو مركب النقص سال أحد من علماء النفس تلاميذه وقارئيه هل فيك مركب النقص ؟

اعرف نفسك بنفسك لقد ابتكر الفرد أدلر ليدلّ به على شعور المرء بقصوره عن مجاراة من يعيشون في بيئته . و عجزه عن التوفيق بين نفسه وما حوله من ظروف و كلّ منّا يحسّ أثر هذه العقدة في نفسه . ولكن قوّة تختلف أثرها باختلاف الافراد . وهذه طائفة من الاسئلة أجب عنها بالإيجاب أو النفى ، تتبيّن مقدار ما فيك من مركب النقص .

١ ـ هل أنت عنيد لجوج ! تصمد لمن يضادّك ، وتلحف على من يخالفك ؟

٢ ـ هل أنت ليّن العريكة فتقبل أن تعمل ما يقترح عليك ولو ناقض ما كنت تريده ؟ .

٣ ـ ام هل انت شديد المراس : فتابى الا ان تعمل نقيض مايطلب اليك لمجرّد الرغبة في المخالفة ؟ .

٤ ـ هل تخجل أو تضطرب إذا قابلت رئيسك ، أولقيت من هو أعلى منك ؟.

٥ ـ هل تشعر انك تحبّ ان تعرض نفسك أمام الناس وتلفت إليك أنظارهم .

٦ ـ هل تفاخر بنجاحك و تباهي بمقدرتك ؟ وهل تذكر كثيراً ماتستطيع عمله لو أُتيحت لك الفرصة أو أفسح لك المجال .

٧ ـ هل تتحدّث عن نفسك كثيراً . عمّا ينتابك من امراض ! عمّا تصادفه من عقبات !

عمّا يشيعه الناس عنك من أقاويل .

٨ ـ هل تظن ان الناس لا يفهمونك فهماً صحيحاً ، فهم لا يقدّرونك حق قدرك ؟ .

٩ ـ هل تشعر ان بعض الناس يسيء معاملتك فتجلس منقبضاً مكتئباً ؟ .

١٠ ـ هل تحاول ان تسيطر على زوجتك و تشعرها بتفوّقك عليها و تملكك إيّاها .

١١ ـ هل تحلم في يقظتك ان تكون عالماً رياضيّاً اواديباً سياسيّاً .

١٢ ـ هل كنت تتمنّى ان تظلّ طفلا يدلّل و يداعب : لا ان تشبّ رجلاً مكافحاً مسؤلاً ؟

١٣ ـ هل تشعر بالغيرة اذا أرتقى أحد زملائك في العمل و تخلّفت انت عنه ؟

١٤ ـ هل كنت تودان تولد شخصاً آخر : اكثر مالا أو ذكاءً او وسامة ؟ .

قارن اجاباتك بما يلي :

١ ـ لا يعاند ولا يلحف غالباً الا من يريدان يلفت النظر اليه ممّا يدلّ على شعوره بنقصه وقصوره .

٢ و ٣ ـ الرجل الّذي تلين عريكته جداً كالرجل الّذي يشتد مراسه جداً مصاب بمركب نقص قوى .

باقي الاسئلة الاجابة عنها بالايجاب يدلّ على سيطرة هذه العقدة على نفسك و الاجابة عنها بالنفي ينبيء عن خلوص نفسك من شعور النقص والقصور .

و إذا تحقق لك عشر اجابات من نوع واحد دل على اتجاهك اتجاهاً واضحاً وان قلّت الاجابات المتشابهة عن ذلك فانت عادى اى مبرأ من مركب النقص الّذى يفتر العزيمة و يضعّف الامل وينغّص الحياة مبرّأ من اسباب الغرور الّتى تبث الخيلاء وتعمى البصيرة وتدفع الى المغامرة الخطرة .

انّ درس نواحى من الادب العربي على ضوء التحليل النفسى يساعدنا لفهم الشخصيّات الفنيّة والادبيّة ويعين على كشف الاسرار وحلّ معضلات الآ ثار الّتي ورثناها لان العقل الانسانى ينمو تدريجاً في مراحل معيّنة و الادب و الشعر والفنون ليست إلّا تعبيراً عن الشخصيّة شخصية الفنّان او الكاتب والشاعر و رجال الاعمال كنابلئون ـ من

سيرتهم و مساعيهم و جهودهم ومن نتايج ما احدثوه ناجحين او فاشلين وتدرس شخصية الشاعر من حياته وشعره و المثال من سيرته و تماثيله وبالمثال يوضح الادّعاء .

ابو الطيب شاعر مجيد فحل بين البلغاء و الدارس لحياته يلاحظ ظاهرتين هما ادّعاءه النبوّة وشعوره بالعظمة شعوراً يقترن بمحاولته فرض هذهالعظمة على الناس فما تعليل ذلك وما أثره في شعره .

نبت ابوالطيب في البادية من ابوين فقيرين و نشأ في هذه البيئة المجدبة من الخيرات ولدعبقرياً علىمواهب تميزه عن اترابه وتضعه فوق مستوى قبيلته فاحسّ ان كفاياته تضيق عنها البيئة وتنهار من حواليها حواجز الزمان والمكان والبون شاسع بينه و بين اعظم المعاشرين فهو اذن مبعوث لهدايتهم اذن هو نبيّ و هكذا أيقن ابو الطيّب في صباه ولمّا يبلغ اشدّه بل رشده ظهر بصورة نبيّ فقبض عليه الوالى و سجنه فلم تقع معجزة تحلّ وثاقه وتخرجه من الحبس فطلب العفو بقصيدة مدح بها الوالى واستعطفه وتاب منذ خروجه من السجن تنازل ابوالطيّب عن النبوّة لكن مركب النقص ظهر بشكل آخر . ظهر في صورة خيلاء لاتطاق و اعتقاد بانه رجل الساعة جاء ليصلح الدنيا بالسيف :

و من عرف الايام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غيرراحم

بلاكبير عناء تستطيع ان تدرك من قراءة ديوان المتبنّى انه مدح السيفالدولة على اعتبار انه يمدح نفسه ــ بمدح آخر ان المتبنّى كان يصور في مدحه سيف الدولة بطلاً خيالياً لاوجود له معتقداً انّه هو ذلك البطل وان الظروف لابدّستتهيّاء لظهوره يوماً من الأيّام .

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا بأنّنى خير ماتسعى به قدم

هو يشعر بعبقريّته و عظمته . ويشعر ايضاً على الدوام بأنه حقير الاصل وضيع المرتبه فيكابد من شعوره ــ اومن النزاع بين الشعورين ــ مضاضة وألماً ويزيد في ألمه و مضاضته انه يحسّ احتقار الكبراء و الامراء و الخاصّة لأصله و نشأته فيتحرّك مركب النقص للدفاع بالتمويه و البهرجة ومن اجل ذلك يقول في رثاء جدّته :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد   لكان اباك الضخم كونك لى اُمّاً

ولا يقتصر تعسّف هذا الانسان وجوره على من يكره بل يتعداه إلى من يحبّ ايضاً . و ليست غيرة الحب القاتلة الا من هذا القبيل . و كثيراً ما يرتدّ جوره على ذاته فيختلق المخاوف و البغضاء و الحسد و الكبرياء كما يستعبده الشعور بالنقص وحب البطش واستعباد الاخرين وفي طليعة العبيد اولئك القوّاد الطّغاة فانّهم عبيد الرعية التى اوصلتهم إلى الاريكة وكثيراً ما يبطرون فلا يقفون عند حدّ قال خليل مطران :

كلّ شعب خالقو نيرونهم   قيصر قيل له أم كسرى

و يجرّهم حبّ السلطان إلى الهاوية المحتومة .

ومن هؤلاء العبيد في زيّ السادة القيصر وتيمور الأعرج جنكيز نابلئون وهتلر و موسوليني وهلم جرّاً .

ومن المتظاهرين بالقوّة على حين أنهم ضعفاء فريدريك نيتشه[1] اذ لم يكن في الناس أضعف منه فقد كان خالياً من قوّة الارادة و بين فكر تك عن الشيء وتمتعك به فرق عظيم . و ليس في مظاهر الضعف مثل العسف والاكراه لذلك كان نرون في طليعة الضعفاء الطغيان اذن عدوّ الحريّة واداة العبودية ولكن الناس لا يفطنون الا للاعتداد المادّى .

وهناك انواع من العدوان أخطر على الحرّية منه . وفي طليعتها الاخلاق والعادات وانواع التربية الّتى تحجّرت في الراى العام بما انطوت عليه من ضلالات شوّهت الآراء وحرّفت حرّية الانسان في تيّارها ومنها الصحافة والمنشورات وما فيهامن سموم وأدهى من ذلك كله داء قتّال يعصف بالحرية فيخنقها خنقا وهو المال قلنا ان الطغيان والجرايم والموبقات من مظاهر الضعف لان القوة هي الخلق والحب والتجدّد .

(١) وكان مصاباً بالزهرى الوراثى الذى ابتلاه فى اخريات حياته بالجنون ، فمات ذاهلا لا يعنى شيئاً و نحن نعرف كيف شذ هذا المفكر بآرائه وكيف كانت قسوته على الضعفاء ومقته لمن يستحقون الاخذ بيدهم ويستأهلون الرفق الذى لم يذقه هو والحنان الذى احتياج إليه على سرير الموت فلم يظفر به و الذى لون تفكير هذا الفيلسوف بذلك اللون الدموى الوحشى ، هو ألمه الدخيل الناشى من سريان الزهرى فى جسمه و ضغطه على مخه و أعصابه . والمعروف الثابت هو ان جرثومة الزهرى تستمرىء الجهاز العصبى وتميث فيه إتلافاً وفساداً .

و لكن الموضوعيه تقلّب القيم فتجعل سافلها عاليها و عاليها سافلها فالأقوياء في نظر الموضوعية هم الشرطى و الدركى والصيرفي وسماسرة الوظائف و رؤساء البلديّات و حملة المسدّسات الّذين يتحكمون في صنا ديق الاقتراع - اما اضعف الضعفاء في نظر العالم فهم الشعراء والفلاسفة والانبياء والقدّيسون لذلك صلب المسيح بقولهم وسمّ سقراط ورجم الانبياء و اضطهد المكتشفون ونجح عبيد المادة والعاديون والسّخفاء و الدّساسون نجح السادة والعبيد في نظر المجتمع . و اخفق الرجل الحرّ اخفق عليّ و افلح معاوية صرع الحسين و تنعّم يزيد قطع رأس يوحنّا و تنعّم هيرودس الغاية تبرر الواسطة في نظر الموضوعية من اجل هذا قدّست الجاسوسيّة و مجد القتل والاغتيال و الافناء على هذا المعراج الدموى رقي الجزّارون السفّاحون اولئك الذين يحسبهم الناس عظماء يعظّم الناس نابلئون وباستور اعظم منه ويمجدون كروموبل وشكسبير أعظم منه وقدقدسوا هر هيتلر و غوته أعظم منه فالرجل العظيم هو من ينفع الانسانية هو العظيم بتخفيف مجارى الدموع و الدماء هو الباذل حبّة قلبه فدى قلوب المساكين و البؤساء .

اما اعتقاد النّاس فهو بعيد عن الحقيقه و العدل فان الّذى يقف في ساحة الوغى الّذى تسرع قدماه لسفك الدم وجرّ الويلات يعدّه العالم شريفاً نوابّ الامة اركان الملّة و اعيان الدولة و اكابر المملكة يمحضونه خالص شكرهم ودول باجمعها تتحدّ على اقامة التماثيل له . امّا مجفّف الدموع و حاقن الدماء فيموت دون ان يذكره احد فاذا اردت ان تكون رجلاً بكامل معنى الكلمه وبجميع حقايق الرجولة فاذهب إلى اليتيم والأرملة بما ينقذهما من مخالب الأسى اذهب إلى الساقط في حمأة الرّذايل و ارفعه ، إلى التائه في الجهل و الكبرياء و أرجعه إلى الفضيلة ، اذهب إلى الأثيم و اهمس في أذنه كلمات الحيات حياة الخلود السامية .

من لم يتخصص بالشرع وعبادة الله فليس بانسان (راغب)

لمّا كان الانسان انّما يصير انساناً بالعقل . ولو توهّمنا العقل مرتفعاً عنه لخرج عن كونه انساناً ولم يكن إذا تخطينا الشبّح المائل إلّا بهيمة مهملة او صورة ممثّلة و العقل لن يكمل بل لا يكون عقلاً الا بعد اهتدائه بالشرع كما تقدم و لذلك نفى

العقل عن الكفّار لما تعرّوا عن الهداية بالشّرع في غير موضع من كتابه و الاهتداء بالشرع هو عبادة الله تعالى فالانسان إذاً في الحقيقه هو الّذي يعبدالله و لذلك خلق كما قال الله تعالى و ما خلقت الجنّ والانس الا ليعبدون ماأُريد منهم من رزق وماأُريدان يطعمون و كما قال تعالى و ما امروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدّين . فكلّ ماأوجد لفعل فمتى لم يوجد منه ذلك الفعل كان في حكم المعدوم ولذلك كثيراً ما يسلب عن الشيء اسمه إذا وجد فعله ناقصاً كقولهم للفرس الردّيء ليس هذا بفرس و للانسان ليس هذا بانسان ، و يقال فلان لا عين له ولا أُذن له إذا بطل فعل عينه و أذنه و إن كان شبحهما باقياً و على هذاقال الله تعالى صمّ بكم عمى ، فيمن لم ينتفع بهذه الاعضاء فالانسان يحصل له من الانسانيّة بقدر ما يحصل له من العبادة الّتي لأجلها خلق فمن قام بالعبادة حقّ القيام فقد استكمل الانسانيّة و من رفضها فقدانسلخ من الانسانيّة فصار حيواناً اودون الحيوان كما قال تعالى في وصف الكفّار إن هم الاكالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً . وقال إنّ شرّ الدّواب عندالله الصمّ البكم الّذين لايعقلون، فلم يرض ان يجعلهم أنعاماً ودوابّاً حتّى جعلهم اضلّ منها و جعلهم من أشرارها واخرج كلامهم عن جملة البيان فقال تعالى و ما كان صلاتهم عند البيت الاّمكاءً و تصدية تنبيهاً على انّهم كالطيور الّتي تمكو و تصدّى ونبّه تعالى بنكتة لطيفة على انّ الانسان لا يكون انساناً إلاّ بالدّين ولاذابيان إلاّ بقدرته على الاتيان بالحقايق الدينيّة فقال تعالى الرّحمن علّم القرآن خلق الانسان علّمه البيان ، فابتدأ بتعليم القرآن ثمّ بخلق الانسان ثم بتعليم البيان ولم يدخل الواو فيما بينهما وكان الوجه على متعارف الناس ان يقول خلق الانسان وعلّمه البيان وعلّمه القرآن فان ايجاد الانسان بحسب نظرنا مقدّم على تعليم البيان و تعليم البيان مقدّم على تعليم القرآن لكن لمّا يعدّ الانسان انساناً مالم يتخصّص بالقرآن ثم قال خلق الانسان تنبيها على انّ بتعليم القرآن جعله انساناً على الحقيقه ثمّ قال علّمه البيان تنبيها على أنّ البيان الحقيقى المختص بالانسان يحصل بعد معرفة القرآن فنبّه بهذا الترتيب المخصوص وترك حرف العطف منه و جعل كلّ جملة بدلاً ممّا قبلها لاعطفاً على انّ الانسان مالم يكن عارفاً برسوم العبادة ومتخصّصاً بها لايكون انساناً وانّ كلامه مالم يكن

على مقتضى الشرع لايكون بيانا . فان قيل فعلى ماذكرته لايصح ان يقال للكافرانسان وقد سمّاهم الله بذلك في عامّة القرآن قيل إنّا لم نقل انالانسمّي الكافرانساناً على معارف الكافّة بل قلنا قضيّة العقل والشرع تقتضي ان لايسمّى به إلّامجازاً مالم يوجد منه العقل المختصّ به ان سمّى به على سبيل تعارف العامّة فليس ذلك بمنكر فكثير من الاسماء يستعمل على وجه فيبيّن الشرع ان ليس استعماله على مااستعملوه كقولهم الغنيّ فانهم استعملوه في كثرة المال و بيّن الشرع انّ الغنى ليس هو كثرة المال قال صلى الله عليه وآله ليس الغناء بكثرة المال و إنّما الغناء غنى النفس . فيشير إلى ان الغناء ليس هوكثرة المال وقال تعالى ومن كان غنيّاً فليستعفف اي كثير الاعراض فاستعمله على ماهو متعارف . و جملة الامر ان اسم الشيء اذا اطلقه الحكيم على سبيل المدح يتناول الأشرف منه .

كقول الله تعالى وانه لذكر لك ولقومك و قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك و ان كان الذكر قد يقال للمحمود والمذموم وعلى هذا يمدح كلّ شيء بلفظ نوعه فيقال فلان هو انسان و هذا السيف سيف ولهذا قيل الانسان المطلق هونبيّ كل زمان وقد قال صلى الله عليه وآله الناس اثنان عالم ومتعلم وما عداهما همج و قال بعض العلماء قول من قال الانسان هو الحيّ الناطق الميّت صحيح و ليس معناه ما توهّمه كثير من الناس من انه من الحياة الحيوانيّة و الموت الحيواني و النطق الّذى هو في الانسان بالقوّة و انما اريد بالحيّ من كان له الحياة المذكورة في قوله تعالى لينذر من كان حيّاً و بالنطق البيان المذكور بقوله علّمه البيان و بالميّت من جعل قوّته الشهوانيّة و الغضبيّة مقهورتين على مقتضى الشريعة فيكون حينئذ ميتاً بالارادة حيّاً بالطبيعة كما قيل مت بالارادة تحيى بالطبيعة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام من امات نفسه في الدنيا فقد احياها في الآخرة وهذه المقالة الراغبيّة تلخّص في المثل السائر بالفارسيّة انّه في تحصيل العلم تسهيل على من يريده ولكن الاشكال في معنى الانسانيّة و حقيقتها وقد عبّرنا فيما كتبنا بالفضل و الفضيلة و المآسف أنّه لا ذاك ولا ذلك .

قال ابن الجوزى : في نقد العلماء في تلبيس ابليس على الفقهاء كان الفقهاء في قديم الزمان هم اهل القرآن و الحديث فما زال الامر يتناقص حتّى قال المتأخّرون

يكفينا ان نعرف آيات الأحكام من القرآن و ان نعتمد على الكتب المشهورة في الحديث كسنن ابي داود و نحوها ثم أهونوا بهذا الامر ايضا و صار احدهم يحتج بآية لايعرف معناها و بحديث لا يدر أصحيح هوام لا و ربما اعتمد على قياس يعارضه حديث صحيح ولا يعلم لقلّة التفاته الى معرفة النّقل و انما الفقه استخراج من الكتاب والسنة فكيف يستخرج من شيء لايعرفه و من القبيح تعليق حكم على حديث لايدرى أصحيح هو أم لا نعوذ بالله من شرور أنفسنا .

ان أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب و محمد بن الحسن الشيباني صاحبا ابي حنيفة وتلميذاه اخذا عنه اكثر فتاويهما وماقيل فيه من خطل الرأى القياسية وعدم معرفته بالعربيّة يقال فيهما و يضاف إلى ذلك تملّقهما للملوك و صحبتهما لهم فان ابا يوسف صحب ثلاثة من الخلفاء المهدى،والهادى،والرشيد،وكان يفتى على مقتضى ميلهم و يتبع في فتواه اهواءهم قال أبو يوسف آويت الى فراشي ذات ليلة واذاً بالباب يدق دقاً عنيفاً فخرجت فاذا هرثمة بن اعين فقال اجب اميراً... فركبت بغلتى ومضيت خائفاً إلى ان وصلت دار الخلافة فاذا أنا بمسرور فسألته من عند الخليفة ؟ فقال عيسى بن جعفر فدخلت فاذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر فسلّمت عليه وجلست فقال الرشيد أظن أننا روّعناك فقلت اى والله و من خلفى كذلك فسكت ساعة ثم قال أتدرى يا يعقوب لم دعونك قلت لا . قال دعوتك لأشهدك على هذا إنّ عنده جارية وقد سألته ان يهبها لى فأبى و والله لئن لم يفعل لأقتلنه قال فالتفتّ إلى عيسى و قلت له ما بلغ من قدر الجارية حتّى أنك تمنعها من امير ... و تنزل نفسك هذه المنزلة من اجلها ثم هى ذاهبة من يدك على كلّ حال فقال عجلت علىّ بالتوبيخ من قبل ان تعرف ما عندى قلت و ماهو قال ان علىّ يميناً بالطلاق و العتاق و صدقة ما املكه ان لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها .

فالتفت اليّ الرشيد فقال هل لك في هذه من مخرج قلت نعم قال و ما هو قلت يهبك نصفها و يبيعك نصفها فيكون لم يهبها ولم يبعها قال عيسى أيجوز ذلك قلت نعم قال فاشهد أني و هبته نصفها و بعته نصفها الباقى بمأة الف دينار فقال الرشيد قد قبلت الهبة و اشتريت النصف بمأة الف دينار ثم قال عليّ بالجارية و المال فاتى بالجارية و

والمال فقال خذها يا امير... بارك الله لك فيها فقال الرشيد لأبي يوسف يا يعقوب بقيت واحدة فقلت وماهي فقال . إنّها مملوكة ولابد ان تستبرء ووالله لئن لم ابت معها ليلتي هذه أظن ان نفسي تخرج فقلت يا أمير... تعتقها و تتزوّجها فان الحرّة لا تستبرء قال فإنّي قد اعتقتها فمن يزوّجنيها قلت له أنا فدعى (بمسرور) فخطبت وحمدت الله و زوجته بها على عشرين الف دينار ثم قال عليّ بالمال فجئني به فدفعه إليها ثم قال لي يا يعقوب إنصرف و قال لمسرورا حمل إلى يعقوب ماتي الف درهم وعشرين تختاً من الثياب فحمل ذلك إليّ .

خالف ابو يوسف في هذه الفتاوى صريح القرآن والسنّة و روّج الزنا والفسوق طمعاً بصحبة الخليفة والمال وهذا هو السرّ في أنّه والشيباني وامثالهما بقوا للإفتاء وغيرهما من الاماثل لم يحفظوا ممّن لم يغير الشريعة ولم يرتكب القبايح كسعيد بن جبير الّذى قتل و الشعبى هدّد و اخيف و الامام احمد بن حنبل ضرب وحبس و الامام مالك ضرب في المدينة سبعون سوطاً وخلعت كتفه و الإمام الأعظم أبو حنيفة حبس وضرب إلى أن توفّى في حبس السندى .

قال صاحب العروبة خطاباً لصاحب الكتاب الموسوم بالفلسفة الإسلامية [١] ما نصّه ايها الاخ الراوي انكم ذكرتم في كتابكم الفلسفة الاسلامية ما نصّه الفصل السابع في ما دخل على الديانة النصرانية من الخلل قال القراقى (ره) في كتابه الأجوبة الفاخرة و اعترف بذلك مجملاً بعض مورخي النّصارى (كارانسيت دى برتس) الآلماني وغيره ان اعظم ثلمة وقعت في دين النصرانيّة هي جناية بولس و يقال له تولس فإنّه أخرج النصارى من دينهم الاصلي كما تخرج الشعرة من العجين و أوقعهم في ظلمات الضلال و أليم الوبال بسببانه كان يهوديّاً وكان شديد القتل و القتال للنصارى فلم يشف بذلك قلبه فأعمل الحيلة فحفظ الانجيل و عمد إلى راهب عظيم فسأله خدمته فأجابه و أظهر الاجتهاد و النصيحة و المبالغة في وجوه البرّ و الاحسان إلى ان طال الزمان فاستيقظ في بعض الليالي و صاح و اظهر الهلع بما رآه في منامه فسأله الراهب فقال رأيت المسيح

(١) سيد علوى اسماه الاخ الراوى نقلته من كتاب العروبة .

و نفث في فمي و بارك عليّ و انا أجد في نفسي كلاماً لا ادرى ما هو من نفثته فذكر بعض الكلام فوجدوه من الانجيل بجملته فاعتقدوا ان ذلك بعناية المسيح و عظم بركته فقال الراهب أنا أحق بالخدمة وانت أحق بالتصدّر فتصدّر وتقدّم واشتهر إلى ان صار ملوك النصارى تزوره يوماً في السنة فلما تحقّق تمكّنه من قلوبهم قال لهم في بعض زياراتهم له ان المسيح قد أمرني ان انزل غداً من هذه القبة و اذبح نفسي في سفح هذا الجبل قرباناً للمسيح فعظم ذلك عند الملوك لفوات بركته وألم مفارقته و كيف يذبح نفسه بيده وباتوا تلك الليلة وعيونهم باهرة وقلوبهم من الجزع طائرة إلى ان اصبح الصباح ودخلوا للوداع فتقدّم اكبر الملوك منزلة و اعلاهم رتبة ليتفرّد بتوديعه فقال له بولس انّي ذاهب الآن إلى المسيح وانّ عندى سراً عظيماً اودعك إيّاه قبل الممات فاعلم مقداره و ارفع مناره

فقال له وما هو ايّها الاب القدّيس فقال له انّ المسيح هو ابن الله فقال له ابن الله الله فقال له نعم ابن الله ولولا ذلك لم يظهر عليه ما ظهر فصمّم الملك على ذلك ولم يكن سمعه قبل ذلك اليوم ثمّ دخل عليه الملك الاوسط فقال له عندى سرّ عظيم وانى ذاهب إلى المسيح او اوثرك به فاحفظه واعمل به . فقال له وما هو قال له : مريم زوجة الله فاعتقد الملك ذلك ولم يكن سمعه قبل ذلك الوقت ثمّ دخل عليه الملك الاصغر فهوّل عليه وطوّل مثل الأوّلين وأودعه ان الله ثالث ثلثة ، ثمّ خرج عند تعالى النهار و الناس قيام ينظرون ما يكون من أمر بولس فخرج من قبته وعليه ثياب القربان و معه سكّين مرهفة ونزل الى سفح الجبل و ذبح نفسه بيده و العالم ينظرون اليه فابتدره الملك الكبير بعد زهوق روحه و اخذه ليحمله الى وطنه لتكون بركة في مملكته فنازعه الملكان الآخران فقسّمه أثلاثا واخذ الثلث الّذى فيه رأسه فنازعه الملكان في ذلك الثلث لاشتماله على اشرف الجسد فاقتضى الحال ان أحرقوه وسحقوه وقسّموه اثلاثا ليحصل العدل والتناصف ثمّ ذهبوا إلى بلادهم فاظهر الملك الاكبر معتقده الّذي اسرّه اليه و كذلك الملكان الآخران فانكر كلّ منهم على صاحبه مقالته وقال ان الراهب بولس لم يقل هذا ولا جاءت به النبوّات و الكتب فهو كفر وقاتل كلّ منهم الآخر ديانة وتقرّباً وصار بأسهم بينهم والقتل فيهم بسيوفهم و سيوف اليهود وذلك مراد بولس ثمّ ذكرتم ايها الاخ الراوى بعد ذلك حيلا لبولس تمكّن

بسببها من ابطال النصرانيّة والقاء الاختلاف بين النصارى وتشتيت كلمتهم بحيث بادت النصرانيّة عن آخرها وجاء بالعاب مخزية وخرافات مردية حسبها النصارى دين المسيح جهلاً والمسيح منها بريء وحاشا لمثله أن يدّعى لنفسه الألوهيّة اوحلّ كلّ مادبّ و درج من التبعة إلى القيل لان في ذلك اضرار عام للبشر و الشريعة الالهيّة منزّهة عنه مهما كانت الاضطراب و الاختلال في النصرانيّة من جهة العقايد و الاباحة المطلقة في الاعمال انما كانت من بولس اليهودى ولم يات من طريق العداوة إنّما جاءهم من طريق الصداقة والمحبّة حتّى لم تشكّ النصارى في قدسه وطهارته و بذلك تمكّن من خيانته وعداوته .

يقول الراهب أغستين انّ الروم الوثنيّين كانوا يعبدون آلهتهم في المعابد و يهزأون بهم في دور التمثيل فقد فقد الدين الرومى سلطانه الرّوحى على معتنقيه و بردت العاطفة الدينيّة في قلوب الناس و يظهر من التاريخ انّه لم يكن للرومان ايمان راسخ في دينهم فان النظام الدينى الوثنى الخرافي الّذى كان سائداً في رومية يقتضى بطبيعته الشك والضعف في الايمان فكلّما تقدّموا في العلم وتنوّرت افكارهم ازدادوا استخفافاً به وقدقضوا من اوّل يوم انّ الآلهة لادخل لهم في السياسة وامور الدنيا وكانوا يقرأون ابياتاً في هذا المعنى في ادبيّاتهم و يصغى الناس بكل رغبة فلم يكن للدين تاثير في اخلاق الامّة لانه ماكان حاكماً على ارواحهم و ينبعث من اعماق قلوبهم بل كان تقليداً من التقاليد وقداجاد العالم الآلمانى المسلم محمّد اسد وصف الرومانيّين [1] وقال ان الفكرة الّتى كانت تسيطر على الامبراطورية الرومانيّة هى إحتكار القوة لها واستغلال الامم الاخرى لمصلحة الوطن الرومى فقط لم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من اى ظلم وقسوة في سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ، امّا ما اشتهر من عدل الروم فلم يكن الا للروم فقط ان هذا السيرة لا يمكن ان تقوم إلاّ على ادراك مادّى محض للحياة و الحضارة وان كانت مادّيتهم قد هذبت بذوق عقليّ ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحيّة ، ان الروم لم يدينوا بالدين جدّياً أبداً .

(١) الاسلام على مفترق الطرق

كانت آلهتهم التقليديّة محاكاة شاحبة لاساطير الاغريق و خرافاتهم ، وقد آمنوا بهذه الارواح محافظة على الرابطة الإجتماعيّة الّتي كانت تربطهم وتوحّدهم فلم يكونوا يسمحون لهذه الالهة بالتدخّل في حياتهم العمليّة . كان لها ان يأذنوا تتكهن بالغيب ـ اذا سئلت عن ذلك ـ على لسان الكهان ـ ولكن لم يحلوا لها أبداً . ان تفترض شرايع اخلاقيّة على الناس و لمّا بلغت الدوّلة الروميّة في القوّة الحربيّة و النفوذ السياسى أوجها و وصلت في الحضارة اقصى الدرجات هبطت في فساد الاخلاق و انحطاط إلى اسفل الدركات ادرك الجمهور انه انكان هنالك شيء يستحقّ العبادة فهي القوّة لانه بها يقدر الانسان ان ينال الثروة الّتي يجمعها اصحابها بعرق الجبين و كدّ اليمين و إذا غلب الانسان بقوّة ساعده فحينئذ يملك قوت صاحبه و يمكن له ان يصادر الاموال و الاملاك و هاهنا حادثة عظيمة يجب ان يسجّلها المورّخ وينوّه بها وهي اعتلاء النصرانيّة عرش الوثنيّة بجلوس قسطنطين الذى اعتنق النصرانيه على سرير الاباطرة. ونالت مالم تكن تحلم به من ملك عريض و دولة قويّة و لما كان الفاتح توصل إلى الملك على جسر من اشلاء النصارى و انهار من دمائهم التى أريقت في النصر له و الذبّ عنه عرف لهم الجميل و بذل لهم وجهه و قلّدهم مفاتيح ملكه ـ ولكنهم انتصروا في ساحة القتال و انكسروا في معترك الاديان ربحوا ملكاً عظيما وخسروا ديناً جميلاً لان الوثنيّة مسخت المسيحيّه يقول درابر .

دخلت الوثنيّة و الشرك في النصرانيّة بتاثير المنافقين الذين تقلّدوا وظائف خطيرة و مناصب عالية في الدولة الروميّة بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحتفلون بامر الدين ولم يخلصوا له يوماً و نشأ من ذلك دين جديد تنجلي فيه النصرانيّة و الوثنيّة سواء بسواء و ان هذا الامبراطور الّذى قضى عمره في الظلم و الفجور وكان عبداً للدنيا والذى لم تكن عقايده الدينيّة تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصيّة و لمصلحة الحزبين المتنافسين النصرانى و الوثنى ان يوحّدهما و يؤلّف بينهما حتى ان النصارى الرّاسخين أيضاً لم ينكروا عليه هذه الخطّة و لعلهم يعتقدون انّ الديانة الجديدة ستزدهر إذا طمست و لقحت بالعقايد الوثنيّة القديمة وسيخلّص الدين النصرانى من أدناس الوثنيّة وقديماً

قالوا وافق شنّ طبقه و هذا مثل عربيّ و في الفرس يقولون العسل و البطيخ توافقا و اليك هذه القصة اخذتها من كتاب (الصراع في الوجود) للعلّامة العزيز المحترم بولس سلامة .

زعموا انه كان في قرية مافتاة اسمها زهر و كانت على جانب عظيم من الدمامة . إذاجتمع لها فطس الأنف واحد يد اب الظهر ، و صلع الرأس . وكان في القريةالمقابلة البعيدة مسخ قزم لئيم ، يربى على (زهر) دمامة ، حتّى لا يقع النظر على أبشع منه خلقاً و خلقاً و سعى احدهم لتزويجه منها وتمّت الخطبة غيابياً . و ضرب موعدالزفاف فذهب وفد العريس لجلب العروس ، و كان بين القريتين و ادعميق يتوسطه نهر فرافق العريس إلى ضفة النهر وهى منتصف الطريق ، و لبث هناك منتظراً .

و لما خرجت العروس من بيت ابيها ، شيعها اهلها إلى طرف القرية شاكرين الله على الصفقة الرابحة ، يقيناً منهم بأنه ليس في الفتيات أقبح من زهر مهما يكن من شأن صهرهم . وأخذوا يكرّرون على مسمع الوفد عبارات المجاملة و يردفونها : بورك لكم بزهر وضاءة بورك بوضيئة بورك لكم بوصيفة بورك لكم بريحانة ، و ضاق صدر أصحاب العريس بهذا التهكم المبطئن فصاح بهم و يحكم أتحسبون انكم غبنتمونا (بزهر) فآه لوعرفتم الذى على النهر .

التاريخ كالمصور الماهران فاتته دقائق من اصل الصورة لم يفته شكلها العمومى و على هذا الوجه ابيّن للناس ان دوام الحال محال وان الحرب سجال . وان نوبة الغرب هذه كانت بعدنوائب . ونائبة الشرق كانت بعد نيل الرغائب . والمستقبل يعرف بالماضى و هما اشبه من الماء بالماء فانعكاس الدورة معقول . و لكن زمنه مجهول . (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجدلسنة الله تبديلا فكم امة كانت شامخة وهوت واخرى كانت في الحضيض و علت . ولكل دولةمجد تدعيه . و تجتهد في السعى إليه . ولا يزال ينبئّنا التاريخ عن مجد اليونان . و عزّة الرومان . و ملك فارس و تمدن مصر من قبل وظهور الاسلام من بعد بمدنيتّه الغريزة وسرعتها المدهشة . و الحق ان لكل زمان دولة وتلك اُمم قدخلت فلننظر اليوم ما اصاب الشرق و اهله من الإذلال والإهانة . والخضوع و

الاستكانة لاعدة ولا عدد بل نصب و نكد . تعب كلها الحياة ، لا مال ولا جاه . تقاطع و تباعد . و تخاذل و تقاعد حسد و شقاق . و ذبذبة ونفاق . كل ذلك أصله الجهل.وعدم تربية العقل و يتبع ذلك ترك العمل و الخلود إلى الكسل ثم يعقبه الحرص على المال و البعد عن موارد الكمال .

اما الغرب فقد بلغ متمنّاه . من العزّ و الجاه و نزل في كلّ واد و مدّ يده بكل ناد لا يوقفه بحر ولا يعوقه نهر ، كأنّه السّيل اوكسف من الليل . قد ذلّت له الصعاب ودانت له الرقاب واستأثر بالمنافع و استخلص لنفسه الخالص النافع و ترك لغيره القشور من الأمور حتّى اصبحنا نعضّ أنامل الندم جذاذاً و نقول بماذا حصلوا على هذا ؟ حصلوا بالعلم والعمل والنشاط والحزم ساروا وغيرهم قعد ، فوجدوا و غيرهم فقد،عرفوا للعلم قيمة . و للعمل نتيجة بل عرفوا للمدارس غايتها و للمعارف بهجتها فاكثروا منها و ما تقاعدوا مدة عنها حتى شملت الكبير و الصغير و نفعت العظيم و الحقير . فسهل عندهم الاختراع و تيسّرت لهم سبل الانتفاع فعمت العالم صناعتهم و انتشرت في الدنيا بضاعتهم و هكذا يا حبّذا . و من لنا بذا .

نعم الحرب سجال ، و الحق يقال . قد كان للشرق صولة و لاهله جولة ما بزغت شموس العلم إلّا منه ولا صدرت رسل العدل إلّا عنه ، قد كان مهبط الوحى واصل كلّ نبيّ مضى زمن وله السلطان و الجاه و الرأى مايراه ، وهوالّذى انقذ الغرب من ظلمة الكرب و هو تائه في مهامه الجهل و الوحشيّة متخبّط في ظلمات الهمجيّة و البربريّة فكان كالمعلّم المؤدّب والمرشد المهذّب ارسل له اشعّة من نور او جذوة من نارفار تجفت له الافئدة وشخصت له الابصارفأجمعوا امرهم بينهم . وهاجموه بخيلهم و رجلهم . واكثروا من العدد و العدد و نزحوا من كلّ بلد . و شنوا غارة شعواء . رجعوا منها بالعفاء و صاروا يهمسون ولا يتكلّمون بعدان سجّلوا على انفسهم في التاريخ ذلك التعصّب وألصقوا بها عار الخيبة بعد ذلك التألب اللّهم إلّا ما عرفوه من حريّة الفكر و خلاص العقول من الأسر وذلك اوّل سعدهم و أعظم حاد حدابهم كلّ ذلك و الشرق في مجده مستنير بطالع سعده ثم ماذاجرى ياترى ثملهولاء بخمرالانتصار،واتّقد اولئك بجمرالاضطرار

و الحاجة ام العمل وقيمة كل امرىء ما عمل . فالشرق أخلد ونام ، و الغرب نشط وقام فأخذ العلم هنا يتقهقر و هناك أخذ يزهو ويزهر فتحوّل الطالع و تغيّرت المطالع . و طلعت الشمس من المغرب و أظهر للناس ما يدهش و يعجب هكذا الامر جرى حتى وصلوا إلى ماترى ووصلنا إلى مايرى .

و لكن في النفوس آمال و هل يدوم على حالة حال نعم وصل الشرق في الجهل إلى حال مضر ، و لكنّه نحس غير مستمرّ تبشّرنا بوادر الحال بحسن الاستقبال عواطف جديدة و همم شديدة كأنّنا تيقّظنا اليوم من ذلك النّوم فقد علم للعلم قدره و للعمل فخره بعدبيات طويل . كثر فيه علينا القال و القيل فمن قائل يقول أهل الشرق وسط بين الانعام والانسان و قائل يستحيل عليهم التقدم في ايّ ميدان إنّه لحكم حق و قول صدق مادام المثرى شديد الحرص على ماله و العالم مكتفياً بشقاشق مقاله .

و ما ذا يقولون وقد جاد الرجال بالمال وبذلوا النفيس و الغال لتربية الاطفال عن همة و روّية و غيرة و حميّة قد علموا ان التربية حلى الجمال و اساس الكمال بل هى منبع الفضائل و مطلب كل عاقل وهل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون والشاعر يقول و ليس سواء عالم و جهول ، العلم سمير في الخلوة ومعين على البلوى بل هو عدّة في البلاء و معونة على الاعداء وسعادة الدّين والدنيا وبه الحياة الحقيقة والدرجة العليا اذ لا تتمّ بغير العلم عبادة ولا طاعة ولا تحسن بسواه تجارة ولا صناعة فهو منار الهدى و علم به يهتدى وليس المرء يولد عالماً ولا يشبّ الطفل مقوماً بل يحتاج إلى التربية والتهذيب و التقويم والتأديب فالعاقل من يربّى إبنه صغيراً لينتفع به كبيراً ويلبسه من العلم حللاً فينشأ رجلاً معتدلا . ينفع نفسه و اصله و وطنه و أهله و ماذا يقولون فقد قام نبيُّنا الأعظم قيام الشمس في العالم و ظهر برنامجه للعرب و العجم و قرء باسم ربّه الاكرم الّذى علّم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم طلع نور العلم في الشرق و اطلّع قومنا فاستنار لانّ هذا القرآن يهدى للّتي هي أقوم و قديماً قالوا انّ العلم و الدّين فوق الوطن و لذا لا وطن لهما لا سيّما الاسلام دين العلم و العقل دين الدّليل و البرهان و هذا غير قابل للانكار حتّى للمخالفين إنّ ايران كان مهداً للحضارة و التمدّن ولهذا سبق الملل

و اعتنق الاسلام و نقول كما قلنا في كتبنا الفارسيّة أخذوا القرآن صميمه و من اهله فكل من سمع قول الله تعالى ان الدين عندالله الاسلام و من يبتغ غير الاسلام دنيا فلن يقبل منه و آمن بان الاسلام خير الاديان و دين القرآن هوالحق و غيره ضلال فالاسلام دين العقل و الفطرة و دين الطبيعة و الفكرة لا وطن له ولا نسب كما قال سيدنا على عليه السلام لا تفاخروا بالاباء فالعاقل من كان يومه خيراً من امسه .

ساعة الدهر تقرع أيّها الصحب فاسمعوا　　كلّ يوم أضعتم راحل ليس يرجع

انّ الله يقول ياايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى و جعلناكم شعوبا و قبايل لتعارفوا إنّ اكرمكم عندالله أتقيكم وقال انما المؤمنون اخوة وقال نبيّنا الاعظم ﷺ لافضل لعربيّ على عجمى إلاّ بالتقوى ويقول عمر لوكان سالم مولى حذيفة حيّاً لوليّته! ظنّ بعض العرب أنّهم حماة الاسلام وحملة الدين و انّ عليهم دعوة الناس كافّة ليتخلّوا عن افكارهم القديمة و ليتّحلوا بمبادى الاسلام وشعائره القويمة ظفروا بفارس و ايران ودكّوا عرشها وانتصروا على الروم و هزموا جيشها واستولوا على كثير ممّا في ايديهما و الخلاصة انهم رأوا انّ السيادة و الامبراطوريه في العالم كانت للفرس والروم و انتقلت فجأة اليهم وان هؤلاء الفرس الّذين كان العرب بالامس يخشون بأسهم فاصبحوا تحت حكمهم وهؤلاء الروم الّذين كان العرب يتمنّون ان يفتحوا لهم باب الشام ومصر ليتاجروا فيهاقدهزموا و فرّوا امامهم الى عقر دارهم . كلّ هذا رفع من نفسيّة العرب وغلاكثير منهم في ذلك ظنّوا انّ الدّم الّذى يجرى في عروقهم دم ممتاز ليس من جنس دم الفرس والروم وتملكهم هذا الشعور بالسيادة والعظمة. فنظروا إلى غيرهم من الامم نظرة السيد إلى المسود وهذا كما يقول بعض المستشرقين هو الفارق بين العربى قبل الاسلام و بعده اى ان العربىّ بعد ظهور الدعوة كانّ السّماء قدارسلته الى هذه الارض ليملك كلّ ما عليها و ليمتّع ناظريه بجمالها و لينعم باطايبها فانّها شهيّة لذيذة و مطلوبة بالغريزة و ليعبّر عن جمالها بشعره فهو يقول عن الجوزة :

و مطبقة القفّين احسن ما يرى　　كماانطبق الجفنان يوماً عن الكرى

ويقول عن اداء الرسالة الغرام :

تكلّم منّا في الوجوه عيوننا　　فنحن سكوت والهوى يتكلّم

و إذا اراد الشراب قال :

اشرب على السوسن الغض الّذي نعما وباكر الانس والورد الّذي نجما

و في التاريخ الاسلامي امثلة على هذه تعد بالالوف ـ ان حياة الانسان تتغلغل في عالم الاشياء المحيطة به ، و هي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بهذا العالم المرئى المحسوس عن طريق الحواس فاذا صدقت الحواس في نقلها التأثيرات الى العقل وصدق العقل في أحكامه واعتدلت الارادة في شهواتها تولّد عن هذه الغريزة و الصفة الاصلية كثير من الصفات الفرعيّة الرفيعة كالشرف والكرم و الصدق و الشجاعة والعدالة والالفة والمودّة وساير الصفات الحسنة الّتي فيها راحة الانسان منفرداً و مجتمعاً و بخلاف ذلك اذا انخدعت الحواسّ في نقلها وكذب العقل في حكمه وضلّت الارادة في شهواتها فيتولّد منها ملكات رديّة وصفات قبيحة واخلاق رذيلة ودنيئة كالدنائة و الكبر و الكذب والجبن و الظلم والاستبداد وساير الصّفات الرّدية المخرّبة للاجتماع انظر الى الكبرياء و الشرف فهما صفتان متولّدتان عن محبّة الذات اوليهما ذميمة ناشية من الجهل والثانى من أحسن الصفات ومتولّدة عن اتّحاد محبّة الذات بالعلم ما الفرق بينهما ؟ ولما ذا تثبت هذه في الكرايم وتلك في الذمايم ؟ بم صار احدهما من الفضايل والاخرى من الرذايل ؟ انّ الشريف يحبّ لنفسه ما يحبّه لغيره ويكره لغيره مايكرهه لنفسه ، لما كان الشرف واحترام الذات محبوبا ومطلوباً بالذات ولا يرضى الشريف بان توهن نفسه وتمسّ كرامته ويصغر شأنه وشخصه يحترم النفوس ولا يقول ولا يفعل ما يعدّ إهانة ويؤذى نفساً ويمسّ كرامة كيف لا وانّ له جسماً ونفساً يشترك مع ساير الأجسام والأرواح فكما أنّه يتألّم من الأذى ولا يرضى إلّا باحترام نفسه وشخصه كذلك ساير النفوس وذوات الأرواح ولذا يكرم الناس ويحبّ النوع و يحترم البشر فحبّ الذات يحمله على حبّ النوع والاحترام نفسه يسوقه إلى احترام غيره فصاحب هذه الفكرة الصائبة ومن له هذه الفطرة السّليمة يسمّى شريفاً و كريماً و يعبّر عن أنانيّته و حبّ ذاته بالكرم و الشرف و أمّا الآخر فراكب مركب النقص وهو صاحب الرّذيلة لأنّه يريد احترام نفسه باحتقار غيره فالغاية واحدة في الامرين كما قلنا وهي الأنانيّة و احترام الذات إلّا انّ طريق الحصول والوصول مختلف و

هذا الاختلاف ناتج عن اختلاف العلم بالأسباب و الوسايط فلو علم صاحب الكبرياء ان الطريق الّذي يسلكه في احترام نفسه هو السبيل المحقّر لعدل عنه إلى احسن منه لأنّ محبّة الذات لا يجيز ان يسلك السبيل الّذي يؤدّي الى مالا يسرّها كما ان صاحب الاستبداد لوعلم ان استبداده لايأتي عليه بما تتمنّاه محبّة ذاته لما صبر عليه دقيقة وكما ان صاحب الرّياء لوعلم انه يوجد سبيل آخر غير ريائه لاستحصال رضي سيّده لعدل الى الصّداقة و خلوص النيّة واستعمال الحرّية في تأدية خدمته ولذا كان سلطان الرياء قويّاً جدّاً حيثما قوى الاستبداد متمتّعاً بما يمكن تحصيله من خيرات الظلم! ومن لم يتدرّع بهذه الصفات بل لبث مصرّاً على الصدق وخلوص النيّة واستعمال الحرّية ليس له ان يطمع بالتقرّب من المستبدين بل عليه ان يتبعّد منهم ماأمكن قبل ان يبعدّوه لان صفاته لاتحسن في اعينهم ولاترجع عليه إلاّ بالوبال .

و الانسان الّذي لم تهذّبه التّجارب ولم تتوسع دائرة عقله العلوم الصحيحه إلاّ ماكان قريب الغاية و يحسب ان سعادته قائمة باسباب لاتتعدّاه ولا يمكن ان يتأتّى له مع سعادة سواه بل بخلاف ذلك قديظن انّ سعادة غيره تعود عليه بالشقاء فيسعى في تحصيل سعادته بمضادّة غيره و هذا ناتج عن جهله الاسباب و الوسايل الّتى تمكّنه من تحصيل السعادة والحصول إلى المطلوب على سبيل العادة فإذا زاد اختباره وكثرت معارفه رأي في الانضمام و التّعاون واشتراك المصالح مزايا اخرى تفيده ولا توجد له منفرداً فتنتقل من محبّة الفرديّة إلى حبّ البشريّة نعم كانوا يقولون عدوّ المرء من يعمل عمله و اليوم و في عهدنا يقبلون أن عون المرء من يعمل عمله فالرجل المتمدن هو جزء من كل وقيمته تتوقف على صلته بالكل وذلك الكلّ هو النظام الاجتماعى . ماهي قيمة الرجل للاخرين اذاكان سعيه وعمله قاصرا على نفع ذاته .

مرّ كسرى على رجل كهل قد اشتعل رأسه شيباً بلغ أوجاوز الثمانين .

انّ الثمانين و بلّغتها　　　　قداحوجت سمعى إلى ترجمان

يغرس شجراً يثمر بعد زمن طويل فقال له ياهذا انك قدبلغت من العمر مابلغت فهل ترجو ان تدرك الثمر و تأكل من ثمرما تغرس فقال له يابنيّ قدزرع لنا آباؤنا فأكلناه

ونحن نزرع لأبنائنا لياكلوا من بعدنا فسرّ الملك من جوابه وقال زه بمعنى أحسنت وامر له بصلة مبلغها الف دينار فضحك الشيخ وقال قد اثمرت هذه الشجرة الطيّبة في الساعة ثمراً طيّباً بما وصلتني به وانتفعت به في حياتي فقال كسرى زه[1] فوصله ثانياً فاخذ ألفين وضحك حتى استلقى على ظهره فسأله كسرى ممّ تضحك قال انها شجرة طيّبة اثمرت مرّتين في ساعة واحدة فمضى كسرى ولم يتكلم بشيء فقالوا له انّ هذه اللطيفة أحسن من سابقتيه صواباً لما ذا لم تحر جواباً ومضيت عنه فاجاب بأنّي رأيت زخارفي معدودة ومعارف الشيخ محمودة وغير محدودة فالسكوت احجى والذّهاب اولى هلمّوا بنا فقد القى الشيخ علينا درساً نافعاً ينبغي لنا أن نستفيد منه دائماً في حياتنا فالعاقل من يعمل العمل المفيد لأنّه في نفسه مفيد ولو لم ينتظر منه فائدة لنفسه .

و في القرآن الشريف سورة موسومة بسورة الانسان ولها اسمان آخران و لكن كما قلت في بعض كتبي بالفارسيّة تسمّى سورة هل اتى او الدهر ولكن الذوق القرآني يقتضي ان نسمّيه سورة الإنسان لانّها يصوّرنا بصورة الانسان و يعلّمنا درساً اذا عملنا به نكون انساناً ففيها قصّة يكون بطل القصّة امير المؤمنين عليه السلام هو واهل بيته يوثرون المسكين واليتيم و الاسير على انفسهم ثلاثة أيّام متوالية يبيتون على الجوع و يصومون ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً و يتيماً واسيراً . و يقول الله عزّ وجلّ انّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً .

ان الله تعالى اختار رسوله الأمين محمداً ليبلغ دينه إلى الناس كافّة فالدين الاسلامي هو دين الانسانية و الاسلام العالمي لا دين العربي او العجمي و انّ من اكبر قواعده

---

(١) قال عمر بن عبد العزيز في بعض اسفاره لرياح بن المغترف غنني فغنى

أتعرف رسماً كالطراز المذاهب — لعمرة قفراً غير موقف راكب

فقال له عمر اجدت بارك الله عليك فقال المغنى يا امير . . اوقلت زه كان أعجب إلى قال وما زه قال كلمة كان كسرى إذا قالها اعطى من قالها له الف دينار قال ان شئت ان اقولها لك فعلت فاما اعطاء الف دينار بل الف درهم فلا يجوز لى من أموال المسلمين قال فبعضها من مالك فاعطاه أربع مأئة درهم .

الديمقراطية انه لم يجعل الفضل للجنسيّة بل جعله للعمل الصالح المنتج فقال تعالى ان اكرمكم عندالله أتقاكم وقال الرسول ﷺ خير الناس أنفعهم للناس الاسلام هوالدستور البشرى السليم الّذي يعطى كل ذي حق حقه ولا يبخس الناس اشياءهم .

نحن نرتبط مع جيراننا من الأُمم الاسلامية بروابط كثيرة منها رباط اللغة و الدين فيجب ان نحرص عليهما اشدّ الحرص ونعمل على تمكين هذه الروابط وتوثيق العلايق الاقتصادية و الاجتماعيّة بيننا وبين الامم الشرقية كافة والاسلاميّة منهاخاصّة .

ان الايران من العالم الاسلامي القلب النابض والرّأس المفكّر و العراق وسوريا و لبنان و باكستان و افغانستان و طرابلس و تونس و الجزائر و مرّاكش وما إليها اليد اليمنى و التركيّة وما إليها يده اليسرى فيجب ان لايشغل إيران حالها عن احوال جيرانها فانهم حصونها الطبيعية المكينة وان كل عدوان على ايّ بلد اسلامى عدوان علينا يجب ان نحذر سياسة الغاصبين المستعمرين و هي سياسة التمزيق و التفريق و قيام الحوائل الجنسّية و القوميّة بين المسلمين خصوصاً والشرقيّين عموماً ليشتغل كل منهم بنفسه فيدوم إذ لالهم وخضوعهم كماكانت سياسة الخائنة الامويّة شمخت العنصريّة العائلية والقبليّة و القوميّة على نحو يصرفهم عن الاسلام فاذا القيسى غير اليمنى في الحقوق و العربي غير العجمى ولقد كثر المترهّلون المقرّبون الذين ياكلون ولا يعملون او الذين ينعم عليهم البيت المالك بالوظائف الاسميّة فيفرغ في جيوبهم اموال العامّة و يثيبهم على غير جهد فراحوا ينهبون بيوت المال نهباً و يوسّعون لحاشيتهم في كل ملك وكلّ مال وعلى ايديهم انهارت قواعد العدل العلوىّ او الاسلامى و خلقت في المجتمع الطبقية الغاشمة فاثرى قوم و جاع آخرون و استبدّت فئة و ظلمت فئات ففيما كان في الناس من لا يأكل الرغيف كان احد ملوك بنى امية يهب اثنى عشر الف دينار لمعبد لان تنغّم معبد يرضيه و فيما كان الناس يطمحون لان يعيشوا احراراً كان من العبيد و الارقّاء قبيل خلافة سليمان بن عبد الملك عشرات الألوف فالعلّة في الفرد و الملّة واحدة و هو الجهل إذا نحن لم نستفد من التاريخ ما نقابل به بين الماضى و الحاضر ليكون ذلك عبرة لنا فكاننالم ندرس التاريخ ان جماعة النخّاسين و الذين ملكوا عدداً غفيراً من العبيد

الارقّاء في الولايات الامير يكّية الجنوبيّة قبل تطوّع لنكولن إلى تحرير الارقاء و الغاء النخاسة ارادوا ان يضمنوا بقاء اولئك الارقّاء في خدمتهم وتحت تصرفهم المطلق. ارادوا ان يرضى العبيد بعبوديتهم وان يستعبدوهم واولادهم واحفادهم من بعدهم فيكونوا آلات عاملة لفايدة سادتهم. ليكونوا ارقّاء إلى الابد لا ارادة لهم ولا همّة ولا أمل.

ماذا فعلوا قرّروا ان يعدّ مجرما ويعاقب عقاب مجرم كل من يعلّم عبداً القراءة، علموا ان الانسان يبقى عبداً ما بقي جاهلاً، علموا ان الانسان لا يقدران يصبر على العبوديّة والرقّ متى تعلّم، علموا ان عظمة الامة تتوقف على معدّل القوة العقليّة في افرادها وهذه القوّة تتوقف مطلقا على التعليم، علموا ان المدارس العموميّة اهمّ عامل في كل بلاد لرقيها وانها محل رياضة للعقول وان الاساتذه هم اعظم الوطنيّين مكانة واخلاصاً لانهم يقدمون للوطن رجالا اكفاء لاهم لهم إلاّ رفع شأن الوطن بتحكيم الوحدة وتحطيم.

قاعدة فرق تسد : الّتي هي من وصايا الحكيم اليونانى ارسطو للاسكندر حينما تغلّب على الممالك الفارسية قبل الميلاد وقتل (دارا) واركان الأكاسرة وهمّ بقتل الرّؤساء الباقين عن بكرة ابيهم فمنعه ارسطو واشار عليه بتقسيم تلك البلاد إلى عشرين مقاطعة وتمليك عشرين ملكا من اولئك الرؤساء عليها فقبل الاسكندر وصيّته وهم المسمّون بملوك الطوايف الاولى فتجزّأت قواتهم و لم يجتمعوا على المصلحة العامة وبذلك أمن الاسكندر من غائلة الانتقام واستمر الحال في البلاد الفارسيّة على هذا المنوال بتنازعهم خلف عن سلف زهاء خمسمائة عام حتّى قام اردشير بابك من احفاد ساسان فخلص الممالك الايرانيّة من ملوك الطوائف المختلفين وجدّد عهد الاكاسرة.

المجوسية ديانة تمثل احلام الروح الارية الّتي تستهويها مناظر الطبيعة وتخلبها فنون الكائنات، كما انها ديانة رمزيّة اى ترمز إلى المعانى و الفضايل من طريق قريب إلى فهم الانسان و تقوم على فكرة الخير و الشرّ ثمّ مضت في الرمز إلى ابعد من هذا فاتخذت النار رمزاً للضوء والضوء رمزاً للخير وبتعبير آخر قالت ان النور من الشمس و الشمس من النار فاصل النور اذن هي النار فرمزوا بها عن الخير واتّصلت ببلاد العرب من الجهة الشرقية فقد وجدت في قبائل هجر و قبائل البحرين و كتاب افستا لزرادشت

عرفه العرب عن قرب فقد نقل اليهم وتأثّروا به الى حدّ ما .

وكذلك الصابئة هي ديانة بابلية بقيت بعد ذواء ينبوعها الاقدم اجيالاً طوالاً ، و تقوم على عبادة الاجرام السماوية وتسند إليها القدرة على تسيير الناس انتقلت الى بلاد اليمن من اقدم الدهر وقصّة بلقيس في القرآن شاهد على انّها كانت الدين الرسمي او القومي في دور من ادوار التاريخ القديم،وجدتها وقومها يسجدون للشمس،ولعل التسمية بعبد شمس الّتي كانت شائعة عند العرب تدلنا على مبلغ سيطرة تلك الديانة العتيدة كعقيدة وعلى درجة رسوخ اصباغها كمراسيم و طقوس [(١)] وجميع اهل الممالك يعترفون للفرس و يقرّون لهم بالرئاسة وحسن التملك و تدبير الحروب ودقيق الألوان وتأليف الطعام والطب واللباس وترتيب الاعمال و وضع الأشياء مواضعها والترتيل والخطابة و وفور العقل وتمام النظافة والشكل وهيبه الملوك هذا كلّه لهم فيه السبق .

ومن كتب سيرتهم استعمال من جاء من بعدهم من رسوم الملك وتدابير الرئاسة و أمرهم اشهر من أن يستقصى في هذا المكان والعدل الاسلامي ناطق بفضلهم .

مجلس الاعرابى و العجمى بحضرة أبى عبدالله قال العجمى للعربى انا افضل منك وفضلي عليك بيّن في كتاب الله فقال العربى اين هذا قال ولو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين وقد نزل عليكم فآمنّا به فسكت العربى و دخل العجمى إلى أبي عبدالله فقال له يافلان فيم كنتم قال كنّا في كذا وكذا قال خصمته ثمّ قال أفلا أزيدك قال بلى جعلت فداك قال انّ الله يقول فان يكفر بها هؤلاء ، يعنى العرب ، فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين ، يعنى العجم ، ثمّ قال ألا ازيدك قلت بلى جعلت فداك قال فان الله عزّ وجلّ يقول وان تتولوا (يامعشر العرب) يستبدل قوماً غيركم (يعنى العجم) ثمّ لايكونوا امثالكم ، ثم قال ابوعبد الله لايزال الدين ذليلاً ماعزّت العرب !

و قال رسول الله يا جويبر انّ الله قد وضع بالإسلام من كان بالجاهليه شريفاً و

---

(١) علايلى فى المحلد الثانى من سموالمعنى فى سموالذات . (تاريخ الحسين)

(٢) ص ٧٨ اخبارالزمان مسعودى

(٣) التراث العربى (٩) ص ١١٣ - ١١٢ طبع كويت .

شرف بالاسلام من كان في الجاهلية وضيعاً واعزّ بالاسلام من كان في الجاهلية ذليلاً واذهب بالاسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشايرها و باسق انسابها فالناس اليوم كلّهم أبيضهم وأسودهم وقريشهم وعربيّهم وعجميهم من آدم وآدم خلقه الله من طين ان احبّ الناس الى الله أطوعهم له وأتقاهم وما اعلم ياجويبر لاحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلّا لمن كان اتقى لله منك واطوع وهذا الحديث أطول من هذا الذى نقلنا قد أخذنا طرفاً منه .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لاتسبّوا فارساً فما سبّه احد إلّا انتقم الله منه عاجلاً واجلاً و حضر عند النبيّ صلى الله عليه وآله مجوسيّ حسن الهيأة وضيىء الوجه فجعل تحته و سادة حشوها قزّاً واكرمه فلمّا نهض قال بعضهم هذا مجوسىّ قال قدعلمت ولكن أمرني جبرئيل ان اكرم كريم كلّ قوم .

قال سليمان بن عبد الملك عجباً من هذه الاعاجم احتجنا اليهم في كلّ شيء حتّى في تعلّم لغاتنا .

لعمرك ما الانسان الابدينه	فلاتترك التقوى اتّكالاعلى الحسب
فقد زيّن الايمان سلمان فارس	وقد وضع الشرك الشريف أبالهب

وتأثير ادب الفارسى في ادب العرب اكبر و اظهر من تأثير ادب اليونان و الروم فيه لان اليونان و الرومان لم يدخلوا في الدين ولا في العربيّة حتّى يكون تأثيرهم مباشراً بل ظلّوا مستقلين غير متصلين إلّا بمقدار الصّلات الاقتصاديّة .

و العرب لقرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات واشتغالهم بالفتوح و الخصومات وتعصّبهم لآ دابهم ام يفكّروا في نقل شيء من ادب هؤلاء واولئك .

و أمّا الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنىً ووطناً ، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم و آثروا بأنفسهم في دينهم و لغتهم من غير طلب ولا واسطة و انصرف العرب إلى سياسة الملك و قيادة الجند واقصوا عنهما الفرس فعكّف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية و اكتساب الفنون الادبيّة فكان منهم رواة الحديث و حملة الفقه و كتبة الدواوين وقالة الشعر و علماء النحو و اللغة و لذلك قال ابو هلال العسكرى من تعلّم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة اخرى امكنه فيها من صنعة الكلام ما امكنه في الاولى و كان

عبد الحميد الكاتب قد استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها من اللّسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى و قد ألّف الجاحظ رسالة في فضل الموالى وعدّد مناقبهم .

موسى الاسوارى و عمرو بن قائد الاسوارى ، و كان اوّلهما من أعاجيب الدنيا فكانت فصاحته بالفارسيّة في وزن فصاحته بالعربيّة وكان يجلس في مجلسه المشهور ، و يقعد العرب عن يمينه و الفرس عن يساره ثم يقرء الآية من كتاب الله ويفسّرها بالعربيّة للعرب ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسّرها لهم بالفارسيّة . فلا يدرى باىّ اللسانين هو أبين يقول الجاحظ و اللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدةمنهما الضيّم على صاحبتها إلاّ ما ذكروا من لسان موسى بن سيّار الاسوارى اما عمروبن قائد الاسوارى فكان يفصّل في التفسير حتّى انه قص ستّا و ثلاثين سنة ، فابتدء بتفسير سورة البقرة ، فماختم القرآن حتّى مات لانه كان حافظاً للسير و لوجوه التاويلات فربماكان كان يفسّر الآية الواحدة فيعدّة اسابيع من ادب المورخ والكاتب ألاّ يضفى على الحوادث عقيدته الخاصة و انّما يذكرها كما حدثت و يذكر البواعث عليها و يدع الحكم فيها ولكن الكاتب لا يلتزم هذا الادب بل الادب عنده سبّ الشيعة و شتم الفرس يقول أمينهم في فجره ! و الحق ان التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من اراد هدم الاسلام لعداوة او حقد و من كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهوديّة و نصرانيّة و زردشتيّة و هنديّة ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته كل هؤلاء كانوا يتّخذون حبّ اهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت اهواءهم قال العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء .

ان من يريد ان يكتب في موضوع يلزم عليه أولاً ان يستحضر العدّة الكافية و يستقصى استقصاء التام حتّى لو ان رجلاً في اقاصى الصين كتب عن الشيعة في هذا العصر لا يكتب و الحق ان التشيع كان مأوى يلجاء إليه كل من اراد هدم الاسلام (نعم القوم لاعلم لهم من الشيعة بشيء ويكتبون عنهم كلّ شيء) لعداوة أوحقد ، ومن يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية و نصرانية وزردشتية فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة و قال الشيعة ان النار محرّمة على الشيعى الا قليلاً كما قال اليهود لن تمسّنا النار إلّا اياماً معدودة ، والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم ان نسبة الامام إلى الله كنسبة

المسيح إليه و قالوا ان اللاّهوت اتحدّ بالنّاسوت و تحت التشيّع ظهر القول بتناسخ الارواح وتجسيم الله و الحلول و نحو ذلك من الاقوال الّتي كانت معروفة عند البراهمة والفلاسفة و المجوس وهنا يقول العلاّمة كاشف الغطاء .

لولا محافظتنا على مياه الصفا ان لاتتعكّر ونيران البغضاء ان لا تتسعّر وان تنطبق علينا فلسفة القائل .

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

لعرّفناه من الّذي يريد هدم الاسلام و تخريب قواعده بمعاول التقطيع والتفرقة و لكنا نريد ان نسأل من ذلك الكاتب[1] أيّ طبقات الشيعة اراد هدم الاسلام .

الطبقه لاولى هم اعيان الصحابة و أبرارهم كسلمان و ابى ذر و المقداد و عمّار و خزيمة ذو الشهادتين و ابن التيهان و حذيفة اليمان و الزبير و الفضل بن العباس و اخوه الحبر عبدالله بن عباس و هاشم بن عتبة المرقال و ابو أيّوب الانصارى و أبان و اخوه خالد إبنا سعيد بن العاص الأموى وابيّ بن كعب سيّد القرّاء وانس بن الحرث الّذي سمع من الرسول ان ابني الحسين يقتل في ارض يقال لها كربلا فمن شهد ذلك منكم فلينصره فخرج انس وقتل مع الحسين (كمافي الاصابة والاستيعاب) ولواردت ان اعدّ الشيعة من الصحابة واثبات تشيعهم من نفس كتب السنّة لا حتجت إلى كتاب ضخم وقد كفاني مؤنة هذا علماء الشيعة راجع الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة للسيد عليخان صاحب السلافة وطراز اللغة الذي هوا نفس كتب اللغة و قال العلامة محمد الحسين آل كاشف الغطاء رضوان الله عليه انى جمعت ماوجدته في كتب تراجم الصحابة كالاصابة واسدالغابة والاستيعاب ونظائرها من الصحابة زهاء ثلثماة رجل من عظماء الصحابة من غير بنى هاشم كحمزة و جعفر و عقيل بل عثمان بن حنيف و سهل بن حنيف و ابي سعيد الخدرى و قيس بن سعد بن عبادة رئيس الانصار و بريدة و البراء بن مالك و خبّاب بن الارت و رفاعة بن مالك الانصارى و هند بن ابي هالة وجعدة بن هبيرة المخزومى و بلال بن رباح المؤذّن و لكن ما ادرى أهولاء كانوا ارادوا هدم الاسلام ام امامهم و سيّدهم امام الشيعة و اخو النبيّ على بن ابيطالب الّذي يشهد الثقلان انه لولاسيفه ومواقفه في بدر واُحد و

(١) بل المكاتب اوالحاطب

حنين و الأحزاب لما اخضر للاسلام عود وماقام للدين عمود حتّى قال احد العلماءمن المعتزلة ولا يخفى على القارى أنّنى لست إلاّ الناقل والراوى .

الا انما الاسلام لولا حسامه كعفطة عنز او قلامة ظافر

نعم لولا حسامه ومواقفه بعد الهجرة وحماية ابيه قبل الهجرة هذا في المدنية وهذا في مكة لقضت قريش وذؤبانا لعرب على الاسلام في مهده و خنقته وهوفي حجرامه و لكن جزاء ابي طالب من المسلمين ان يحكموا بانه مات كافراً اما ابوسفيان الذي ما قامت راية حرب على النبي الا و هوسائقها و قائدها و ناعقها والذي اظهر الاسلام كرها ومازال يبطن بكفره وعدائه للاسلام هذا بحكم المسلمين مات مسلما وابوطالب مات كافراً !إنتهى

قدأشرنا الى قول بعض المستأجرين و صرّحنا بأنّه من الخائنين المعروفين في الأدب والدين والعجب أنه وصف بالجناية في مصره على لسان زكى مبارك شريك عصره .
ويقول بل يتقوّل ومماكان يتّصل بعقايد الفرس الدينيّة وكان له اثر في بعض المسلمين انهم كانوا ينظرون الى ملوكهم كأنّهم كائنات الهيّة اصطفاهم الله للحكم بين الناس وخصّهم بالسيّادة وايّدهم بروح منه فهم ظل الله في ارضه ، اقامهم على مصالح عباده . وليس للناس قبلهم حقوق وللملوك على الناس السمع والطاعة ـ وهومعنى يشبه ماعرف في اروبا بنظريّة (الحق الالهى) وسادت فيها في القرنين السادس عشر والسابع عشر و يقول الاستاذ (برون) لم تعتنق نظرية الحق الالهى بقوّة كما اعتنقت في فارس في عهد الملوك الساسانيّة وقدكان الأكاسرة يزعمون ان لهم الحق وحدهم ان يلبسوا تاج الملك بمايجرى في عروقهم من دم الهى ومن هنا نعلم انّ اولى الأمر هم ذووالقدرة والسلطة .

و يستدلّ الاستاذ نولدكه على اعتناق الفرس لهذه النظريّة بحكاية وردت في كتاب الأخبار الطوال وهي ان بهرام جوبين لم يكن من بيت الملك وقد طلب الملك و حارب كسرى أبرويز فهزمه كسرى فهرب ، مرّ في طريقه بقرية فنزلها في اصحاب له و نزلوا في بيت عجوز فاخرجوا طعاماً لهم فتعشّوا واطعموا فضلته العجوز ثمّ أخرجواشرابا فقال بهرام للعجوز ماعندك شيء نشرب فيه ؟ قالت عندي قرعة صغيرة فأتتهم بها فجبّوا راسها وجعلوا يشربون فيها ثمّ اخرجوانقلاً ، وقالوا للعجوز أما عندك شيء يجعل عليه

النقل ؟ فأتتهم بمنسف[1] فالقوا فيه ذلك النقل فأمر بهرام فسقيت العجوز ثمّ قال لها ــ ماعندك من الخبر أيّتها العجوز ؟ قالت الخبر عندى ان كسرى أقبل بجيش من الروم فحارب بهرام فغلبه واستردّ منه ملكه قال فما قولك في بهرام ؟ قالت : جاهل احمق يدّعى الملك وليس من اهل بيت المملكة فقال بهرام ولهذا يشرب في القرع ويتنقل من منسف فجرى مثلا في العجم يتمثّلون به .

فالآن استمعوا من امّ العروس تسترّ بعض الفرس وحاربوا الدولة الامويّة: وما في نفوسهم إلّا الكره للعرب ودولتهم والسعى لاستقلالهم ثمّ نقل عن المقريزي واعلم ان السبب في خروج اكثر الطوائف عن ديانة الاسلام . ان الفرس كانت من سعة الملك وعلوّ اليد على جميع الامم وجلالة الخطر في أنفسها بحيث انهم كانوا يسمّون أنفسهم الأحرار والأسياد وكانوا يعدّون ساير الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على ايدي العرب وكان العرب عند الفرس اقل الامم خطراً . تعاظمهم الأمر وتضاعف لديهم المصيبة .وراموا كيد الاسلام بالمحاربة في اوقات شتّى وفي كلّ ذلك يظهر الله الحقّ .. فرأوا ان كيده على الحيلة انجع فاظهر قوم منهم الاسلام واستمالوا اهل التشيّع باظهار محبّة اهل البيت و استشباع ظلم عليّ ثمّ سلكوا بهم مسالك شتّى حتّى اخرجوهم عن طريق الهدى أقول ما أقلّ حياءك وأصلب وجهك إنّما اشكو بثّى وحزنى إلى الله .

قل لمن ملّ هوانا وتولّى و جفانا — و لمن أعرض عنّا بعد ماكنّا وكانا
من تبدّلت علينا ومن اخترت سوانا — نحن لا ندري انك بم اخترت فلاناوفلانا
نحن لا نعجل بالاخذ على عبد عصانا — قل لنا اي قبيح قدجرى منّا و بانا
كم تتبّعنا مراضيك ولم تتبع رضانا — كم دعوناك الينا و علينا تتوانا
كم امرناك و خالفت هوانا في هوانا — هكذا الحرّ الموافي هكذاكان جزانا

ثمّ خرج من جلده وعرّف استانه فلها وزن فانّه ذهب إلى ان العقيدة الشيعيّة نبعت من اليهوديّة اكثر ممّا نبعت من الفارسيّة مستدلا بأن مؤسسها عبدالله بن سبا[2]

(١) كمنبر الغربال الكبير .

(٢) رجل مصنوع مخلوق افكاراساتذة الخائنين بالاسلام و صار هذا المدبر مدبر اذاعتهم وناشر أفكارهم و امينهم .

ويميل استاذه الاخر دوزى إلى ان اساسها فارسى فالعرب تدين بالحرّية و الفرس بالملك و لا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة ، وقد مات محمد ولم يترك ولداً فاولى الناس بعده ابن عمّه عليّ بن أبي طالب فمن أخذ الخلافة منه كابى بكر وعمر وعثمان والامويّين فقد اغتصبها من مستحقّها وقد اعتاد الفرس ان ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى الهى فنظروا هذا النظر نفسه الى عليّ وذرّيّته وقالوا ان طاعة الامام اوّل واجب وان اطاعته اطاعة الله و لعلّك مللت أيها القارى ولعلّى ضللت بنقل الترهّات .

قيل ان مجرماً تقدّم إلى منبر التوبة واخذ يسرد خطاياه . فقال يا ابانا لقد قطعت الطريق السابلة . فقتلت خمسة رجال وسلبتهم مالهم . ولكن هذه خطيئة بسيطة لاتعلّق على خنصري ثمّ احرقت بيتاً بمافيه . وفي جملة المحروقات ثلاثة أطفال، ولكن هذا ايضاً لاتعلق على خنصري .

ثمّ هاجمت ابنة منفردة في الحقل و كانت ترعى بقرة أبيها فافترعتها بالجبر ولكن هذه ايضاً بسيطة لاتعلّق على خنصرى . وتابع الرّجل سرد أمثال هذه الواقعات معقّباً على كلّ منها بعبارة لاتعلّق على خنصري . و بعد ان تعب من السرد ، و تعب الكاهن من استكشاف تلك الحياة الزاخرة بالفضايل . . . اعطاه الكاهن الحلّة و غادر كرسيّ الاعتراف . فلما توسّط الكنيسة لحق به المجرم و قال ياابانا نسيت خطيئة لم أبح بها فقال وما هي أجاب لقد اكلت لحماً في أثناء الصوم فقال يابنيّ اذا كانت الخطايا الباهظة لم تعلّق على خنصرك فهذه لاتعلّق على رجلى اذهب بسلام .

للنهار عين واحدة و هى الشمس انما لليل الوف الالوف من العيون للجسد عينان انما للعقل الف عين قد يحلّ ظلام حالك على عيون العقل فيتقلقل نظامه و تبقى عين الجسد تنظران ما حولهما وقد تنزل ظلمة ابديّة على عينى الجسد فتبقى عيون العقل على حالها بل قد تزداد قوتّها اضعافاً فتخرق حجب الظلام الكثيفة وترى من عجايب هذا الكون مالا يراه الفلكى الحادّ البصر ولا النسر المحلّق في اعلى طبقات الجوّ ان الناس يزعمون ان حياة الاعمى هى حياة ظلام دامس و كآبة مستديمة يقولون هل لمن فقد

بصره من ينابيع فرح يروى منها غليله ؟ وهم في هذا و ذاك و اهمون .

الدنيا مرآة إذا نظرت فيها وانت مكفهر الوجه وجدت نفسك عابساً وإذا ضحكت رأيت نفسك ضاحكاً فمبعث السعادة انت وانت مبعث الشقاء فلا تلومن الدهر إذا كنت ساخطاً فاين الدهر و متى كان هناك دهر ومن هو هذا الدهر قال النبي الاعظم لا تسبّوا الدهر فان الدهر هو الله و في الامالى قال الشريف المرتضى فان الله هو الدهر .

فالسعادة امامك مدّ يدك إليها و خذها ، الوف من البشر لهم عيون تنظر ولكنهم حقيقة عميان و الوف لهم عيون لا تنظر ولكنّهم ينظرون قد تستغرب هذا و تزعم عكس ذا ما اسهل النقد وا كثر النقّاد لمجرّد الانتقاد لكلّ مسألة في الحياة وجهان وجه قاتم مظلم و اخر نيّر بهي وانا اعتقد ان لا مندوحة لنا عن النظر إلى احد هذين الوجهين .

ما من عمل حسنا كان اورديئاً الا و يجد انصاراً مستحسنين و خصوماً مهجنين فالحسناء لا تعدم ذامّا كما ان الفولة المسوسة تجد كيّالها الاعمى فانا لم استغرب قيام بعضهم للرد على بعض ولا أنا ممّن يكرهون الانتقاد اويدعون العصمة ولا انا أجهل المثل من صنّف فقد استهدف و انّما الّذي استغربته صرف كلامي إلى غير وجهته و تأويله على غير مفهومه فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيه القتال رايت الذين في قلوبهم مرض تريهم ينظرون إليك نظر المغشّي عليه من الموت فاولى لهم طاعة و قول معروف .

هذا هو الحق احببنا ام كرهنا فلما ذا اذاً ننظر العلّيقة و نتعامى عن الزنبقة ؟ لما ذا نحدق بالغراب الناعب و نسمع صوت البوم و النعيب و نغضّ طرفنا ونصمّ آذاننا عن سماع اغانى الهزار و العندليب كل ذلك بإرادتنا و في عهدتنا و قدرتنا ان نسير انفسنا في الطرق الجميلة ، ألا ترى ان كلتيهما شمعة ، تلك التي تفنى بسكينة امام الجامع و الجامعة و تلك الّتي في يد اللّص يستنير بها ليسرق .

اقول هذا للشبيبة و الناشئة فانهم في ريعان الشباب يميلون للنظر إلى الوجهة السوداء و لكن إذا يرجعون البصر كرّتين و يجدّدون النّظر مرّتين لا يهتمون بما يرون أن بعض ابناء الحياة يسوّدون صفحاتها بمنكراتهم و ينكرونها فانّهم قسم من ابناء الحياة الشاذّين و ليسوا الكل في الكل .

الابتسامةعلامة الابتهاج وبشيرة الارواح الحساسة،الابتسامة عدوة لجيوش الهموم تهاجمها فتمزق شملها شذر مذر،الابتسامة مرآة الباطن ، الابتسامة لسان القلب ،كل شي في الكون ابتسامة الابتسامة سبب لتعارف القلوب الابتسامة واسطة فعالّة تجعل العدّو صديقاً،الابتسامةدواءللقلوب المنكسرة الابتسامةامضى سلاح للنساء ،رب ابتسامة ينكسر بها القلب وابتسامة ينجبر بها الابتسامة موهبه الهيّة يتفجّر فيها ينبوع السعادة لكافة البشر،في لمعان البروق ورعد الصواعق وخرير الماء وتغريد الطيور ابتسامة النور والضوء و اللّون و الجمال و الروض والربّيع و الورد و روض الورد كلها ابتسامة - جميع الكائنات تبتسم - السحر بنسيمه و الصباح بفجره و الشمس بطلوعها والمساء بشفقه و الليل بضوء قمره و لمعان نجومه ، والشبيبة بغضارتها والشيبة ببياضها و السماء ، بامطارها والارض بمراعيها و الكلام بمعناه والبصر بغمزه والغناء بوزنه و الموسيقى بتوافق ألحانها،ضحك الاطفال كنغمات البلابل وضحك النساء كرائحة الرّياض العطرة وضحك الرجال كأصوات الصواعق اذفى ضحك الاطفال عصمة و في ضحك النّساء شفقة و في ضحك الرجال عزم وثبات ، الابتسامة هى الّتى تستقبل الآتين إلى عالم الوجود الابتسامة هى الّتي تودّع الرّاحلين إلى عالم البقاء فالعالم هو الّذى يجعل حياته إبتسامةً و ضحكاً و يبتعد عن إراقة دمعة في زمانه الضحوك المبتسم .

فيسكن في البيت الضحوك ، ويشارك في حياته من تضحك وتبتسم و يتّخذ احياءً يضحكون و يمضى سحابة حياته في الضحك و الابتسام [١] .

عني التاريخ بالبحث عن علوم ايران قبل الاسلام وذكر المورّخون مكتباتها الشهيرة كمكتبة اصطخر الّتي كانت ام مكتباتنا و معدن علومنا و ذخائرنا في الفلسفة والطبيعات و الرياضيات و كانت كتبها موضوعة بالفهلوية و منقوشة على احجار خاصة و لمااستولى الاسكندر على اصطخرامر بترجمة مارتبط منها بالنجوم والطب و الطبيعة إلى القبطية و الحقها بمكتبة اسكندرية في مصر .

و مكتبة قهندزوكانت كتبها بالفهلويةمنقوشةعلى الواح الشجردفنت بامرطهمورث

---

(١) ٣٢٨ ج ۴ المورد الصافي .

ملك الفرس و عثروا عليها في اوائل القرن الرابع الهجرى و كان من جملتها زيج قيّم استخرج منها زيج الشهريار المعروف حسب ماجاءفي كتاب اختلاف الزيجات لابي معشر البلخى و مكتبة اردشير بابك و ابنه شابور فانّهما امرا بجمع كتب الفلسفة اليونانيّة و الهنديّة وكتب ساير العلوم وترجمتها إلى الفهلوية فانتعشت النهضة العلمية في عهدهما.

و مكتبة جنديشابور للملك انوشيروان الذي استظلت الفلسفة بلوائه ـ لقد كانت الفلسفة و الدين في بدء تكونهما متآلفين لانهما متحدين في الغاية و كانت معرفة مبدء العالم ومصيره ودراسة الالوهية و صفاتها و افعالها و آثارها من اهم عناصر الفلسفة و هذا سرّ مايتراءى في الفلسفة الشرقيّة وفي الفلسفة اليونانية التي تكوّنت على التحقيق من العناصر الشرقية من مظاهر الانعطاف نحو العقيده فان مزج الدين بالفلسفة إنماهو من مقتضيات الطبيعة الانسانيه و الفطرة البشّرية و غريزة التعقل و لذلك لا يخلوا من هذا الانعطاف و هذا المزج دور من ادوار الفلسفة حتّى فلسفة دكارت وكانت ، وغيرهما من اعلام الفلسفة الحديثة .

وقد اثبت التاريخ قبل الاسلام ان الفلسفة اعانت على اعداد الشعوب المسيحيّه لان المسيحيّة الخالصة و الفلسفة الصحيحة كانتا متآلفتين و متعاضدتين ما دامت المسيحية ثابتة على ناموس الفطرة و لما تغيرت وانحرفت عن الفطرة انكرت الفلسفة إنكاراً شديداً و انتهى الأمر بالفلسفة إلى ان التمست لها مقرّاً لا يتسلط فيه حزب المسيح فهاجرت إلى الفرس و استظلّت بلواء الساسانيّين .

واكرم انوشيروان مثوى الفلاسفة المشردين من روما و أمرهم بتاليف الكتب في المنطق و الفلسفة و ترجمت مؤلفاتهم إلى الفهلويّة و عنى بمطالعتها انوشيروان وعقدلهم مجلساً للمناظرة و امر أيضاً بترجمة جملة من الكتب السانسكريت إلى الفارسيّة واحدث البيمارستان في جنديشابورو احضر له الاطباء من الهند و اليونان لتدريس الطب الهندى و اليونانى و اجتمعوا فيه الطالبون من النواحي و برزوا في الطب قال جمال الدين القفطى

في اخبار العلماء باخبار الحكماء

حارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب في وقته اصله من ثقيف من اهل الطائف رحل إلى ارض فارس و اخذ الطب عن اهل تلك الديار في جنديشابور في الجاهلية و قبل الاسلام و جاد في هذه الصناعة وطب بارض فارس و عالج و حصل له بذلك مال هناك و شهد اهل بلد فارس ممن رآه بعلمه و كان قد عالج بعض اجلائهم فبرأ و أعطاه مالا و جارية ثم ان نفسه اشتاقت إلى بلاده فرجع إلى الطائف و اشتهر طبه بين العرب قال عبد الرحمن بن ابى بكرة قال الحارث بن كلده وكان من اطب العرب من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء و ليخفف الرداء وليقل غشيان النساء .

قال محمد بن زياد الاعرابي و كان له تقدم في النحو و اللغة خفة الرداء ان لا يكون عليه دين قال ابو عمرو و مات الحارث بن كلدة في اول الاسلام ولم يصح اسلامه كذا وهو سهوقال وامر رسول الله صلى الله عليه وآله سعد بن أبي وقاص بأن يأتيه فيستوصفه في مرض نزل به فيدل على انه جايز ان يشاور أهل الكفر في الطب إذا كان من اهله وكان الحارث ابن كلدة يضرب العود تعلم ذلك أيضاً بفارس و اليمن و بقى إلى زمن معاويه فقال له معاوية ما الطب ياحارث فقال الأزم يامعاوية يعني الجوع[1] سمية جاريته هي ام زياد بن ابيه الذي الحقه معاوية بنسبه و ذكر ان اباسفيان وطئها بالطائف سفاحا فحملت بهمنه وولدت قبل زياد ولدين احدهما ابوبكرة و نافع اخوه فانتسبا إلى الحارث و ادعيا انه وطى مولاته فولدتهما منه و ادرك الحارث بن كلدة الاسلام و كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأمر من كانت به علة ان يأتيه فيسأله عن علته .

قال سعد مرضت فاتانى النبي صلى الله عليه وآله يعودنى فوضع يده بين ثديى حتى وجدت بردها على فوأدى فقال انك رجل مفؤد ايت الحارث بن كلدة اخاثقيف فانه يتطبب و روى محمد بن اسحق عن اسحق عن اسمعيل بن محمد بن سعد بن ابى وقاص عن ابيه قال مرض سعد و هو مع رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع فعاده رسول الله فقال يا رسول الله ما اراني إلّا لمابي فقال عليه السلام انى لأرجو أن يشفيك الله حتى يضربك قوم و ينتفع بك آخرون

(١) والمراد الحمية كما قال (ص) البطنة بيت كل داء والحمية رأس كل دواء .

ثم قال للحارث بن كلدة عالج سعداً ممّا به فقال والله انى لأرجو شفاءه فيما معه في رحله هل معكم من هذا التمر العجوة شيء قالوا نعم فخلط له التمر بالحلبة ثم أوسعها سمناً ثم احساه اياه فكأنّما انشط من عقال .

ايران والعلم هذه السلالة الاصيلة الّتى تنتمى إليها ايران وهذه البيئة القويّة غذت الّتي ملكاتها الموروثة هيّأ لها ان تفاخر بفلاسفة ومفكّرين اضاؤا من طريق الانسانية المظلم اشواطاً فسيحة فقليل من الشعوب من له ان يساميها بمفكّرين نظروا في الوجود قبل ستّماة قرن ونقل عنهم الحكيم السبزوارى بقوله :

الفهلويّون الوجود عندهم حقيقة ذات تشكّك تعم
مراتباً غنىً وفقراً تختلف كالنور حيثما تقوّى وضعف

و بشعراء وادباء ما برح يهتف باسمائهم قلب كل ذى قلب يهفو للحكمة و يشيد بالجمال وأين الحكمة ان لم نجدها في بستان السعدى وديوان الحافظ وافكار النظامى و أشعار الفردوسى وحكم الخيّام و امثال الناصرخسرو والالوف من نظاهرهم وأمثالهم من علماء وفقهاء والادباء الّذين انبثقت من عقولهم الحضارة الاسلاميّة الباذخة الّتي اتّخذت من شيخ الطائفة مؤسس حوزة النجفيّة دعائمها الراسخة ولكن اخصب نواحي هذه الثقافه الرفيعة الّتي غذت الانسانيّة اجيالاً تلواجيال هي ناحية الفنون الجميلة ففيها اعتزّ الشرق بايران قدر مافاخر الغرب بالاغريق .

يرجع تاريخ الفنّ الايرانى الى نيّف و خمسة و عشرين قرناً حين ازدهر في عهد الدولة الهخامنشيّة ٥٣٦ ـ ٣٣٠ ق م التى شادت ملكا امتدّت من اقصى الهند إلى اقصى مصر . فقد قام ملوك هذه الدولة ـ كورش و داراو... قصوراً باذخة البناء رفيع العماد عاشوا فيها عيشة المجد والنعيم فكانت سقوفها مصفحة بالمعادن النفيسة مطعمة بقطع متقابلة من العاج والآبنوس ، تنبعث مما فيها من احجار كريمة اضواء مختلفة الالوان فوق جدر غطيت بستائر موشاة باسلاك الذهب والفضة ، وارض فرشت بالخزف الملوّن النفيس.

ومع أنّهم استعانوا في بناء هذه القصور بمن استقدموهم من مصر واستخدموهم من غيرها إلّا ان لها طابعاً خاصّاً يميّزها عن المعابد الفرعونيّة فلم تكن أعمدتها ضخمة

متقاربة تكتظّ بها الردهات بل دقيقة متباعدة قريبة الشبه بالعمائر الأغريقيّة . ذلك ان نظرة الايرانيّين إلى الجمال اقرب إلى نظرة الاغريق منها الى نظرة المصريّين فلم يحفلوا بالضخامة الباذخة الّتي تضفي روعتها على معابد مصر و تماثيلها بل تلمّسوا الجمال في الدقة المتناسقة التي امتازت بها آثار اليونان ثمّ ذوي الروح الفنّي كثيراً بعد ان قضي الاسكندر على الدولة الهخامنشيّة ولم يستعد مجده إلّا بعد ان قامت الدولة الساسانيّة حين اتّخذ طابعاً قوميّاً واضحاً معبراً عن الشعب الّذي اخذ ينضو عنه ثوب الهزيمة و المهانة و يثار لكرامته ممّن عداعليها . فظهرت النقوش الوطنيّة الّتي تخلد امجاد الشعب ومفاخره ، مثل نقش رستم . الّذى يمثّل امبراطور الروم و لرين (فالبريان) راكعاً امام قاهره كسرى شاهبور الاوّل .

وقد حفلت أمصار الدولة الساسانيّة بقصور رائعة حسبنا ان نذكر منها ايوان كسرى الّذى اتّخذه العرب في صدر الاسلام رمزاً للبذخ والثراء و السطوة . فحجرة العرش فيه يمتدّ طولها ١٢١ قدماً وعرضها ٨٥ قدماً . وتفرش كلها بقطعة واحدة من السجاد هي بساط كسرى وكان رسم البساط يمثّل حديقة في فصل الربيع . رسمت ورودها و ازهارها بقطع من الذهب و الفضّة ، و مثلت جداولها و طيورها بقطع من الاحجار الكريمة وهذا يدل على ان الفنون الفرعيّة قد بلغت في ذلك العهد ذروة الدقّة والاتقان و بزّ الفن الايراني ساير الفنون في الصناعات اليدوية الدقيقة تجلت فيه دقة الذوق الايرانى و كذلك ازدهر فنّ صناعة الخزف فابدعوا منه تحفاً محكمة الصنع دقيقة الزخارف متناسقة الالوان و بلغت هذه الصناعة ذروتها منذ الفتح الاسلام حتّى غزا المغول ايران في اواسط القرن السابع وبلغوا في فن نقش المعادن مابلغوه في صناعة الخزف فخلّفوا من الأواني والسيوف والدروع المنقوشة ماينبيء عن ملكة بالغة في التنسيق والتعبير . رغم ان اكثر نقوشهم كانت اوراقاً نباتيّة اوصوراً آدميّة اورسوماً هندسيّة و ربما كان فنّ اخراج الكتب اهمّ الفنون الفرعيّة في ايران فكان نوابغ الخطاطين الّذين ارتقوا بفنّ الخطّ إلى درجه فنّ الرسم - يفنّنون في كتابتها ، ثمّ تجمل بصور صغيرة بديعة التنميق والتكوين تمثل ماتروي من قصص و وقايع ، ثمّ تذهب و تجلد فتخرج آية تدعو الى

الإعجاب والواقع انّ الخطّ الفارسي فنّ رائع جميل بلغ من تفنّنهم فيه ان صارعنوانا للفن الاسلامي وقد أنجبت ايران جماعة من نوابغ الخطّاطين حتّى اعترف العرب بان اشهر خطّاطيهم وهوابن مقلة لم يكن الاتلميذ خطّاطا ايراني ولفلاسفة إيران من قديم الزمان حتّى الان اقوال مأثورة وآراء مسطورة وهي ممّا يعقده الشاعر فيحلو به نظمه ويتمثّل به الخطيب فيؤثّر كلامه و يستشهد به المجادل فتقوّى حجّته ولاتزال تلك الحكم من قديم الدهر باقية للآن دالة بحفظ الناس لها على مكانتها من نفوسهم ولزومها لتحلية كلامهم و تقوية حججهم وزيادة التأثير بهاعلى سامعيهم ولذلك ترى أنّه اذا اصيب احد بنكبة مثلاً واردت تعزيته بما شئت من ضروب الملاهى وشتّى المسلّيات فلا يبلغ ذلك من فؤاده بعض ماتبلغه حكمة مأثورة قيلت في شأن المصائب . و من أجل هذاعدّ القول من اشرف موهوبات الله للانسان ومن اجلّ مميّزاته عن ساير المخلوقات كما عدّ التفاوت في مراتبه من جهة التأثيرمن اجلّ مميّزات الانسان عن سواه من بنى نوعه على خلاف ساير المواهب المكتسبة والعزيزيّة التي يقلّ به التفاوت وتتداني معها المراتب . وكثيراً ما سمعنا عن الرجل الفرد في موارد مختلفة انه كان يلقى العبارة الواحدة فيقتاد بها الالوف ويزحف بها الصفوف إلى الصفوف ولقد صدرعن الحكماء بين متقدمين ومتأخّرين اقوال كثيرة هى ملء الاوراق ملء الاسماع منتشرة بين اثناء الكتب و ساير في الافواه وإليك بعض الامثال الفارسيّة اوالحكم المنثورة نظمت بالعربيّة لأجل أن تكون أجمع للحفظ واسرع بالحافظة منهم احمد بن محمّد ابو الفضل السكرى المروزى ترجم امثال الفرس بالمزدوج:

من رام طمس الشمس جهلا اخطا	الشمس بالتطين لا تغطّي
احسن ما في صفة الليل و جد	الليل حبلى ليس يدرى ما تلد
من مثل الفرس ذوى الابصار	الثوب رهن في يد القصّار
ان البعير يبغض الحشاشا	لكنه في أنفه ما عاشا
قال الحمارمن سقوط في الوحل	ما كان يهوى و نجا من العمل
نحن على الشرط القديم المشترط	لا الزّق منشق ولا العيرسقط
في المثل الساير للحمار	قد ينفق الحمار للبيطار

العنز لا يسمن إلاّ بالعلف لا يسمن العنز بقول ذي لطف
البحر غمر الماء في العيان و الكلب يروى منه باللسان
لاتك من نصحى ذا ارتياب ما بعتك الهرّة في الجراب
من لم يكن في بيته طعام فما له في محفل مقام
كان يقال من أتى خوانا من غير ان يدعى إليه هانا

و مما احتويه من ذلك بعد المزدوجه

إن الماء فوق غريق طما فغاب قناة و الف سوا
إذا وضعت على الراس التراب فضع من اعظم التل ان النفع عنه يقع
في كل مستحسن عيب ولا ريب ما يسلم الذهب الابريز من عيب
ما كنت لو اكرمت استعصى لا يهرب الكلب من القرص
طلب الاعظم من بيت الكلاب كطلاب الماء في لمع السراب
من مثل الفرس سارفى الناس التبن يسقى بعلة الآس
تبختر اخفاء لما فيه من عرج و ليس له فيما تكلّفه فرج

و له أيضاً

ما اقبح الشيطان لكنه ليس كما ينقش او يذكر
انتهز الفرصة في حينها و التقط الجوز إذا ينثر
يطلب اصل المرء من فعله ففعله عن اصله يخبر
فررت من قطر إلى منقب علىّ بالوابل مثعنجر
ان تأت عورا فتعاور لهم و قل اتاكم رجل اعور
خذه بموت تغتنم عنده الحمّى فلا يشكو و لا يجار
الباب فانصب حيث ما يشتهى صاحبه فهو به أبصر
الكلب لا يذكر في مجلس إلاّ ترى اي عند ما يذكر

و اما الايران بعد الفتح الاسلامی إلی استقلالها السياسی في سنه ٢٥٣ فقد سارت على ضوء التعاليم الاسلامية في الحالات الاجتماعية و الخلقية والادبية و الثقافية حسب ناموس الارتقاء و كانت مراكزها العلمية كالبخارى و نيشابور و بغداد غاصة بمكتبات

خصوصية و عمومية و كانت مكتبة أبى الوفاء في الهمدان تحتوى على مختلف انواع الكتب و كان فيها ثلاثمأة ديوان لأشهر مشاهير شعراء الجاهلية جمعمنها أبو تمام الطائى كتابه المعروف بديوان الحماسة و نبغ منها في هذا العصر ائمة المذهب و ائمة الادب منهم احمد بن حنبل المروزى ومحمد بن اسمعيل البخارى و ابن المقفع وابوحنيفة النعمان ابن ثابت بن زوطى بن ماه الاصفهانى ثم تجلت آثارهذا النبوغ الثقافى في اكمل مظاهرها بعد استقلال ايران السياسى إذ تأسست مكتبات ضخمة و كثر المولفون و تغير منهاج التأليف و زيدت مواد الدراسة وقد الف الفضل بن شاذان المتكلم النيسابوري مائة و ثمانين كتاباً و الف احمد بن محمد بن خالد البرقى القمى كتاب المحاسن في اخبار الامامية من الف كتاب كما ذكر في اول كتابه وجمع ابوعبدالله البخارى كتابه الجامع في الحديث من ستمائة الف حديث في ستة عشر سنة .

ونبغ لهذا العصر في ايران ائمة الفلسفة والادب و الدين منهم الفارابى وابن سينا و الخيام و الزمخشرى و الغزالى والفردوسي ومحمد بن زكريا الرازى و نعمان بن محمد بن منصور (ابو حنيفه) الشيعى قاضى مصر و مؤلف دعائم الاسلام و أبو ريحان البيرونى رفعوا راية العلم و الادب و اخذوا بالابتكار و اكتسبوا الافتخار و كانت بغداد عاصمة الممالك الاسلامية لهذا العصر عاصمة العلوم و مهتمة بجميع مظاهر التمدن و تاسيس المكتبات العمومية و الخصوصية على طراز جديد اتخذه هرون في بيت الحكمة وحسن تكميله في ايام ابنه المامون وبعده بجمع الكتب من اليونان والهند و الفهلوى و احضار المترجمين لها من الاقطار قال الطبرى عنى بقوله تعالى يستبدل قوماً غيركم العجم من عجم فارس

مستدرك الحاكم عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله لوكان الايمان معلقاً بالثريا لنا له رجال من العجم و ان تتولوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم يعنى الموالى و انهم خيراً منهم فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين قال المجلسى فسر القوم بالشيعة او اولاد الاعاجم وفي تفسير الطبرى عن أبي هريرة كان سلمان إلى جنب رسول الله فقالوا يا رسول الله من هؤلاء القوم الذين أن تولينا استبدلو ابنا فضرب النبي صلى الله عليه وآله على منكب سلمان فقال من هذا و قومه و الذي نفسى بيده لو أن الدين

تعلّق بالثريّا لنالته رجال من أهل فارس و فيه عنه لتناوله رجال من الفرس .

روى سليم بن قيس الهلالي قال كان لزياد بن ابيه صديقاً تشيّع فاقرانی کتاب معاوية إلى زياد اما بعد فانك كتبت تسألني عن العرب من اكرم و من اهين ومن اقرّب و من اباعد و من اومن و من اخيف و انّي يا اخي ، لأعلم الناس بالعرب إلى ان قال و انظر إلى الموالي ومن اسلم من الأعاجم فخذهم بسنّة ابن الخطّاب! فانّ في ذلك خزيهم وذلّهم لن ينكح العرب فيهم ولا ينكحونهم وان يرثهم العرب ولا يرثونهم وان تقصر بهم في عطائهم وأرزاقهم وان يقدّموهم في المغازی يصلحون الطريق و يقطعون الشّجر ولا يؤمّ منهم العرب في صلاة ولا يتقدّم احد منهم في الصفّ الاوّل اذا احضرت العرب إلّا ان يتمّ الصّف ولا تولّ احداً منهم ثغراً من ثغور المسلمين ولا مصراً من امصارهم ولا يلی احد منهم قضاء المسلمين ولا احكامهم فان هذه سنّة عمر فيهم ! وسيرته فيهم !ولعمري يا اخي لولا ان دية الموالي على النصف من دية العرب لما كان للعرب فضل على العجم فاذا جاءك كتابی هذا فاذّل العجم واهنهم واقصهم ولا تستعن بأحد منهم ولا تقض لهم حاجة فوالله انّك لابن ابي سفيان خرجت من صلبه و لا يخفى على احد كذب معاوية .

عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام قال سألته عن هذه الآية فسوف ياتی الله بقوم يحبّهم و يحبّونه قال عليه السلام الموالي و في مجمع البيان انّ رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عنهم فضرب يده على عاتق سلمان فقال هذا وذووه ثمّ قال لوكان الدين معلّقا بالثريّا لتناوله رجال من ابناء فارس . وفيه ايضاً في قوله تعالى مخاطبا للمقصّرين من مسلمي العرب وان تتولّوا يستبدل قوماً غيركم ثمّ لايكونوا أمثالكم .

انّ ناساً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا يارسول الله من هؤلاء الّذين ذكرهم الله في كتابه ؟ و كان سلمان إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وآله فضرب يده على فخذ سلمان فقال هذا وقومه والّذي نفسي بيده لوكان الايمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس .

عن كتاب الغارات عن عباد بن عبدالله الاسدي قال كنت جالساً يوم الجمعة وعلىّ عليه السلام يخطب على منبر من اجر و ابن صوحان جالس فجاء الاشعث فقال يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء(١) على وجهك فغضب فقال ليبيّنن اليوم من امر العرب ماكان يخفى فقال

(١) العرب تسمى الموالي الحمراء .

عليّ عليه السلام من يعذرني عن هؤلاء الضياطرة[١] يقيل احدهم يتقلب على حشاياه[٢] ويهجر قوم لذكر الله فيأمرني ان اطردهم فاكون من الظالمين و الّذي فلق الحبّة و برء النسمة لقد سمعت محمداً صلى الله عليه وآله يقول ليضربنّكم والله على الدين عوداً كما ضربتموهم عليه بدواً قال مغيرة[٣] كان علي عليه السلام اميل إلى الموالي والطف بهم وكان عمر اشدّ تباعداً منهم و توضيح هذا القول وبيانه جاء بقلم جبران خليل جبران في عقيدتي انّ عليّ بن ابيطالب اوّل عربيّ لازم الروح الكليّة وجاورها وسامرها وهو اوّل عربيّ تناولت شفتاه صدي أغانيها فردّدها على مسمع قوم لم يسمعوا مثلها من ذي قبل فتاهوا بين مناهج بلاغته و ظلمات ماضيهم فمن اعجب بها كان اعجابه موثوقاً بالفطرة و من خاصمه كان من ابناء الجاهليّة .

مات ابن ابيطالب شهيد عظمته مات و الصّلوة بين شفتيه مات و في قلبه الشوق إلى ربّه ولم يعرف العرب حقيقة مقامه ومقداره حتّى قام بين جيرانهم الفرس اُناس يدركون الفرق بين الجوهر والحصى .

مات قبل ان يبلغ العالم رسالة كاملة وافية غير أنّني أتمثّله متبسّماً قبل أن يغمض عينيه من هذه الارض مات شأن جميع الأنبياء العباقرين الّذين يأتون إلى بلد ليس بلدهم و إلى قوم ليس بقومهم في زمن ليس بزمنهم ولكن لربّك شأناً في ذلك وهو أعلم .

امالي طوسي باسناده ان طايفة من اصحاب امير المؤمنين عليّ بن أبيطالب عليه السلام مشوا إليه عند تفرّق الناس عنه وفرار كثيرهم إلى معاوية طلباً لما في يديه من الدنيا فقالوا يا امير المؤمنين اعط هذه الاموال وفضّل هؤلاء الاشراف من العرب وقريش على الموالي و العجم ومن يخاف عليه من الناس و فراره إلى معاوية فقال لهم امير المؤمنين أتأمرونّي ان اطلب النّصر بالجور[٤] وهذا دين الله كما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله روي الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن ابي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن

---

(١) ضياطرة هم الضخام (٢) حشايا الفرش .

(٣) هو صاحب معاوية والشاهد لما يريد والمعروف ان شاهد الثعلب ذنبه .

(٤) مضى في اول الكتاب .

مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذاالاوس والخزرج قدقاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ (يعني هذا المنافق بالرجل النبيّ ﷺ و ان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الّذي يدعو الفارسي و الرومي والحبشي إلى نصره ؟ فقام إليه معاذ بن جبل فاخذ بتلبيبه ثمّ أتى النبيّ ﷺ فاخبره بمقالته فقام النبيّ ﷺ مغضباً يجرّ رداءه حتّى دخل المسجد ثمّ نودي : انّ الصلوة جامعة ــ قال ﷺ :

يا ايّها الناس انّ الربّ واحد والاب واحد وان الدين واحد وليست العربيّة باحدكم من اب ولا ام وانّما هي اللسان ،فمن تكلّم بالعربيّة فهو عربي فقام معاذ،فقال فما تأمرني بهذا المنافق يارسول الله ؟ قال دعه إلى النار .

أرأيت لوظلّ المسلمون على هذه التربية المحمّديّة و التعاليم العلويّة أكان وقع بينهم من الشقاق و الحروب باختلاف الجنس واللغة كلّ ماوقع و أدّى بهم إلى هذا الضعف العام أرأيت لوحافظوا على هذه الاُخوّة الاسلاميّة أكانت هذه الفئة الخائنة بالانسانيّة أن تستعمر الشرق والبلادالاسلاميّة ستّماة مليون اوزهاء سبعماة كمايقولون مسلم لوقاموا على الطريقة واستقاموا على الصراط لسادوا على الناس كما سادآبائهم على الدّنيا ، قاتلوهم حتّى لاتكون فتنة ويكون الدّين كلّه لله .

ان القرآن شرّع دين التوحيد و توحيد الدين لجميع البشر وهذا مالابدّ منه هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلّه دعا الاسلام البشر كلّهم إلى دين واحد فكانوا يدخلون فيه افواجا حتّى امتدّ في قرن واحد ما بين المحيط الغربى إلى الهند و لولا ماطرأ عليه من الابتداع وعلى حكوماته من الظلم و الاستبداد و على شعوبه من الجهل والفساد و التفرّق بالاختلاف لدخلت فيه البشريّة باسرها قال رشيد رضا صاحب المنار في ج١١ من تقريره لتفسير المفتى الاسبق اعنى المرحوم الشيخ محمد عبده قال احد كبار علماء الآلمان في الآستانه لبعض المسلمين و فيهم احد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا ان نقيم تمثالامن الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا برلين قيل له لماذا ؟ قال لانه هوالّذي حوّل نظام الحكم الاسلامى عن قاعدته الديمقراطية

إلى عصبيّة الغلب ولولا ذلك لعمّ الاسلام العالم كله ولكنّا نحن الآلمان و ساير شعوب اوربة مسلمين فالاسلام محجوب[١] بمكتبه وفي كامل المبرّد[٢] عن محمد بن المنتشر الهمداني قال :

دفع الّي الحجاج آزاد مرد بن هرمزو أمرني ان استخرج منه و اغلظ عليه فلما ناطقت به قال لي يا محمد ان لك شرفاً و ديناً و انّي لا أعطى على القسر شيئاً فاستاذن و ارفق بي قال ففعلت فادى إلي في اسبوع خمسماة الف قال فبلغ ذلك الحجاج فاغضبه و انتزعه من يدي و دفعه إلى رجل كان يتولى العذاب فدّق يديه و رجليه ولم يعطهم شيئاً قال محمد بن المنتشر فاني لأمّر يوماً في السوق إذا صائح بي يا محمد فالتفت فاذا به معرضاً على حمار مدقوق اليدين والرّجلين فخفت الحجاج ان آتيته و تذمّمت منه فملت إليه فقال لي انك وليّت مني ماولّي هؤلاء فاحسنت وانهم صنعوا بي ما ترى ولم اعطهم شيئاً و هيهنا خمسماة الف عند فلان فخذها فهي لك قال فقلت له ما كنت لآخذ منك على معروفي اجراً ولا ارزاك على هذه الحال شيئاً قال اما إذ ابيت فاسمع أحدّثك، حدثّني بعض اهل دينك عن نبيّك ﷺ انه قال (إذا رضى الله عن قوم امطرهم في وقته وجعل المال في سمحائهم واستعمل عليهم خيارهم وإذا سخط عليهم استعمل عليهم شرارهم وجعل المال عند بخلائهم و امطرهم المطر في غير حينه) قال فانصرفت فما وضعت ثوبي حتّى أتاني رسول الحجّاج فامرني بالمسير إليه فالقيته جالساً على فرشه والسيف منتضى في يده فقال ادن، فدنوت شيئاً ثم قال ادن ادن، فدنوت شيئاً ثم صاح ثالثا ادن لا اباً لك، فقلت ما بي إلى الدنوّ من حاجة وفي يد الامير ما ارى فاضحك الله سنّه واغمد سيفه عنّي فقال لي اجلس ما كان من حديث الخبيث فقلت له ايها الامير والله ما غششتك منذ استنصحتني ولا كذبتك منذ استخبرتني ولاخنتك منذ ائتمنتني ثم حدّثته الحديث فلماصرت إلى ذكر الرجل الّذي المال عنده اعرض عني بوجهه و اومأ إليّ بيده وقال لا تسمّه ثم قال ان للخبيث نفساً وقد سمع الاحاديث .

و نظيره و في معناه ما قال النبيّ ﷺ إذا كانت امراءكم خياركم و اغنياءكم سمحاءكم و اموركم شورى بينكم فظهر الارض خير لكم من بطنها و إذا كانت امراءكم

(١) ج ١ ص ٢٠٦ . (٢) يقول جمال الدين بالمسلمين إى مكتب معاوية .

شراركم و اغنياءكم بخلاءكم و اموركم بيد نساءكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها .

و قال ابن خلدون في مقدمته للتاريخ العربى فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم إلّا في القليل النادر و ان كان منهم العربى في نسبته فهو عجمى في لغته و مرباه و مشيخته مع ان الملّة عربيّة و صاحب شريعتها عربّى و السبب في ذلك ان الملّة في اوّلها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة و البداوة و انما احكام الشريعة الّتي هي اوامر الله و نواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع و اصحابه و القوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التعليم و التأليف و التدوين ولا دفعوا إليه ولا دعتهم إليه حاجة و جرى الامر على ذلك من الصحابة و التابعين و كانوا يسمّون المختصّين بحمل ذلك و نقله القرّاء اي الّذين يقرؤن الكتاب وليسوا اميّين لان الاميّة يومئذ صفة عامّة في الصحابة[1] بما كانوا عربا فقيل لحملة القرآن يومئذ قرّاء اشارة إلى ذلك هذا فهم قرّاء لكتاب الله والسنّة المأثورة عن الله لأنّهم لم يعرفوا الاحكام الشّرعية إلّا منه و من الحديث الّذي هو في غالب موارده تفسير له و شرح فلما بعد النّقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج إلى وضع التّفاسير القرآنيّة و تقييد الحديث مخافة ضياعه ثم احتيج إلى معرفة الاسانيد و تعديل النّاقلين للتميّز بين الصّحيح من الاسانيد و مادونه ثم كثر استخراج أحكام الوقعات من الكتاب و السنّة و فسد مع ذلك اللّسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحويّة وصارت العلوم الشرعيّة كلها ملكات في الاستنباطات و الاستخراج و احتاجت إلى علوم اخرى و هي وسائل لها من معرفة قوانين العربيّة وقوانين ذلك الاستنباط و القياس و الذبّ عن العقايد الايمانيّة بالأدلّة لكثرة البدع و الإلحاد فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التّعليم فاندرجت في جملة الصنايع وقد كنّا قدّمنا أن الصّنايع من منتحل الحضر و أن العرب أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضريّة و بعد عنها العرب و عن سوقها و الحضر لذلك العهد هم العجم او من في معناهم من الموالي و اهل

---

(١) قلنا فى السابق ان التدوين وكتابة الاخبار و الاحاديث فى الاسلام شرع وشرع من اوائل القرن الاول وفى حياة النبى صلى الله عليه وآله .

الحواضر الّذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة و أحوالها من الصّنايع والحرف لانّهم أقوم على ذلك للحضارة الرّاسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه و الفارسی من بعده و الزّجاج من بعدهما و كلّهم عجم في أنسابهم و أنّ أهل فارس كانوا من أوّل القائمين بخدمة اللّسان العربی و ضبط اصوله و تأسيس فنونه كالرّضی و عبد القاهر الجرجانی مؤسّس علوم البلاغة لبيان اعجاز القرآن و فهم دقائقه على قدر الطاقة البشريّة اول من عنی بالبيان العناية الواجبة و وضع له القواعد و القوانين الشيخ عبد القاهر الجرجانی فوضع كتابيه اسرار البلاغة و دلائل الاعجاز .

و قام بعده السكاكی و ألّف كتاب مفتاح العلوم و لكنه لم يدرك شأوه في لطف الحسّ و صفاء الديباجة و براعة الكلام . و تلا السكاكی جلال الدين بن عبد الرحمن القزوينی فهذّب ما وضعه السكاكي و ضمّ إليه نتفاً ممّا وضعه الجرجانی فخرج الكتاب وتخرج منه الكتّاب وسمّاه تلخيص المفتاح واستفاد بعضهم من هذا الفصل كثيراً من الفاظه .

قال الفاضل الجلبي صاحب كتاب كشف الظنون و من الغريب الواقع ان علماء الملّة الاسلاميّة في العلوم الشرعية و العقليّة أكثرهم من العجم و قليلهم من العرب و السبب في ذلك ان الملّة في أوّلها لم يكن فيها علم و صناعة لفصاحتهم و عدم احتياجهم إلى ذلك و تعنتّهم في احوال البداوة و إنّما الاحكام الشرعيّة كان الرجال يحفظونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب و السنة بما تلقّوه من صاحب الشرع ﷺ و أصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا امر التدوين ولادعتهم إليه حاجة إلى عصر التابعين فكانوا مختصّين بحمل ذلك و نقله عنهم القرّاء و الرّوات و احتيج إلى التدوين فدوّن في دولة الرشيد كثير من ذلك ثمّ بدا في وضع ما ورد في التفسير القرآني و الاحاديث النبويّة خوف الضياع ثم احتيج بعد ذلك إلى معرفة الاسانيد و تعديل الرواة ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب و السنة و كان فسد مع ذلك اللسان فاحتيج إلى وضع القوانين النحويّة و صارت العلوم الشرعيّة كلها ملكات في الاستنباط والنظر والقياس واحتاجت إلى علوم اخرى تكون وسيلة لها كقوانين العربيّة و قوانين الاستنباط والقياس و الذب عن العقايد بالادلة القاطعة فصارت هذه الادّلة كلّها علوما محتاجة إلى التعليم

فاندرجت في جملة الصنايع والعرب أبعد الناس عنها و صارت العلوم لذلك حضرة والعجم و من في معناهم حضر لان جميع الحضر تبع للعجم في الحضارة و أحوالها من الصنايع و الحرف لانهم اقوم على ذلك للمحاضرة الراسخة فيهم فمنهم بعد دولة الفرس صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى و الزجاج كلهم عجم في انسابهم اكتسبوا لسان العرب بمخالطتهم العرب و حرّروا قوانين بعدهم وكذلك المحدثون و الحفّاظ أكثرهم عجم و مستعجمون باللغة و كذلك علماء اصول الفقه كلهم عجم و أكثر المفسرين من العجم و لم يقم احد بحفظ العلم و تدوينه مثل الاعاجم اما العرب الّذين ادركوا هذه الحضارة و خرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الريّاسة في الدولة العباسيّة و ما رفعوا إليه من العناء ما يملك عن القيام بالعلم مع ما لحقهم من الانفة عن القيام بالعلم لكونه من جملة الصنايع والرؤساء منهم يستنكفون عن الصنايع واما العلوم العقلية فلم تظهر في تلك الدولة وجملتها صناعة فاختصت بالعجم فهم سبّاق حلبة العلوم وفرسان معركة المنطوق والمفهوم فنالوا من الحكم اعلاها و تناولوا من العلوم اسناها .

محمد رستم الساعاتى - اصله من خراسان قدم دمشق و أقام بها و كان اوحد أهل زمانه في علم الفلك قال ابن أبى اصيبعه و صنع الساعات الّتي عند باب الجامع بدمشق صنعها في زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى و كان له الانعام الكثير و الجامكية و الجراية لملازمته صنع الساعات إلى ان توفّى .

على حين أننا لا نجد بين قوادّ الجيش إلّا اسماء قوم من الموالى فان وظايف الدواوين كانت وقفاً على الاحرار و كان الفرس هم شحنة دواوين الخلافة .... فمنهم البرامكة وآل ذي الرياستين يقول الاصطخرى وإلى يومنا هذا منهم المادرائيون والفريابيون ولمّا كانت الصبغة الغالبة على عمّال الدواوين هى الصبغة الاقتصادية المالية فقد كان لابدّ للواحد منهم من ان تتوفّر لديه بعض خصال التاجر . وكان الفارسى أمهر تاجر في المملكة الاسلامية و لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام و اوصاهم بالتجارة اتجرّوا بارك الله لكم ولا تزال الكفاية الادارية موروثة في الفرس إلى يومنا هذا فيحدّثنا الخبير النمساوى الّذي قام بتنظيم البريد في فارس ان كلّ فارسي يحسّ من نفسه الصلاحية لكل عمل و هو لا

يترّدد في ان يدخل اليوم عملاً ادارياً مدنياً . و يقوم به . ثم يكون غداً في منصب حربي و هذه من خصال الفرس القديمة و يحكى انه كان لبختيار بن معز الدولة كاتب فارسي و كان مستولياً عليه ثم تحقّق بالجندّية و ادّعى الشجاعة . و اعاره الناس من ذلك ما لم يكن عنده تقرّباً إليه ثمّ عزم أخيراً على تقلّد الجيش والتسمية بالاسفهسالار .

و كانت الاساتذة كلهم تقريباً فرسا هاجروا إلى العراق او استوطنوا اصفهان بل يقال ان الجبائى المتوفى عام ٣٠٣ ألّف تفسيراً للقرآن بالفارسيّة .

لم يكن يرى فرقاً بين الاشراف و غيرهم ولا بين الموالى و غيرهم ولا بين العرب و من سواهم و هذا هو الاسلام قتل عبيدالله بن عمر بن الخطاب الهرمزان بعد قتل عمر ابن الخطاب وقد كان من اشراف ايران أسلم طوعاً فلم يقد عثمان عبيدالله وطالبه عليّ عليه السلام بان يقتل عبيدالله قصاصاً فلم يفعل و قال بالامس قتل أبوه فلا نقتله اليوم و هذا التعصب الاموى الّذي ظهر من عثمان كان ضربة قاضيةً على الاسلام فإنّ من سمع من الامم بان امراء المسلمين لايجرون على محض المساوات و لسنا بآمنين في بلاد المسلمين بل كانوا كاذبين في دعويهم بانا لانفرق بين العرب و العجم و نفروا اشدّ النفرة و تأخّر كثير من أهل فارس و غيرهم عن الدخول في الاسلام لذلك وطعن كثير من المسلمين على عثمان ولم يزل عليّ يتطلّب عبيدالله بن عمر بدم الهرمزان احقاقاً للحق واجراءً لقانون الاسلام حتّى قتله بصفّين و قال هذا بدم الهرمزان و علم النائون أن دين الاسلام دين العدل و لكن أقرباء عثمان كانوا متعصّبين لامساس لهم بالاسلام .

شبه الجزيرة تقع جزيرة العرب بين مدينتين كبيرتين ومدنيّتين عظيمتين اى مدنيّة الفرس في و مدنيّة رومان في غربها والاختلاط فيها من قديم خلف بعض الآثار في اللغة والادب من طريق التبادل المال والمعنوى ولكن هذا الاختلاط صار بعد الاسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات و الافكار و العقايد وصار مورداً فياضاً في الأدب فقد دخلوا في دين الله افواجاً واختلطوا في بيوت العرب وتكلّموا في الادب يفكّرون بالفارسيّة و الرومية و يتكلّمون ويكتبون بالعربيّة لغابهم مرسومة القواعد ولآدابهم مناهج واضحة ولحضاراتهم جوانب مشرقة فبالطبع تأثّروا بالآداب والعادات فقد اتسعت مادّة اللغة بما

اقتبست من الالفاظ الفارسيّة للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين وفي التشكيلات الاداريّة وتنظيم الحكومات و سياسة المملكة و مقتضيات التمدن و الحضارة وقد عقد جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر فصلاً لما اخذه العرب من الفارسية والرومانيّة و السريانيّة والقبطيّة ولكن اللغويّين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللّغات فنسبوا إلى بعضها ماليس منها وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين ان أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم فيسمّون البطيخ خربز والسميط اي المنتوف الصوف روذق وان اهل الكوفة يسمون المسحاة بال والسوق بازار وقد حكي أبومهدية الاعرابي بعض الفاظ اعجمية كانت فاشية في عهده وذكر منها على سبيل المثال :

يقولون لي شنبذ ولست مشنبذاً　طوال الليالى ما اقام ثبير
ولا قائلا زود آليعجل صاحبي　و يشتان في قولي علىّ كبير
ولا تاركا لحني لاتبع لحنهم　ولو دار صرف الدهر حيث تدور

فاصبح العنصر العربي و غيرهم ممتزجين تمام الامتزاج في فارس والشام و مصر و المغرب حتّى جزيرة العرب نفسها لم تعد جزيرة العرب بل صارت جزيرة المسلمين جميعاً.

في فتوح البلدان للبلاذرى ان ابرويز كان وجّه إلى الديلم فاتى باربعة آلاف . وكانوا خدمه وخاصّته . ثمّ كانوا على تلك المنزلة بعده ، وشهدوا القادسيّة مع رستم . فلما قتل وانهزم المجوس اعتزلوا . وقالوا ما نحن كهؤلاء . ولالنا ملجأ وأثرنا عندهم غير جميل ! والرأي لنا ان ندخل معهم في دينهم فنعزّ بهم فاعتزلوا ، فقال سعد مالهؤلاء ؟ فأتاهم المغيرة بن شعبة فسألهم عن امرهم ، فاخبروه بخبرهم وقالوا ندخل في دينكم فرجع إلى سعد فاخبروه فأمنّهم . فاسلموا وشهدوا فتح المدائن مع سعد ، وشهدوا فتح جلولاء ثمّ تحوّلوا فنزلوا الكوفة مع المسلمين .

ولما كان يسكن العراق امم مختلفة وتداولت عليه دول خلّفت فيه مدنيّتها وثقافتها وكان يسكنه قبيل الفتح الاسلامى بقايا من الامم القديمة مثل الكلدان و السريان وهم الّذين يلقّبون بالآراميين وكان يسكنه العرب من إياد وربيعة و كان يقيم به المناذرة الّذين أسّسوا ملك الحيرة . وكانت مدنية الفرس غالبة عليه لأنّ آخر من حكمه قبل

الاسلام هم الساسانيون من الفرس وظلّ في ايديهم زمناً طويلا إلى ان استولى عليه المسلمون في ايّام عمروكانت فيه المدائن عاصمة الساسانيّين كلّ هذا جعل العراق أكثر مايكون اصطباغاً بالفارسيّة فلمّا كان العبّاسيّون . وكان الفرس هم الّذين أعانوهم كان من هذا و ذاك نفوذ للفرس عظيم في المناصب وفي الثقافة من نواحيها المختلفة فأوّل ذلك الالفاظ : ذلك ان العرب لمّا تحضّروا وجدوا انفسهم امام اشياء كثيرة ليس لهم في الالفاظ مايدلّ عليها وكان ذلك في جميع مرافق الحياة من ادوات الزينة وانواع المأكل والملبس وآلات الغناء والدواوين ونظامها فسلكوا خير طريق لذلك وهو ان يتوسّعوا في مدلولات الكلمات العربية احياناً و يأخذون الكلمات الاجنبيّة احياناً و مصقولة بما يتفق و لسانهم احياناً وكانت اللغة الفارسيّة منبعاً كبيراً من المنابع الّتي تستمد منه اللغة العربيّة وتوسّع بها مادّتها .

حكي الصولي قال حدّثنا عليّ بن الصّباح قال سمعت الحسن بن رجاء يقول ناظر فارسي عربيّاً بين يدى يحيى بن خالد البرمكي فقال الفارسى ، ما احتجنا إليكم قطّ في عمل ولا تسمية ، ولقد ملكتم فما استغنيتم عنّا في اعمالكم ولا لغتكم ، حتّى ان طبيخكم واشربتكم ودواوينكم وما فيها على ماسمّينا . ماغير تموه كالاسفيداج والسكباج و الدوغباج ، وامثاله كثيرة وكالسكنجبين والخلنجبين و الجلاب وامثاله وكالرّوزنامج والاسكدار و الفراونك وان كان روميّا ومثله كثير - فسكت عنه العربى . فقال له يحيى ابن خالد قل له اصبر لنا نملك كما ملكتم الف سنة ، بعد الف سنة لانحتاج إليكم ولا إلى شيء كان لكم .

و يقول الجاحظ الا ترى ان اهل المدنية لمّا نزل فيهم ناس من الفرس في قديم الدهر علقوا بالفاظ من الفاظهم ولذلك يسمّون البطيخ بالخربز و كذا اهل الكوفة فانهم يسمون المسحاة بال واهل البصرة اذا التقت اربعة طرق يسمّونها مربعة يسمّيها اهل الكوفة بالجهارسو ويسمّون السوق أوالسويقة و ازار ويسمّون القثّاء خياراً .

من قديم تسرّبت الفاظ فارسية إلى اللغة العربيّة وكان ذلك بطريق التجارة او الاختلاط ولكنها تعدّ قليلة اذاقيست بالالفاظ الّتي دخلت في العصر العبّاسي للسبب

الّذي ذكرنا وهو ان العرب كانوا اكثر شعوراً باسباب الحضارة في العصر العباسي فكانوا اشدّ احتياجاً للاقتباس من الفرس ، ولان اللغة العربيّة لم تعد ملكاً للعرب وحدهم بل كانت ملكاً للعالم الاسلامي جميعه والعالم الاسلامي لا يتعصّب للغة العربيّة تعصّب العرب فهو يفتح صدره للغات الاخرى مادعا داع إليها .

فلمّا نشطت الحركة العلمية في العصر العباسي أخذ طائفة ممّن يجيدون اللسانين الفارسي والعربيّ ينقلون الكتب من الفارسيّة إلى العربية وقد عقد ابن النديم في كتابه الفهرست فصلاً لاسماء النقلة من الفارسي عبدالله بن المقفع آل نوبخت موسى و يوسف إبني خالد أبو الحسن على بن زياد الحسن بن سهل البلاذرى جبلة بن سالم اسحق بن يزيد محمد بن الجهم البرمكى هشام بن القاسم موسى بن عيسى الكردى زادويه بن هاشويه الاصفهانى محمد بن بهرام بن مطياء الأصفهانى بهرام بن مردان شاه عمر بن الفرخان .

وقد ترجم عبدالله بن المقفّع كتاب خداى نامه و هو في تاريخ الفرس من اوّل نشأتهم إلى آخر أيّامهم وقد سمّاه ابن المقفع تاريخ ملوك الفرس و الظاهر ان الطبرى اعتمد عليه في تاريخه عند كلامه على الساسانيّين و ترجم كتاب آئين نامه و معنى آئين النظم و العادات و العرف و الشرايع فالكتاب وصف لنظم الفرس و تقاليدهم و عرفهم و ذكر المسعودى أنه كتاب كبير يقع في آلاف من الصفحات كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية كتاب كليلة و دمنة ذكر الزمخشري في كتابه ربيع الابرار[١] أن الصحابة رض لما أتوا المدنية بسبى فارس في خلافة عمر بن الخطاب كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد ملك الفرس فباعوا السبايا و أمر عمر ببيع بنات يزدجرد أيضاً فقال على بن أبيطالب أن بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهنّ من بنات السوقة ، فقال كيف الطريق إلى العمل معهنّ قال عليه السلام يقوّمن و مهما بلغ ثمنهنّ قام به من يختار هن ! فقوّمن فاخذهن على بن ابيطالب فدفع واحدة لعبدالله بن عمر واخرى لولده الحسين واخرى لمحمد بن أبي بكر الصديق فاولد عبدالله ولده سالماً و اولد الحسين زين العابدين و اولد محمد ولده القاسم

(١) من نفائس الكتب الادبية التى رأيتها فى المكتبات الداخلية والخارجية ومن العجب انه لم يطبع بعد وقد ترجم تلخيصاً بالفارسية قديماً و نسختها موجودة فى مكتبة عارف حكمت وهذه المكتبة من اعظم المكاتب الاسلامية فى مدنية الرسول صلى الله عليه وآله رزقنا الله العود

فهؤلاء الثلثة بنوخالة وامّهاتهم بنات يزدجرد ويشك بعض الباحثين في نسبة هؤلاء البنات الى يزدجرد و لكن يظهر أن ليس هناك شك في أنهن من خيرة بنات الفرس .

جاء في كتاب الكامل للمبرّد و كان أهل المدينة يكرهون اتّخاذ امّهات الاولاد حتّى نشأ فيهم علىّ بن الحسين و القاسم بن محمّد و سالم بن عبدالله ففاقوا أهل المدنية فقهاً وورعاً فرغب الناس في السّرارى .

لما أتى بالهرمزان أسيرا إلى عمر بن الخطاب قيل له يا أمير المؤمنين هذا زعيم العجم و صاحب رئيسهم فقال له عمر أعرض عليك الاسلام نصحاً لك في عاجلك وآجلك قال يا أمير المؤمنين انى أعتقد ما انا عليه ولا ارغب في الاسلام فدعا له عمر بالسيف فلماهمّ بقتله قال يا أمير ... شربة من ماء افضل من قتلي على ظمأ فامر له بشربة من ماء فلما اخذها قال انا آمن حتّى اشربها قال نعم فرمى بها وقال الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج قال صدقت لك التوقف عنك و انظر في امرك إرفعا عنه السيف فلما رفع عنه قال الان اشهد ان لا اله إلاّ الله و أن محمّداً عبده ورسوله و ما جاء به حقّ من عنده قال عمر اسلمت خير اسلام فما اخّرك قال كرهت ان تظنّ انى اسلمت جزعاً من السيف واتيان الرتبة بالرهبة فقال عمر انّ لاهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك ثم أمر به ان يبرّ ويكرم فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر و الجيوش لاهل فارس .

ذكروا أن ملكا من ملوك العجم كان معروفا ببعد الغور و يقظة الفطنة و حسن السياسة وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجّه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يظهر محاربته فيكشف عن ثلاث خصال من حاله فكان يقول لعيونه انظروا هل ترد على الملك أخبار رعيته على حقايقها ام يخدعه عنها المهدى ذلك إليه . و انظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته أفيمن اشتدّ أنفه وقلّ شرهه أم فيمن قلّ أنفه و اشتدّ شرهه . وانظروا في أى صنف رعيته القوّام بامره أمن نظر ليومه و غده أم من شغله يومه عن غده فان قيل له لا يخدع عن أخباره و الغنى فيمن قلّ شرهه و اشتدّ انفه و القوّام بامره من نظر ليومه و غده قال اشتغلوا عنه بغيره و ان قيل له ضد ذلك يقول اغتنموا الفرصة فان هذا زمانه و أوانه .

لما ورد سبى الفرس إلى المدنية اراد بعض الاعاريب أن يبيع النساء و أن يجعل

الرجال عبيد العرب و عزم على أن يحمل العليل و الضعيف و الشيخ الكبير في الطواف و حول البيت على ظهورهم فقال أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله قال أكرموا كريم كل قوم و أن خالفوكم و هؤلاء الفرس حكماء كرماء فقد القوا إلينا السلام و رغبوا في الاسلام وقد اعتقت منهم لوجه الله حقّي و حق بني هاشم .

سئل أبوعبدالله عليه السلام عن المجوس أكان لهم نبي قال نعم أما بلغك كتاب رسول الله إلى أهل مكة أن اسلموا و إلاّ نابذتكم بحرب فكتبوا إلى النبي صلى الله عليه وآله أن خذ منّا الجزية و دعنا على عبادة الاوثان فكتب إليهم انى لست آخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب فكتبوا إليه يريدون بذلك تكذيبه زعمت انك لا تأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب ثم أخذت الجزية من مجوس هجر فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله أن المجوس كان لهم نبي فقتلوه و كتاب احرقوه اتاهم نبيّهم بكتابهم في اثنى عشر ألف جلد ثور و في اثناء القرن الرابع الهجرى اعترف للمجوس بأنّهم أهل ذمة إلى جانب اليهود و النصارى وكان لهم كاليهود و النصارى رئيس يمثّلهم في قصر الخلافة وعند الحكومة وكانوا كثيرين بالعراق[1] و أكثر ما كانوا في جنوب فارس وفي سنه ٣٦٩ وقعت فتنة عظيمة بينهم و بين عامة شيراز من المسلمين و نهبت في هذه الفتنة دور المجوس و ضربوا فسمع عضد الدولة الخبر وجمع كل من له اثر في ذلك و بالغ في تأديبهم و زجرهم و لكن شيراز كانت مدينة هادئة في العادة وقد عجب المقدسى من انه لم يرفيها على مجوسى غياراً يميّزه و من انّ الاسواق تزيّن في اعياد الكفّار و في عام ٣٧١ مات احدكبار الصوفيّة فمشى في جنازته المسلمون و اليهود و النصارى و كانت في المفازة الّتي بشرق فارس مدينة و أهلها مجوس و كسبهم من كرى حميرهم[2] .

عن أبي عبدالله عليه السلام قال أتت الموالي أمير المؤمنين عليه السلام فقالوا نشكو إليك هؤلاء العرب انّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان يعطينا معهم العطايا بالسويّة وزوّج سلمان وبلالاً وصهيباً وأبوا علينا هؤلاء و قالوا لانفعل فذهب اليهم امير المؤمنين عليه السلام فكلّمهم فيه فصاح الاعاريب أبينا ذلك يا أباالحسن أبينا ذلك فخرج وهو مغضب يجرّ

(١) عقد الفريد ج ١ .
(٢) حضارة الاسلام نقلا عن المقدسى .

رداءه وهو يقول يامعشر الموالي ان هؤلاء قدصيروكم بمنزلة اليهودوالنصارى يتزوجون إليكم ولا يتزوجونكم ولا يعطونكم مثل ما يأخذون فاتجروا بارك الله لكم فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول الرزق عشرة اجزاء تسعة اجزاء في التجارة و واحدة في غيرها .

قال الصادق عليه السلام في بيان ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقراه عليهم ماكانوا به مؤمنين لو نزل القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم .

عن ابن نباته قال سمعت علياً عليه السلام يقول كانى بالعجم فساطيطهم في مسجد الكوفة يعلمون الناس القرآن كما أنزل .

مدح الموالي أي الاعاجم وانه كان رسول الله صلى الله عليه وآله مولاهم وانه لما سمع بعض العرب من النبي ان أنصار علي وأهل بيته عليهم السلام يكونون من العجم لذا حكم بقتل العجم جميعاً لما استولى على بلاد فارس فمنعه على عليه السلام عن ذلك .

قال رجل لابي عبدالله عليه السلام ان الناس يقولون من لم يكن عربياً صلباً أومولى صريحاً فهو سفلى فقال وأي شيء المولى الصريح فقال له الرجل من ملك أبواه قال ولم قالوا هذا قال لقول رسول الله صلى الله عليه وآله مولى القوم من أنفسهم فقال سبحان الله أما بلغك ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال أنا مولى من لا مولي له أنا مولى كل مسلم عربيها و عجميها فمن والى رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال أيهما أشرف من كان من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله أو من كان من نفس أعرابي جلف بايل على عقبيه ثم قال من دخل في الإسلام رغبة خير ممن دخل رهبة ودخل المنافقون رهبة والموالي دخلوا رغبة .

وهذا أحسن ما يقال في مدح الإيرانيين فأنهم عرفوا الدين و قدروه حق قدره نظير ما نقل هبة الدين الشهرستاني في كتابه ما هو نهج البلاغة عن أحد رجال الإرمن ومن فضلائهم في شأن نهج البلاغة و تفوقه على كل كلام عربى ثم قال ولو كان يرقي هذا الخطيب العظيم منبر الكوفة في عصرنا هذا لرأيتم مسجدها على سعته يتموج بقبعات الافرنج للاستسقاء من بحر علمه الزاخر .

الرجل الكبير فى الشرق

انّ الكبار من الرجال هداة في أممهم وانّما يظهر أثرهم في ارشادها والسير بها في الطريق المؤدّية إلى الغاية الّتى تطلبها وليسوا بخالقين ولا ناشرين من موت وانما تنجح الهداية فيمن رمي بفكره إلى المطلب وعرف انه أبعد عما فيه فتهيأً للسفر وتحفز للرحلة واخذلامره أهبّته واعدله عدّته واستقام على اوّل الطريق .

نعم الرجل الكبير موقظ من نوم اومنبّه من غفلة وليس بمحيي الموتى ولا بمسمع من في القبور فان كانت الامة في منخفض من المنازل قدضاق افقها فلاتعرف جوّاً غيرجوّها ولادوّاً غيردوّها كأن كان هواؤها وبيئاً وكان مسكنها وبيلا فهي تتململ في مكانها وتعتقد ان لامنفذ لها من هوائها فاذا وجد الرجل الكبير فأوّل مايخطر له ان يفعل هو ان يمدّ بصره إلى ما وراء أُفقها حتّى يعرف أن وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة ممّا هو فيه .

الرجل الكبير يحس و يتألّم و يدفعه الألم إلى أن يتكلّم بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد قومه وهم احبّ الناس إليه و يقاتلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة و هم اعزّ الخلق عليه و لكن قد يبلغ بهم العمي او قصر البصر أن يعدّوه عدوّاً لهم فاذا جاء عدوّهم الحقيقى و احسّوا شدّة الصدمة صاحوا و لكن صياح الثاكلة العاجزة فينتهى بهم الامر إلى الاضمحلال و ما بعد الاضمحلال إلاّ الزوال .

و إن كان ما بالامة ليس نوماً فيزول بالايقاظ ولا غفلة فتذهب بالتنبيه و إنما هو خدر شلّت به الاعصاب و ذبلت به العقول فما ذا يكون فعل الرجل الكبير .

يجهد عقله بالبحث عن الهواء ويستعمل مالديه من قوّة في معالجة الداء وهيهات أن يشعر به المريض بل هو تارة يضحك ضحك المستهزى و اخرى يبكى بكاء اليائس و ثالثة يضرب الطبيب بما حضر لديه حتّى يقضى عليه إذن فما الّذي يصنعه الرجل الكبير يسعى و يجد و يدأب و يكد ثم يموت محروماً من ثمرة عمله باكيا على خيبة امله و لكن هل ذلك كلّه يقضى على الكبير بان يصغر و هل يحكم على العظيم في نفسه بأن

يحقر كلاًّ فهو انّما يؤدّى واجباً عليه و على الله مأوراء ذلك و المرجع إليه [1].

السيد جمال الدين الاسدآبادى كان اسمر اللون بمايشبه أهل الحجاز ربعة ممتلىء ألبنية أسودالعينين نافذ اللحظ جذّاب النظر مع قصرفيه فاذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه و لكنه لم يستخدم النظارات و كان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجبة و سراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين و عمامة صغيرة بيضاء على زىّ علماء الآستانة .

كان قانتا قانعاً قليل الطعام لا يتناوله إلاّمرّة في النهار و يعتاض عمّا يفوته من ذلك بما يشربه من الشاى مراراً في اليوم و العفة في الطعام لازمة لمن يعمل اعمالاعقليّة لان البطنة تميت الفطنة و كان يدخّن نوعاً من السيكار الافرنجى الجيّد و لشدّة ولعه بالتدخين و عنايته في انتقاء السيكارلم يكن يركن إلى أحد من خدمه في ابيتاعه فيبتاعه هو بنفسه .

مجلسه و خطابه ، كان أديب المجلس كثير الاحتفاءبزائريه على أختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم و يخرج لودائعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظنّ في زيارته تزلّفاً . وكان ذاعارضة و بلاغة لايتكلّم إلاّ اللغةالفصحى بعبارات واضحة جليّة . و إذا آنس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فاذاكان السامع عاميّا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة ، وكان خطيباً مصقعاً لم يقم في الشرقاخطب منه . و كان قليل المزاح رزيناً كتوماً قد يخاطب عشرات من الناس في اليوم فيبحث مع كل منهم في موضوع يهمّه فاذا خرج جليسه كان خروجه آخرعهده بذلك الموضوع حتّى يعود هو إليه بشأنه .

اخلاقه ، كان حرّ الضمير صادق اللهجة عفيف النفس رقيق الجانب وديعاًمع انفة و عظمة ثابت الجاش قد يساق إلى القتلفيسير إليه سير الشجاع إلى الظفر و هذاأعظم ممّا يقول المتنبّى .

فاذالم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا

---

(١) ص ٣٧٢ الهلال ٤٧ . بقلم الشيخ محمد عبده الرجل الكبير فى الشرق .

و كان كريم النفس راغباً عن حطام الدّنيا لا يدّخر مالاً ولا يخاف عوزاً و ممّا رواه أحد تلاميذه أن جمال الدين لما أبعد من مصر أنزل في السويس خالى الجيب فاتاه السيد النقادى قنصل ايران في ذلك الثغر و معه نفرمن تجار ايران قدموا له مقداراًمن المال على سبيل الهدية أوالقرض الحسن فردّه و قال لهم (أحفظوا المال فأنتم إليه أحوج أن الليث لا يعدم فريسة حيثما ذهب) وكان مقداماً حاثّاًعلى الاقدام فلا يخرج جليسه من بين يديه إلّا وقد قام في نفسه محرض على العلى حاث على السعي في سبيلها و لكنّه كان على فضله لا يخلو من حدّة المزاج و لعلّها كانت من أكبر الاسباب لما لا قاه من عواقب الوشاية .

كان يقيم في أواخر أيّامه بقصر في شان طاش بالاستانة و فيه الاثاث و الرياش و عربة من الاصطبل يجرّها جواد ان وأجرى عليه السلطان رزقاً مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر .

فكان قبل مرضه الاخير يقيم معظم النهار في منزله فاذا كان الاصيل ركب العربة لترويح النفس في متنزّه كاغذ خانه بضواحى الاستانه و كان كثير القيام لاينام إلّاقليلاً .

و كان يقول أن الشرق لايصلح إلّا بمستبدّ عادل و بيانه أن الاحزاب في الغرب دواء وفي الشرق تستحيل إلى داء وإليك قسماً من مقاله في عروة الوثقى .

ليس ببعيد على همم الايرانيّين وعلوّافكارهم أن يكونوا أوّل القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية و تقوية الصلات الدينيّة كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه و حفظ احكامه وكشف اسراره وماقصروا في خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة نعم البخارى ومسلم و النيسابوري و الترمذى و النسائى و ابن ماجه و أبوداود و البغوى و أبوجعفر البلخى و الكلينى و غيرهم ممّن أنبتتهم أراضى ايران ـ أبوبكرالرازى الطبيب الشهير و الامام فخر الدين الرازى ممن نشأوا في طهران أبو حامد محمد الغزالى حجة الاسلام و أبواسحق الاسفراينى و خواجه نصير الدين الطوسى و البيضاوى و الابهرى و عضدالملّة و الدين و غيرهم من علماء الاصول و الكلام و التفسير ممّن تفتخر بهم بلاد فارس و هو فخار المسلمين ـ الفيلسوف الشهير أبو على بن سينا و شهاب الدين المقتول و من على

شاكلتهم ممّن جبلوا من تراب فارس أن أهل ايران كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط اصوله وتأسيس فنونه منهم سيبويه وابوعلي الفارسي والرضي وعبدالقاهر الجرجاني مؤسّس علوم البلاغه لبيان أعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشريّة وصاحب صحاح الجوهري من أحدي قراهم ومجد الدين الفيروزآبادي من أحدى القراء في فارس والزمخشري والسكّاكي و ابوالفرج و بديع الزّمان و غيرهم ممّن بيّنوا دقائق القرآن وشيّدوا معالم الدين كلّهم من أرض فارس والطبري اوّل المورّخين والاصطخري والقزويني اوّل الجغرافيّين كانوا من بلاد ايران الشبلي كان من نهاوند ابويزيد البسطامي والعارف المعروف الاستاذ الهروي من ايران هل ينسى صدر الشريعة وفخر الاسلام و الامدى والمرغيناني و الرضي و السعد التفتازاني والسيد الشريف والابيوردى كلّهم من إيران من أين كان القطب الشيرازي و الصدر الشيرازي و رأس الحكمة مير محمّد باقر الداماد وميرفندرسكي وان شئت الاطّلاع على نبوغه فعليك بمكتوبه للشيرازى .

قال السيد شرف الدين الموسوي قدس الله سرّه انّ للمؤمنين في تعظيم شعائرالله عزّ وجلّ بتشييد المعابد والمشاهد والمعاهد ايادي بيضاء غرّاء تستوجب الحمد والثناء ولاسيّما وما ادريك ما إيران شعب أخلص الله عزّ وجلّ في طاعته وانقطع إلى رسول الله و أهل بيته في ولائه ينهج في الدين سبيلهم و يقفو فيه إثرهم ولا يطبع إلاّ على غرارهم وله في تعظيم شعائرالله ومشاعرهم الّتي اذن الله ان ترفع بالقيام عليها غاية تتراجع عنها سوابق الهمم ولا سيّما ماكان منها في العراق وخراسان[1] .

و ان تعجب فعجب قول الفاضل المعاصر و هو الدكتور عبد القادر عميد الكليّة الشريعة بجامعة الازهر و يعجبني نقله بعين عباراته[2] اوّل مايلاحظ من ذلك الناحية الوطنيّة للحياة الحكوميّة ، فنرى ان الوطنيّة العربيّة في الإدارة الاسلاميّة قداختفت بمجيء العباسيّين فقد برزت إلى الميدان عناصر اجنبيّة . ولم يكن ظهورها مضعفاً لامر الدين في الواقع ، بل على العكس من ذلك قداعطت الامور الدينيّة قوة جديدة

---

(١) عقيلة الوحى .

(٢) نظرة عامة فى التاريخ الفقه الاسلامى ص ١٩٢ نقلا عن كتاب احسن التقاسيم للمقدسى.

لا يستهان بها ذلك ان تلك العناصر الاجنبيّة الّتي ظهرت الآن لاوّل مرّة لم تكن أقلّ من غيرها استعداداً للدين فالموالي الفرس ولا نذكر عناصر اخرى جاؤا معهم بالتقاليد الدينيّة الّتي كانت عندهم إلى هذه الدائرة الجديدة و أخذوا يترجمون إلى الاسلام المعاني الدينيّة الموروثة لديهم فمن اجل هذا كانوا في هذا الشأن من غير شك اقرب استعداداً من العناصر العربيّة الّذين خاصموا الاسلام أوّل الامر ولم يكرنوا بماضيهم على استعداد له و يحكى عن ابن قتيبة انّه قال : خراسان اهل الدعوة و أنصار الدولة لما أتى الله بالاسلام كانوا فيه أحسن الامم رغبة وأشدّهم إليه مسارعة منّا،من الله عليهم اسلموا طوعاً دخلوا فيه أفواجاً وهكذا أخذ اولئك يتصوّرون في الاسلام من أجل النواة الاولى الّتي كانت عندهم فكرة عالية عن الحياة الاجتماعية والعادية

وقال السيد جمال الدين الاسدآبادي بعدذكر الاسماء أي فضل كان ولم يكن للفرس فيه اليد الطولي أيّ مزيّة من الله بها على المسلمين ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها نعم وفيهم جاء من قول النبيّ ﷺ لوكان العلم في الثريا لنا له رجال من فارس .

فيا ايّها الفارسيّون تذكّروا أياديكم في العلم وانظروا إلى آثاركم في الاسلام و كونوا للوحدة الدينيّة دعامة كماكنتم للنشأة الاسلاميّة وقاية .

أنتم بما سبق لكم احق الناس بالسعي في استرجاع ماكان لكم في فتوّة الاسلام أنتم أجدر المسلمين بوضع اساس للوحدة الاسلاميّة وما ذلك ببعيد على طيب عناصركم وقوة عزائمكم .

و قال ابن خلدون و كذا حملة الحديث الّذين حفظوه عن الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللّغة و كان علماء اصول الفقه كلّهم عجماً كما يعرف و كذا حملة علم الكلام و كذا أكثر المفسّرين ولم يقم بحفظ العلم و تدوينه إلّا الاعاجم وظهر مصداق قوله ﷺ لو تعلّق العلم باكناف السماء لنا له قوم من اهل فارس .

و أنا أقول ان أباحنيفة و أحمد بن حنبل كليهما من إيران فالاوّل يسمّى الامام الاعظم والثاني هوالاستاذ الاكبر عسى أن نأتي إن شاءالله طرفاً من أحوالهما و أخلاقهما في فرصة اُخرى وكان أبو حنيفة قويّ الحجّة حتّى قال عنه الامام مالك إنّه رجل لو كلمته في هذه

السّارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته وهو اوّل من بوّب الفقه وحرّر فصوله ورتّب قياسه وقال فيه بالرأي لكثرة الوضّاعين من الزّنادقة .

وقد حذّر الامام الاعظم أبوحنيفة عن الأخذ بروايات أبي هريرة قال أبو يوسف قلت للامام أبي حنيفة الخبر يجيىء عن رسول الله ﷺ و يخالف قياسنا ما نصنع ؟ قال أبوحنيفة إذا جاءت به الرواة الثقات عملنا به و تركنا قياسنا فقلت : ما تقول في رواية أبي بكر و عمر عليهما السلام قال ناهيك بها قلت و عليّ و عثمان فقال ناهيك بها فلما رآني اعدّ الصحابة قال : الصحابة كلّهم عدول ، ما عدا رجالاً وعدّ منهم أباهريرة و أنس بن مالك . وقد ثبت كذب أبي هريرة قديماً و صرّح بها رجال التاريخ و الادب .

قيل أنّه كان لأبي حنيفة جار اسكاف بالكوفة يعمل نهاره أجمع فاذا جنّه الليل رجع إلى منزله بلحم و سمك فيطبخ اللحم و يشوى السمك فاذا دبّ فيه السّكر انشد أضاعوني و أيّ فتى اضاعوا ليوم كريهة و سداد ثغر ولا يزال يشرب ويردّد البيت إلى أن يغلبه السكر و ينام و كان أبوحنيفة يصلّي الليل كلّه و يسمع حديثه و إنشاده ففقد صوته بعض الليالي فسأل عنه فقيل أخذه العسس منذ ثلاثة أيّام وهو محبوس فصلّى الامام الفجر و ركب بغلته و مشى و استأذن على الامير فقال ائذنوا له و أقبلوا به راكباً حتّى يطاء البساط فلمّا دخل على الامير أجلسه مكانه و قال ماحاجة الإمام فقال لي جار اسكاف أخذه العسس منذ ثلاثة أيّام فتأمر بتخليته فقال نعم وكلّ من أخذ تلك اللّيلة إلى يومنا هذا ثم أمر بتخليته و تخليتهم أجمعين فركب الامام و تبعه جاره الاسكاف فلمّا وصل إلى داره قال له أبوحنيفة أترانا أضعناك قال لا بل حفظت ورعيت جزاك الله خيراً عن صحبة الجوار و رعايته ولله عليّ أن لا أشرب بعدها خمراً فتاب من يومه ولم يعد إلى ما كان عليه ـ و لهذا البيت قصّة أخرى ألطف من هذه حكاها الأصمعي و قال مررت بكنّاس يكنس كنيفاً و هو يغنّي و يقول أضاعوني آه فقلت له أما سداد الثغر فلا علم لنا كيف أنت فيه و أمّا سداد الكنيف فمعلوم قال الاصمعي وكنت حديث السنّ فاردت العبث به فأعرض عنّي مليّاً ثم أقبل عليّ و أنشد .

وأكرم نفسي إنّني أن أهنتها ... وحقّك لم تكرم على أحد بعدي

فقلت وأيّ كرامة حصلت لها منك و ما يكون من الهوان أكثر ممّا أهنتها بهفقال بلى والله من الهوان ما هو أكثر و أعظم ممّا انا فيه فقلت له و ما هو فقال الحاجة اليك والى أمثالك فقال فانصرفت وأنا أخزى الناس ولابأس أن نأتي بما في مجمل التواريخ.

هذا كتاب من محمّد رسول الله ﷺ سأله سلمان وصيّاً باخيه ماهان بن فرّوخ و أهل بيته و عقبه من بعده ما تناسلوا من أسلم منهم و من أقام على دينه سلم الله أحمدإليك الّذي أمرنى أن أقول لا إله إلّاهو وحده لاشريك له أقولها و أمر الناس بها و أن الخلق خلق الله و الامر كلمة الله خلقهم وأماتهم و هو ينشرهم وإليه المصير و انّ كل أمر يزول و كل شيى يبيد و يفنى و كل نفس ذائقة الموت من آمن بالله و رسولهكان له فيالآخرة دعة الفائزين و من أقام على دينه تركناه فلا أكراه في الدين .

فهذا كتاب لأهل بيت سلمان أن لهم ذمّة الله و ذمّتي على دماءهم و أموالهم في الارض الّتي يقيمون فيها سهلها و جبلها و مراعيها وعيونها غير مظلومين ولامضيق عليهم فمنقرىء عليه كتابى هذا من المؤمنين و المؤمنات فعليه أن يحفظهم و يكرمهم وسرّهم ولا يتعرّض لهم بالاذى و المكروه وقد رفعت عنهم جزّ الناصيه و الجزية و الحسر و العشر إلى ساير المؤن و الكلف ثم أن سألوكم فاعطوهم و أن استعانوا بكم فاعينوهم و أن استجاروا بكم فاجيروهم و أن أساؤا فاغفروا لهم وأن اسئى إليهم فامنعوا عنهم ولهم أن يعطوا من بيت مال المسلمين في كل سنة مأتي حلة في شهر رجب و مأة في الاضحية فقد استحق سلمان ذلك منا و لان فضل سلمان على كثير من المؤمنين و أنزل في الوحى علىّ أن الجنة إلى سلمان أشوق من سلمان إلى الجنة وهو ثقتى و امينى وتقىّ و نقىّ ناصح لرسول الله و المؤمنين و سلمان منّا أهل البيت فلا يخالفنّ أحد هذه الوصيّةفيما أمرت به من الحفظ و البرّ لاهل بيت سلمان و ذراريهم .

من أسلم منهم ومن أقام علىدينه ومنخالف هذه الوصيّة فقد خالف الله ورسوله و عايه اللعنة إلى يوم الدين و منأكرمهم فقد أكرمنى وله عند الله الثواب و منآذاهم فقد آذانى و أناخصمه يوم القيمة جزاؤه نار جهنم و برئت منه ذمّتي و السلام عليكم و كتب علي بن أبي طالب بامر رسول الله في رجب سنة تسع من الهجرة و حضر أبوبكر و

عمر و عثمان و طلحة و الزبيروعبدالرحمن و سعد و سعيد و أبوذر و عمّار و عيينهوبلال و المقداد و جماعة اخر من المؤمنين .

و في تاريخ بغداد ج ١ ص ١٧٠ عن عبدالله بن سلمان الفارسى أن النبي ﷺ املأ الكتاب على عليّ بن أبيطالب هذا ما فادى محمد بن عبدالله رسول الله فدى سلمان الفارسى من عثمان بن الاشهل اليهودى ثم القرطى بغرس ثلثمائة نخلة و أربعين اوقية ذهباً وقد برىء محمد بن عبدالله رسول الله لثمن سلمان الفارسى و ولاؤه لمحمد بن عبدالله عبدالله رسول الله و أهل بيته فليس لاحد على سلمان سبيل شهد على ذلك و كتب على ابن أبيطالب يوم الاثنين في جمادى الاولى من سنةمهاجر محمد بن عبدالله رسول الله ثمقال الخطيب في هذا الحديث نظرذلك أنأولمشاهد سلمان مع رسولالله ﷺ غزوةالخندق و كانت في السنة الخامسة من الهجرة ولو كان يخلص سلمان من الرق في السنة الاولى من الهواه لم يفته شيىء من المغازى مع رسول الله . وأيضاًفان التاريخ بالهجرة لميكن في عهد رسول الله ﷺ و أول من أرّخ بها عمر بن الخطّاب في خلافته .

أتي رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب فقال يا أمير ... عائذ بك من الظلم قال: عذت معاذاً : قال : سابقت ابن عمروبن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط و يقول انا ابن الاكرمين . فكتب عمر إلى عمر و يأمره بالقدوم عليه و يقدم بابنهعليه فقدم فقال عمر اين المصرى ؟ خذالسوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمرأضرب ابن الاكرمين ثم قال للمصرى ضعهعلى صلعةعمروقال الرجل ياأمير .. انما ابنه الّذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو مذكم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم امّهاتهم احرارا قال يا أمير ... لم أعلم ولم يأتنى اراد بعض الملوك أن يتعرف شخصيّة عمرويتبيّن العوامل الّتي جعلت حفنة من العرب تدوّخ الممالك وتبسط سلطانها على الامبراطوريات الضخمة العظيمة فبعث برسول فتلمس الرسول طريقه إلىعمر ، و إذا سأل الناس عنه أشاروا إلى رجل نائم إلى جانب جدار وهو يتوسّدعصاه . فقال عدلت فامنت فنمت و في تلك الواقعة يقول الشوقى في عمرياته .

وراع صاحب كسرى ان رآى عمرا	بين الرعية عطلاً و هو راعيها

و عهده بملوك الفرس أن لها سورامن الجند و الاحرار يحميها
رآه مستغرقا في نومه فرای فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا ببرده كاد طول العهد يبليها
فهان في عينه ما كان يكبره من الأكاسرة و الدنيا بأيديها
و قال قولة حق اصبحت مثلاً و اصبح الجيل بعد الجيل يرويها
امنت لما اقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها

في الوسايل عن كتاب الغارات عن أبي اسحق الهمداني ان امرأتين أتتا علياً عليه السلام عند القسمة احديهما من العرب والاخرى من الموالي فاعطى كل واحدة خمسة وعشرين درهماً وكراً من الطعام فقالت العربية يا امير المؤمنين إني امرأة من العرب وهذه امرأة من العجم فقال علي عليه السلام والله لا أجد لبني اسمعيل في هذا الفيء فضلاً على بنى اسحق وفيه عن محمد بن الحسن عن أبي عبدالله عليه السلام سئل عن قسم بيت المال فقال أهل الاسلام هم أبناء الاسلام اسوى بينهم في العطاء وفضائلهم بينهم وبين الله اجعلهم كبنى رجل واحد لا يفضل احد منهم لفضله وصلاحه في الميراث على آخر .

وفيه أيضاً عن محمد بن الحسن عن محمد بن أبي حمزة عن رجل بلغ به امير المؤمنين قال مر شيخ مكفوف كبير يسأل فقال امير المؤمنين عليه السلام ما هذا قالوا يا امير المؤمنين نصراني فقال عليه السلام استعملتموه حتى إذا كبر و عجز منعتموه انفقوا عليه من بيت المال

الاسلام هو الاسلام بين الانسان وحريته والحرية هبة الله لكل عباد الله ماميزت يوماً ولن تميز بين سيد قرشي وعبد حبشي اما ادعاء الانسان بان في قدرته ان يزوج الحرية من العبودية لتعيشا في سلام فهو قاتل السلام .

لو انفقت ما في الارض جميعاً ما الفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم كل ما تسمعونه أو تقرؤنه عن مساعي الامم والممالك و ساستها في مسالك السلام ليس اكثر من زيادة بلة في طين لانهم يحاولون اقتناصه بقانون يسنونه في مجلس او ميثاق يبرمونه في مؤتمر و يدعون حمايته بمدفع أو مدرعة وماكان السلام يوماً عنقاء تقتنص بشراك ولا شيخاً عاجزاً يحتاج إلى عصى ولا طفلاً قاصراً يحتاج إلى حمى لوأن السلام يحيى في اقفاص المواثيق

لما عرف العالم غير السلام ولو انه يعيش في افواه المدافع واحشاء المدرعات لما كانت المدافع ولا المدرعات انه لاقل بلاهة أن لا تأتمن هراً على فارة أو تكل حراسة الجنة لابليس من ان تأتمن مدفعا على السلام أو تجعل مدرعة حارسة له .

السلام الّذي أحدثكم عنه هو غير ما تعوّد الناس الكلام عنه باسم السلام فهو لا يبتدي و ينتهي بقولكم السلام هو اتزان في النفس وائتلاف في القلب هو شقيق المحبّة بل هو المحبّة روح الحيوة فتشّوا عنه في قلوبكم أما في غير القلب فعبثاً تفتشّون هناك في ذلك العالم المتناهي بحجمه اللامتناهي بقوته لا يسعنى أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدى المؤمن هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم فاذا وفقتم بين ما فيكم من نزعات تشدكم إلى فوق واخرى تجذبكم إلى أسفل وشهوات تسير بكم شرقاً واخرى تقودكم غرباً عرفتم السلام وكنتم في سلام مع العالم حتى وان كان العالم في اضطراب وإذا ما همست نفس احدكم في أذنه قائلة فلان عدوّى لأحذفه من الوجود إنتهرها قائلا فلان مني وأنا منه أن حذفته حذفت ذاتي وكيف احذف ذاتي بذاتي هل الوجود يحذف الوجود هكذا تتحول حربكم مع العالم إلى حربكم مع أنفسكم هي حرب ضروس أين من هولها حروب الجيوش و الاساطيل و لصعوبة معالجة النفس وانتزاع صفاتها الذميمة سمّى النبي ﷺ هذا النوع بالجهاد الاكبر لانه مقاومة العدو الداخلى ومكافحة الجهل والجبر والجور والظلم والكبر والغرور والحسد والشحّ أعدى عدوّيك نفسك الّتي بين جنبيك كلّما ربحتم معركة من معاركها اقتربتم من السلام والظفر حليف كل من حارب ويحارب نفسه بثبات وقوة حتّى النهاية .

مالم تعقد و اسلما مع أنفسكم فعبثاً تطلبون السلام فحيثما كانت المحبة كان السلام وحيث لا محبة لا سلام لقد يتذرع بعضكم بالطبيعة فيقول لي جميل هو السلام الّذي تحدّثنا عنه ولكنه لا وجود له إلاّ في الخيال ها هي الطبيعة لا تقوم إلاّ بالنزاع وقد جعلت الضعيف طعاماً للقوى الذئب يبطش بالحمل والصقر يمزق العصفور وقديماً قالوا الحق مع القوى و الحكم لمن غلب وهذا هو القانون الّذي يسمّونه بتنازع البقاء .

ليت من يقول هذا يتفحص الطبيعة ببصيرته لا ببصره اذن لخاطب نفسه هكذا الطبيعة جسد واحد يحيى بروح واحد و أنا ما سمعتها يوماً تقول هذا لي وهذا ليس لي

بل كلما فيها لها وهي لكل ما فيها فلا مالك ولا مملوك وهي ماجعلت الضعيف طعاماً للقوى إلا جعلت القوى طعاماً للضعيف فلا ضعف فيها ولا قوة ولا محاباة ولا تمييز وهي تستخدم كل قواها لتخلق البرغشة وتحييها .

ذاك شأن الطبيعة في كل اعمالها ماظهر منها وما استتر فلا نزاع فيها ولاخصام أنت تبخل بكسرة من خبز أنت يامن لايدين جاره المعوز فلساً إلا ليسترده فلسين أنى لك أن تدرك عفة قلب الطبيعة و سخاء روحها السموح عند ماتعطيك وتعطى كل أبنائها من ذاتها و بغير حساب .

الوجود معناه الحرية و الشعور بالحرية هو الشعور بالوجود و الحرية اختيار بين الكاينات ولكنه اختيار غير مبنى على أسباب وعلل بل ينبثق انبثاقاً بديهياً من الذات لانها الامكان للحرية و الارادة و العمل وكما ان الظل وصاحبه متلازمان فكذلك تنبثق الحرية وتلازم الذات ولا معنى للوجود بدون الحرية و ربما يخطر لك ان الوجود شيء ظاهر لايحتاج إلى بيان و شرح قيل أن أحد التلاميذ خرج من بين يدي الفاحص عابساً كئيباً . فسأله رفيقه المنتظر خارجاً عن سبب تجهمه. فاعلمه أنه تعذر عليه الجواب عن سؤال لفاحص واستفسره عن الموضوع الذي استعصى عليه فقال سألني عن ماهية العظم . فضحك الرفيق ماشاء الضحك هازئا برفيقه وتمنى لو يسأل مثل هذا السؤال البسيط .

واتفق أن دعى صاحبنا الساخر في تلك اللحظة إلى قاعة الامتحان وسأله الفاحص نفسه عن تركيب العظم . فاجاب أتحسبني غباً مثل رفيقي أغرق في كوبة ماء ؟ العظم ألا تعرف العضم ؟ ألا تأكل اللحم ألم تأكل راس الدجاج و تستخرج منه النخاع ألم تكسر العظم إذذاك ؟ وطبعاً فقد استحق صاحبنا علامة الصفر ولا تعجلن علينا ايها القارى فتحديد الوجود اصعب من تحديد العظم مفهومه من أبده الاشياء وكنهه في غاية الخفاء يقول أبو البركات الوجود أظهر من كل ظاهر وأخفى من كل خفي أما ظهوره فلان من يشعر بذاته يشعر بوجوده و الحرية تحمل حقيقتها معه مباشرة كما يحمل الزنجي لونه في وجهه فلاحاجة لشهادة خطه بانه أسود فللوجود ومعرفة الوجود متلازمان وهذا

ما يستعصى على الموضوعية الّتي تفرق بين الشاهد والمشهود عليه فحرّيتك هي ذاتك بعينها

قيل ان قروياً لبنانياً بسيطاً هاجر إلى أمريكا فمكث فيها بضع سنوات واقبلت عليه الدنيا فجمع ثروه مادّية تنحني لها رؤوس الرعاع . و خطر له ان يعود ففكّر في أهل قريته . و في السهرة الاولى الحافلة الّتي سيتألب فيها عليه اترابه و رفاق شبابه . و توقّع أن يسألوه عن امريكا وأن يدور الحديث على النوادر و الأحاجى . وكان يودّ الظهور بمظهر الذكي الّذي تتلاءم عبقريته مع ثروته فلا يتفوّق عليه ابناء قريته الصغيرة بل يتحتم عليه أن يبذّهم جميعاً لانه سكن الطبقة الاربعين من أحدى ناطحات السحاب في نيويورك . وشهد جسر بروكلن ومعامل فورد . وفي الحقيقة أن صاحبنا قد ازداد جهلا على جهل في أثناء هجرته و أصابه ما أصاب الغراب فلجأ إلى صديق له يشغل وظيفة في دائرة جوازات السفر . و اخبره عن اعتزامه العودة و سأله أن يعلّمه نادرة أو أحجية فاجابه إلى ما طلب و قال له باللغة العاميّة (أحدر شخص من اُمى و بيّى لاهواختى ولا هو خيّ) و فصيحها من هو الشخص المتّحدر من أمّى وأبي وليس باختى ولا بأخي؟ فأطرق صاحبنا الغبيّ ساعة وقال عجزت عن الحلّ فضحك صاحبه و قال عجباً كيف لم تحزهذا الشخص هو ، انا . فطرب المغفّل لهذا الجواب وقام يصفق بيديه فرحاً ويقول نعم هو هو : واستعاد الأحجية و حلّها مرّات وودّع صاحبها شاكراً و جاء لبنان فهرع أهل قريته للسلام عليه ليلة وصوله اظهاراً لشوقهم و سألوه مسائل شتّى وأنصتوا إليه و كان من الطبيعى أن يبادرهم بالأحجية كنزه الفكرى الوحيد ! ولما راى حيرتهم أرثى لجهلهم وقال مساكين أنتم فمتى تتمدّنون . بارك الله بامريكا . أن الشخص الّذي من امّى و بيّي ولا هواختى ولاهو خيّي هو مأمور جوازات السفر في نيويورك أمّا بعد فحرّيتك أيها القارى هي أنت لامامور الجوازات في نيويورك[١] .

اعتزل ذكر الاغاني و الغزل	وقل الفصل و جانب من هزل
ودع الذكرى لايّام الصبا	فلايام الصبّـا نجم افل

---

(١) لامية ابن الوردى .

انّ أهنى عيشة قضيتّها ذهبت لذّاتها و الإثم حل
و أترك العادة لا تحفل بها تمس في عز و ترفع و تجل
و اهجر الخمرة أن كنت فتى كيف يسعى في جنون من عقل
و اتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب أمريء إلّا وصل
ليس من يقطع طرقا بطلا إنّما من يتقى الله البطل
كتب الموت على الخلق فكم فلّ من جيش وافنى من دول
أين نمرودُ و كنعان و من ملك الارض و ولّى و عزل
أين من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكل و لم تغن القُلل
أين أرباب الحجى أهل النهى أين أهل العلم و القوم الأُول
سيعيد الله كُلّاً منهم و سيجزى فاعلاً ما قد فعل
أي بنيّ أسمع وصايا جمعت حكماً خصّت بها خير الملل
أطلب العلم ولا تكسل فما ابعد الخير على أهل الكسل
و أحتفل بالفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمال و خول
و أهجر النوم وحصّله فمن يعرف المطلوب يحقر ما بذل
لا تقلْ قد ذهبت أيّامه كلّ من سارعلي الدرب وصل
في ازديادا العلم إرغام العدى و جمال العلم اصلاح العمل
إطرح الدنيا فمن عاداتها تخفض العالى وتُعلى من سفل
عيشة الراغب في تحصيلها عيشةُ الجاهل فيها أو أقل
لا تقل أصلى و فصلى أبداً إنّما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرء من دون أب وبحسن السبك قد يُنفى الزّغل
إنّما الورد من الشوك و ما ينبُت النّرجسُ إلّا من بصل
قيمة الإنسان ما يحسنه أكثر الإنسان منه ام أقل
بين تبذير و بخل رتبة وكلا هذين إن زاد قتل
ليس يخلو المرء من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس جبل

دار جنب السوء بالصبر وإن ... لم تجد صبراً فما أحلى النقل
جانب السلطان واحذر بطشه ... لا تعاند من إذا قال فعل
غب و زر غباً تزد حباً فمن ... أكثر الترداد أضناه الملل
حبك الاوطان عجز ظاهر ... فاغترب تلق عن الاهل لبدل
فبمكث الماء يبقى آسنا ... وسُرى البدر به البدر اكتمل

الملوك كسرى في إيران قيصر في الروم هرقل في الشام خاقان في الترك تبّع في اليمن قيل في حمير مأرب في سبا نجاشي في الحبشة قال بعض الفضلاء في كتاب ألف باء وأما ابرويز وتفسيره المظفّر[1] كان له ألف فيل و خمسون ألف فرس وثلاثة آلاف أمرأة فيما ذكره الطبرى و هو الملقب كسرى .

لما قدم عبدالله بن حذافة بامر رسول الله ﷺ على كسرى قال يا معشر الفرس إنكم عشتم باحلامكم لعدة أيامكم بغير نبيّ ولا كتاب ، ولا تملك ! من الأرض إلاّ مافي يديك ، و مالا تملك منهم أكثر وقد ملك الارض قبلك ملوك أهل دنيا وأهل آخرة أخذ أهل الاخرة بحظّها من الدنيا و ضيّع أهل الدنيا حظّهم من الآخرة فاختلفوا في سعى الدنيا و استووا في عدل الآخرة و قد صغرهذا الامر عندك إنّا أتيناك به وقد والله جاءك من حيث خفت و ما تصغيرك إيّاه بالّذي يدفعه عنك ولا تكذيبك به بالّذي سيخرجك عنه و في وقعة ذي قارعلى ذلك دليل فأخذ الكتاب فمزّقه ثم قال لي ملك هنيء ولاأخشى عليه أن أغلب ولاأشارك فيه وقد ملك فرعون بني إسرائيل ولستم بخيرمنهم فما يمنعنى أن أملككم و أنا خير منه فاما هذا الملك فقد علمنا أنه يصير إلى الكلاب و أنتم أولئك تشبع بطونكم و تأبى عيونكم فاما وقعة ذي قار فهى وقعة بالشام قال فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزّقوا كل ممزّق فكان ذلك .

ثم كتب إلى فيروز أذهب إلى مكة فجئنى بهذا العبد الّذي دعاني إلى غيرديني

---

(١) هذا الكاتب مثل فضلاء المعاصرين تلامذة المساتير و المسيوات : تعلموا الفارسى من اروبا و امريكا كما يأخذون الكاتبون فى مصر يعدون انفسهم من اهل السنة عقايد الشيعة من اعدائنا الفجرة أوالنفوس المستاجرة خلط الفاضل البرويز واشتبه بفيروز .

وقدّم اسمه في الخطاب على اسمي فجاء فيروز إلى رسول الله فقال أن ربّي أمرني أن أحملك إليه فقال له رسول الله ﷺ أن ربي أخبرني أنه قد قتل ربك البارحة فاقم حتى تعلم فان كان ما قلت حقا و إلاّ فانت من وراء أمرك ففزع فيروز وهاب أن يقدم عليه ثم وردت الاخبار من كل ناحية بان كسرى قد ثار عليه ابنه شيرويه فقتله[1] تلك الليلة بعينها فاسلم فيروز و حسن اسلامه و هو الّذي قتل الأسود العنسى و أنه تنبّأ بصنعاء اليمن ولا بأس بان نذكر بعض خرافاته و سخافاته لان الاشياء تعرف باضدادها فلو لا الحمقى لم يعرف العقلاء و لولا الجهّال ما ميّز العلما هو اسود بن كعب يلقب عبهلة ويقال له ذو الخمار لانه كان يغطّي رأسه بخمار و كان يتلو و المائسات ميسا و الدارسات درسا يحجون غضبا و فرادى على قلا يص بيض و صفر و هذا الكلام ما اشبهه بالعى و أقربه من الغي ومثله كلام نضر بن الحارث الّذي عارض القران العظيم بكلام حادث والطاحنات طحنا فالعاجنات عجنا فالخابزات خبزا فاللاقّمات لقما .

قدم على النبيّ ﷺ النعمان السباق و كان من أحبار يهود اليمن فاسلم وتعلّم سورا من القرآن ثم رجع إلى قومه و حذره النبيّ ﷺ الاسود هذا و خافه عليه فكان ما خافه ﷺ أخذه الاسود و آمنه حتّى تعلم ما كان يحفظ من القرآن ثم قتله وادعى ذلك لنفسه وكيفية قتله قطعه عضواً عضواً و هو يقول أشهد أنّ محمد رسول الله و انك كذاب مفترى على الله الكذب ثمّ حرقه بالنار و قد فعل بابى مسلم الخولانى مثل هذا وقد نجاه الله .

---

(١) من عجايب الاتفاق ماحكاه بعض أصحاب التواريخ أن المنتصر لما أصبح في الخلافة و جلس للبيعة فرش في الدار بساط جليل كسروى ، فوقف أحد رجال المنتصر على بعض صناعه وقد نظر إلى دارة فيها صورة رجل ميت مسجى على سريره و قدامه ملك منتصب على سرير الملك على رأسه التاج و المرازبة قيام بين يديه و على رأسه سطور بالفارسية فلما نظر الرجل إلى الصورة و قرأ ما عليها دمعت عيناه فدعا به و قال له . ما هذا الذى تنظر إليه ؟ قال لا شيء يا امير . . قال فلم بكيت ؟ قال طرفت عيني بثوبي . قال لابد من الصدق عما رأيت . قال وقعت عيني على هذه الصورة فبقيت اعجب من حسن تصويرها ثم قرأت ما عليها مكتوب فاذا هو (هذه صورة شيرويه بن كسرى قتل اباه فلم يعش بعده إلا تسعة اشهر فانخذل المنتصر و وجم ولم يعش إلا هذا القدر .

و كان آخر أمره أن المرزبانة وهي من ابناء الّذين كانوا باليمن احتالت في قتله و كانت ممّن ثبت على الاسلام مع قومها و أنها لما بلغها موت النبي ﷺ شقت درعها و جمعت النساء فبكين على رسول الله و كانت أمرأة جميلة فغلب عليها الاسود العنسي و استنكحها فجعلت تشكو أمرها إلى قومها إلى أن ذكرت ذلك لفيروز الديلمي و كان رجلا صالحاً جلداً فقالت له الا تريحني من هذا الخبيث و تنقذني ممّا أنا فيه قد غلبني على نفسي و هو مع ذلك لا يغتسل من جنابة ويستحل الحرام ويشرب الخمرولايتورع من الفواحش يفترى على الله عزّ وجلّ و يدعى رسالته فقال لها وكيف ، فقالت أناأحتال فاعمل نفقا في البستان حتّى تدخل عليّ في ساعة يسكر فيها ففعلت ذلك و دخل عليها فيروز و ليس في البيت غيره و المرزبانة وهوقد ثمل من الخمرقال و نشبت سيفي فأتبرك عليه و كان طويل العثنون فكسرت عنقه و جعلت وجهه في قفاه ثم خرج من ذلك النفق وأخرج معه المرزبانة واراح الله منه العباد و البلاد واصلاه جهنم و بئس المهاد ويروى أيضاً أن قيس بن مكسوح و ذويه دخلوا مع فيروز المذكور من ذلك السّرب فضربوه باسيافهم حتّى قتلوه و هو سكران (١)

ومما يحكى بين الاصمعى والكسائي في مجلس الرشيد أن الاصمعى سأل الكسائى في معنى قول الشاعر :

قتلوا ابن عفان الخليفة محرما ☆ و دعا فلم ار مثله مقتولا

قال الكسائى كان محرماً بالحج قال الاصمعى فقوله قتلوا كسرى بليل محرما فتولى لم يتمتع بكفرفهل كان محرماً بالحج فقال هرون للكسائى يا على إذا جاءالشعر فاياك و الاصمعى قال الاصمعى قوله محرما أى في حرمة الاسلام ومن ثم قيل مسلم محرم اى لم يحل من نفسه شيئاً يوجب القتل و قوله محرما في كسرى يعنى حرمة العهدالّذي كان له في عنق أصحابه ـ وقال الأنبارى يجوز أن يكون محرماً في بيت عثمان أى داخلاً في أشهر الحرم يقال أحرم الرجل إذا دخل في الاشهرالحرم وقد كان قتل عثمان في ثمان

(١) ألف باء ج ٢ ص ٢٥٠ .

عشرة خلت من شهر ذى الحجة سنة خمس و ثلاثين و كان الاصمعى على سعة محفوظاته فقد كان بعض ما يروى من الشعر مما لم يسمعه أحد قال أبو عبدالله بن الاعرابي شهدت الاصمعى وقد أنشد نحواً من مائتي بيت ما فيها بيت عرفناه وكان صدوقا في الحديث ولذلك كان محدث القوم أو شاعرهم إذا أراد أن يجعل لروايته نصيباً من الصدق عند السامعين عزاها إلى الاصمعى وقد وضعت روايات كثيرة اعتمد فيها على نسبتها إليه و هو برىء منها اللّهم إلاّ أن يقال كما تقدم أن هذا اللقب وضع وضعاً اصطلاحيا لكل مؤلف في السير و الاخبار و من غريب ما كان عليه الاصمعى هو عدم قدرته على معرفة الشعر علماً فكان يجهل اوزانه و ضروبه حتّى أنه أراد أن يتعلمه فاتي الخليل وصار يتلقّي عليه ما لم يتصرّف فيه بشيىء ولا يعقل له معنى حتّى يئس منه الخليل و أراد التخلّص منه فقال يا أبا سعيد كيف تقطع قول الشاعر :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه　✡　و جاوزه إلى ما تستطيع

فعلم الاصمعى أن الخليل قد تأذّى منه فترك العروض ولم يعاوده .

و كان الاصمعى من أهل البصرة وقدم بغداد أيام الرشيد قال في تقرّبه إلى الرشيد بعث إليّ الامين ، وكان ولّي عهده ، فصرت إليه فقال أن الفضل بن الربيع يحدث عن أمير... أنه يأمر بحملك إليه على ثلاث دواب من دوّاب البريد و كان الرشيد حينئذ بالرقّة فجهزت و حملت إليه فلما وصلت الرقّة أوصلت إلى الفضل بن الربيع فقال لا تلقّين أحداً ولا تكلّمه حتّى أوصلك إلى أمير . . . و أنزلنى منزلاً قمت فيه يومين ثم استحضرني فقال جئني وقت المغرب حتى ادخلك على أمير ... فجئته فادخلنى فاذا هو الرشيد جالس منفرد فسلّمت عليه فاستدناني وأمرني بالجلوس فجلست فقال يا عبد الملك وجّهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إليّ أخذتا طرفاً من الادب أحببت أن تبور (تختبر) ماعندهما و تشير فيهما بما هو الصواب عندك ثمّ قال ليمض إلى عاتكة فيقال لها احضرى الجاريتين فحضرت و معها جاريتان ما رأيت مثلهما قطّ فقلت لاحدهما ما إسمك قالت فلانة قلت فما عندك من العلم قالت ما أمر الله به في كتابه ثم ما تنظر فيه من الآداب و الاشعار و الأخبار فسألتها عن حروف من القرآن فاجابتنى كانها تقرأ الجواب من كتاب وسألتها

عن النحو و العروض و الاخبار فما قصرت في جوابى في كل فن أخذت فيه قلت فان كنت تقرضين من الشعر فانشدينا شيئاً فاندفعت في هذا الشعر :

يا غياث البلاد في كل محل ☆ ما يريد العباد إلّا رضاكا

لا و من شرف الامام و اعلى ☆ ما أطاع الاءله عبد عصاكا (العياذ بالله)

فقلت يا أمير ... ما رأيت أمرأة في مسك رجل مثلها و سألت الاخرى فوجدتها دونها إلّا أنّها إن و أظبت لحقتها فقال ياعباس فقال الفضل لبيك فقال ليردّ إلى عاتكة ثم أن الخليفة قال يا عبد الملك أنا ضجر قد جلست أحب أن أسمع حديثا انفرج به فحدّثني بشيء فقلت لاي ّ الحديث يقصد أمير ... فقال لما شاهدت وسمعت من أعاجيب الناس و طرائف أخبارهم فقلت يا أمير ... كان صاحب لنا في بدو بنى فلان كنت أغشاه و اتحدّث معه وقد أتت عليه ست وتسعون سنة أصحّ الناس ذهنا وأجودهم أكلاوأقواهم بدناً فغبرت عنه زمانا ثم قصدته فوجدته ناحل البدن كاسف البال متغيّر الحال فقلت ماشانك أأصابتك مصيبة قال لاقلت فمرض عراك قال لاقلت فما سبب هذا الّذي أراه بك فقال قصدت بعض القرابة في حيّ بنى فلان فالفيت عندهم جارية قد لاثت رأسها وطلت بالورس ما بين قرنها إلى قدمها و عليها قميص و قناع مصبوغان و في عنقها طبل توقع عليه و تنشد .

محاسنهـا سهام للمنـايا مريشة بانواع الخطوب

ترى ريب الزمان لهن سهما يصيب بنصله مهج القلوب فاجبتها

ففى شغفى في موضع الطبل يرتقى كما قد ابحت الطبل في جيدك الحسن

هبينى عوداً أجوفاً تحت سنه تمتّع فيما بين نحرك و الّذقن

فلمّا سمعت الشعر منّى نزعت الطبل ورمت به وجهى و بادرت إلى الخباء فلم أزل واقفاً حتّى حميت الشمس على مفرق رأسى لا تخرج ولا ترجع إلىّ جواباً فقلت أنا الله أنا والله معها كما قال الشاعر :

فوالله يا سلمى لطال إقامتى ☆ على غير شيء يا سليمى أُراقبه

ثم أنصرفت سخين العين فرح القلب فهذا الّذى ترى من التغير عشقى لها قال فضحك

الرشيد حتّى استلقى و قال ويحك يا عبدالملك ابن ستة و تسعين سنة يعشق قلت قدكان هذا يا أمير ... فقال يا عبّاس قال الفضل لبّيك قال اعط عبدالملك ماة ألف درهم وردّه إلى مدينة السلمه فانصرفت فإذا خادم يحمل شيئاً و معه جارية تحمل شيئاً فقال أنا رسول الجارية الّتي وصفتها و هذه جاريتها وهي تقرء عليك السلام و تقول لك أمير.. أمرلي بالف دينار وهذا نصيبك وهي تقول لن نخليك من المواصلة بالبرّ فلم تزل تتعّهدنى بالبرّ حتّى كانت قتنة محمّد فانقطعت أخبارها عنّى . وأمرلى الفضل بن الربيع من ماله أيضاً بعشرة آلاف درهم و حكى أبوالعباس المبرّد قال دخل الاصمعى على الرشيد بعد غيبة كانت منه فقال يا اصمعى كيف أنت بعدنا قال مالا قتني أرض بعدك فقال مااستقرّت بى أرض فقال هذا حسن ولكن لا ينبغي أن تكلّمنى بين الناس إلاّ بما أفهمه فاذاخلوت فعلّمنى فانه يقبح بالسلطان أن لايكون عالماً لانّه لا يخلواما ان أسكت أو أجيب فاذا سكّت فيعلم الناس أني لا أعلم إذ لم أجب و إذا أجبت بغير الجواب فيعلم من جوابى أني لا أفهم ما قلت قال الاصمعى فعلّمنى أكثر ممّا علّمته .

طالما تقلّب هذا اللقب على موارد الادب و ذكر على منصّات الرواية وذكره الشعراء في الاسناد حتّى صار علماً بالغلبة على كلّ رواية و اخذ الناس يضربون به المثل لكلّ نحرير كبير و عليم خبير وما ذلك إلاّ لشهرة صاحب هذا اللقب أبى سعيد عبد الملك بن قريب بن عبدالله بن اصمع كان على كعب عال في النحو واللّغة و الغريب و الملح فكان يحفظ آلاف ارجوزة وكذلك ترى لاسمه شان في كافّة ضروب الادب . قال الاخفش فيه مارأينا احداً أعلم بالشعر من الأصمعي و خلف و كان الاصمعى أعلم من خلف في الشعر لانّه كان نحويّاً كبيراً وعنده من الشواهد ما قد جمع به قواعد النحو .

و قال أبو اسمعيل بن القاسم كان أبوبكر الانبارى يحفظ ثلثماة ألف بيت شاهد في القرآن قال أبوالحسن العروضى قلت لابي بكر الأنبارى قد اكثر الناس في حفظك فكم تحفظ قال احفظ ثلاثة عشر صندوقا .

و روى ان حبيباً أبا تمّام كان يحفظ أربعة عشر ألف ارجوزة غير القصايد و المقاطيع وان أباالطيّب كان من المكثرين من نقل اللغة و المطّلعين على غريبها ولا يسأل

عن شيء الا استشهد فيه بكلام العرب من النظم و النثر وقد خلد شعر الاوّل و الثّاني لما انّهما قدأيقنا بان لن يبرّزا على غيرهما و ينزلا حيث ينزلا حتّى يحالفا العناء و الصبر و ينفقا في سبيل العلم افضل العمر قال المتبنى او المتنبّه كما تسميه المغاربة

دعيني انل مالا ينال من العلا فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

وقال ابوالمعمر يحيى العلوى و كان من اجلّة اهل الادب و السودد :

حسود مريض القلب يخفى أنينه و يضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على ان رحت للعلم طالباً أجمع من عند الرّواة فنونه
و يزعم ان العلم لايكسب الغنى و يحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتي فقيمة كلّ الناس مايحسنونه

وكان خليل بن احمد الّذي أقام في خصّ من اخصاص البصرة لا يقدر على فلسين واصحابه يكسبون بعلمه الاموال وهو زاهد فيما يرغب فيه واستاذ سيبويه و يقول انى لأغلق عليّ بأبى فما يجاوزه همّي ولسان حاله ينشد قول الشافعي :

عليّ ثياب لويباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
و فيهنّ نفس لوتقاس بمثلها نفوس الورى كانت اعزّ واكبرا

وحكي عن المبرّد ايضاً قال مازح الرشيد امّ جعفر فقال لها كيف أصبحت ياامّ نهر فاغتمّت لذلك ولم تفهم معناه فانفذت إلى الاصمعي تسأله فقال . الجعفر النهر الصغير فطابت نفسه و يحكى عن الأصمعي انّه قال كلّمت أبا يوسف القاضى بحضرة الرشيد في الفرق بين عقلت القتيل وعقلت عنه فلم يفهمه حتّى فهمته عقلت القتيل إذا أدّيت ديته وعقلت عنه إذا ألزمته دية فأدّيتها عنه .

وكان للأصمعي مع أبي عبيدة في مجلس الفضل مكاثرة في كتاب الخيل الّذى ألّفه كلّ منهما وكان الأصمعي فائز الفرس في هذا المضمار و ممّا يحكى للأصمعي في الذكاء انه لماقدم الحسن بن سهل العراق احبّ أن يجمع بين جماعة من أهل الأدب فاحضروا فاخرج الحسن رقاعاً للناس في حاجاتهم فوقع عليها وكانت خمسين ورقة ثمّ أمر فدفعت إلى الخازن ثمّ أفيض في ذكر الحفظ فذكر جماعة فالتفت أبوعبيدة وقال ماالغرض من ذلك

أيّها الأمير في ذكر من مضى . هاهنا من يقول انه ماقرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود فيه ولا دخل قلبه شيء و خرج منه فالتفت الأصمعي وقال انّما يريدني هذا القول وقد نظر الامير في خمسين رقعة و انا أعيد وما وقّع به على كلّ رقعة فاحضرت الرقاع فقال الأصمعي سأل صاحب الرقعة الاولى كذا واسمه كذا و وقّع له بكذا و هكذا رقعة بعد رقعه حتى وفي نيفاً وأربعين فالتفت اليه نصر بن على وقال له ايّها الرجل إبق على نفسك من العين فكفّ الأصمعي .

شهادة الشافعي له كان الشافعي ره يقول ماعبّر أحد من العرب بأحسن من عبارة الأصمعي وقال عمرو بن مرزوق رأيت الأصمعي و سيبويه يتناظران فقال يونس الحق مع سيبويه و هذا يغلبه بلسانه دلّ ذلك على بلاغة عبارته وقوة تأثيره و بيانه .

وقال الحريرى كان أهل البصرة منهم صاحب الاهواء إلاّ أربعة فانهم كانوا اصحاب سنّة أبو عمرو بن العلاء و الخليل بن أحمد و يونس بن حبيب و الأصمعي و قال محمّد بن إبراهيم سمعت أحمد بن حنبل يثنى على الأصمعي بالثقة و قال سمعت عليّ بن المديني يثني عليه و سمعت أحمد بن حنبل و عليّ بن معين يثنيان عليه في السنة و روي عن أبي حيثمة قال سمعت من يحيى بن معين ، الأصمعي ثقة وسئل ابوداود عن الأصمعي فقال صدوق .

و لمّا ثبت و تحقق من مجموع الشهادات الّتي ادّوها هؤلاء الأعاظم وكان الشيء بالشيء يذكر نأتي منه برواية تاريخيّة ماتخلو عن فايدة دينيّة .

في سنة ١٧٤ وقعت العصبيّة بأرض الشام بين المضريّة و اليمانيّة فتحاربوا حتّى قتل بين الفريقين بشر كثير وحجّ الرشيد في ذلك العام بالناس و معه ابناه محمّد و عبدالله وكتب بينهما كتاباً بولاية العهد لمحمّد ومن بعده لعبدالله المأمون وعلّق الكتاب في جوف الكعبة ثم أنصرف إلى مدنية السلام و استعمل على خراسان الغطريف بن عطاء .

قال على بن حمزة الكسائي ولاّني الرشيد تاديب محمّد وعبدالله فكنت اشدّد عليهما في الادب وأخذهما به أخذاً شديداً وبخاصة محمّداً فاتتنى ذات يوم خالصة جارية امّ جعفر فقالت يا كسائى أن السيدة تقرأ عليك السلام و تقول حاجتى إليك أن ترفق بابنى محمّد

فانه ثمرة فؤادى و قرّة عيني وأنا أرقّ رقّة شديدة فقلت لخالصة أن محمداً مرشح للخلافة بعد أبيه ولا يجوز التقصير في بابه فقالت خالصة أن لرقة السيّدة سبباً أنا مخبرتك به أنها في الليلة الّتي ولدته أريت في منامها كان أربع نسوة أقبلن إليه فاكتنفنه عن يمينه وشماله و أمامه و ورائه فقالت الّتي بين يديه ملك قليل العمر ضيّق الصدر عظيم الكبر واهى الامر كثير الوزر شديد العذر وقالت الّتي من ورائه ملك قصّاف مبذّر متلاف قليل الانصاف كثير الاسراف وقالت الّتي عن يمينه ملك ضخم قليل الحكم كثير الاثم قطوع للرّحم وقالت الّتي عن يساره ملك غدّار كثير العثار سريع الدّمار ثم بكت خالصة وقالت يا كسائى و هل يغنى الحذر . لقد جفّ القلم بما هو كائن ، لا رادّ لقضائه .

هى المقادير فما تغنى الحذر ... ان كنت اخطأت فما اخطا القدر

إذا أراد الله أمراً بامرىء ... و كان ذا عقل و ذا سمع بصر

اصمّ أُذنيه و أعمى عينه ... فسلّ عنه عقلـه سلّ الشعر

و بعد ما أنفذ فيه حكمه ... يـردّ عقلـه لـه ليعتبـر

فلا تقل فيما جرى كيف جرى ... فكلّ شيىء بقضـاء و قدر

و هذه أبيات حفظتها من قبل أوردتها هنا للمناسبة و المقصود بيان ماذكر عن الاصمعى قال دخلت على الرشيد و كنت غبت عنه حولين بالبصرة فاومأ إليّ بالجلوس قريباً منه فجلست قليلاً ثم نهضت فاومأ إليّ أن أجلس فجلست حتّى خفّ الناس ثم قال لي يا أصمعي ألا تحبّ أن ترى محمداً وعبدالله قلت بلي يا أميرالمؤمنين إنّي لاحبّ ذلك وما أردت القيام إلاّ اليهما لأسلم عليهما قال تكفي ثم قال عليّ بمحمّد و عبد الله فانطلق الرسول و قال اجيبا أمير ... فأقبلا كأنهما قمرا أفق قد قاربا خطاهما و ضربا ببصرهما الارض حتّى وقفا علي أبيهما و سلّما عليه بالخلافه و أومأ إليهما فدنيا منه فاجلس محمداً عن يمينه و عبدالله عن شماله ثم أمرني بمطار حتهما فكنت لا أُلقي عليهما شيئاً من فنون الادب إلاّ أجابا فيه وأصابا فقال كيف ترى أدبهما قلت يا أمير.. ما رأيت مثلهما في ذكائهما و جودة ذهنهما فاطال الله بقاءهما و رزق الامّة من رأفتهما و معطفتهما فضمّهما إلى صدره و سبقته عبرته حتّى تحدّرت دموعه ثم أذن لهما حتي إذا

نهضا وخرجا قال كيف بكم إذا ظهر تعاديهما و بدا تباغضهما و وقع بأسهما بينهما حتّى تسفك الدماء و يودّ كثير من الاحياء أنهم كانوا موتى قلت يا أميرا ... هذا شيىء قضى به المنجّمون عند مولدهما أوشيىء آثرته العلماء في أمرهما قال بل شيئ آثرته العلماء عن الاوصياء عن الانبياء في أمرهما قالوا فكان المامون يقول في خلافته قد كان الرشيد سمع جميع ماجرى بيننا من موسى بن جعفر عليه السلام فلذلك قال ما قال :

لما صارت الخلافة إلى المنصورهمّ بنقض ايوان المدائن فاستشار جماعة من أصحابه و كلهم أشار بمثل ما همّ به و كان معه كاتب من الفرس فاستشاره في ذلك فقال له : يا أمير ... أنت تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج من تلك القرية (يعنى المدينة) وكان له بها مثل ذلك المنزل ، ولاصحابه مثل تلك الحجر ، فخرج أصحاب ذلك الرسول حتّى جاؤا مع ضعفهم إلى صاحب هذا الايوان مع عزّته و صعوبة أمره فغلبوه و أخذوه من يديه قسراً و قهراً ثم قتلوه ، فيجيء الجائي من أقاصي الارض فينظر إلى تلك المدينة و إلى هذا الايوان و يعلم أن صاحبها قهر صاحب هذا الايوان فلا يشكّ أنه بأمر الله و أنه هو الّذي أيّده و كان معه و مع أصحابه ، و في تركه فخر لكم فاستغشّه المنصور و اتهمّه لقرابته من القوم ثم بعث في نقض الايوان فنقض منه الشيىء اليسير ثم كتب إليه هو ذا يغرم في نقضه أكثر مما يسترجع منه و أن هذا تلف الاموال و ذهابها فدعا الكاتب و استشاره فيما كتب به إليه فقال لقد كنت أشرت بشيىء لم يقبل منّي ، فأمّا الآن فاني آنف لكم أن يكون أولئك بنوا بناءً تعجزون أنتم عن هدمه والصواب أن تبلغ به الماء ففكّر المنصور فعلم أنه قد صدق . ثم نظر فاذا هدمه يتلف الأموال فأمر بالامساك عنه بينما المنصور في الطواف بالبيت ليلا إذ سمع قائلا يقول اللّهم اني أشكو إليك ظهور البغي و الفساد في الارض و ما يحول بين الحق وأهله من الطمع فجزع المنصور ؟ فجلس بناحية من المسجد و أرسل إلى الرجل فصلّى ركعتين واستلم الركن و أقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال المنصور ما الّذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد البغي في الارض و ما الّذي يحول بين الحق و أهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني فقال أن آمنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالامور من أصولها و إلّا احتجرت منك و اقتصرت

... أن الّذي على نفسي فلي فيها شاغل قال فانت آمن على نفسك فقل فقال ياأمير[1] دخله الطمع و حال بينه و بين ما ظهر في الارض من الفساد والبغي لأنت فقال فكيف ذلك و يحك يدخلني الطمع و الصفراء و البيضاء في قبضتي و الحلو و الحامض عندي قال و هل دخل أحداً من الطمع ما دخلك إن الله استرعاك أمر عباده أموالهم فاغفلت أمورهم واهتممت بجمع اموالهم وجعلت بينك و بينهم حجاباً من الجص والآجر وابواباً من الحديد وحرّاساً معهم السلاح ثم سجنت نفسك عنهم فيها و بعثت عمّالك في جبايات الاموال و جمعها و أمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال الافلان وفلان نفراً سمّيتهم ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجايع العارى اليك ولا أحد إلاّ وله في هذا المال حق فلما رآك هؤلاء النفر الّذين استخلصتهم لنفسك و آثرتهم على رعيتك وأمرت أن لا يحجبوا دونك تجبي الاموال و تجمعها قالوا هذا قدخان الله فما لنا لا نخونه فائتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيىء إلاّ ما أرادوا ولا يخرج لك عامل الاخوّنوه عندك و نفوه حتّى تسقط منزلته عندك فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظّمهم الناس وهابوهم وصانعوهم فكان أوّل من صانعهم عمالك بالهدايا و الاموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك ذوالمقدرة و الثروة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما و بغياً وفساداً و صار هؤلاء القوم شركاؤك في سلطانهم و أنت غافل فان جاء متظلم حيل بينك و بينه فان أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك و اوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك فلا يزال المظلوم يختلف إليه و يلوذبه يشكو و يستغيث و هويدفعه فاذا اجهد وأخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالاً لغيره و أنت تنظر فما تنكر فما بقاء الاسلام وقدكنت يا أمير .... أسافر إلى الصين فقد متهامرة وقداصيب ملكهم لسمعه فبكي يوماً بكاء شديدا فحثه جلساؤه على الصبر فقال أمّا إنّي لست ابكى للبلية النازلة ولكني ابكى لمظلوم يصرخ بالباب فلااسمع

---

(١) منصور كملمون لفظاً ومعنى وهو دوانيقى لدنائته وأخذه بالدانق .

صوته ثم قال اما إذقد ذهب سمعي فان بصري لم يذهب نادوا في الناس ان لا يلبس ثوباً أحمر إلاّ متظلّم ثمّ كان يركب الفيل طرفي النهار و ينظر هل يرى مظلوماً فهذا يا أمير ... مشرك بالله بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وانت مؤمن بالله! من اهل بيت نبيّه ! لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شحّ نفسك فان كنت إنّما تجمع المال لولدك فقد اراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن امّه ماله على الأرض مال وما من مال إلّا ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتّى تعظم رغبة الناس له ولست الّذي تعطي بل الله تعالى يعطي من يشاء ما يشاء فان قلت إنّما تجمع المال لشديد السلطان فقد أراك الله عبرا في بني اميّة ماأغنى عنهم جمعهم من الذهب وماأعدّوا من الرجال و السلاح و الكراع حين أراد الله بهم ماأراد وان قلت انّما تجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية الّتي أنت فيها فوالله مافوق ما أنت فيه الا منزلة ما تدرك إلّا بخلاف ماأنت عليه يا أمير ... هل يعاقب من عصاك باشد من القتل فقال المنصور لافقال فكيف تصنع بالملك الّذى خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ولكن بالخلود في العذاب الاليم .

قدراي ماعقد عليه قلبك و عملته جوارحك و نظر إليه بصرك و اجترحته يداك ومشت إليه رجلاك هل يغنى عنك ماشححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب قال فبكى المنصور ثمّ قال ليتني لم اخلق ويحك كيف احتال لنفسي فقال ان للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم و يرضون بهم في دنياهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك وشاورهم في امرك يسدّدوك قال قدبعثت اليهم فهربوا مني قال خافوك أن تحملهم على طريقتك ولكن إفتح بابك وسهّل حجابك وانظر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات على حلّها واقسمها بالحق و العدل على أهلها و أنا ضامن عنهم أن يأتوك يساعدوك على صلاح الامّة وجاء المؤذّنون فآذنوه بالصلاة فصلّى وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد .

هذا السنوّر الزاهد والهرّة العابدة وصاحب الدّمعة الساكبة كان يجلس ويجلس إلى جنبه واعظاً ثم تأتى الجلاوزة في أيديهم السيوف . يضربون اعناق الناس فاذاجرت الدماء حتّى تصل إلى ثيابه يلتفت إلى الواعظ ويقول له عظني ! فاذا ذكره الواعظ بالله

أطرق المنصور كالمنكسر ، ثم يعود الجلاوزة إلى ضرب الاعناق ، فاذا ما أصابت الدماء ثياب المنصور ثانية قال لواعظه عظني حاول بعض الكتاب تفسير أمثال هذه التظاهرات بازدواج الشخصيّة ، و أن المنصور يخضع في تصرفاته لأمرين خلق التدين و حبّ الملك فهو يستمع للواعظ بدافع الايمان وهو يسفك الدّماء بدافع حبّ الجاه و توطيد الحكم و هذا مثل ما قاله الأُصوليّون من أن قيد الحيثيّة مكثّر للموضوع و هذا التفسير خطأ و غلط . فليس في الواقع إلّا شيء واحد و هو الذات الخبيثة و النفس الاثيمة ظهرت في مظهر الظلم و القتل . و يظهر التمويه و الدجل رأى أن الناس يعجبهم أن يتصّف خليفتهم بالدين و أنه يستمع أرشاد المرشدين و يصغى كلمات الواعظين و أن تظنّ به الرغبة في نصح الناصحين وقد بلغ الناس من البلاهة حدّاً يلبس عليهم بان الليل نهار و النهار ليل [1] قد يختلق الكذب و يلفق قصّة لتحقيق غاياته و مآربه و من استقرأسيرة المنصور يرى الاساطير من هذه القبيل الّتي حاكها حول شخصيّته و ليس بصحيح ماقاله الموزخون من أن أخلاقه كانت نريجاً من الخير و الشرّ بل كان فاما بطبايع الناس و قال على عليه السلام في أخباره بالملاحم و لما بلغ إلى بني العباس قال ثانيهم أفتكهم وهذاهو الثانى ولم يفترقوا عن بنىاميّة فيشيء لافيالظلم والقسوة ولا في الفسوق ولا فيالاستهتار و الزندقة فالعباسيون هم الامويّون سياسة و عقيدة وعملاً منصورهم كمعاوية ورشيدهم في الهاوية قطعوا الروس .

و نصبوا المشانق كانوا يقتلون على الظنّة و يأخذون على التهمة و أشقى منهم من كان يخدمهم ويجعل أنفسهم جسراً لايصالهممقاصدهم و العجب أنّهم في كل الادوار و الاعصار جرّبوا ووقوعهم في الأحفار الّتي حفروها ولقد صدق النبي الاعظم حيث قال من أعان ظالماً فقد سلّطه الله عليه و من حفر بئراً لاخيه فقد وقع فيه .

و قال سيدنا علىّ عليه السلام ما أصف من دار أوّلها عناء و آخرها فناء في حلالها حساب و في حرامها عقاب و في الشبهات عتاب من استغنى فيهافتن و من افتقر فيهاحزن من أبصربها بصّرته و من أبصر إليها اعمته و قال عليه السلام ومن غيرها انك ترى المرحوم

(١) الشيعة و الحاكمون محمد جواد مغنية .

مغبوطاً و المغبوط مرحوماً ومن أحسن العبرات قصة البرامكة في تاريخ الاسلام بعدان دالت دولتهم وزالت قدرتهم وتلخيصها ما قال يحيى في هذه الابيات (١)

قل للخليفة ذي الصنيعة والعطايا الفاشية ... وابن الخلائف من قريش والملوك العالية

انّ البرامكة الّذين رموا لديك بداهية ... صفر الوجوه عليهم خلع المذّلة بادية

فكأنّهم ممّا بهم اعجاز نخل خاوية ... عمّتهم لك سخطة لم تبق منهم باقية

بعد الامارة و الوزارة و الامور السامية ... و منازل كانت لهم فوق المنازل عالية

اضحوا وجلّ مناهم منك الرضا والعافية ... يامن يودّ لي الردى يكفيك منّي مابيه

يكفيك ماابصرت من ذلّي و ذلّ مكانيه ... و بكاء فاطمة الكئيبة و المدامع جارية

و مقالها بتوجّع ياسوأتي وشقائيه ... من لي وقد غضب الزمان على جميع رجاليه

يالهف نفسي لهفها ماللزمان و ماليه ... ياعطفة الملك الرضا عودى علينا ثانية

بعد ان قضى هارون الرشيد على نفوذ البرامكة قضاء مبرما اختار للوزارة الفضل ابن الربيع الّذي كان يميل للعرب ويكره الفرس وكان الحزب العربي من انصار الامين لانه كان عربياً محضاً وامّ المأمون فارسيّة ولا بنها الياقة ولباقة ارسل هرون خادمه المسرور إلى السجن ليأتى بيحيى ذلك الشيخ الكبير فابدى حزنه على مقتل جعفر وشاوره فجعل ولده الامين وليّاً لعهده و ولى المأمون المقاطعات الشرقية حيث يسود العنصر الفارسي وكانت المأمون إيرانيّة الاصل و في حالة موت الامين أو المأمون يتولّى الآخر امور المملكة باجمعها - و بعد تسع سنوات أي في سنة ١٩٢ خرج هارون إلى خراسان مع إبنه المأمون و كانت قد حدثت عدّة ثورات في خراسان و كانت غاية الرشيد القضاء على الثورة و تثبيت المأمون في مركزه و بقى المأمون في العراق غير ان صديقه الساهر على مصلحته الوزير الفضل بن الربيع ذهب مع الرشيد و كان مع المأمون الفضل بن سهل و بعد ان ساروا في طريقهم الطويل الممتد بامتداد سلسلة البرز وقطعوا المسافة بلغوا مدينة نوقان مرض الرشيد فجأة مرضاً شديداً ومات في ليلته و عاد وزيره

(١) يحيى بن الخالد البرمكي .

الفضل بن الربيع مسرعاً إلى بغداد وأعاد الجيش وغضب المأمون على الفضل غضباً شديداً لعمله هذا وكان الفضل بن سهل الّذي اشتهر بميوله الفارسيّة بدرجة لا يعادلها الا بغضه لسميّه وزير الامين . فاشار هذا على المأمون ان يتهيّأ لكفاح حاسم فان أخاه قدجرّده بعمل وزيره من جيشه وهو لابد يريد النكث للعهد والاستئثار بميراث أبيه وذكره بفضل ايران في توطيد حكم بني العباس على زمن أبي مسلم وحثّه على تقوية مركزه بالتقرب من الشعب الايراني ثمّ العمل على الاستئثار بالسلطة في جميع الاقطار فوطّد المأمون السلم في خراسان وبايع أخاه بالخلافة ولكنّ الامين جعل ابنه موسى وليّاً للعهد باغراء من وزيره واخذ المأمون بعد العدّة لتسيير الجيوش إلى العراق لتثبيت حقه في الخلافة وانضم الوف من الايرانيين الّذين يفضلون المأمون على الأمين إلى هذه الجيوش الّتي كانت بقيادة قائدين قديرين هرثمة وطاهر وانتهى الامر بحصار بغداد و إنفاذ رأس الامين برهاناً على إنتهاء الحرب و بويع المأمون بالخلافة وكان خلال هذه المدّة تحت تأثير شديد من وزيره الفضل بن سهل الّذي اشتهر بميوله الفارسيّة والشيعيّة! وقرّراً خيراً ان يتقرّب من الشيعة بتعيين الامام عليّ بن موسى عليه السلام وليّاً للعهد فارسل إلى مدينة النبي صلى الله عليه وآله ان يأتيه الرضا عليه السلام والمقصود من المأمون ان يكتسب صداقة الشيعة !وإن شئت فقل اجتذاب قلوب الفارسيّين . وقد كتبنا في بعض كتبنا بالفارسيّة ماهو التحقيق في هذا الامر وينبغي لنا أن ننظر إلى أعمال رجال السياسة بمنظارهم حتّى لا نقع في الخطأ ولا ننسي ان للفارسيّين اليد الطولى .

طاهر بن الحسين الخراسانيّ ذو شرف النفس و بعد الهمة و ذلك أنّه لما قتل محمّد بن زبيدة المعروف بالامين و خاف من غدر المأمون امتنع عليه بخراسان ولم يظهر خلعه و قال .

أيسو مني المأمون خطة عاجز	أو ما رأى بالامس رأس محمّد
يوفى على رأس الخلايق مثل ما	توفى الجبال على رووس الفدفد
انّي من القوم الّذين هم هم	قتلوا أخاك و اقعدوك بمرصد

وهو القايل

غضبت على الدنيا فانهبت ماحوت	واعقبتها مني باحدى المتالف

قتلت أمير المؤمنين و انما بقيت فناء بعده للخلائف

وقد بقيت في أمراسى فتكة فاما لرشدأو لراى مخالف

لما انقبض و أخذ حذره ادب له المامون وصيفا بأحسن الآداب و علّمه فنون العلم ثمّ أهداه إليه مع الطاف كثيرة من طرائف .

وقد و اطاه على أن يسمّه و أعطاه سمّ ساعة و وعده على ذلك باموال كثيرة فلما انتهى إلى خراسان و أوصل طاهر الهديّة قبل الهديّة و أمر بانزال الوصيف في دار و أجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في النزالة و تركه أشهراً فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه يا سيدى أن كنت تقبلنى فاقبلنى وإلاّ فردّنى إلى أمير...فارسل إليه وأوصله إلى نفسه فلما انتهى إلى باب المجلس الّذي كان فيه أمره بالوقوف عند باب المجلس وقد جلس على لبد ابيض و قرع رأسه و بين يديه مصحف منشور و سيف مسلول فقال قدقبلنا مابعث به أمير...غيرك فانا لا نقبلك وقدصرفناك إلى أمير ... و ليس عندى جواب اكتبه إلاّ ما ترى من حالى فكن كتابا ناطقاً و مخبراً صادقاً فابلغ أمير ... السلام و أعلمه بالحال الّتي رأيتنى فيها فلما قدم الوصيف على المأمون وكلمه ما كان من أمره وصف له الحالة الّتي رآه فيها شاور و زراءه في ذلك و سألهم عن معناه فلم يعلمه أحد منهم فقال المأمون لكنى قد فهمت أما تقريعه رأسه وجلوسه على اللبد الابيض فهو يخبرنا أنه عبد ذليل و اما المصحف المنشور فانه يذكرنا بالعهود الّتي له علينا وأما السيف المسلول فانه يقول أن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بينى وبينك اغلقوا عنّا باب ذكره و لا تهيّجوه في شي ممّا هو فيه فلم يهجه المأمون حتّى مات طاهر و قام عبدالله بن طاهر مكانه فكان احكم الناس على المأمون قلنا انّه يلزم في شرع السياسة النظر بمنظارهم السياسي و هذا أى المأمون اعلم ملوك بنى العباس وهوقبل كلّ شيىء رجل سياسي وفي انتخابه إمامنا على بن موسى الرّضا لولاية عهده مايدلّ على هذا وحقّقنا هذا في محلّه والّذي نأتي به هنا نقلاً عن جمال الدين القفطي ويستند إلى النوبختي وفيه ما يرفع السّتار عن وجه الاستتار .

عبدالله بن سهل بن نوبخت المنجّم هذا منجّم مأموني كبير القدر في صناعته يعلم المأمون قدره في ذلك وكان لا يقدّم الا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار وكان المأمون قدرآى

آل امير المؤمنين علي بن أبي طالب متخشين مختفين من خوف المنصور وقدجاء بعده من بني العباس ورأى العوام قدخفيت عنهم أمورهم بالاختفاء فظنوا بهم ما يظنونه بالأنبياء و يتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي فاراد معاقبة العامة على هذا الفعل ثم فكر انه إذا فعل هذا بالعوام زادهم اغراء به فنظر في هذا الامر نظراً دقيقا و قال لو ظهروا للناس و رأوا فسق الفاسق منهم و ظلم الظالم لسقطوا من أعينهم ولانقلب شكرهم لهم ذماً ثم قال إن أمرناهم بالظهور خافوا و استتروا و ظنوا بنا سوء وإذاً فالرأى أن نقدم أحدهم و يظهر لهم اماماً فاذا رأوا هذا أنسوا و ظهروا و أظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة في الآدميين فيتحقق للعوام حالهم و ماهم عليه مما خفى بالاختفاء فاذا تحقق ذلك أزلت من أقمته و رددت الامر إلى حالته الاولى و قوى هذا الرأى عنده و كتم باطنه عن خواصه فاخذ الفضل بن سهل في تقرير ذلك و ترتيبه و هو لا يعلم باطن الامر و اخذ في اختيار وقت لبيعة الرضا فاختار طالع السرطان و فيه المشترى قال عبدالله بن سهل بن نوبخت هذا ، أردت أن أعلم نية المأمون في هذه البيعة و أن باطنه كظاهره أم لا لان الامر عظيم فانفذت إليه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه و كان يجيئني في مهم أمره و قلت له ان هذه البيعة في الوقت الذي اختاره ذوالرياستين لا تتم بل تنقض لان المشترى وان كان في الطالع في بيت شرفه فان السرطان برج منقلب و في الرابع وهو بيت العاقبة المريخ وهو نحس وقد اغفل ذوالرياستين هذا فكتب الي قد وقفت على ذلك احسن الله جزاءك فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا فانه أن زال عن رأيه علمت أنك انت المنبه له فهم ذوالرياستين بذلك فما زلت أصوب رأيه الاول خوفاً من اتهام المأمون لي وما أغفلت امرى حتى مضى أمر البيعة فسلمت من المأمون عمرو بن سعيد بن سلم الباهلى قال كنت من حرس المأمون بحلوان حين خرج من خراسان بعد قتل الامين و استئناف الخلافة له فخرج لينظر إلى العسكر في بعض الليالي فعرفته ولم يعرفني فاغفلته وجاء من ورائي حتى وضع يده على كتفي فقال من أنت فقلت أنا عمرو عمرك الله إبن سعيد أسعدك الله إبن سلم سلمك الله فقال أنت الذي كنت تكلؤنا في هذه الليلة فقلت الله يكلؤك فانشأ المأمون .

أن أخاك الحقّ من يسعى معك و من يضرّ نفسه لينفعك

و من اذا ريب الزمان صدعك شتّت فيك شمله ليجمعك

ثمّ قال ياغلام اعطه لكلّ بيت الف دينار قال عمرو فودّدت لوكانت الابيات طالت فاجد الغنى فقلت ياامير ... وازيدك بيتاً فقال لي هات فقلت

وان غدوت ظالماً غدامعك

فقال ياغلام اعطه لهذا البيت الف دينار فمابرحت من موضعي حتّى اخذت خمسة آلاف دينار .

١ ـ يونس بن حبيب النحوى مولى ضبة من أهل [1] جبل اخذ الادب عن عمرو بن العلاء و حمّاد بن سلمة روي سيبويه عنه كثيراً وسمع منه الكسائى والفرّاء . كانت حلقته بالبصرة ينتابها الادباء وفصحاء العرب و أهل البادية قال ابوعبيدة معمر بن المثنى اختلفت الى يونس اربعين سنة املأ كل يوم الواحى من حفظه وقال يونس قال لي روبة بن العجّاج حتام تسئلني عن هذه البواطل وازخرفها لك أما ترى الشيب قدبالغ في لحيتك وعاش يونس ثمانياً وثمانين سنة لم يتزوج ولم يتسرّ ولم يكن له همة الاطلب العلم و محادثة الرجال وقال يونس لوتمنيت ان اقول الشعر لما تمنّيت أن أقول إلّامثل قول عدي بن زيد العبادى [2] :

أيها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور

أم لديك العهد القديم من الايام بل انت جاهل مغرور

من رأيت المنون جازته أم من ذا عليه من اين يضام خفير

أين كسرى كسرى الملوك انوشر وان ام أين قبله سابور

وبنو الاصفر الكرام ملوك الروم لم يبق منهم مذكور

واخو الخضر اذبناه واذ دجلة تجبى إليه والخابور

---

(١) بفتح الجيم و ضم الباء المشددة و هى بليدة على دجلة بين بغداد و واسط و كان لايوثر ان ينتسب اليها فلقيه رجل وقال له ياابا عبد الرحمن ماتقول فى جبل أتنصرف أم لا فشتمه يونس والتفت العميرى ولم ير احد أيشهده عليه حتى اذا كان من الغد وجلس للناس اتاه الرجل فقال ماتقول فى جبل فقال الجواب ماقلته امس .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٦ .

شاده مرمراً و جلله كلسا فللطير في ذراه وكور
لم يهبه صرف الزمان فباد الملك عنه فبابه مهجور
و تفكر رب الخورنق إذ شرّف يوماً و للهدى تفكير
سرّه ملكه و كثرة مايملك والبحر معرضا و السدير
فارعوى قلبه فقال وما غبطة حيّ إلى الممات يصير
ثم بعد القلاع والملك والامة وارتهم هناك القبور
ثمّ صاروا كأنهم ورق جف فالوت به الصبا والدبور

قال أبوعبيدة معمر بن المثنى قدم جعفر بن سليمان العباسى من عند المهدى الخليفة فبعث إلى يونس وقال له انا والامير اختلفنا في هذا البيت :

والشيب ينهض في السواد كانه ليل يصيح بجانبيه نهار

فما الليل والنهار فقال يونس الليل الليل الّذي تعرف والنهار النهار الّذى نعرف فقال . زعم المهدى انّ الليل فرخ الكروان والنهار فرخ الحبارى فقال ابوعبيدة القول في البيت ماقاله يونس و الّذي قاله المهدى معروف في غريب اللغة قال يونس لم يقل لبيد في الاسلام سوى بيت واحد وهو. الحمدلله إذلم يأتني أجلي حتّى لبست من الاسلام سربالا

هناك جماعة اخرى كانت في بغداد كان على رأسها الاستاذ ابوسليمان المنطقى يجتمعون في بيت الرئيس من مسلمين و وثنيين و نصارى و يهود مثل ابن زرعة و ابن الخمار و ابن السمح وانقومسى ومسكويه ، و يحيى بن عدى وعيسى بن عدى و أبي حيان التوحيدى يثيرون في المجالس مسائل سياسيّة واجتماعية ولغويّة ودينيّة وكل يبدى رأيه والكلمة الاخيرة لابي سليمان ـ وقد دون في المقابسات محاضر بعض هذه المجالس و يصف أبو حيّان هذا المنطقى بقوله وكان أبوسليمان أدقّهم نظراً و أقعرهم غوثاً و أصفاهم فكراً وأظفرهم بالدرر و أوقفهم على الغرر . مع تقطع في العبارة و لكنه ناشئة من العجمة و قلة نظر في الكتب ، و فرط استبداد بالخاطر ،و حسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز و بخل بما عنده من هذا الكنز و هذا تحليل دقيق من التوحيدي لشخصيّة أبي سليمان فهو قويّ الفكر ، الكن العبارة يعتمد على قوة عقله أكثر ممّا يعتمد على نقله و واثق

بصدق رأيه أكثر ممّا يثق بقول غيره و هو بخيل بعلمه لا يذكر بعضه إلّا لبعض الخاصة لدواع مخصوصة وقد دعته الدواعى أن يقيم رهين بيته فهو اعور مصاب بالبرص مشوّه الخلق يقول فيه الشاعر .

أبو سليمان عالم فطن ✿ ما هو في علمه بمنتقص
لكن تطيّرت عند رؤيته ✿ من عور موحش ومن برص
و بابنه مثل ما بوالده ✿ و هذه قصة من القصص

و كان فقيراً يمدّه عضد الدولة من الحين بعد الحين بنفحة قليلة ماليّة يسدّ بها رمقه و يتكلم أحيانا في السياسة ككلامه عندماشكا ابن سعد ان الوزير البويهى شكى من كثرة كلام الناس في السياسة و محاولتهم معرفة كلّ صغيرة و كبيرة يضعها ألوزراء و الامراء فرد على ذلك ردّاً لطيفاً و من مثل ما حكى أمامه من أن كسرى لما تقلد الملك عكف على الصبوح و الغبوق فكتب إليه و زيره رقعة يقول فيها - ان في ادمان الملك ضرراً على الرعيّة و نرجو تخفيف ذلك و النظر في أمر المملكة فوقع كسرى على نفس الرقعة إذا كانت سبلنا آمنة و سيرتنا عادلة و الدنيا باستقامتنا عامرة و عمّالنا بالحق عاملون فلم نمنع فرحة عاجلة ؟ فعلق أبوسليمان على هذا الخبر .

لقد اخطأ كسرى من وجوه أولاً أن الادمان افراط و الافراط مذموم ثانياً انه جهل إن أمن السبل وعدل السيرة و عمارة الدنيا والعمل بالحق مالم يوكّل بها الطرف الساحر، ولم تحط بها العناية التامة ولم تحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام دبّ إليها النقص ، و ثالثا . أن الزمان اعزّ من أن يبذل في الاكل و الشرب و التلذّذ و التمتع فان في تكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها ما يستوعب اضعاف العمر فكيف إذا كان العمر قصيراً ، ورابعا . ان الخاصة والعامة إذا وقفت على استهتاره باللذات ، وإنهماكه في طلب الشهوات ، قلدته و قلّت هيبتها وحشتمها منه . و ارتفاع الحشمة باعث على الوثبة و الوثبة غير ما مونة من الهلكة و ما خلا الملك من طامع راصد قطّ .

جاء الاسلام و التكسب بالشعر حرفة عرفتها العرب و اصطبغ بصبغتها أشرافها و وضعاؤها فلم يأنف زهير و النابغة الذبياني و حسّان و هم من الاشراف أن يمدحوا

السادات و الملوك و يتقبّلوا جوائزهم وشرف بها سفهاؤها واحلاسها . فنعموا بها أحياناً و شقوا بها أحيانا من أمثال اعشى قيس و الحطيئة العبسى . فاقرّ الاسلام هذه الحرفة إذا كانت دفاعاً عن الحق وردعاً للباطل و دعاء إلى سبيل الله بالحكمة و الموعظة الحسنة و نهى عن استماع المرء مدح نفسه و حمل استماع رسول الله ﷺ إلى مديح كعب بن زهير و حسان وغيرهما من شعراء الصحابة على انه اعلاء لشأن الاسلام الآتى على لسان رسوله و القرآن نفسه مدح لرسول الله و ثناء عليه و كل انواع العبادة من الصلوة و الاذان و الاقامة لا تخلو من مدح رسول الله و مدحه هو مدح الاسلام فالثناء عليه مأمور به من الله تعالى لم يكن للعرب قبل الاسلام شعور قوى بانهم امة : إنّما كان الشعور القوى عندهم شعور الفرد بقبيلته ذلك أنّا إذا رجعنا إلى ما ترجح صحته من الشعر الجاهلى وجدناه مملوءً بالشعور القبلى فالشاعر يمدح قبيلته و يتغنى بانتصارها و يعدد محاسنها و يهجو القبيلة الاخرى من أجل قبيلته فلّما كان تجد شاعراً يفخر على غيره من الامم وهذا يدور على فكرة أنّه هل الملل يؤسّسون الدوّل وبعبارة اوضح هل الملة توجد العظيم و النابغة أو النوابغ والعظماء يؤسّسون ويوجدون الملّة العظيمة و الدولة الفخيمة و الحق أنّ الامة موجودة بوجود الرأس وأوّل شرط لوجود الملّة و عظمة الامة وجود شخص أو هيأة مكوّنة من عدّة اشخاص لها قوة تنفيذ أوامرها على كافّة أفرادها و حملهم على طاعتها أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك ما يشجع العرب على هذه الفكرة لانهم إذا نظروا إلى الفرس من ناحية و الروم من جانب آخر و علاقة العرب بهم ليست علاقة الجار بجاره أو تبادل الصداقة كالنّد الى النّد بل تقابل الضد إلى الضد أو علاقة الفقير بالغنى والضعيف بالقوى و من تاجر منهم وانتقل إلى فارس والروم و رأى عظمتهم استضعف نفسه و يخبرنا الطبرى . أنه عند ما أراد عمر فتح فارس تخوفوا من الفرس و عجبوا كيف يستطيعون أن يحاربوهم و كان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم و شوكتهم و عزّهم أنّ العربى كان يعتزّ بقبيلته و المحمدة الّتي يفتخر بها هي الّتي يأتى بها أفراد قبيلته فلما رهن حاجب ابن زرارة قوسه عند كسرى و وفّى ابنه بالرهن كان الّذي يفتخر بذلك قبيلة تميم والذي يفتخر بالشاعر أو الشجاع

قبيلته و قلّ أن يتجاوزوا ذلك إلى عدّ المكرمة مكرمة امة .

انتصرت قبيلة بني بكر بنصرة قبايل اخرى اشتركت فى الحرب وهم الشيبانيّون والعجليون واليشكريون يوم ذى قار على فرقة من الجيش الفارسي فعدّت ذلك فخراً عظيماً مع انّه ليس بشيء ذي خطر فايّ فرقة لأيّة امّة عرضة للانهزام لكن العرب أحسّوا بالفخر العظيم لانتصارهم كأنّهم ماكانوا يتوقّعون ان تهزم حملة فارسيّة .

وهناك من الشعر في الشجاعة والشجعان مايفعل في النفوس فعل السحر فيستنزلها من الخوف على الحياة و الهرب بها إلى الخوف على الشرف حتى تهون النفس في سبيله تقول الخنسا . نهين النفوس وبذل النفو س يوم الكريهة أبقى لها

اضف الى ذلك انّ الشعر ديوان العرب وهذا الفتح اضاف يوماً على ايام العرب قال بعضهم

وقد يظنّ ان شجاعة العرب وبأسهم لم يكن إلّا فيما بينهم وحسبنا ان ندل القارئ على ماكان من بأس العرب يوم ذي قار اذ أراد كسرى ان يوقع سوءً ببني بكر بن وائل وجهّز إليهم جيشاً كثيفاً ليهلكهم به و بلغهم خبره فتجهّزوا له و اعانهم قبايل اخرى فتوافوا بوادٍ اسمه ذو قار وكانت الهزيمة على جيش كسرى حتّى تبعهم العرب إلى داخل البلاد الفارسيّة وهي واقعة مشهورة كثرت فيها الاشعار وظهر فيها ما للشجاعة من الفضل في كسب الفخار وحمي الذمار واتّقاء العار و في هذه الواقعة يقول الاعشى اعشى بني بكر :

وجند كسرى غداة الخيل صبحهم ... مناغطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا ململمة شهباء يقدمها ... للموت لاعاجز منا ولا خرف
فرع نمته فروع غير ناقصة ... موفق حازم في امره أنف
فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الاسنّة لاميل ولا كُشف
لمّا رأونا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أنّنا بكر فينصرفوا
قالوا البقيّة و الهندي يحصدهم ... ولا بقيّة إلّا السيف فانكشفوا
لوانّ كل معدّ كان شاركنا ... في يوم ذى قار ما أخطاهم الشرف
لما أمالوا إلى النشاب أيديهم ... ملنا ببيض لمثل الهام تختطف
اذا عطفنا عليهم عطفة صبرت ... حتّى تولت و كاد القوم ينتصفوا

بطارق و بني ملك مرازبة ... سن الاعاجم في آذانها الشُنف
من كل مرجانة في البحر أحرزها ... تيارها و وقاها طينها الصدف
كأنما الال في حافات جمعهم ... و البيض برق بدا في عارض يكف
ماقي الخدود صدود عن سيوفهم ... ولاعن الطعن في اللبات منحرف

وفيه يقول بكيرالاصم أحد بني قيس بن ثعلبة :

هم يوم‌ذي قاروقد حمي الوغى ... خلطوا لها ماجحفلاً بلهام
ضربوا بني الاحرار يوم لقوهم ... بالمشرفى على صميم الهام

و في هذه الواقعه يقول العديل بن الفرج العجلي :

ما اوقد الناس من نار لمكرمة ... إلاّ اصطلينا وكنّا موقدى النار
وما يعدون من يوم سمعت به ... للناس أفضل من يوم بذى قار
جئنا باسلابهم والخيل عابسة ... لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وفيها يقول شاعرآخر من بنى عجل :

ان كنت ساقية يوماً ذوى كرم ... فاسقى الفوارس من ذهل بن شيبانا
واسقى فوارس حاموا عن ذمارهم ... واعلى مفارقهم مسكاً و ريحانا

وهي واقعة شهيرة ظهرت فيها الشجاعة العربيّة اكمل مظهر وكان المنذر لهم بنيّة كسرى و عزمه لقيط الايادى اذكتب إلى بنى شيبان يخبرهم بذلك في شعرمشهور غاية في البلاغة والتحميس واستثارة العزائم و فيه يقول :

قوموا جميعاً على امشاط أرجلكم ... ثمّ افزعوا قد ينال الامن من فزعا
و قلّدوا أمركم لله درّ كمو ... رحب الذراع بامر الحرب مضطلعا
لامترفاً ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذاعضّ مكروه به خشعا
مازال يحلب هذا الدهر أشطره ... يكون متّبعاً طوراً و متّبعا
حتّى استمرّ على شزر مريرته ... مستحكم الرأى لافحما ولاضرعا
وليس يشغله مال يثوّره ... عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

أطفال اليوم رجال الغد

دعا الحسن بن علي بنيه و بني اخيه فقال يابنيّ و يابنيّ اخي إنّكم صغار قوم وتوشكون أن تكونوا كبار قوم آخرين فتعلّموا العلم فمن لم يستطع منكم أن يرويه أو يحفظه فليكتبه وليجعله في بيته .

قلنا في أوّل الكتاب ان صاحب الرسالة العظمى اوّل من دعا إلى التعليم العام وما فرّق بين الصغير والكبير و بيّنّا في بعض كتبنا بالفارسيّة أنّ التدريس للأكابر بصورة الصف المدرسيّ من مفاخر الاسلام وإذا كان طلب العلم واجباً على كلّ مسلم ومسلمة فلزوم إعطاء حقوق الاطفال على الاباء فكما انّ الطفل لا يطول امره حتّى يتعلم كيف يأكل ولكن ماذا يأكل هي مسألة من الاهمّية بمكان . فان الصغار كثيراً ما يأكلون أشياء لا تناسب معدهم فيصابون بعسر الهضم وترافقهم هذه العلّة كباراً .

وهذا يصدق على الامم الحديثة العهد في التهذيب فانها عرضة لتناول كلّ ماتراه امامها قبل ان تميّز غثّها من ثمينها . فعلى المفكّرين ان يهتّموا بأمر ماتغذّى به عقول الاحداث و بالكمّية الّتي يجب ان تعطى لهم من ذلك الغذاء وهذه قضيّة تشغل اليوم علماء فن التهذيب في اوربا وامريكا ولكلّ بلاد ظروف واحوال تختلف عن غيرها .

عند ما اشاهد الصغار ذاهبين صباحاً إلى مدارسهم و على كتف كل منهم محفظة تحتوى كتباً عديدة في فروع متعدّدة تقضي عليهم الواجبات المدرسية بان يفهموها و يستظهروها . عندئذ يداخلني شي من الشفقة على أولئك الاحداث و أقول في نفسي أن تعدّد الفروع على الطالب تنهك قواه الجسديّة الّتي هي أساس لجهاده في الحياة وتجعل التعلّم سطحيّا و تقلّل في المستقبل عدد المفكرين في الامة و تكثر عدد المتقلبين المتقللين في أعمالهم فيصبحون .

كريشة في مهبّ الريح طائرة　　لا تستقر على حال من الغلق

انا لا ادّعى الان أني قادر على الجزم في ما يجب أن نعلّمه في مدارسنا و فيما يجب أن نرفضه وانما الغاية من هذا التلميح أن أوجّه افكار رجال العلم المفكّرين إلى

البحث في هذه القضية الحيويّة لعلهم يستطيعون بمساعدة أولى الامر إلى الحل الّذي يناسب رجال الغد من هذا القبيل . وقد أخذ الادباء بقول إمامنا المجتبى عليه السلام فانّه أوّل من خاطب الأطفال بهذه الكلمة الجامعة الّتي اتّخذها اليوم رجال الغرب شعاراً لهم ويقول بعض ادباء العرب .

و قال لنا أبو على يوماً قال لنا أبو بكر إذا لم تفهموا كلامى فاحفظوه فانكم إذا حفظتموه فهمتموه و كذلك الشعر النفس له احفظ و إليه اسرع الا ترى أن الشاعر قد يكون راعياً جلفاً أو عبداً عسيفاً تنبو صورته و تمجّ جملته فيقول ما يقوله من الشعر فلأجل قوله و ما يورده عليه من طلاوته و عذوبة مستمعه ما يصير قوله حكماً يرجع إليه و يقتاس به ألاترى إلى قول العبد الاسود .

أن كنت عبداً فنفسى حرة كرما او اسود اللون انى ابيض الخلق

و قول نصيب :

سودت ولم املك سوادى و تحته قميص من القوهى بيض بنائقه

و قول الاخر :

أني و أن كنت صغيراً سنى و كان في العين نبوٌّ عنّى

فان شيطانى اميرا لجن يذهب بى في الشعر كلّ فن

حتى يزيل عني التظنّى

فاذا رأيت العرب قداصلحوا الفاظها فلا ترين ان العناية انما هى بالالفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعانى وتنويه وتشريف ونظيرذلك إصلاح الوعاء و تحصينه و تزكيته و انما المبغىّ بذلك الاحتياط للموعىّ عليه و جواره بما يعطّر بنشره ولا يعرّ جوهره كما قد تجد من المعانى الفاخرة الساميّة ما يهجّنه و يغضّ منه كدرة لفظه فكأنّ العرب إنّما تحلّى ألفاظها و تدبجّها وتشيها و تزخرفها عناية بالمعانى ومطالبها وقدقال رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ من الشعر لحكماً و ان من البيان لسحراً و الإخبار في التلطّف بعذوبةالالفاظ إلى قضاء الحوائج أكثر من أن يؤتي عليها أو يجشّم للحال تعب بهاألاترى إلى قول بعضهم وقدسأل آخرحاجةً فقال المسئولعنه إنّ عليّ يميناً أن لاأفعل هذافقال

له السائل أن كنت أيدك الله لم تحلف يميناً قط على أمر فرأيت غيره خيراً منه فكفرّت عنها له و أمضيته فما اُحبّ أن احنثك ، و إن كان ذلك قد كان منك فلا تجعلني أدون الرجلين عندك فقال له سحرتني ، و قضى حاجته . وهذا هو الأدب بالمعنى الحقيقي .

و في سيرة العلماء و الفحول من العظماء ما يكّون أكبرعون على تربية الرجال و إليك ما جاء عن الغزالى قرء في صباه طرفاً من فقه الشافعيّة على أحمد بن محمّد الراذكاني في بلدة (طوس) ثمّ سافر إلى الامام أبي نصر الاسماعيلي في جرجان و علّق عنه كتاب التعليقة و عاد إلى طوس . قال الامام اسعد المهيني فسمعته يقول قطعت علينا الطريق و أخذ العيّارون جميع مامعى و مضوا فتبعتهم فالتفت إليّ مقدّمهم و قال أرجع ويحك و إلاّ هلكت فقلت له اسألك بالّذي ترجو السلامة منه أن تردّ عليّ تعليقتى فقط فما هي شيىء تنتفعون به . فقال لى و ما هي تعليقتك ؟ فقلت كتب في تلك المخلاة ماهاجرت لسماعها و كتابتها ومعرفة علمها . فضحك وقال كيف تدعى أنّك عرفت علمها وقدأخذناها منك فتجردت من معرفتها و بقيت بلا علم ؟

ثمّ أمر بعض أصحابه فسلّم إليّ المخلاة قال الغزالى هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمرى فلماوافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتّى حفظت جميع ما علّقته و صرت بحيث لو قطع عليّ الطريق لم اتجرّد من علمى قال التاج السبكي وقد روى هذه الحكاية عن الغزالى أيضاً الوزير نظام الملك و فيها من العبرة لمثل طلاّب الجامعة مالا يخفى ثم أن الغزالى قدم نيسابور ولازم امام الحرمين وجدّ واجتهد حتّى برع على يديه في فقه الشافعي والمنطق وقرء الحكمة والفلسفة واحكم كل ذلك و صنّف في كل فنّ من هذه العلوم كتباً احسن تأليفها و أجاد وضعها و ترصيفها قال معاصره عبد الغافر بن اسمعيل الفارسى خطيب نيسابور لم تر العيون مثله لساناً و بياناً و نطقاً و خاطراً و ذكاءً و طبعاً قدم نيسابور مختلفاً إلى درس امام الحرمين في طائفة من الشّبان من طوس حتّى تخرّج في مدّة قريبة و بذّ الاقران و حمل القرآن وصار أنظر أهل زمانه و أوحد اقرانه في ايّام امام الحرمين و كان الطلبة يستفيدون منه و يدرس لهم و يرشدهم و يجتهد في نفسه و بلغ الامر به إلى أن أخذ في التصنيف و كان

الامام مع علوّ درجته و سموّ عبارته و سرعة جريه في المنطق و الكلام لا يصفى نظره إلى الغزالى سرّاً لا ربائه عليه في سرعة العبارة و قوّة الطبع . ولايطيب له تصدّيه للتصانيف وان كان متخرّجاً به منتسباً إليه كما لايخفى من طبع البشر ولكنّه يظهر التبجّح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف مايضمره ثمّ بقى كذلك إلى انقضاء ايام الامام فخرج من نيسابور إلى العسكر واحتلّ من مجلس نظام الملك محلّ القبول واقبل عليه الصاحب لعلوّ درجته وظهور اسمه وحسن مناظرته وجرى عبارته . وكانت تلك الحضرة محطّ رحال الرجال والفحول من العلماء ومقصد الائمة والعظماء فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالائمة وملاقاة الخصوم اللّدومناظرة الكبار و ظهر اسمه في الافاق وارتفق بذلك أكمل الارتفاق حتّى أدّت الحال به إلى ان رسم للمصير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظاميّة بها فصار اليها واعجب الكل تدريسه ومحاضراته ومناظراته و صار بعد امامة خراسان امام العراق ثمّ عاد إلى نيسابور و ترك بغداد مع كثرة الطلبة لطلب العلم لنفسه و تربية شخصه يقول إنّما مطلوبي العلم بحقايق الامور فلا بدّ من العلم اليقيني وهو الّذي انكشف فيه المعلوم انكشافاً لايبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط ولايكون العلم موصوفاً بهذه الصفة إلاّ في الحسّيات والضروريات فاقبلت بجد بليغ أتأمّل في المحسوسات فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات أيضاً فقلت من أين الثقة بالمحسوسات واقواها البصر وهى تنظر إلى الظلّ فتراه واقفاً غير متحرّك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف انّه يتحرّك تدريجاً وتنظر إلى الكوكب فتراه في مقدار دينار ثمّ الادلّة الهندسيّة تدل على انه اكبر من الارض فظهر فظهر لي انه لامطمح في السعادة إلاّ بالتقوى و كفّ النفس عن الهوى والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لايتم إلاّ بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلايق . لمّا سئل رسول الله عن الشرح ومعناه في قول الله فمن شرح الله صدره للاسلام قال صلى الله عليه وآله هو نور يقذفه الله في القلب فقيل وما علامته فقال صلى الله عليه وآله التجافي عن دار الغرور والانابة إلى دار الخلود ثمّ لاحظت احوالي فاذا انا منغمس في العلايق وقد احدقت بي من الجوانب ولاحظت اعمالي واحسنها التدريس والتعليم فاذا أنا فيها مقبل على علوم

غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ثم تفكّرت في نيّتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فلم أزل أتفكّر مدّة لصمّم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً و أقدّم رجلاً و اُؤخّر اخرى فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان و ثمانين وار بعمأة ففارقت بغداد وفرقت ماكان معي من المال ولم أدّخر إلّا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخّصا بأنّ مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على المسلمين ثمّ دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين اشتغالاً بتهذيب الاخلاق وتزكية النفس ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة فسرت إلى الحجاز ثمّ جذبتني الهمم ودعوات الاطفال إلى الوطن فعاودته بعد ان كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه وآثرت العزلة على الذكر وتصفية القلب ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات امور لايمكن احصاءها و استقصاؤها

وكان ماكان ممّا لست اذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

و هذه صورة كتاب كتبه الغزالي من طوس إلى الوزير نظام الملك جواباً عن كتابه الّذي استدعاه فيه إلى بغداد يعده فيه بتفويض المناصب الجليلة إليه وذلك بعد تزهّده و تركه تدريس النظاميّة بسم الله الرحمن الرحيم و لكلّ وجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات اعلم انّ الخلق في توجههم إلى ماهو قبلتهم ثلث طوايف :

احديها : العوام الّذين قصّروا نظرهم على العاجل من الدنيا فمنعهم الرسول ﷺ بقوله ماذئبان ضاريان في ذريبة غنم باكثر فساداً من حبّ المال و السرف في دين المرء المسلم .

وثانيها : الخواص وهم المرجّحون للاخرة العالمون بأنّها خير وأبقى العاملون لها الاعمال الصالحة فنسب اليهم التقصير بقوله ﷺ الدنيا حرام اهل الآخرة والآخرة حرام على اهل الدنيا وهما حرامان على اهل الله .

ثالثها : الأخص وهم الّذين علموا أنّ كلّ شيء فوقه شيء آخر فهو من الآفلين و العاقل لايحبّ الآفلين و تحقّقوا انّ الدنيا و الآخرة من بعض مخلوقات الله

تعالى واعظم امورهما الأجوفان المطعم و المنكح و قد شاركهم في ذلك كل البهائم و الدّواب فليست مرتبة سنيّة فاعرضوا عنها وتعرّضوا لخالقهما و موجدهما ومالكهما وكشف عليهم معنى و الله خير و أبقى و تحقق عندهم حقيقة لا إله إلاّ الله و انّ كلّ من توجّه إلى ماسواه فهو غير خال عن شرك خفيّ فصار جميع الموجودات عندهم قسمين الله وماسواه واتخذوا ذلك كفّتي ميزان وقلبهم لسان الميزان فكلّما رأوا قلوبهم مائلة إلى الكفّة الشريفة حكموا بثقل كفّة الحسنات وكلّما رأوها مائلةً إلى الكفّة الخسيسة حكموا بثقل كفّة السيّئات وكما انّ الطبقة الاولى عوام بالنسبة إلى الطبقة الثانية كذلك الطبقة الثانية عوام بالنسبةً إلى الطبقة الثالثة فرجعت الطبقات إلى طبقتين وح اقول قد دعاني صدر الوزراء من المرتبة العلياء إلى المرتبة الدنيا وانا ادعوه من المرتبة الدنيا إلى المرتبة العلياء الّتي هي أعلى علّيّين و الطريق إلى الله تعالى من بغداد و من طوس و من كلّ المواضع واحد ليس بعضها أقرب من بعض فاسأل الله ان يوقظه من نوم الغفلة لينظر في يومه لغده قبل أن يخرج الأمر من يده والسلام . فالصدق والإخلاص في أدب النفس كالدراية للرّواية وقد كان علماء السنة لا يعدون محدثا إلاّ من يروى عشرين ألف حديث من حفظه وفيهم من بلغت روايته أربعين ألف أو أكثر وأكثرهم مع ذلك إمام في اللغة والشعر والفقه بل ليس براوى وعندهم من لم يروِ من اللغة وإنّما كانوا يقيمون آراءهم في غريب الحديث و مشتبه الأثر بما يحتجّون به من الشعر مرويّاً بسنده أو مأخوذا عمّن يسنده و هذا الشافعي مستنبط المذهب وراوي شعر الهذليّين ويروي عنه من قوة الحافظة انه تصفّح كتاباً لأبي حنيفة ذات ليلة وقد أتى عليه حفظاً و بلغه وعياً والرواية مرادفة الحفظ فكلّ رواية حافظ وليس كلّ حافظ براوية لان الأخذ قد يكون من صحيفة منقطعة السند أو لاسند لها ولاثقة به لأنّهم لايقبلون من صحيفة ولا يأخذون عن صحفيّ وكانوا يقولون.

ليس بعلم ماحوى القمطر ما العلم إلاّ ما حواه الصدر

بل لا يكون عالماً إلاّ أن يكون العلم صفة من صفاته لا أن يفهم ما يأخذه عن العلماء فينبغي لكلّ طالب علم أن يتلقى العلم لأجل أن يكون له فيه حكم ورأي ولا يكتفي بأن يكون راوياً لاقوال العلماء ولو مع الفهم ولا يصير هكذا إلاّ إذا هو أشرب العلم

فالعالم يكتب أحسن مايسمع و يحفظ أحسن مايكتب ويتكلّم باحسن مايحفظ .

لاتود عنّ علمك يا حاذق في صحف يسرقها السارق
بل صدرك أجعله وعاءً له مفتاحه مقولك الناطق
حينئذ ان قال عنك امرؤ انّك تدري فهو الصادق
بالله قل لي يافتى أن تسل عن قصة صاحبها طارق
و قال عجل قل لنا شرحها الركب عنى ذاهب زاهق
و العلم في بيتك مستودع في كتب منظرها رائق
كيف ترى حالك هل فوق ذا من خجل يرمقه الرامق
لآخر في صدره علمه و هو بما يحفظه واثق
ان سيل كان القول في شدقه لكلّ ما يفتقه راتق
شتان ما بينكما أنت في العلم ضعيف و هو الفائق
فادرس ولا تغفل وكن حافظا و ربّك اسأل فهو الرازق

قال أعرابي حرف في تامور قلبك أحسن من عشرة في كتبك وفي مثل هذا ينشد :

إذا لم تكن حافظاً واعيا فجمعك لكتب لاينفع
أتحضر في مجلس جامع و علمك في الدار مستودع

من كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر ردى ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلّاكثرة المحفوظ فمن قلّ حفظه أو عدم لم يكن له شعر و إنّما هو نظم ساقط و اجتناب الشعر اولى بمن لم يكن له محفوظ قال بعض أئمّة الادب وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر و معرفة الاخبار و التلمذة لمن فوقه من الشعراء فيقولون فلان شاعر راوية ولذا قال ابن خلدون العلم بقوانين الاعراب إنّما هو العلم بكيفيّة العمل و ليس هو نفس العمل و لذلك نجد كثيراً من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربيّة المحيطين علماً بتلك القوانين إذاسئل في كتابة سطرين إلى أخيه أوذى مودّته أوشكوى ظلامة أخطأ فيها عن الصواب و حصول ملكة اللسان إنّما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرسم في خباله المنوال الّذي نسجوا عليه فينسج هو عليه وقال الاصمعي

لايصير الشاعر في قريض الشعر فحلا حتّى يروى اشعار العرب ويسمع الاخبار و يعرف المعانى و تدور في مسامعه الالفاظ .

والدهر يقول لن تنال الراحة إلّا بالتعب ولابد دون الشهد من ابر النحل ومقاساة السّلاء قبل الظفر بالرطب و جاء في كتاب الجاحظ الانسان لا يعلم حتّى يكثر سماعه ولابدان تكون كتبه أكثر من سماعه ولا يعلم ولا يجمع العلم حتّى يكون الانفاق عليه من ماله الّذ عنده من الانفاق من مال عدوّه . ومن لم تكن نفقته الّتي تخرج في الكتب الذّ عنده من ساير النفقات لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً و اعلم انّه لا يعطيك العلم و الأدب إلّا على حساب ما تعطيهما من نفسك و لن يجودا و أنت باعطائه ضنين و كان أبويوسف يقول العلم شيىء لا يعطيك بعضه حتّى تعطيه كلّك . وقال الزمخشرى :

سهرى لتنقيح العلوم ألّذلى	من وصل غانية و طيب عناق
و تمايلى طربا لحل عويصة	أشهى و احلى من مدامة ساق
و صرير اقلامى على أوراقها	أحلى من الدوكاه و العشاق
و الذّ من نقر الفتاة لدفّها	نقرى لالقى الرمل عن اوراقى
أأبيت سهران الدجى و تبيته	نوماً و تبغى بعد ذاك لحاقى

عن عنوان البصرى و كان شيخاً قداتى عليه أربع و تسعون سنة قال كنت اختلف إلى مالك بن انس سنين فلما قدم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام كنت اختلفت إليه واحببت أن آخذ عنه كما أخذت عن مالك فقال يوماً لي أنّي رجل مطلوب و مع ذلك لي أوراد في كلّ ساعة من آناء اللّيل و النّهار فلا تشغلني عن وردى و خذ عن مالك و اختلف إليه كما كنت تختلف فاغتممت من ذلك وخرجت من عنده و قلت في نفسي لو تفرّس لي خيراً لما زجرني عن الاختلاف إليه و الأخذ عنه فدخلت مسجد الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّمت عليه ثم رجعت من الغد إلى الرّوضة وصلّيت فيها ركعتين و قلت اسألك يا الله يا الله أن تعطف عليّ قلب جعفر و ترزقنى من علمه ما اهتدى به إلى صراطك المستقيم و رجعت إلى دارى مغتماً ولم اختلف إلى مالك بن انس لما أشرب قلبى من حبّ جعفر عليه السلام فما خرجت من دارى إلّاإلى الصلوة المكتوبة حتّى عيل صبرى فلمّا ضاق صدرى تنعلّت

و تردّيت وقصدت جعفراً عليه السلام وكان بعد ما صلّيت العصر فلمّا حضرت باب داره استأذنت عليه فخرج خادم له فقال ما حاجتك فقلت السلام على الشّريف فقال هو قائم في مصلاّه فجلست بحذاء بابه فمالبثت إلاّ يسيراً إذ خرج خادم فقال أدخل على بركة الله فدخلت وسلمت عليه فردّ عليّ السلام وقال اجلس غفرالله لك فجلست فاطرق مليّاً ثم رفع رأسه فقال ابومن قلت أبوعبدالله قال ثبت الله كنيتك و وفّقك يا اباعبدالله ما مسألتك فقلت في نفسي لولم يكن لي في زيارته والتسليم عليه غيرهذا الدّعاء لكان كثيراً ثم رفع رأسه فقال مامسألتك قلت سألت الله عزّوجلّ ان يعطف عليّ قلبك ويرزقني من علمك وارجوأنّ الله تعالى أجابني في الشريف ماسألته فقال يا أباعبدالله ليس العلم بالتعلّم وانّما هو نوريقع على قلب من يريد الله تبارك وتعالى ان يهديه فان اردت العلم فاطلب اوّلاً في نفسك حقيقة العبوديّة واطلب العلم باستعماله واستفهم الله يفهمك قلت ياشريف قال : قل ياأباعبدالله قلت ياأباعبدالله ما حقيقه العبوديّة قال ثلثة أشياء أن لايرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكالأنّ العبيد لايكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث امرهم الله به ولايدبّر العبد لنفسه تدبيراً و جعل اشتغاله فيما امره الله و نهاه عنه فاذا لم يرالعبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الانفاق فيما امره الله تعالى أن يُنفق فيه و إذا فوّض العبد تدبير نفسه إلى مدبّره هان عليه مصائب الدّنيا و إذا اشتغل العبد بما امره الله تعالى و نهاه لا يتفرّغ منهما إلى المراء و المباهات مع الناس و إذا اكرم الله العبد بهذه الثلثة هان الدنيا و ابليس و الخلق ولا يطلب الدنيا تكاثراً و تفاخراً ولا يطلب ما عند الناس عزّاً و علوّاً ولا يدع ايّامه باطلاً فهذا أوّل درجة التّقي قال الله تعالى تلك الدّار الاخرة نجعلها للذّين لا يريدون علوّاً في الارض ولا فساداً و العاقبة للمتقين قلت يا أباعبدالله أوصني فقال أوصيك بتسعة أشياء فانّها وصيّتي لمريدى الطريق إلى الله تعالى والله اسأل أن يوفّقك لاستعماله ثلثة منها في رياضة النفس و ثلثة منها في الحلم و ثلثة منها في العلم فاحفظها وايّاك و التهاون بها قال عنوان ففرغت قلبى له قال اما اللّواتي في الرّياضة فايّاك أن تأكل مالاتشتهيه فانّه يورث الحماقة و البله ولا تأكل إلاّ عند الجوع و إذا أكلت فكل حلالا و سمّ الله و ذكّر حديث الرّسول صلى الله عليه وآله ماملأ آدمي

وعاءً شرّاً من بطنه فان كان ولا بد فثلث لطعامه و ثلث لشرابه وثلث لنفسه فأما اللّواتي في الحلم فمن قال لك ان قلت واحدة سمعت عشراً فقل له إن قلت عشراً لم تسمع واحدة و من شتمك فقل ان كنت صادقاً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لي وان كنت كاذباً فيما تقول فاسأل الله أن يغفر لك ومن وعدك بالخنا فعده بالنّصيحة والدّعاء و أمّا اللواتي في العلم فاسأل العلماء ماجهلت و ايّاك أن تسألهم تعنّتاً وتجربةً و ايّاك أن تعمل برايك شيئاً وخذ بالاحتياط في جميع ماتجد إليه سبيلاً واهرب من الفتيا هربك من الاسد ولا تجعل رقبتك في الناس جسراً قم عنّي يا أباعبدالله فقد نصحت لك ولا تفسد عليّ وردي فانّي امرء ضنين بنفسى والسلام على من اتّبع الهدى .

الجوانب القوية : ذكرنا الاميال و العواطف والعادات الدنيئة الّتي تصاحب كبار النفوس فتحطّ من كرامتهم وتسفل بمقامهم قد يكون لضعف احدى جوانبهم وسمّيناها في الفارسية بنقطة او نقاط الضعف كما تسميه الاعراب بالجوانب الضعيفة .

ونحن الان نذكر شيئاً عن الجوانب القوّية الّتي تصاحب رجالاً كنّا نعدّهم من الاشرار و اولى الاذى و الفساد فتكون على شيىء من تكفير لسيّئاتهم كيف وقد قال الله تعالى ان الحسنات يذهبن السيّئات كما كانت الجوانب الضعيفة عوذة لاولئك المحسنين المتفضّلين .

يروى ان اوساً و حاتماً وفدا على عمرو بن هند فدعا أوساً وقال له أنت أفضل أم حاتماً فقال أبيت اللعن لوملكنى حاتم و ولدى ولحمتى لوهبنا في غداة واحدة ثمّ دعا حاتماً فقال أنت أفضل ام أوس فقال أبيت اللعن انما ذكرت بأوس ولأحد ولده أفضل منّي فقال عمرو والله ما ادرى ايّكما افضل وما منكما الاسيّد كريم .

ومن محاسن أوس ان النعمان بن المنذر دعا بحلّة نفيسة و عنده وفود العرب من كل حيّ وفيهم أوس فقال لهم احضروا غداً فانّي ملبس هذه الحلّة أكرمكم فحضر القوم إلّا اوساً فقيل له لم تتخلّف فقال انكان المراد غيرى فاجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضراً وان كنت المراد فسأطلب فلما جلس النعمان ولم ير أوساً قال اذهبوا إلى أوس فقولوا له احضر آمناً ممّا خفت فحضر فالبس الحلّة فحسده قوم من أهله فقالوا للحطيئة اهجه

ولك ثلثمأة ناقة فقال كيف أهجو من لاأرى في بيتي أثاثاً ولا مالا إلاّ من عنده ثم ّ قال :

كيف الهجاء وما تنفك ّ صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني

فقال لهم بشر بن أبي حازم أنا أهجوه لكم وفعل فاخذ الابل فاغار أوس عليها واكتسحها و طلبه فجعل لايستجير حياً من أحياء العرب إلاّ قالوا قدآجرناك من الجن ّ والانس إلاّ من أوس فكان في هجائه اياّه ذكر امّه فلم يلبث إلاّ يسيراً حتّى أتى بهاسيراً فدخل اوس إلى امّه واستشارها في امره فقالت أرى ان ترد ّ عليه ماله وتعفو عنه و تحبوه وافعل أنا مثل ذلك فانه لايغسّل هجائه إلاّ مدحه فاخبره بما قالت فقال لاجرم والله لامدحت أحداً حتّى اموت غيرك .

إذا قام اليوم فينا شاعر و قال انّه ينظم القريض بغية الحصول على المال نحتقره و إذا اعلن اليوم رجل دين أو علم او ادب انّه يباشر مهنته للإثراء فذلك الرجل مشتبه بمواهبه مجتنب من الجميع . وسيأتي يوم ـ وما ذلك اليوم ببعيد ـ يعتبر فيه التاجر عمله لا واسطة لمجرد كسب الدينار بل لخدمة الجمهور بتقديم السلع و الحاجات الّتي يحتاج إليها هذا الجمهور للقيام بمقتضيات حياتهم المادية . و الجمهور بالتالى يعوّض عن خدمة التاجر بان يقدّم له معاشه . وهو مانسمّيه الان ربحاً وكذلك صاحب الصناعة سيعد عمله وسيلة لتقديم الكساء والمأكل و المشرب الضروريّة لحفظ كيان الأُمّة الجسدى لوقايتها من الحر ّ و البرد و الامة تعوض عن خدمته بأن تقدّم له معاشه وهو مانسمّيه الان ربحا هذه هي فلسفة الحياة الاجتماعيّة ، إن ّ المقصود الرئيسي من عمل الطبيب حماية جسم المجموع من المرض و من عمل المعلّم ترقية عقل المجموع ومن عمل التاجر والصانع و العامل حفظ كيان المجموع الجسدي . هذا هو المقصود بالذات وما الاجرة سوى تعويض نناله عن خدمتنا وقد قال بعض العلماء من المتنبّهين بأن سيأتى يوم إذا ماقال فيه تاجر أوعامل أومعلم أو طبيب أنّي في هذه المهنة لأجمع ثروة ،لأربح مالاً ، عد ّ ذلك القائل عدواً للإنسانيّة وخصماً للبشريّة ولما ذا ؟ لأن ّ الاشياء الّتي نتمتّع بها الآن ليست من نتاج أيدينا بل هي ميراث ورثناه من آبائنا و أسلافنا (قلنا في السابق زرعوا فاكلنا نزرع ويأكلون) وقال بعض الكتّاب .

ان الرجل العادى في اروبا ديمقراطياً كان اوفاشيستاً رأسمالياً كان أواشتراكياً عاملاً باليد اورجلا فكرياً يعرف ديناً واحداً وهو عبادة الرقي المادّى و الاعتقاد بانه لاغاية في الحياة غير ان يجعلها الانسان أسهل و بالتعبير الدارج حرّيّة مطلقة من قيود الطبيعة أمّا كنائس هذا الدين فهي المصانع الضخمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية و دور الرقص و مراكز توليد الكهرباء . و امّا كهنتها فهم رؤساء الصيارف و المهندسون و الممثّلات وكواكب السينما واقطاب التجارة و الصناعة و الطيارون و المبرّزون الّذين يضربون رقماً قياسيّاً ونتيجة هذه النهامة للقوّة و الشره للذّة والنتيجة اللاّزمة ظهور طوائف متنافسة مدججّة بالسلاح والاستعدادات الحربيّة مستعدة لابادة بعضها بعضاً إذا تصادمت اهواؤها ومصالحها . أما في جانب الحضارة فنتيجها ظهور طراز للإنسان يعتقد الفضيلة في الفائدة العملية و المثل الكامل عنده و الفارق بين الخير و الشرّ هو النجاح المادّي لاغير ـ انّ الحضارة الغربيّة لاتجحدالله في شدة وصراحة ولكن ليس في نظامها الفكرى موضع لله في الحقيقه ولا تعرف له فائدة ولا تشعر بحاجة اليه ولم يزل سائداً على عقليّة اروبا منذقرون شره المال والتملك وكانت رغبة نيل الثروة أقوى عامل في حياة البلادوأكبر باعث على العمل لأن الثروة وسيلة للتملك وضخامته ووفرته مقياس لكفائة الانسان ولم يزل الناس يتلقون من طرق السياسة و الأدب و التمثيل و السينما والاذاعة اللاسلكية ومن منبر الكنيسة في كلّ عام وشهر التحريضات على جمع المال واقتنائه والاقناع بأن الامة المتمدّنة هى الّتى ارتقت فيها عاطفة الشره و المال انّ هذه العبادة للمال تناقض عقايدهم الدينيّة لان المسيح يمدح الفقر ويذمّ الغنى ويقول ان الفقير اقدر على الصلاح من الغنيّ ومع ان الحكمة والنعيم الدينى متفقان على ان الفقر أوفق لعبادةالله ودخول الجنّة ولكن الناس لايرغبون إلى تصديق الدين في ذلك و العمل بأحكامه ولم يزالوا يوثرون الثروة الحاضرة على نعيم الجنّة الموعود وقد اعرب بعضهم عن الفكرةهذه بأن بعض المؤلفين يقولون انا لانستطيع أن نجمع بين عبادة الله و عبادة المال ، وأنا أسلم أن الأمر ليس بميسور ولكن متى تكون المهمات في الدنيا ميسورة سهلة ؟ فمهمااختلفنا في المبادي فان الحقيقة الراهنة أن كلّنا مشغوفون بحب المال و عقيدتنا ان الثروة هي

المقياس الصحيح لعظمة الفرد و الحكومة ، و كانت سبباً لظهور مبدأين لهما الاهمية التاريخيّة الكبرى أحدهما . مبدء عدم التدّخل الاقتصادي الّذى كان سائداً على القرن التاسع عشر ويدّعي اصحاب هذا المبدأ ان الانسان يبنى عمله على اعظم نفع يجلبه و أن ليس الباعث على الاعمال الالتذاذ بالعواطف القلبيّة بل الالتذاذ بالثروة - والمبدأ الثاني الّذي يسود القرن العشرين : هو مبدء التنظيم الاقتصادى المنسوب إلى ماركس و يقوم هذا المبدأ على أن نظام الانسان الاقتصادى انما يتأسّس على حوائج الانسان المالية وهذا النظام هوالّذي يخلق الادب و الأخلاق و الدين والمنطق و نظام الحكومة ولم يكن هذان المبدءان لينالا القبول الّذي نالاه لولا شغف الناس في بلادنا بالمال و الاهتمام الزائد به .

و يقول في مكان آخر - أن نظرية الحياة الّتي تسود على هذا العصر و تحكم عليه : هي النظر في كلّ مسألة و شأن من ناحية المعدة و الجيب وقد أجاد الصحفي الامريكى المشهور **Jhengunther** تمثيل هذه النفسية في كتاب داخل اروبا ان الانجليز انّما يعبدون بنك انجلترا ستّة ايّام في الاسبوع ويتوجّهون في اليوم السابع إلى الكنيسة.

ان هؤلاء الّذين لا يؤمنون بحياة اخرى ولا يعتقدون وراء اللذة والتمتع بالحياة والعلوّ في الارض غاية عليا ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً نادراً ولا يرجون لله و قاراً كيف يرجى منهم ان يتضرّعوا إلى الله إذا مسّهم الضرّ؛ و يخبتوا إليه و ينيبوا إذا دهمهم الخطر كما ذكر الله عن الكفار الّذين كانوا إذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن ّمن الشاكرين ولكن هؤلاء - با معانهم في المادّية و التمسّك بالاسباب الظاهرة و التعلّل بها واستغنائهم عن الله - قد وصلوا من القسوة و الغفلة إلى حيث صدق عليهم قول الله ولقد ارسلنا إلى امم من قبلك فاخذناهم بالباساء والضراء لعلّهم يتضرّعون فلولا إذا جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ماكانوا يعملون . فلا تكاد تشعر في خطب الزعماء والامراء في اروبا و امريكا رقة قلب وانكسار و إخبات إلى الله . وللمادّية لاسباب حتمية طبيعيّة وتاريخيّة و علمية قد اصبحت شعاراً

لحضارة الغربيّة وقد لاحظ هذا الشعار كثير من علماء الغرب و الشرق و من علماء الشرق الاستاذ الالمعي الرّحالة عبد الرحمن الكواكبي في مستهل هذا القرن فقد قال في كتابه طبائع الاستبداد .

الغربي مادّي الحياة قويّ النفس شديد المعاملة حريص على الاستئثار حريص على الانتقام كانّه لم يبق عنده شيىء من المبادي العالية و العواطف الشريفة الّتي نقلتها له مسيحيّة الشرق فالجرماني مثلاً جافّ الطبع يرى ان العضو الضعيف الحيات من البشر يستحقّ الموت و يرى كلّ الفضيله في القوّة و كلّ القوّة في المال فهو يحبّ العلم ولكن لاجل المال و يحب المجد ولكن لاجل المال واللاتيني منه مطبوع على العجب والطيش ، يرى العقل في الا نطلاق والحياة في خلع الحياء و الشرف في الزينة واللباس و العزّ في التغلب على الناس وهذا تصوير صادق للطبيعة الاروبيّة وتحليل صحيح للنفسيّة الغربيّة واليك خطابة تاغور شاعر الهند في نيويورك . قبل أربعين سنة :

شاعر الهند بين شعراء آمريكا

برهن تاغور للغربيّين أن تلك الروح التي عرف بها الشرق عموماً روح التأمّل والنظر إلى ماوراء الكائنات لم تزل متقدّة فيه كلمة مقدميّة لرئيس المؤتمر [١] قالها في مفتتح الجلسة معرفاً لتاغور شاعر الشرق . مهما اختلف الشرق عن الغرب فان هناك مكانا يلتقيان فيه ان روح الغرب هي روح العمل والاقدام والفتوح وعلى هذه الروح بنيت مدنيّته الحديثة

اما روح الشرق فروح السكون و التأمل و النظر إلى ماوراء المادة . و عندي أن الغرب في حاجة إلى شيىء من روح الشرق كما ان الشرق في حاجة إلى شيىء من روح الغرب فالمدنية لن تبلغ كمالها إلّا بامتزاج الروحين على ان بيننا الآن شاعراً جمع بنفسه بين هاتين الروحين و قرن في حياته هذين المبدأين فاذا قدّمته إليكم فانى اقدّم شخصاً كريماً نكرمه نحن في الغرب كما يكرمه أيضاً أهل الشرق اقدّم إليكم الشاعر المشهور تاغور الشاعر الهندى فقام وقال [٢] .

---

(١) دكتور مورغان .

(٢) ترجمة أنيس المقدسى من أعلام الادب فى لبنان .

انتم أيها السادة ـ اهل الغرب ـ رجال القوّة والعلم ـ لديكم الاموال وفي أيديكم العدد وقد سخّرتم الطبيعة و استخدتموها لبناء مدنيّتكم الحديثة و نحن أهل الشرق ضعفاء ، ضعفاء في المال والعلم ، ضعفاء في الصناعة و الحرب ، و قدحا ولتمان تفتحوا لنا أبواب العلم الطبيعي و تنيروا لنا سبيل الحيات الحديثة و لذا فانى بالنيّابة عن أهل الشرق اشكر لكم ما لكم علينا من الجميل .

و لكن مهلاً إخواني أن قوّتكم قد حملتكم على الاستبداد باهل الشرق نظرتم الينا نظراً خارجيا فلم تروا غير الضعف و المسكنة فاحتقرتم مالنا و ازدريتم حضارتنا هو ذا الغرب القوى لايزال قابضا على عنق الشرق الضعيف يحرث عليه و ينتفع به .

أفما آن لكم ان ترمقونا بنظرة احترام واحدة ام تبقى المدنية الحديثة تمثّل بنادور المتحكّم القاهر ـ نعم عندكم كل شيىء عندكم المال و القوة و العلم و اسباب الحرب ـ فياليت شعرى . أليس في مدنيّتكم غير ذلك ؟ اننّا إلى الآن لم نتعلّم منكم غير مبدء واحد و هو ان الانسان لن ينال حريّته و حقوقه إلاّ بالسلاح و الدم أفهذه نهاية تعاليمكم ؟ اجل نحن ضعفاء و انتم اقوياء ولكن تعالوا إلى بلادنا وانظروا إذا كان فيها شيىء يستحق الكرامة تعالوا لالتفتحوا المناجم ولا لتمدوا السكك أوتنالوا الامتيازات بل لتروا روح الشرق في الحقيقة و لتسمعوا ضربات قلبه النابض و لتطلعوا على اسرار مدنيته الروحانية و حينئذ ترون ان لدينا شيئاً نفاخران نقدّمه لكم .

انتم تقدّمون لنا اسباب الحياة الجديدة ونحن نقدم لكم مبادىء الروح الازلية بالله انظروا ، افتكروا ، ألايستطيع الشرق أن يقدمه لكم غير مناجمه وحقوله ورقاب ابنائه .

إلى متى ينظر الغرب الينا نظرة الاحتقار و الأنانية .

إلى متى يعمى الجشع ابنائه عن رؤية الحقايق الروحية .

لا تصدّقوا عنّا كل ماتسمعونه من أهل الاستعمار وبعض دعاة التبشير فان هؤلاء يخدعونكم ويموهّون عليكم ويصوّرون لكم الشرقي بصورة تستوجب احتقاركم بل تعالوا أنتم، أنتم الاحرار، وادرسوا حياة الشرق تعالوا بروح الحرّية الّتي بنيتم عليها حضارتكم الجديدة فتروا حينئذ كما نرى نحن الآن أن الشرقى أهل للحرّية و الحياة القوميّة

و ان في روحه و مبادئه ما هو اسمى من الحياة المادّية .

رابندرانات تاگور شاعر الهند و اديبها السياسى و فنانّها العظيم الرّجل الذي خدم الهند بشهرته العالميّة في دولة الآداب وقدجاء طهران بدعوة الدولة الايرانيّة وألقى خطابته في وزارة المعارف و كنت دعيت لملاقاته و كان رجلا و سيماً و في شعره البيضاء و اشعاره الغرّاء غناء الروح و اقناع القلب و بلسم القلوب الجريحة و شفاء النفوس الكليمة و أغانيه هى هتاف تؤدّب النفس بما فيها من طلاوة الاسلوب و حلاوة الروح الشعرى الجميل الأخّاذ و كان يمقت من غاندى عداءه للجسم و توهينه له و تهريجه للرّوح لانه يرى انّ الجسم نصف الانسان و الروح نصفه الآخر و ينبغي الاعتناء بهما جميعاً لا أن نوهن الجسم و نعذّبه لأجل كمال الآخر فليس روح سليم إلاّ في جسم سليم و هذا هو الحق فانّ الفطرة الانسانيّة تقتضى أن يحفظ الجسم و الروح كما فى الدين الفطرى الاسلامى و من كلماته على ما نقل جرداق العالم المعاصر لوكان صحيحاً ان ما يمكن عمله الآن قد عمل في الماضى لما كان بقاؤنا على الارض لازماً و لكان في اطرّاد الحياة من الأعباء مالا يطاق و هذا ما قاله أبو العلاء المعرى في مصرع من البيت كم ترك الأوّل للآخر . ومن كلماته أيضاً .

لا تطلب من المخلوق اكثر ممّا يستطيع أن يعطى . لاتطلب حبّاً كاملاً واخلاصاً تامّاً وولاء مطلقاً والاخيّبت الحياة ظنّك وابتلتك بالحسرة والأسى فاعرض عن المخلوق و اتّجه نحو الخالق و عندئذ تأمن الخديعة و تدرك معنى الراحة و الصفا .

و هذا ماقاله ابوالفتح البستى من استعان بغيرالله في طلب . وقد مضى .

ولا شك أن طبقة الشعراء المتكسبين ادنى طبقات الشعراء نفوسا و أبعدها عن الصلاح و التقوى وهي طائفة تتّخذ الشعروسيلة لجمع المال ولاتطمح نفوسها إلى وظيفة كوظيفة النبوة تكلفها من الكمال الروحى ماليس في طبيعتها ولوأنّ لهم بعض العذر في حبّ المال وان هذه الحادثة لتدل على مقدار ما بلغ إليه المتنبّي في ذلك قال اذكر وقدوردت في صباى من الكوفة إلى بغداد فاخذت بجانب منديلى خمسة دراهم و خرجت أمشي في اسواق بغداد فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة فاستحسنتها و نويت ان اشتريها بالدراهم

الّتي معى فتقدّمت إليه وقلت بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ فقال بغير اكتراث اذهب فليس هذا من أكلك فتماسكت معه وقلت يا هذا دع ما يغيظ و اقصد الثمن فقال ثمنها عشرة دراهم فلشدّة ما جبهنى ما استطعت أن اخاطبه في المساومة فوقت حائراً و دفعت له خمسة دراهم فلم يقبل . و إذاً بشيخ من التجّار قد خرج من الخان ذاهباً إلىداره فوثب إليه صاحب البطيخ من الدكان و دعا له و قال يا مولاى بطيخ باكور . باجازتك أحمله إلى البيت فقال الشيخ ويحك بكم هذا قال بخمسة دراهم قال بل بدرهمين وحملها إلى داره و عاد إلى دكانه مسروراً بما فعل فقلت له يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك استمت عليّ في هذا البطيخ و فعلت فعلتك الّتي فعلت وكنت اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم فبعته بدرهمين محمولاً فقال اسكت ، هذا يملك مأة الف دينار ، قال المتنبّي فعلمت أنّ الناس لا يكرمون أحداً إكرامهم من يعتقدون انه يملك مأة ألف دينار . و أنا لا أزال على ماتراه حتّى اسمع الناس يقولون أن أبا الطيّب قد ملك مأة الف دينار . (١)

حدثنا يحيى بن عروة بن اذينة قال أتى أبي وجماعة من الشعراء هشام بن عبدالملك فنسبهم فلما عرف أبي قال أنت القائل .

لقدعلمت وما الاشراف(٢) من خلقى	ان الّذي هو رزقي سوف يأتيني
اسعى له فيعنيني تطلّبه	ولو قعدت أتاني لا يعنّيني
و ان حظ أمرىء غيرى سيبلغه	لابد لابد ان يحتازه دوني
لا خير في طمع يدني لمنقصة	و غفّة من كفاف العيش يكفيني
لا أركب الأمر تزرى بي عواقبه	ولا يعاب به عرضي ولا ديني
كم من فقير غنّي النفس تعرفه	و من غنيّ فقير النفس مسكين
كم من عدوّ رماني لو قصدت له	لم يأخذ النصف مني حين يرميني

(١) هذا الاعتذار الذى نقول فيه اسوء من الذنب لان الشاعر لسان الطبيعة والاجتماع فكيف يؤثر فيه قول بقال إلا على قاعدة مركب النقص

(٢) و الاسراف خطأ يرويه بعض الغالطين أراد بالاشراف أنى لا استشرف ولا اطلع .

و من أخ لي طوى كشحاً فقلت له — إن انطواءك عني سوف يطويني
إني لأنطق فيما كان من أربي — و أكثر الصمت فيما ليس يعنيني
لا أبتغي وصل من يبغي مفارقتي — ولا ألين لمن لا يشتهي ليني

فقال له ابن اُذينة نعم أنا قائلها ، قال أفلا قعدت في بيتك حتّى يأتيك رزقك ، وغفل عنه هشام فخرج من وقته وركب راحلته ومضى منصرفا ثم افتقده هشام فعرف خبره فاتبعه بجائزة و قال للرسول قل له أردت أن تكذبنا وتصدق نفسك فمضى الرسول فلحقه وقد نزل على ماء يتغدّى عليه فأبلغه رسالته ودفع إليه الجائزة فقال قل له قد صدّقني ربّي وكذّبك وقد خلط بعضهم بابيات ثابت بن قطنة .

قال الشريف المرتضي و تداخل أبياتا له على هذا الوزن وهي الّتي يقول فيها لقد علمت و بعد البيتين ، هكذا جاء في أمالي السيّد .

كم قد افدت و كم اتلفت من نشب — و من معاريض رزق غير ممنون
فما أشرت على يسر و ما عرضت — نفسي لخلّة عسر جاء يبلوني
خيمى كريم و نفسى لا تحدّثنى — أن الاله بلا رزق يخلّيني
ولا أشتريت بمالى قطّ مكرمة — إلاّ تيقّنت انّي غير مغبون
ولا دعيت إلى مجد و محمدة — إلاّ اجبت إليه من يناديني
لا أبتغى وصل من يبغي مفارقتي — ولا ألين لمن لا يبتغى ليني
إنّي سيعرفني من لست اعرفه — ولو كرهت و أبدو حين يخفيني
فعطّني جاهداً و اجهد عليّ إذا — لاقيت قومك فانظر هل تغطّيني

قال السيدره ولى أبيات في معنى بعض ابياتهما و هي من جملة قصيدة قديمة .

تعاقبني بؤس الزمان و خفضه — و أدّبني حرب الزمان و سلمه
وقد علم المغرور بالدهر انه — وراء سرور المرء في الدهر غمّه
و ما المرء الا نهب يوم و ليلة — تخبّ به شهب الفناء و دهمه
يعلّله برد الحياة يمسّه — و يغترّه روح النسّيم يشمّه
و كان بعيداً عن منازعة الردّى — فالقته في كفّ المنيّة امّه

ألا ان خير الزاد ما سدّ فاقة و خير تلادي الّذي لا أجمّه
و ان الطوى بالعزّ أحسن بالفتى إذا كان من كسب المذلّة طعمه
و أني لانهى النّفس عن كل لذّة إذا ماارتقى منها إلى العرض وصمه

محمد بن بقية الوزير كان من أكابر الوزراء وأعيان الكرماء و ان الشماع حكى ببغداد قال سئلنا عند دخول عضد الدولة بن بويه و هو ابن عم عزّ الدولة إلى بغداد لما ملكها بعد قتل عز الدولة عن وظيفة الشمع الموقد بين يدى عز الدولة فقلنا كانت وظيفة وزيره أبي الطاهر نصير الدولة محمد بن بقية ألف منّ في كلّ شهر فإذا كان هذا رأيت الشمع خاصة مع قلة الحاجة إليه فكم يكون غيره مما تشتدّ الحاجة إليه و كان في أوّل أمره قد يوصل إلى ان صار صاحب مطبخ معزّ الدولة والد عزّ الدولة ثمّ انتقل إلى غيرها من الخدم و حسنت حاله عند عزّ الدولة وكان فيه توصل وسعة صدر وتقدّم إلى أن استوزره عز الدّولة ثم انّه قبض عليه لسبب اقتضي ذلك حاصله انّه حمله على محاربة ابن عمه عضد الدولة فالتقيا على الاهواز وكسر عزّ الدولة فنسب ذلك إلى رأيه ومشورته وفيه يقول أبو غسان الطبيب .

أقام على الاهواز خمسين ليلة يدبّر أمر الملك حتّى تدمّرا
فدبّر أمراً كان اوّله عمى و اوسطه بلوى و آخره خرا

وكان قبضه يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة ستّ وستين وثلثماة بمدينة واسط وسمل عينيه ولزم بيته وكان في مدّة وزارته يبلغ عضد الدولة بن بويه عنه أمور يسوءه سماعها . منها انّه كان يسميه أبا بكر العذرى تشبيهاً له برجل أشقر أزرق يسمى أبا بكر كان يبيع العذرة برسم البساتين ببغداد وكان عضد الدولة بهذا الحلية وكان الوزير يفعل ذلك تقرّباً إلى مخدومه وكان بينه و ابن عمّه منافسات في الممالك ادّت إلى التنازع وافضت إلى التصاف و المبارزه حتّى قتل عز الدولة في المصاف و عمره ستاً وثلثين سنة و حمل رأسه في طست و وضع بين يدي عضد الدولة فلمّا راه وضع منديله على عينيه و بكى و طلب ابن بقيّة و القاه تحت أرجل الفيلة فلما قتل صلبه بحضرة

البيمارستان العضدى ببغداد و ذلك في يوم الجمعة لست خلون من شوّال سنة سبع و ستّين وثلثماة .

و قال ابن الهمداني في كتاب عيون السير لما استوزر عزالدولة بختيار بن بويه بعد ابن بقيّة المذكور بعد ان كان يتولّى أمر المطبخ قال النّاس من الغضارة إلى الوزارة و ستر كرمه عيوبه و خلع في عشرين يوماً عشرين ألف خلعة قال أبواسحق الصّابى رأيته وهو يشرب في بعض الليالي وكلّما لبس خلعة خلعها على أحد الحاضرين فزادت على مأتى خلعة وهو أول وزير لقب بلقبين فان المطيع لله لقبه بالناصح ولقّبه والده الطائع بنصير الدولة ولمّا حضرت الحرب بين عزّ الدوله وابن عمّه عضد الدوله قبض عزّ الدوله عليه وسمله وحمله إلى عضد الدولة مسمولا فشهّره عضد الدولة وعلى راسه برنس ثمّ طرحه للفيلة ثمّ صلبه عند داره بباب الطاق وعمره نيّف وخمسون سنة ولماصلب رثاه ابو الحسن محمد بن عمران يعقوب الأنبارى بقوله :

علوّ في الحياة و في الممات	لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك ايّام الصّلات
كأنّك قائم فيهم خطيباً	و كلّهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفالا	كمدّهما إليهم بالهبات
و لما ضاق بطن الارض من أن	يضمّ علاك من بعد الممات
اصاروا الجوّ قبرك واستنابوا	عن الاكفان نسج السافيات
لعظمك في النفوس تبيت ترعى	بحفّاظ و حرّاس ثقات
وتشعل عندك النيران ليلاً	كذلك كنت ايّام الحيات
ركبت مطيّة من قبل زيد	علاها في السنين الماضيات
و تلك فضيلة فيها تأس	يباعد عنك تعيير العداة
ولم ارقبل جذعك قطّ جزعا	تمكّن من عناق المكرمات
أسات إلى النوائب فاستثارت	فانت قتيل ثار النائبات
وكنت تجير من صرف الليالي	فعاد مطالباً لك بالترات

وسير دهرك الاحسان فيه　　الينا من عظيم السيّئات
و كنت لمعشر سعداً فلما　　مضيت تفرّقوا بالمنحسات
غليل باطن لك في فؤادى　　يخفّف بالدموع الجاريات
ولو انى قدرت على قيام　　لفرضك و الحقوق الواجبات
ملأت الارض من نظم القوافي　　و نحت بها خلاف النائحات
ولكنّي أصبر عنك نفسي　　مخافة أن أعدّ من الجناة
وما لك تربة فاقول تسقى　　لانك نصب هطل الهاطلات
عليك تحيّة الرحمن تترى　　برحمات غواد رائحات

ولم يزل ابن بقيّة مصلوباً إلى أن توفى عضد الدولة فانزل عن الخشبة ودفن فقال فيه الانبارى :

لم يلحقوا بك عاراً اذ صلبت بلى　　باؤا باثمك ثمّ استرجعوا ندماً
و أيقنوا انّهم في فعلهم غلطوا　　و انّهم نصبوا من سودد علما
فاسترجعوك وواروا منك طودعلاً　　بدفنه دفنوا الافضال و الكرما
لئن بليت فلا يبلى بذاك ولا　　تنسى و كم هالك ينسى إذاقدما
تقاسم الناس حسن الذكرفيك كما　　ما زال مالك بين الناس منقسما

قال الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق لما صنع أبوالحسن المرثية الثائية كتبها و رماها بشوارع بغداد فتداولتها الادباء إلىأن وصل الخبر إلىعضدالدولة فلماأُنشدت بين يديه تمنّى ان يكون هو المصلوب دونه فقال عليّ بهذا الرجل فطلب سنة كاملة و اتصل الخبر بصاحب بن عبّاد وهو بالريّ فكتب له الامان فلمّا سمع أبو الحسن بن الانبارى بذكر الامان قصد حضرته فقال له انت القائل هذه الابيات قال نعم قال انشدنيها من فيك فلمّا أنشدها ووصل إلى هذا البيت .

ولم ار قبل جذعك قط جزعاً　　تمكّن من عناق المكرمات

قام إليه الصاحب وعانقه وقبّل فاه وأنفذه الىعضد الدولة فلما مثل بين يديه قال ماالّذي حملك على مرثية عدوّى فقال حقوق سلفت و ايادٍ مضت فجاش الحزن في قلبى

فرثيته فقال هل يحضرك شيىء في الشموع و الشموع تزهر بين يديه فانشأ يقول :

كأن الشموع وقد أظهرت	من النار في كل رأس سنانا
اصابع اعدائك الخائفين	تضرع تطلب منك الامانا

فلما سمعها خلع عليه و اعطاه فرساً و بدرة . وما وصف مصلوب أحسن من هذا ولا بأس ان نأتى بقصيدة قالها الاديب الحكيم و العالم العظيم السيد احمد المعروف بپيشاورى في رثاء المرحوم شيخ فضل الله النورى : فإنّه كان قائداً و هادياً لحكومة قانون في إيران أوّل من دعا إلى الحرّية ولما رآهم يقولون مالا يفعلون خالفهم و هاجرهم و اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وصابر و جاهد حتّى قتل وصلب .

لا زال من فضل الاله و جوده	جود يفيض على ثراك همولا
روّى عظامك و ابل من سيبه	يعتاد لحدك بكرة و اصيلا
تلكم عظام كدن ان يأخذن من	جوّ إلى عرش الإله سبيلا
همّت عظامك ان تشايع روحها	يوم الزّماع إلى الجنان رحيلا
فتصعّدت معه قليلا ثمّ ما	وجدت لسنّة ربها تبديلاً
فالروح راق و العظام تنزّلت	كالآية اليوحى بها تنزيلا
آمنت اذجحدوا بربّ محمّد	و صبرت في ذات الإله جميلا
فعل الذين بربّ موسى آمنوا	و رأوا تمتّع ذي الحياة قليلا
رفضوا الحيوة و آثروا عنها الرّدى	و علوا جذوعاً سبّقاً و نخيلا
و الفعل يبقي في الزمان حديثه	إن أذهب الدهر الغشوم فعولا
و رأيت فضل الله دين محمّد	و سواه زندقة الغواة فضولا
حنقوك لا حنقا عليك و إنّما	حنقوك كيما يحنقوا التهليلا
مسكت بالدين القويم ولم تمل	بك زيغة كالمارقين مميلا
و اظلّ يوم الابتلاء فلم تكن	في الدين متّهما ولا مدخولا
كالمشرفيّة جردّت عن غمدها	تهتزّ في ايدى الكماة صقيلا

فلو أنّهم فلقوا بها رضوى لما وجدوا عليها نبوةً و فلولا
ما كان في حكم القضاء مدلّهاً منك الفواد ولا اللسان كليلا
ثبت الخطاب وللحتوف هزاهز حوليك مائلة إليـك مثولا
هل ينفع البرّ التقيّ بيانه في معشر نطقوا السفاهة قيلا
ذو مرّة لم يضطرب احشاؤه و الموت ينسج مبرما و سحيلا
أيقنت انّ نكالهم بك نازل فشربت صاب مصابهم معسولا
و كذاك من كان الا له معاذه و الحق معتصماً له و وكيلا
صلّى الله عليك من متصلّب متخشّع صعب القيـاد ذلولا[١]

هذا إلى أنّه كان للفرس شعر كثير وأمثال كثيرة وضع تحت أعين العرب بمنظار مكبّر قال أبو هلال العسكرى في رسالته التفضيل بين بلاغتى العرب و العجم ! للفرس اشعار لاتضبط كثرة و لليونانيّين أشعار دون الفرس و يقول سمعت أبابكر بن دريد يقول اجتمع في ديوان صالح بن عبدالقدّوس ألف مثل للعرب وألف مثل للعجم وقد ترجم بعضها إلى العربيّة مثل عفو الملك أبقى للملك خاطر من استغنى برأيه . الاسد يفترس الارنب إذا أعياه العير . الفرار في وقته ظفر . امنع أخاك من أكل الخبيث فان أبى فاعطه ملعقة . من أوقد نار الفتنة احترق بها . لاتستبعد غداً وما بعده . هو يطلب الثمر بلا شوس كفّ بخت خير من كرّ علم . قطع الورايد ولاقطع العوائد شيىء خير من لاشيىء قلبى على ولدى انفطر وقلب ولدى علىّ حجر .

و كانت هذه المعاني الفارسيّة تؤخذ و تسرق وتنظم او تحتذى وقد نقلنا شطراً منها

---

(١) كفر دیدی چه کرد با اسلام اى عجب لا إله إلا الله
اعلم عصر و ازهد دوران بود بر تخت علم شاهنشاه
کفر شد آشکار و دین پنهان گشت اسلام خوار و علم تباه
رفت منصور وار بر سر دار آنکه حق گفت وشد ز حق آگاه
داد از خواب غفلت امروز آه از انتقام فردا آه
ولی تاریخ دیده مطیع گریست گفته شد (الشهيد فضل الله)
أخذت القطعة من مجموعة كانت فى مكتبة المجلس ولم اعرف القائل .

في اثناء الكتاب و هذه الأمثال والحكم نتايج أفكار الاقوام و الامم وعلى ماقال المرحوم مصطفى لطفى الكاتب القدير الشهيرهي خلاصة الافكار الفلسفيّة و نقاوة الأبكار العلميّة تلتقط مجّاناً ولا يلتفت إليها أحياناً ولكن ادباء الممالك الغربيّة يقدرونها تقديراً و إليك شطر آخر :

إذا دخل غريب مدينة تنبحه كلابها ـ الناس مبصرون ولكن عن قيمة الوقت عميان ، للحيوان حياة و للانسان حياتان فانظر أيّ الاثنين أنت . الأهل الحمق أعداء في صورة أحبّاء الحب فخر و المذلة في العهر العمر قصير ترتيب الاوقات يطيله

إسألوا عن الهناء في مقاصير الكبراء . مابال هؤلاء الوقوف لاينشدوه في الكهوف آفة الحبّ كثرة العتاب و مفتاح البغض الغيرة ـ القلنسوة مرزوقة ولو على رأس عصا الماضي لايعود فلام تأسف عليه والآتي غير مضمون فعلام تتكّل عليه و الحاضر كنزك فحتّام تقفل عليه ، كلب جوّال خير من أسد رابض ـ فتش ديوجين عن الناس بفانوس. لوفتّش عن التيوس لأطفاه و وفرالزيت بين الفرنسيس و الالمان صارت مراكش كان ماكان ـ الليالي في الشرق حبالي لاتلد إلاّ العفاريت .

قال : رأيت صحافياً في بار و آخر في مجالس العار قلت اسكت هذان يتسوّقان الأخبار ، لسان من رطب و يد من حطب .

قال : رأيت صاحب مجلة يلعب بالقمار تحت ابطه كتاب و في يده شراب . قلت هذا كيمياوى يحوّل الذهب إلى تراب ـ عجبت لمن لا يقوّم مسلكه و يجلس على منصّة المصلحين ولا يستحيى ، مهما سعوا بتحسين المدارس فالزمان أحسن منها و ان لم يقم مقامها ، ان لم تقتل الغم فالغم يقتلك فاما أنت وأما هو . تجالس المرأةالحمقاء زوجها أقلّ مما تجالس المرآة ، ليس النائحة الثكلى كالمستأجرة .

العقل والقلب فرساهان يتباريان في مضمار الزمان فان سبق الاول عاش الثاني وان سبق الثاني مات الأوّل ، صديقان متلازمان أحدهما طمّاع والآخر خدّاع كلّ منهما يسخر بالاخر والصواب يبكي على الاثنين ، العروس عند الخيّاطة والعريس عند الصائغ ما بال الناس في ضجّة ، من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً . حبلى متصل بحبله

بدويّ ، أقبل على عنترة بن شدّاد ، وقال له لقد نهبت جمالي يا ابا الفوارس ، وانا داخل في ذمامك .

عنترة و كيف دخلت في ذمامي وانا لاعلم لي بذلك. البدوي، البارح مررت على البئر الفلانيّة فرأيت راعيك يحاول نشل الماء فلم يتمكن لقصر حبله فعقدت حبلي بحبله فبلغ الدلو الماء و هكذا تهيّأ لنا أن نسقي جمالنا فعقد حبلي بحبل راعيك اعدّه عهداً بيني و بينك فقال له عنترة ، صدقت يا أخا العرب فسر معي ودلّني على ناهبي جمالك لآ خذنّ لك حقّك ، فذهب به البدوي إلى القبيلة التي سطت عليه فتهددهم عنترة بردّ الجمال وإلّا أصابهم الشر والوبال ، فقال زعماؤهم نحن إنّما أخذنا جمال هذا البدوي بقانون الغزو المعروف عند العرب فقال عنترة ، و لكنّ الرجل داخل في عهدي وذمّتي .

الزعماء ومتى دخل في عهدك يا ابا الفوارس .

عنترة بالامس عقد حبله بحبل راعيّ وانتشلا ماء من البئر فاصبح داخلاً في ذمامي

الزعماء ولكنّ عقد الحبل بالحبل لا يعدّ ذماماً وها قاضي العرب (فلان) فاذا أردت نتحاكم أمامه فاذا قال قولك أرجعنا الجمال فتوجهوا إلى القاضي ولما بلغوا المكان ترجلوا عن خيولهم احتراماً للقاضي إلّا عنترة فانه ظلّ راكبا على جواده الابجر معتقلاً الاسمر متقلداً الابتر فسألوه و ما بالك يا ابا الفوارس لا تترجّل كما فعلنا .

فاجاب لا ، بل سأظل راكبا حتّى اسمع حكم القاضي فاذا حكم بأنّ ربط الحبل بالحبل سنة عهد مشروعة ترجّلت و احترمته و الافانّي بصارمي و سنان رمحي اجعلها سنّة عند العرب ، فلمّا سمعوا مقاله ردّوا الجمال و استغنوا عن التحكيم لانّ الحق للقوّة و أنا أقول إذا كانت القوّة وتكون عند صاحبها المروّة فهو دليل الفتوّة ربّ بما انعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين فهذا من اصحاب الجوانب القويّة الّذين قال فيهم أمير المؤمنين عليه السلام أقيلوا ذوي المروّات عثراتهم و سعادة المسلمين في أن تكون لهم قوّة و فتوّة و هذا معنى قول السيّد جمال الدين أن الشرق لا يصلح إلّا بمستبدّ عادل . من فخر عنترة

لمّا سمعت دعاء مرّة إذ دعا و دعاء عبس في الوغى و محلّل

ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا و بكل ابيض صارم لم يُفلل
حتّى استباحوا آل عون عنوةً بالمشرفيّ و بالوشيج الذبّل
إنّى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى و أحمى سائرى بالمنصل
ان يلحقوا أكرر وان يستلحموا أشدد وان يلفوا بضنك أنزل
حين النزول يكون غاية مثلنا و يفرّ كل مضلّل مستوهل
ولقد ابيت على الطوّى وأظلّه حتّى أنال به كريم المأكل
وإذا الكتيبة احجمت و تلاحظت ألفيت خيراً من معم مخول
و الخيل تعلم والفوارس أننى فرقّت جمعهم بضربة فيصل
إذ لاأُبادر في المضيق فوارسى أولا أو كلّ بالرّعيل الأوّل
بكرت تخوّفنى الحتوف كأننى اصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فاجبتها : ان المنيّة منهل لابدّ أن أسقى بكاس المنهل
فاقنى حياءك لا اباً لك واعلمى انى امرؤ سأموت ان لم أقتل
أن المنيّة لا تمثل ، مُثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
و الخيل ساهمة الوجود كانما تسقى فوارسها نقيع الحنظل
وإذا حملت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة ليتنى لم أفعل

و كان سعد بن ابي وقاص قد حبس أبا محجن الثقفي و قيّده في قصره فلمّا اشتد القتال صعد إلى سعد يستعفيه و يستقيله و يسأله تسريحه للغز و مع المسلمين فزجره وردّه فنزل حتّى أتى سلمى ، فقال : يا سلمى ، هل لك إلى خير ؟ قالت و ما ذاك ؟ قال تخلّين عني و تعيرينى البلقاء ، فللّه عليّ أن سلّمني الله أن أرجع إليك حتى رجلى في قيدى . فقالت . و ما انا و ذاك ! فرجع يرسف في قيوده و يقول .

كفى حزنا ان تردى الخيل بالقنا و اترك مشدوداً عليّ و ثاقيا
إذا قمت عنّاني الحديد و أغلقت مصاريع دونى قد تصمّ المناديا
وقد كنت ذا مال كثير و إخوة فقد تركونى واحداً لا أخاليا
ولله عهد لا اخيس بعهده لئن فرجت ألاّ أزور الحوانيا

فقالت سلمى : إنّي استخرت الله و رضيت بعهدك ، و اطلقته و قالت أما الفرس فلا أعيرها و رجعت إلى بيتها ، فاقتادها وأخرجها من باب القصر و ركبها ثم دبّ عليها حتّى إذا كان بحيال الميمنة كبّر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعب برمحه و سلاحه بين الصّفين . و كان يقصف الاعداء بسيفه قصفا منكراً و تعجّب الناس منه وهم لا يعرفونه . و جعل سعد يقول و هو مشرف على الناس من فوق القصر والله لولا محبس أبي محجن لقلت : هذا ابو محجن و هذه البلقاء ! وقال بعض الناس إن كان الخضر يشهد الحروب فنظن صاحب البلقاء الخضر و قال بعضهم لولا ان الملائكه لا تباشر القتال لقلنا ملك ثم حاجز اهل فارس و تراجع المسلمون و أقبل أبومحجن حتّى دخل من حيث خرج و وضع عن نفسه و دابّته و أعاد رجليه في قيديه و قال :

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن اكرمهم سيوفا

و أكثرهم دروعاً سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

فان احبس فذلكم بلائي ... و ان اترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى : يا ابامحجن ، في ايّ شيىء حبسك هذا الرجل ؟ فقال أما والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ، و لكنّي كنت صاحب شراب في الجاهليّة وأنا امرؤ شاعر يدبّ الشعر على لساني ، يبعثه على شفتي احيانا فيساء لذلك ثنائي ولذلك حبسني حين قلت :

إذا متّ فادفنّي إلى اصل كرمة ... تروّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنني بالفلاة فإنّني ... أخاف إذا مامت ان لا أذوقها

و كانت سلمى مغاضبة لسعد عشيّة اغواث ، فصالحته وأخبرته خبرها و خبر أبي محجن . فدعابه و أطلقه وقال له : اذهب فما أنا مؤاخذك بشيىء تقوله حتى تفعله . قال والله لا اجيب لساني إلى صفة قبيح أبداً .

ابراهيم بن المدبر قال جاءني يوماً محمد بن صالح الحسني العلوي بعد أن اطلق من الحبس فقال لي انّي اريد المقام عندك اليوم على خلوة لأبثّك من امري شيئاً لا يصلح ان يسمعها غيرنا فقلت افعل فصرفت من كان بحضرتي و خلوت معه و امرت بردّ دابته

و أخذ ثيابه فلما اطمانّ و اكلنا و اضطجعنا قال لى اعلمك إنّى خرجت في سنة كذا و كذا و معى أصحابى على القافلة الفلانية فقاتلنا من كان فيها فهز مناهم و ملكنا القافلة فبينا أنا أحوزها و انيخ الجمال إذ طلعت عليّ امراة من العمارية ما رأيت قطّ احسن منها وجهاً ولا أحلى منطقاً فقالت يا فتى ان رأيت أن تدعولى بالشريف المتولّى لى أمر هذا الجيش فقلت قد رأيته و سمع كلامك فقالت سألتك بحق الله و حق رسوله ﷺ أنت هو فقلت نعم و حق الله و رسوله إنّي لهو فقالت أنا حمدونة بنت عيسى بن موسى ابن أبي خالد و لأبى محلّ من سلطانه و لنا نعمة إن كنت ممّن سمع بها فقد كفاك ما سمعت و أن كنت لم تسمع بها فسل عنها غيرى و والله لا استأثرت عنك بشيء أملكه لك بذلك عهدالله و ميثاقه عليّ وما اسألك إلاّ أن تصوننى و تسترني و هذه ألف دينار معى لنفقتي فخذها حلالا وهذا حليّ عليّ من خمسماأة دينار فخذه وضمّنى ما شئت بعده آخذه لك من تجار المدينة أو مكة و أهل الموسم فليس منهم أحد يمنعنى شيئاً اطلبه و ادفع عنى و احمنى من أصحابك ومن عار يلحقني فوقع قولها من قلبي موقعاً عظيماً فقلت لها قد وهب الله لك مالك و جاهك و حالك و وهب لك القافلة بجميع ما فيها ثم خرجت فناديت في أصحابي فاجتمعوا فناديت فيهم انى قد اجرت هذه القافلة و أهلها و خفرتها و حميتها و لها ذمة الله و ذمة رسوله و ذمّتى فمن أخذ منها خيطاً أوعقالاً فقد آذنته بحرب فانصرفوا معى و انصرفت فلما اخذت و حبست بينا انا ذات يوم في محبسى إذجاءنى السجّان و قال لى أن بالباب امرأتين تزعمان أنّهما من أهلك وقد حظر عليّ أن يدخل عليك أحد إلاّ انهما اعطتانى دملج ذهب و جعلتاه لى إن أوصلتهما إليك وقد أذنت لهما وهما في الدهليز فاخرج إليهما أن شئت ففكرت فيمن يجيئني في هذاالبلد و أنا به غريب لا أعرف أحدا ثم قلت لعلّهما من ولد أبي أو بعض نساء أهلى فخرجت إليهما فاذا بصاحبتى فلما رأتنى بكت لمارأت من تغيّر خلقى وثقل حديدى فاقبلت عليها الاخرى فقالت أهو هو فقالت أي والله أنه لهو هو ثم اقبلت على فقالت فداك أبي وامّى والله لو استطعت ان اقيك ممّا انت فيه بنفسى و أهلى لفعلت و كنت بذلك منّى حقيقاً و والله لا تركت المعاونة لك و السعي في حاجتك و خلاصك بكل حيلة و مال و شفاعة

و هذه دنانير و ثياب و طيب فاستعن بها على موضعك و رسولي يأتيك في كل يوم بما يصلحك حتّى يفرج الله عنك ثم أخرجت إليّ كسوة و طيباً و مأتي دينار و كان رسولها يأتيني في كل يوم بطعام نظيف و يتواصل برّها بالسجّان فلا يمتنع من كل شي اريده فمنّ الله بخلاصي ثم راسلتها فخطبتها فقالت أمّا من جهتي فانالك متابعة و مطيعة والامر إلى أبي فاتيته فخطبتها إليه فردّني و قال ماكنت لاحقق عليها ماقد شاع في الناس عنك في أمرها وقد صيّرتنا فضيحة فقمت من عنده منكّساً مستحياً و قلت له في ذلك :

رموني وأيّاها بشنعاءهم بها	أحق ادال الله منهم فعجلا
بامر تركناه و رب محمد	عيانا فامّا عفة أو تجملا

فقلت له أن عيسى صنيعة أخي و هولى مطيع و أنا أكفيك أمره فلما كان من الغد لقيت عيسى في منزله و قلت له قد جئتك في حاجة لي فقال مقضيّة ولو كنت استعملت ما أحبه لامرتني فجئتك و كان آسر إليّ فقلت له قد جئتك خاطباً إليك ابنتك فقال هي لك امة وانا لك عبد وقد اجبتك فقلت انّي خطبتها على من هو خير منى أباً و أمّا و أشرف لك صهراً و متّصلاً محمد بن صالح العلوى فقال لي يا سيدى هذا رجل قد لحقتنا بسببه ظنة ، و قبلت فينا أقوال فقلت أفليست باطلة قال بلي و الحمد لله قلت فكأنها لم تقل و إذا وقع النكاح زال كل قول و تشنيع ولم ازل أرفق به حتّى أجاب و بعث إلى محمد بن صالح فاحضرته و ما برحت حتّى زوجته و سقت الصداق عنه قال ابوالفرج وقد مدح محمد بن صالح ابراهيم بن المدبر مدايح كثرة لما والاه من هذا الفعل و لصداقة كانت بينهما فمن جيّد ما قاله فيه .

أتخبر عنهم الدمن الدثور	وقد ينبى إذا سئل الخبير
و كيف تبين الأنباء دار	تعاقبها الشمائل و الدبور
فهلا في الّذي أولاك عرفا	تسدي من مقالك ما تسير
ثناءً غير مختلق و مدحاً	مع الركبان ينجد او يغور
أخ واساك في كلب الليالي	وقد خذل الاقارب و النصير
حفاظاً حين أسلمك الموالي	وضنّ بنفسه الرجل الصبور

فان تشكر فقد أولى جميلا و ان تكفر فانّك للكفور
وما في آل خاقان اعتصام إذا ما عمّ الخطب الكبير
لئام الناس إثراءً و فقراً و أعجزهم إذا حمي القتير
لئام لايزوجهم كريم ولا تسني لنسوتهم مهور

و انّما ذكر آل خاقان ههنا لان عبيدالله بن يحيى قصده و تحامل عليه وكان يقوى مايكره ويؤكد مايوجب حبسه وكان فيه وفي ولده نصب شديد .

قال أبوعبد الله الجهمي دخلت على محمد بن صالح الحسنى في حبس المتوكل فانشدني لنفسه يهجو أبا الساج .

ألم يحزنك يا ذلفاء أني سكنت مساكن الأموات حيّاً
و أن حمائلي و نجاد سيفي علون مجدعا أشراً سنيّاً
فقصرهن لما طلن حتى استو ين عليه لا أمسي سوياً
أما و الراقصات بذات عرق تريد البيت تحسبها قسيّاً
لو أمكنني غداتئذٍ جلاد لالفوني به سمحاً سخيّاً

الصداقة و الصديق الاب رب والأخ فخّ و العم غم و الخال و بال والولد كمد والاقارب عقارب وانّما المرء بصديقه .

اعتمد الناس على الصداقة من قديم الدهر وتوكّلوا على المودّة منذ نشأ اجتماعهم وحدث ائتلافهم و ذلك لان الانسان على مااختصّ به من التصرّف والكفاء الذاتيّة يعدّ ضعيفاً بمفرده ولا بد له من الاستعانة بسواه ان لم يكن من أجل الاستزادة من القوة فمن أجل الائتناس والتّلهي ـ ولقد جلّت هذه الصداقة بين الناس حتى لقد فضّلوها على القربى القريبة والنسب الواشج و من أجل هذا قال أحد الحكماء حين سئل . أتحب أخاك أكثر أم صديقك،فاجاب إنّما أحبّ أخي إذا كان صديقي و قال المسيح ان أخي من يسمع وصاياي وفي القرآن الشريف ، ان وليّ محمد من أطاع الله من تبعنى فانه منى ومن عصاني فليس مني.وعلى الجملة فان الناس قد أجمعوا على أن الصداقة هي النسب الذاتي والقربى النافعة وان الانسان بدونها يكون معذباً كما قالوا في أمثالهم أن الجنة بلاناس لاتداس

ولقد تعرض أحد الباحثين إلى هذا الشأن فقال ان هذا الزمن الحاضر قدنفي الصداقة التامة بين الناس وانها كانت من قبل اشد ممّا هى الآن وذلك لان الاعتماد على المال مجرداً قدزاد في التماسه بما قلل من التماسها ولقد اقرّ رأيه على أن الصداقة بين الناس آخذة بالتناقص و بالتالي أن مسرّاتهم غير مقسومة بينهم على السواء و كذلك احزانهم وانّها كماهي بين الجموع كذلك هي بين الافراد واشد مايكون ظهور ذلك بين الرجل و الرجل و المرأة و المرأة و أمّا اذا اختلف الشأن فقد يكون الحب أو تكون الصداقة التامة ولكنها ليست الصداقة الّتي ينتفع بها الانسان بمجموعه حقيقة الانتفاع وليس ذلك إلّا لان نسق المعايش الجديد قد اضعفها وهوآخذ في إضعافها على التوالي حتى لقد يصبح الإنسان كالذئب اذا رآى بصاحبه يوماً دماً فهوآكله اوقد تغدوالصداقة بعمومها وهي كالمتاجرة الّتي يشير إليها البحترى أوالنّفاق الّذي يصرّح به المتنبّي بقولهما

وكنت إذا الصديق رأي وصالي متاجرة رجعت إلى الصدود

ومن نكدالدنياعلى الحرّ ان يرى عدوّاً له ما من صداقته بدّ

أمّا السبب الّذي يدعو الصداقة إلى الضّعف في كلّ زمان فهو كونها ممّا يقتضي المخاطرة و تحمل الأذى و الغرم إذ بدون ذلك لا تكون صداقة حقيقيّةولهذا يقولون الصداقة غالية جدا وهي لا تشترى الا بالنفيس او بتوطين النفس على الدوام لتحمل كلّ أذى يلم بالصديق وبالاستعداد والحذر لكلّ مكروه يحيق به وهى متى كانت كذلك فاحربها أن تكون ضعيفة في كلّ زمان ولا سيّما في هذا الزمن الذي لا صديق للانسان فيه الا نفسه ودرهمه وممّا سمعت في الدرس من المرحوم الأديب النيسابورى .

قد قال فيما مضى حكيم ما المرء إلّا باصغريه

فقلت قول امرى نبيه ما المـرء الا بـدر هميه

من لم يكن معه درهماه يبول سنورّه عليه

الا انّ السبب الّذي زاد الان على ذاك السبب حتّى زاد في ضعف الصداقة هو وجود المدن الحافلة بالسكان فانها على كونها ممّا يدعو الى الائتلاف وكثرة الائتناس في الظاهر هي في الحقيقة ممّا يدعوالى عكس ذلك من جهة الافئدة . لان صلة الجوارفيها ضعيفة ولذلك ترى الانسان فيها يقطن في حارة ملأى بالسكان أوفي بيت ذيمنازل كثيرة

ولكنه لايصادق احداً من جيرانه أولا يراهم أصلا مع انه لو كان في قرية عدد أهلها يربو كثيراً على عدد الساكنين في تلك المنازل فانه يعرفهم جميعهم و يكون له مع بعضهم صداقة اكيدة و ذلك لما تقتضيه القرية التفرغ و تجريد النفس عن الاشتغال الخارجي الكثير وما تقتضيه المدنيّة من الكدّ و السعي و هو مايبدو من صحبة السفينة فان المسافرين حين يجتمعون فيها يتعرف بعضهم ببعضهم سريعاً و تغدوا الصحبة صحبة دفاع وحذر و إشفاق و تضامن من الواحد للآخر و ذلك لانه لاشيء يلهيهم عن المودة ولانهم قدتساووا لدى فعل الطبيعة وتاثيرها ولكنهم حين يصلون إلى المدينة يرجع إليهم في الحال طبعهم القديم فلاتعود الصداقة فيما بينهم الاتحيّة يومين أو ثلاثة ثمّ تنقطع حتى كانّهم لم يجتمعوا قطّ و لهذا يقول العرب عن الصحبة المتهمة انها صحبة سفينة .

ثم انه من جملة الاسباب الّتي تدعوإلى عدم الصداقة التامّة في المدن هوعدم وجود الوقت الكافي لها و لذلك تكثر معرفة الجموع بالجموع بها و تكثر تحيّاتهم و بشاشتهم و اما صداقتهم فتضعف لانه لا وقت كاف لاختبار الصديق و معرفة مقدار الاتّكال عليه و هذا لان الوقت المخصّص لتحصيل المال و انفاقه في لهو المدنية قد أخذ كثيراً من حظّ الوقت الّذي كان يجب أن يخصّص للاختبار والتجربة أوأخذجانباً كبيراً من مكان القلب فلم يعد الباقي بكاف لاحتمال الصداقة التامة والمودّة الاكيدة وهذا هو نفس الشأن الحاصل في غير الصداقة فان ضيق الاوقات في المدن قد منع الانسان أن يكون ممتازاً بشيي فهولا وقت له يكفي لان يركب فيكون فارسا و يمشي فيكون متحمّلاً للتعب ويتفرّج فيكون متريّضا حسن الصحبة بل أن وقته القصير مقسّم بين كل هذا و سواه شيء كثير و لهذا تراه و هو ليس بذى نظر سليم أو ذوق صحيح أوشمّ صادق أولمس أكيد أو سمع بعيد وعداهذا فان التساوى هو الّذي يوجب الصداقة الاكيدة وهذا ماقاله أرسطو :وهذا التساوى نادر جداً في المدن وغير ممكن أن يوجد فيهاكما يوجد في السفينة و القرية لان كثره الاشتغال قد منعت التثبت من تلك المساواة و معرفة مبلغها لان العشرة لم تتم بوجودها و لهذا يصح القول بان الصداقة الصحيحة آخذة بالتناقص كلّما اخذت المدنيّة بالازدياد و أنه إذا كان قد نسب إلى آدم هذا البيت

تغيّرت البلاد ومن عليها فوجه الأرض مغبرّ قبيح

وإذا كان لبيد يقول :

ذهب الّذين يعاش في أكنافهم و بقيت في خلف كجلد الاجرب

و أبو تمام يقول :

و لقد نكون ولا كريم نناله حتّى نخوض إليه ألف لئيم

وإذا كان الألوف من الشعراء والحكماء يقولون عن الانسان مثل هذه الاقوال من قديم الدّهر فما نقول في هذا العهد واعلم أن تخالف الناس في شجون الكلام لاختلاف الصور في خيالاتهم غيبة و حضوراً و خفاءً و ظهوراً و ائتلافا و اختلافاً لتباين مذاهبهم و مشاربهم و لهذا ترى الشعراء من العرب الجاهلى قلمّا يتجاوزون ذكر النوق و الجمال و الاودية و الجبال و البطايح والرمال و الدمن و الاطلال و يلوح من اشعارهم آثار الجدب و الجموح و حوش الضب و اليربوع و استيطان المفاوز و البرارى و الاستيناس بالوحوش الضوارى لكن الله تعالى ليّن لهم الحديد وهوّن عليهم الشديد فترى كلامهم أسهل من الماء مع أنه اجزل من الصخرة الصّماء و تخاله مع صعوبة اسلوبه و وعورة شعوبه أرق من دمع المستهام و ادّق من حدّ الصمصام .

وأما المولّدون فلما نشوا في الحضارة وسكنوا العمارة و نادموا أولى الإمارة ذاقوا حلاوة العيشة وشاهدوا زهرة الحياة الدنيا وزخرفها و شحوا عباراتهم بالدّرر والجواهر و ضمخّوا استعاراتهم بالمسك و العطر و زانوا حدائق اشعارهم بالانوار و الازهار ولذا راجت بضاعتهم و ربحت تجارتهم في سوق الامراء و الولاة فشروها بكل غال و أحلّوهم المقام العال فاكثروا القيل و القال واسموها العلم و البيان قال بعضهم إذا تعلّمت فتأدّب وإذا تأدّبت فتعلّم فان فقر العلم إلى البيان فقر الخطيب إلى اللّسان أو الكاتب إلى البنان وإنّ حاجة البيان إلى العلم حاجة القلم إلى الانامل أو اليد إلى محرك من الحسّ عامل علم لا ادب معه عود بلا وتر وسحاب ليس فيه مطر و ريحان غير نضر ولا عطر وادب لا علم معه قالب ولا سبائك و منوال ولا حائك .

ولمّا كان الشعر اعظم مؤثر في النفوس واقوى عامل في الانفعالات النفسانيّة وقد وصل به اهله إلى درجة لا تقلّ عن درجة الملوك فصار الشاعر به عروس المجلس و فريدة عقد

المجتمع و في مجلّة الملاجى العباسيّة أنه بعد أن انتهت الثورة العرابيّة أراد محمّد باشا توفيق أن يشهر سيف الانتقام من جميع من له يد في تلك الثورة فخاطبه شاعره المرحوم الشيخ على الليثي بما افهمه سوء العقبي في قول له اعظم الاثر فقال

كل حال لضدّه يتحوّل فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
أن تدقق تدق كل رؤوس و مئين من الالوف تقتّل
و الرعايا تضيع بين عدوّ و مليك له المقام المؤثّل

و رجع باشا عن تصميمه و عزمه فأغضى عينه وعفا .

على أن الشعر محبوب في نفوس الناس أياً كانوا حتّى في نفوس الانبياء فقد كان نبينا ﷺ تستنشد الشعراء رجالاً وإناثاقيل إنّه كان يستنشد الخنساء فاذا رأي منها بعض الفتور قال إيه يا خنّاس!وقد اثاب على الشعر مراراً كثيرة وسنّ الاجازة عليه فعدّ هذا الفنّ الجميل من الصناعة الخاصة الرفيعة بل من الحكمة الّتي من أوتيها فقد أوتى خيراً كثيرا قال ﷺ ان من الشعر لحكمة وقال ﷺ أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء من بني آدم على قلوب اليونان و على أيدى أهل الصين وعلى ألسنة العرب قال الجاحظ لمّا شتم المشركون الجاهلون النبيّ الاعظم فقال ﷺ لحسان اهجهم و روح القدس معك وائت ابا بكر فيعلّمك مساوى القوم والله أنّ هجاك لاشدّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام فاخرج حسان لسانه فضرب به طرف انفه فقال يا رسول الله ما يسرّني به مقول من معد والله اني لو وضعته على شعر لحلقه أو على صخر لفلقه قال فلا ينبغي أن يقول حسّان إلّا حقّاً و كيف يقول باطلاً و النبيّ يأمره و جبريل يسدّده و الصديق يعلّمه والله يوفّقه (١).

اتسع صدر الناس للشعر ونظروا إليه نظرتهم إلى الطفل المدلّل فابتسموا له كلّما أساء واستهانوا بوخزه و ان أدمى فالطفل لا يميز بين اللعب و الضرب فاذا ضربك على أحد خدّيك تحوّل له الثاني ولا تغضب لكلمة نابية خرجت من فمه أوحركة تضرّبك

---

(١) خاص الخاص للثعالبى .

خاصة وتضحك مع الضاحكين إذا تندر بك اوجعلك سخرية للهو والفكاهة وكانّما كانت محاباة الفنون و مجاملتها عزيزة من غرائز الفطرة فقد اجتمعت الامم عامّة على غضّ الطرف عن الشاعر و ارخاء العنان له و تركه و يهيم به حيث شاء في اودية التصوير و الخيال دون أن يقف في طريقه حائل . انّ الطفل الباكى يهدأ للترنيم والبائس الشاكي يستريح للشعر و الغناء و الابل الناصبة تنسى نصبها بالحداء وكان الشعر حبيباً إلى قلوب النساء ، على شرط أن يصف بحق أو بغير حق مالهن من رشاقة و جمال . فما رأت فتاة عربيّة من باس في أن يكشف شعر عن محاسنها في القبائل أو يصوّر شاعر حولها قصّة خياليّة وكان الشعراء يرحلون الى مكة في موسم الحج ليتلقّى وفودالحجاج مقبلة من الشام و فيها الهوادج المطرّزة بالذهب يحملن الكواعب الحسان و الجوارى الفاتنات والغيد الساحرات كماكان يفعل عمرو بن أبي ربيعة ووضّاح اليمن وعبد الرحمن بن حسّان وابو دهبل و غيرهم من فتيان الشعراء و كان النّساء يتعرضن في هذا الموسم للشعراء و يغرينهم على التشبيب بهن و ينصبن لهم اشراك الفتنة وكان الشعراء في هذا العهد أشبه بالمصوّرين في عصرنا الحاضر تتعرّض لهم الفتاة المدّلة بجمالها لترى صورتها في المجلات السائرة بعد يوم أو يومين .

مهما يكن من شيء فلكل امّة فنّ جميل برعت فيه وتميّزت فالشعر فنّ العرب الجميل فيه برعوا و به تميّزوا ولئن كانت حياة الفنون الجميلة في تاريخ أكثر الامم قصيرة الامه سرت في عصر من عصورها ثمّ خبت و انطفأت و صارت فصلاً من فصولها في تاريخها و أحوالها فالشعر في تاريخ العرب طويل العمر متّصل الحياة صحبهم منذ ان ظهرت آثارهم واغراض الشعر العربي كثيرة من اشهرها واقدمها الغزل وهو في اللغة محادثة النساء وفي الاصطلاح محادثتهنّ بما يعجبهنّ و الحديث عنهن و وصف محاسنهنّ وقد تأخّر ظهور الغزل في شعر اكثر الامم . طوال العصور الّتي لم ينظر فيها الرجل إلى المرأة نظر الانسان إلى الانسان والندالى الندبل نظرة الانسان إلى الضداوالى ما دون الانسان او السيّد للعبد الرقيق يقول استندال الكاتب الفرنسى المشهور في كتابه عن الحب : كان مولد أطهر ألوان الحب و الغزل في خيام العرب الجاهلية السمراء حيث

الطهارة في التربة والجوّ والصفاء في السماء وهل اعذب من هذه الالفاظ وارشق من هذه الابيات واعلق في الخاطر وأسرى في السمع و لمثلها تخف رواجح الاوزان و على مثلها يسهر رواقد الاجفان وعن مثلها يتأخّر السوابق عند الرّهان . ولم أجرها بلساني يوماً من الايام ألا تذكرت قول أبي الطيب :

إذا شاء أن يلهو بلحية احمق ... أراه غباری ثم قلت له الحق

ومن ذا الّذي يستطيع أن يسلك هذا الطريق الّتي هي سهلة وعرة قريبة بعيدة و هذا ابو العتاهية كان في غرة الدولة العباسية و شعراء العرب إذ ذاك كثيرون و اذا تأمّلت شعره وجدته كالماء الجارى في رقّة الالفاظ و لطافة السبك و كذلك ابو نواس ثمّ قال و من اشعار ابى العتاهية الرقيقة قوله في قصيدة يمدح بها المهدى وشبّب بجاريته عتب و كان أبو العتاهيه يهواها :

ألا ما لسيّدتي مالها ... تدلّ فاحمل إدلالها
لقد أتعب الله قلبى بها ... و اتعب في اللوم عذّالها
كانى بعيني في حيث ما ... سلكت من الارض تمثالها

ومنها في المديح قوله :

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلاّ له ... ولم يك يصلح إلاّ لها
ولو رامه أحد غيره ... لزلزلت الأرض زلزالها

و يحكي أن بشّار كان حاضراً عند انشاد أبي العتاهية هذه الابيات فقال انظروا إلى الخليفة هل طار عن كرسيّه و لعمرى إن الأمر كما قال بشار وان هذه الابيات من رقيق الشعر غزلا ومديحاً وقد اذعن لها شعراء ذلك العصر وناهيك بهم ومع هذا تراها من السلاسة و اللطافة في أقصى الغايات و هذا هو الكلام الّذى يسمّى السهل الممتنع فتراه يطيعك و إذا أردت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب و هكذا ينبغي أن يكون الكلام فان خير الكلام مادخل في الاذن بغير اذن وأمّا البداوة والتوعّر في الالفاظ فتلك أُمة قدخلت ومع ذلك فقد عيب على مستعمليها في ذلك الوقت أيضاً وحيث ينظر البدوی

إلى البدوية نظرة الكف الشريف للكفء الحبيب .

كان الغزل في حياة الجاهليين حاجة نفسيّة كان يبلّل بنداء الرطيب قلوبهم الّتي جففتها شمس الصحراء و يخلق لهم في طرقاتهم المحرقة بعض الظلال الوارقة يأوون إليها ويبعث في قلوبهم الامل والنشاط ، كلّما هدتهم وعورة المسالك وقسوة الحيات في الصحراء كانوا بانغامهم العذبة يحدون إبلهم الصابرة وقوافلهم . وكانوا بذكرى الأحبّة يحدون قلوبهم الخافقة وآمالهم . ولم يكن العربي يحسّ الكمال إلّا اذا جمع بين النفس العاشقة والقلب الشجاع وبين ذلّ الهوى وعزّ السطوة والشأن .

و كان الغزل في الجاهليّة حاجة اجتماعيّة ففيه ايضاً كان تقدمة يقدّمها الشاعر بين يدي أغراضه الاخرى فلا يبدء مديحة ولا فخرة ولا هجاءة حتّى يهزّ العواطف بذكرى الاحباب و يلين القلوب بصورة العشق و الهوى ويطرب النفوس بتصوير محاسن النساء ولعلّ تلك الدواعي النفسيّة الاجتماعيّة هي الّتي صيّرت الغزل الجاهلي اميل إلى الذكرى و إلى بعث الماضي السعيد و دفعت الشاعر إلى الحديث عن قلبه المعذّب و وصف وجده ولوعته و شغلته عن الاطناب في تصوير جمال المحبوب الحسيّ و هو يتثنى في بروده و عطوره و زينته و لو ان حديثا غير الشعر خاض في هذه المجالات لاشتعلت الفتنه و المعارك و سلّت السيوف من أغمادها ولو صدق عمرو بن أبي ربيعة حين يقول :

قالت لها اختها تعاتبها   لنفسدن الطواف في عمر
قومي تصدي له ليبصرنا   ثم اغمزيه يا اخت في خفر
قالت لها قد غمزته فأبى   ثم اسبطرّت تشدّ في أثري

لو صدق في هذا لعددنا غانيات مكة ابرع في الاغراء و ألعب بألباب الرجال من فاتنات العصر الجديد و دللت اللغة العربية نفسها الشعر فأجازت فيه مالم تجزه في غيره أجازت فيه مد القصور و قصر الممدود و تنوين مالا ينصرف و منع صرف ما يصرف و تسكين المتحرك من الابنية و تحريك الساكن إلى غير ذلك مما يجوز في الشعر مالا يجوز في غيره ودلّل الملوك الشعر فأباحوا للشاعر وحده أن يخاطبهم مخاطبة الند وأن يناديهم

باسمائهم عارية من القاب التمجيد و التعظيم وأن يجرؤعليهم بالنقد و الخوض في شؤون الدولة في صراحة و جهارة و استساغوا من الشاعر صوراً لا يستسيغونها من الناثر ولا يجدون في أنفسهم حرجاً من أن يستمعوا إلى شاعر غزل يتجاوز حدّ الغزل العفيف أو شاعر يقذف بالفاظ يخجل منه وجه الحياء او شاعر معربد يصف الخمر و مجالسها و نشوتها ثم يقول

خرجت أجرّ الذيل تيهاً كأنني ... عليك امير[1] ... امير

و خير ما يميّز الغزل الجاهلى المصارحة في بث الصبابة و عناية الشاعر بالتعبير الصادق و اطلاق النفس على سجيّتها وضعف رغبته في اظهار البراعة للسامعين وأثر إعجابهم بالتلفيق و المبالغة و العبث باهوائهم و إحساسهم كما يفعل شعراء العصور المتأخر .

و لما جاء الاسلام و شق طريقة للبلاغة الرائعة اعزّ منالاً و أشرف مآلاً ينتظر المجتمع الاسلامى شعراً من طراز جديد ينهض بالقلوب إلى الطهر و الفضيلة و يسمو بها إلى آفاق الحياة الفكرية و المثل العالية فالغزل العذرى اذن أن لم يولد و هذا الشعر لم يوجد واقام أكثر الشعراء على جاهليتهم الاولى و انحرف المجتمع الاسلامى بعدوفاة النبي ﷺ باغراء الحزب الاُموى الّذي يديرها أبوسفيان بن حرب و يروّجون الفساد

في تاريخ بغداد[2] لما خرج على بن أبي طالب إلى صفين مرّ بخراب المدائن فتمثّل رجل من أصحابه فقال :

جرت الريّاح على محلّ ديارهم ... فكأنّما كانوا على ميعاد

و إذا النعيم و كل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلي و نفاد

فقال على عليه السلام لا تقل هكذا و لكن قل كما قال الله تعالى كم تركوا من جنّات و عيون و زروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك و أو رثناها قوماً آخرين . إنّ هؤلاء القوم كانوا وارثين فاصبحوا موروثين و أن هؤلاء القوم استحلّوا الحرم فحلّت بهم النقم فلا تستحلّوا الحرم فتحلّ بكم النقم .

قال الصولي سمعيت عبدالله بن المعتز يقول لو لم يكن للبحترى من الشعر غير قصيدته السينيّة في وصف ايوان كسرى و قصيدته في وصف البركة لكان اشعر الناس في

---

(١) المؤمنين كثيراً ما ترى مثل هذا وذلك انه لايجرى على قلمى هذا اللقب لغير على (ع)

(٢) ج ١ ض ١٣٢

زمانه . ليس في العرب سينيّة مثلها أخذناها من تاريخ بغداد :

صنت نفسى عمّا يدنّس نفسى	و ترفعت عن جد اكل جبس
وكأنّ الايوان من عجب الصنعـــــ	ـــة جوب في جنب ارعن جلس
يتظنّي من الكـآبة اذيـــــ	ـــبدو لعيني مصبح أو ممسى
مزعجاً بالفراق عن أنس إلف	عزّ أو مرهقاً بتطليق عرس
عكست حظّه الليالى و بات	المشترى فيه و هوكوكب نحس
فهو يبدى تجلّداً و عليه	كلكل من كلاكل الدهر مرسى
لم يعبه أن بزّ من بسط الديبا	ج و استلّ من ستور الدّمقس
مشمخرّ تعلوله شرفات	رفعت في رؤوس رضوى و قدس
لابسات من البياض فما	تُبصر منها الا سابخ برس
ليس يدرى أصنع إنس لجنّ	سكنوه ام صنع جنّ لإنس
غير أني أراه يشهد أن لم	يك بانيه في الملوك بنكس

المراد بالشعر العصرى الّذي يوافق روح هذا العصر بلفظه و اسلوبه و معناه كما يراد بسائر عوامل التمدن الحديث على أن لكل تمدن و لكل عصر روحاً عامة تتجلّى في كل اجزائه فاذا قرأت اخبار الامم قديماً و حديثا رأيت لتمدن كل منها شكلا خاصاً يختلف باختلاف العصور ويبدو اثر ذلك الاختلاف في كل ظاهرة من ظواهر ذلك التمدن ادبية كانت أو مادية . و الشّعر أولى تلك المظاهر بتمثيل أحوال التمدن لانه ديوان الامة و معرض آدابها و مرآة عواطفها وانموذج اخلاقها و عاداتها . و لذلك رأيت خلق كل امة مطبوعاً على أشعارها فشعر المتكسّبين يمازجه الذل والانكسار و شعر أهل البادية حماسيّ فخرى وشعر أهل البذخ والترف مخنّث وقس على ذلك بل الامة الواحدة يختلف اسلوب شعرها و معناه من هذا القبيل باختلاف عصورها من البداوة و الحضارة من العز و الذلّ من العلم و الجهل و يكون في كل حال صورة من صور ذلك العصر .

تلك هى القاعدة العامة و إذا كانت لا تنطبق انطباقا تامّاً على بعض الامم فلانّ هذه الامة تكلفت في شعرها مايخالف المجارى الطبيعيّة فقيدت قرائح شعرها بالتقاليد

القديمة و حملتهم على تحدّي القدماء في اساليب النظم و سبك المعاني ـ كذلك فعل الافرنج في الاجيال المظلمة فقد كانوا ينشئون وينظمون على اسلوب خاص يعرف بالطريقة المدرسية هو اسلوب اليونان و الرومان القدماء ولم يتخلصوا من قيوده إلاّ في الاجيال الاخيرة بعد نضج تمدّنهم . وكذلك كان العرب في اوائل عهد تمدّنهم ولا يزالون إلى الآن و الطريقة المدرسية عندهم تحدّي شعراء الجاهلية و صدر الاسلام في الاسلوب و المعنى فكانهم يغالبون الطبيعة ويقاومون تيارها . فهي تطلب التغيير بتغير الاحوال وهو الارتقاء السائد في عالم الاحياء وهم يريدون بقاء القديم على قدمه كأن القرائح قدت من جماد مع ان الجماد نفسه خاضع لناموس الارتقاء ولذلك فمع ماتوخّاه الاسلاف من المحافظة على اسلوب القديم والمعاني القديمة فالطبيعة غلبت على إرادتهم لانك إذا تدبّرت الشعر القديم والحديث رأيته يختلف باختلاف ادوار التمدن الاسلامي وما قبله .

و هي ستّة ادوار او اعصر يتفاوت الفرق بينها بتفاوت أحوال تلك الاعصر و هي العصر الجاهلي و العصر الاموى والعصر العباسي الاول و العصر العباسي الثاني و العصر الانحطاط : والنهضة الاخيرة .

العصر الجاهلي ـ يمتاز الشعر العربي في هذا العصر بسذاجة اسلوبه وقربه من الطبيعة و بعده عن الزّخرفة في الكلام و تنميق العبارة شأن البداوة في سائر أحوالها فالشعر الجاهلي بدوى ساذج لانه يعبر عن عواطف البدو ويمثل أحوالهم . وإذا احتاجوا إلى تشبيه عمدوا إلى ماالفوه من السهول و الجبال و الماشية و الخيل و السلاح و نحوه فاستعاروها وكنوا بها والبدو اهل ضيافة ووفاء وغزو وفروسية فاذا افتخروا انما يفتخرون بهذه الامور و كانوا مع ذلك أهل نفوس حساسة يحبون و يبغضون و ينقمون ويثأرون فعبّروا عن ذلك كله بالشعر الجاهلي البدوي البعيد عن التنميق و الزخرفة . فالشاعر الجاهلي يصوّر الحقيقه كما وقعت في نفسه تماما فاذا وصف واقعة صوّرها كما تراءت له بلا مبالغة ولا برقشة فقصيدة بشر بن عوانة الّتي نظمها في قتل الاسد مثال ناطق لهذا الشعر ومثل ذلك اذا نظموا معركة او حادثة أو وصفوا فرساً أو ناقة . و في اشعارهم أمثلة كثيرة من هذا القبيل فلقد كان همّ الشعراء في الجاهلية أن ينقلبوا لك صورة مما يرون

فمازلنا منذ العصر الجاهلى نقرء شعراً في الطبيعة لامرىء القيس و ذى الرمة والبحترى وابن الرّومي وابن المعتز وابن خفاجة لكنهم يختلفون في مدى استجابتهم لدعاء الطبيعة ومدى احساسهم بها وشعورهم بمجاليها ومعتمدهم في الشعر الطبيعي على التشبيه والتمثيل اكثر من معتمدهم على إثارة الشعور وايقاظ الروح وتنبيهها إلى ما وراء المشهد المنظور من الوجود المعنوى الّذي يفوق الوصف الواقعي و يزيد عليه لما فيه من سموّ بالخيال وارتفاع بالفكر إلى ماوراء المحسوس قال سيّدنا مير المؤمنين عليه السلام وكلّ شيىء في الدنيا سماعه اعظم من عيانه وكلّ شيء في الآخرة عيانه أعظم من سماعه .

ولمّا كان الشعراء النهضة خرجوا في العالم الجديد وقرأوا ثمرات الافكار واطّلعوا على أرض الله وسمائه في اروبا وامريكا أخذوا طرايق قدداً فبعضهم استسمن ذاورم واستسبع[1] فاستغرب وصار لا يرى إلاّ من عيونهم ولا يسمع إلاّ باسماعهم ولا يعشق إلاّ ما أرادوا !ولا يقول إلاّ بما قالوا كان عربيّاً و صار غربيّاً رآهم يصفون الشمس لانّهم لا يرونها إلاّ قليلاً ولا يصبحون الا و السماء بغيومها و السحاب المسخّر بينها و بتعبير الدارج أتت بملحفتها وغطت الارض يحق لهم أن يغتنموا الفرصة في يوم يرون الشمس وضحاها فالكاتب أو الشاعر الغربي يقول ويطول وصفها وضحوتها ولكن الشرقي فهو ابن الشمس وبجدتها فلا ينبغي له ان يقلّد الغربى تقليد الأعمى بل هو يطلب الظلّ الممدود والظليل الموعود ألم يقرء القرآن الشريف يقول الله تعالى ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل وفي قوم سبا يقول وبدّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتى اكل خمط وشيىء من سدر قليل .

و أمّا التشبيب و نسيبهم في دور التمدّن مثل نصيبهم في الجاهليّة الأولى يصف الشاعر الخليع هنا جماعة من المستحمات على شاطى البحر يحمرّ منه وجه الانسانيّة :

افدى الحمائم باكرت حمّامها	في شاطىء فرش العيون أمامها
مستعرض فوق الرمال هيامنا	مستعرض فوق المياه هيامها
الكاسيات العاريات تؤمه	بغلائل ما غلّفت أجسامها
تركت إلى عبث النسيم شفوفها	فنضا النسيم عن النجوم غمامها
تغرى ولا تعطى الّذي تغرى به	لو انصفت ما نصفت إحرامها

(١) وهذا الاصطلاح معروف ومشهور في بلادنا لكل مقهور ذليل فهو مستسبع .

وأمّا نسيبهم فلا تكلف فيه و انّما يعبّرون به ممّا يجيش في نفوسهم فاذا احبّوا وصفوا عواطفهم كماهي تماماًفقصيدة النابغة الّتي يصف بهاالمتجرّدة مثال للوصف الجاهلي الطبيعيّ و ان كانت عاملة لقتله كانتما يوافق ويوالف العادات و الآداب في هذا العصر و كذلك معلّقة امرىء القيس ونحوها من أشعار فحول الجاهليّة فانّهم يصفون الطبيعة كما تظهر لهم تماماً ولم ينقطع حسّ الشعراء وشعورهم بالطبيعة .

و يقال نحو ذلك في ماقالوه من الحكم فعبّروا به عن احساسهم ونتيجة اختبارهم كقصيدة زهير الّتي يقول فيها :

و مهما تكن عند امرىء من خليقة	و ان خالها تخفى على الناس تعلم
فلا تكتمن الله ما في نفوسكم	ليخفى و مهما يكتم الله يعلم
يوخر فيوضع في كتاب فيدّخر	ليوم الحساب أو يعجل فينقم
واعلم ما في اليوم و الامس قبله	ولكنّني عن علم ما في غد عمى
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته و من تخطى يعمّر فيهرم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه	يفره و من لايتّق الشتم يشتم
ومن يك ذافضل فيبخل بفضله	على قومه يستغن عنه و يذمم
و من يوف لايذمم و من يهد قلبه	إلى مطمئن البرّ لايتجمجم
ومن هاب اسباب المنايا ينلنه	و ان يرق اسباب السماء بسلّم
و من يجعل المعروف في غير اهله	يكن حمده ذمّاً عليه و يندم
و من لم يذد عن حوضه بسلاحه	يهدّم و من لايظلم الناس يظلم
و من يغترب يحسب عدوّ صديقه	و من لايكرّم نفسه لايكرّم
و من يعص أطراف الزجاج فانه	يطيع العوالى ركبت كل لهذم
و من لايصانع في امور كثيرة	يضرّس بأنياب و يوطأ بمنسم
و كان ترى من صامت لك معجب	زيادته أو نقصه في التكلّم
لسان الفتى نصف و نصف فؤاده	فلم تبق إلّا صورة اللحم والدم

كان بشر بن عوانة العبدى صعلوكا فاغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوّج بها و قال ما رأيت كاليوم فقالت :

اعجب بشراً حور فى عينى و ساعد ابيض كاللجين
و دونه مسرح طرف العين خمصانة ترفل في حجلين
احسن من يمشي على رجلين لو ضمّ بشر بينها و بينى
ادام هجرى و أطال بينى ولو يقيس زينها بزينى
لأسفر الصبح لذى عينين

قال بشر و يحك من عنيت فقالت بنت عمك فاطمة فقال أهي من الحسن بحيث وصفت قالت و أزيد و أكثر فانشأ يقول :

و يحك يا ذات الثنا يا البيض ما خلتنى منك بمستعيض
فالآن إذ لوّحت بالتعريض خلوت جوّاً فاصفرى و بيضى
لا ضم جفناى على تغميض مالم اشل عرضى من الحضيض

فقالت :

كم خاطب في أمرها ألحّا و هي إليك ابنة عمّ لحّا

ثم أرسل إلى عمّه يخطب ابنته و منعه العم امنيّته فآلى أن لا يرعى على أحد منهم ان لم يزوّجه ابنته ثم كثرت مضرّاته فيهم و اتّصلت معرّاته إليهم فاجتمع رجال الحيّ إلى عمّه و قالوا كفّ عنّا مجنونك فقال لا تلبسونى عارا و أمهلوني حتّى أهلكه ببعض الحيل فقالوا أنت و ذاك ثم قال له عمّه إنّي آليت أن لا أزوج ابنتى هذه إلّا ممّن يسوق إليها ألف ناقه مهراً ولا ارضاها إلّا من نوق خزاعة و كان غرض العم أن يسلك بشر الطريق بينه و بين خزاعة فيفترسه الاسد لأنّ العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق و كان فيه اسد يسمّى (داذاً) وحيّة تدعى شجاعاً يقول فيهما قائلهم :

افتك من داذ و من شجاع ان يك داذ سيد السّباع
فانّها سيّدة الافاعى

ثم ان بشراً سلك ذلك الطريق فما نصفه حتّى لقى الاسد و قمص مهره فنزل

و عقره ثمّ اخترط سيفه إلى الأسد و اعترضه و قطعه ثمّ كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمّه .

أفاطم لو شهدت ببطن خبت	وقد لاقى الهزبرأ خاك بشرا
إذاً لرأيت ليثاً زار ليثاً	هزبرا أغلباً لاقى هزبرا
تبهنس ثم احجم عنه مهرى	محاذرةً فقلت عقرت مهرا
انل قدمي ظهر الارض إني	رأيت الارض أثبت منك ظهرا
و قلت له وقد ابدى نصالا	محدّدة و وجها مكفهرّا
يكفكف غيلة أحدى يديه	و يبسط للوثوب عليّ اخرى
يدلّ بمخلب و بحدّ ناب	و باللّحظات تحسبهنّ جمرا
وفي يمناى ماضى الحدّ ابقى	بمضـر به قراع الموت اثرا
ألم يبلغـك ما فعلت ظباه	بكاظمـة غداة لقيت عمرا
و قلبي مثل قلبك ليس يخشى	مصاولة فكيف يخـاف ذعرا
و أنت تروم للاشبال قوتاً	و أطلب لابنة الاعمـام مهرا
فقيم تسوم مثلى أن يولى	و يجعل في يديك النفس قسرا
نصحتك فالتمس ياليث غيرى	طعاما إن لحمـى كان مرّا
فلما ظنّ أنّ الغشّ نصحى	و خالفنى كاني قلت هجرا
مشى و مشيت من اسدين راما	مراما كان اذ طلباه و عرا
هززت له الحسام فخلت اني	سللت به لدى الظلماء فجرا
وجدت له بجـائشة ارته	بان كذبتـه ما منّته غدرا
و اطلقت المهنّد من يمينى	فقدّ له من الاضلاع عشـرا
فخرّ مجدّلاً بدم كأنّى	هدمت بـه بنـاءً مشمّخـرا
و قلت له يعزّ عليّ اني	قتلت منـاسبى جلداً و فخراً
و لكن رمت شيئاً لم يرمه	سواك فلم اطق ياليث صبرا
تحـاول ان تعلّمنى فرارا	لعمر ابيك قدحا ولت نكراً

فلا تجزع فقد لاقيت حرّا يحاذر ان يعاب فمتّ حرا

فلما بلغت الابيات عمّه ندم على مامنعه من تزويجها وخشي أن تغتاله الحيّة فقام في أثره وبلغه وقد ملكته سورة الحية فلمّا رأي عمّه اخذته حميّة الجاهلية فجعل يده في فم الحيّة وحكم سيفه فيها فقال :

بشر إلى المجد بعيد همّه لما رآه بالعراء عمّه

قد ثكلته نفسه و امّه جاشت به جائشة تهمّه

قام إلى ابن الفلا يؤمّه فغاب فيه يده و كمه

و نفسه نفسي و سمّي سمّه

فلما قتل الحية قال عمّه انّي عرضّتك طمعاً في امر قدثنى الله عنانى عنه فارجع لازوّجك إبنتي فلما رجع جعل بشر بملء فمه فخراً حتّى طلع أمرد كشق القمر على فرسه مدجّجا في سلاحه فقال بشر يا عم اني أسمع حس صيد و خرج فاذا بغلام على قيد فقال ثكلتك امّك يا بشر أن قتلت دودة و بهيمة تملأ ما ضغيك فخراً أنت في أمان ان سلّمت عمك فقال بشر من أنت لاام ّلك قال اليوم الاسود و الموت الاحمر فقال بشر ثكلتك من سلحتك فقال يا بشر ومن سلحتك وكرّ كلّ واحد منهما على صاحبه فلم يتمكن بشر منه و امكن الغلام عشرون طعنة في كلية بشر كلّما مسّه شبا السنان حماه عن بدنه ابقاء عليه - ثمّ قال يا بشر كيف ترى أليس لو أردت لا طعمتك أنياب الرمح ثم ألقي رمحه و استلّ سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف و لم يتمكن بشر من واحدة ثم قال يا بشر سلّم عمك و أذهب في أمان قال نعم و لكن على شريطة ان تقول لي من أنت قال أنا ابن المرأة التي دلّتك على ابنة عمك فقال بشر

تلك العصا من هذه العصيّة هل تلد الحيّة إلاّ الحيّة

و حلف ان لا يركب حصانا ولا تزوج حصانا ثم زوج ابنة عمه لابنه .

ختام يتألّف خلق الانسان أو طبعه من مزيج عواطف يتوارثها عن اسلافه و فرق عظيم بين وظيفة العقل و الخلق في حياة الانسان فبالأوّل يفهم و يفكر و بالثاني يسلك ويعمل فالاخلاق هي العامل الاول في حياة الافراد و الشعوب .

و لما كانت عواطف الإنسان لا تخضع لارادته قلّما يستطيع تحوير خلقه الّذي هو مزيج عواطفه المتوارثة كما قيل أن الخلق كالخلق لا يتحوّلان ولا يتبدّلان و قال النبي ﷺ "إذا سمعتم أنّ جبلاً ازال عن مكانه فصدّقوه و إذا سمعتم برجل تغيّر عن خلقه فلا تصدقوه" ! ويكفي أن نلقى نظرة على الحياة اليومية لنوقن عجز العقل عن التأثير في العواطف والاخلاق بل يكفي أن ننظر إلى هذا الحرب لنرى كيف أن احكام العقل واستنباطاته لم تكف ليوقّف الاهواء البشريّة عند حدّها وما ذلك إلّا لأنّ أحكام العقل غير العواطف وانه لمن العبث ان نحارب عاطفة بالجدال والبرهان و انّما السهل الميسور أن نحاربها بعاطفة اخرى اقوى منها .

وليست هي إلّا العاطفة الدينيّة ولذا كان القرآن ليس تعليماً فقط بل يحرّك العواطف فهو شيء كاستهواء لايكاد يطيف بالاذن حتّى يجعل فيه قلباً سميعاً ثمّ يتمدّد القلب بما تمدّد فيه من الفكر الجديد حتّى يعود الانسان قلباً فقط أو خلقاً أكبر مافيه قلبه ولذا قال ﷺ "انّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه . و اذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا و هي القلب" فالقرآن من شأنه ان يصنع القلوب لانها صلة بين الغيب و الشهود و يحاول القرآن أن يجعل في الطبيعة فكرة و في المادّة روحاً و يوازن المعقول والمحسوس بحيث لايعيش الانسان منه في حياة ملكيّة خاصة اومادّية بحتة بل في مستوى الانسانيّة لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم هذه الآية قد تقرّر بأن الكمال العضوى استوى في الإنسان فلا منقلب له اسمى من بنائه المشاهد و كيانه الموجود و ليس يؤتى الانسان من قبل النقص الخلقى و انما يؤتى من قبل فساد الفطرة فالايمان قد اقام على كل مسلم جندياً يكون دائما منه بمرأى و مسمع و جمع للمسلم قلبه وعقله ليعملا معاً ولا يفترقان أبداً هذا في العاطفة و هذا في الفكرة .

هذا بحث نفيس و مطلب عزيز ساقنى إليه نظر في نفسى و تفكر في شخصى . و دعاني إليه أمر لايعنى غيرى فحدا بى تسلسل الفكر و اطراء النظر إلى أن خرجت من مضايق الشخصيات إلى باحات الكليات و جاوزت ما يهمّنى إلى ما يهمّ غيرى و طرت با جنحة الفكر في الهواء و ضربت في الأرض و ارض الله واسعة الفضاء حتّى اهتديت إلى حلقة من العلم كانت مفقودة و ظفرت بضالّة كانت منشودة و تذكرت أمر اسحق نيوتن إذ وقعت عليه تفاحة من شجرة باسقة فألم لشدة وقعها مع صغر حجمها و عجب لثقلها مع خفّة وزنها فما زال النظر يهبط به و يرفعه ويعلو به و يضعه حتّى وصل إلى تحقيق أمر الجذب العام و أخرج للناس مبحثاً ناضجاً كان من أكبر الوسائط لحلّ غوامض المباحث الطبيعيّة وغوامض المطالب الفلكيّة ولا يمنعنى من حمدالله بعد ما بين الدرجتين وسعة الفرق بين المبحثين فالله يعطى النعم على حسب الهمم وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم فالجاذبة في الطبيعيّات كالجاذبيّة في الإلهيّات بالمعنى الاعم و الجذبة في الإلهيّات بالمعنى الاخصّ فعلم النفس التطبيقى ينصرفه إلى ان للشخصيّة صفات كماليّة اهمّها الجاذبيّة ولقد غالى بعض العلماء فجعل منزلتها من الشخصيّة منزلة الحقيقة اوالجنس و انما سائر العناصر قوى فقط وهذا له وجهه فان أعظم مايسترعى إهتمام التاريخ في الحديث عن الشخصيّات هو هذا الجانب فانّ للجاذبيّة فعلاً أسريا وبعبارة فنيّة عملاً قسريّاً يحول بين المرء و نفسه ، ويستولى على مناطق الشعور منه بحيث لايشعر بشيء على الاستقلال بل يجعله كانما هو موجّهة إلى أيّ جهة يريدها أولا فهي سلطان قاهر يطيف بالنفوس و يبعث فيها خدراً عميقاً يتركها بلا حول و ارادة قال جوستا لوبون في كتاب روح الاجتماع أن نابلئون كان يدخل مجلس الامة و كثير من رجاله معنّفون عليه فماهو إلاّ أن يدخل حتّى ينقلب أشدّهم عنفاً و تطرّفاً في الانتقاد أكثرهم اقتناعاً وقد كان يقول أحدهم يخيّل إليّ لوان هذا الرجل أخذ باذني فاخرجني ما اختلفت عليه ومع أن الجاذبيّة شائعة الوجود في أفراد من الناس . لم نظهر على تفسيرها الصحيح ولا تزال تشرح وصفاً ولفظاً ولوأظهرناعلى سرّها لكان لعلم النفس أن يتحكم في الجاذبيّة طغياناً ونضوباً والحق أن الجاذبيّة من أسرار النفس العليا لايمكن النفاذ اليها بسهولة

ولقد عبّر عنها بعض العرفاء بادّق تعبير واعمقه ، جذبة من جذبات الحق توازى عمل الثقلين ، فهي مغناطيس حيّة تفعل في النفوس كما تفعل بالحديد و العجب أن السرّ الجاذبيّة في المرتبة الجماديّة لم تفسّر إلى الآن فكيف في مرتبة الاحياء فان من المدهش هذا التأثير الجذرى الّذي لايملك الانسان له دفعاً و منه مناصاً فهو ينزل بالشخص المستقلّ الارادة التام التركيب الشديد القوى القويّ العضل فيفقده إرادته و استقلاله و يجعله بعضاً من شيىء غيره بعد أن كان شيئاً لنفسه فالجاذبيّة قوة ساحقة تفعل في الجماهير كما تفعل في الأفراد .

يقول العارفون بعلم النفس وعلم الاجتماع البشرى أن استعداد الانسان لايعرف له حد يقف عنده فاذا عاش البشر ملايين من السنين فانه يمكن أن يكون ارتقاؤهم فيها متصلاً و مستمراً و يعرف هذا من قارن و قابل بين اولئك الذين يعيشون حفاة عراة في صحارى أفريقيّة و جبالها و في بعض جزائر المحيط و بين هؤلاء الّذين يسافرون إلى القمر و يتمتّعون من ثمرات العلوم و نتايج افكارهم و إذا سافرت إلى امريكا ترى في زوايا هذه القارّة الامريكيّين القدماء أو الأصيلين على حدّ قولهم فهم الآن على ما كان آباءهم قبل المسيح في كلّ الشؤون الحياتيّة من العقائد والعوائد .

وما وصل أهل المدنية العالية في هذا العصر إلى ما وصلوا إلاّ باطلاق العنان لجياد العقول في ميادين العلوم و الفنون و مساعدة الاستعداد البشرى على الرقي في معارج الكمال الاجتماعى اللائق به في ظل الحرّية و حماية العدل نعم إن انتشار العلم يقلّل الشرور ولكنه لايمكنها بالكليّة لان السلام العام هو الكمال الحقيقى والانسان ضعيف طبعاً و خلقاً و مفطور على الطمع وهما أصل الشرور فلوكان الانسان ملكاً لاستغنى عن الرغيف ولوكان حيواناًلاكتفى بالرغيف ولكنه انسان رجله في التراب ورأسه في السحاب و كما هو مختلف اللون فالإنسان في الشرق غير الانسان في الغرب و الاسود غير الابيض و الاحمر و الأصفر كذلك مختلفون في الافكار والاميال والعواطف ولايزالون مختلفين إلاّ مارحم ربّى قال نيكلا حدّاد .

لماحدث الانقلاب العثماني وخلع السلطان عبدالحميد ،كنت في داخلية الولايات

المتحدة و قصد إلي حينئذ صحافى يريدان أحادثه عن تركيا لينشر الحديث في جريدته وقد فهمت أنه ومحرري جريدته وقراءها لايعلمون شيئاً عن تركيا ، ولاكانوا يسمعون بذكرها أكثر مما نسمع عن جبال هيماليا مثلا . و ماهتموا بامر الانقلاب الّذي حدث فيها إلاّ لما طنطنت به الجرايد الكبرى كثيراً . و كان هذا الصحافى يسألنى عن سبب الثورة فكنت أبسط له استبداذ السلطان عبدالحميد و عسفه في ثلاثين مليون نسمة . فلم يكن الرجل ليفهم كيف يستطيع فردان يستبد بثلاثين مليونا . وقد تعبت كثيراً أن أفهمه أن للرجل جواسيس و أعوانا يغدق عليهم المال فيعينونه على عسفه و استبداده ، و مع ذلك استحال عليه أن يفهم أو ان يتصور ذلك . و أخيراً لما عجزت عن تفهيمه قلت له : لقد فهمت أنا الآن كيف أنّي لم أزل استغرب منذ جئت إلى بلادكم حتّى الآن أن مئة مليون نسمه تستطيع ان تعيش في نظام تام من غير سلطان ولا ملك ولا امبراطور فانت ألفت الحكم الذاتى ، فاستهجنت الحكم المطلق ، و أنا بالعكس الفت الحكم الاستبدادى فاستهجن الحكم الذاتى الحر فالالفة والعادة يسودان في العامة والسادة .

نلاحظ انّ كل انسان يشعر انّ الديانة الّتي ربى فيها هي الديانة الصحيحة ، حتى ولولم يفهم شيئاً من تعاليمها ولا تشرّب مباديها ، ويشعر ان خروجه منها للدخول في غيرها معرّة اوكانه فسق ـ العبد الّذي تعوّد العبودية إذا اطلقت سراحه وقلت له أنت حرّ استهجن الامر جداً وشعران حرّيته أمر غريب عنه لاترتاح اليه نفسه ترى مثل هذا حتى في الحيوانات . ففي الحشرات نوع يقال له بقر النمل وهو يفرز مادة يغتذي بها النمل وقد تعود نوع من النمل أن يدغدغه لكي يفرز هذه المادة فيمتصّها منه وقد تعوّدت تلك الحشرات أن لاتفرز مادتها هذه إلاّ إذا دغدغها النمل .

وحاول دارون مرة أن يستخرج منها مادة بدغدغة بطونها بشعرة فلم تفرز ولما وضع بينها نملة وصل إلى النتيجة حالا .

الجماهير كالاطفال لايقودها الفكر بل تحرّكها العواطف .

روح الامة والجماعات الّتي ينتسب إليها الفرد فان أحكام العقل البشري في الاجتماع مخالفة لاحكامه في الانفراد ، عقايد الدينيّة وما يجرى مجريها كالعقايد السياسيّة الّتي

تتسلّط أحياناً وتحدث أعظم الانقلابات ولذا قالوا وتر الدين حسّاس .

فلكلّ أحكام خاصّة إلاّ أنّ العلماء ظلّوا إلى مدّة قريبة يولهّون أحكام العقل زاعمين انّها القياس الأمثل للحياة أمّا اليوم فالآراء تتحوّل عن هذا النظر بعد ثبوت خطوات العوامل الاخرى في حياة الشعوب فللعواطف مثلاً سنن و أحكام تسير بمقتضاها كما يسير العقل بمقتضى أحكام المنطق فالحبّ و البغض ليسا موقوفين على البرهان و للعواطف منطقاً خاصّاً بها كذلك أحوال الجماعات النفسيّة فان مداركها و عواطفها تختلف كثيراً عن مدارك أفرادها و عواطفهم ومثلها العقايد الدينيّة والسياسيّة فان قبولها ليس بموقوف على أحكام العقل بل على قواعد اخرى بعيدة عنه كالعدوي و الإرث و المزاج .

نعم أنّه بفضل أحكام المنطق العقلي يستكشف العالم الحقايق العلميّة و لكنّها قلّما يؤثر في العقايد الدينيّة و السياسيّة و الفرق بين تأثير الحقايق و تأثير العقايد انّ الحقيقة العلمية بارادة جافة لاسلطة لها على الانسان أو أحواله الاجتماعية وذلك عكس العقيدة فانّها تبعث فيه حرارة تجعله يقوم بأعظم الأعمال و يتعرّض لأجسم الاخطار وعليهذا يصحّ القول بوجود منطق عاطفي ومنطق جماعى و منطق حيوّى ومنطق روحاني فضلاً عن القياس المنطقي كثيراً ماترد كلمة الرأي العام أو الأفكار العموميّة في معرض الكلام عن حركات الجماهير والحال أن في اطلاق هذه الكلمة كثيراً من التجوّز فان هذا الّذي تصدر عن الجمهور ليس بالفكر أو الرأي العام و ذلك لانّ الرأي لايكون الابتقليب النظر و اعمال الرويّة في الوقايع الحادثة وهو مايتّسع له عقله ولا تسمح به طاقة الذهن و مستوى التعليم عند العامّة ثمّ ان المفكّرين مهمايكن اجتماعهم على جملة الرأي فان لهم مذاهب شتى وعقايد مختلفة فالتفكير مؤدّاه التميز الفردي في الاصول أو الفروع و أمّا الّذي يؤلّف الألوف من الجماهير فهو الشعور الواحد يعمّها و يملك عليه مشاعرها . والجماهير يسهل تحريكها على من يعرف مخاطبتها باللغة الّتي تفهمها وتؤثر فيها . وهي لغة حاجاتها ورغباتها و أمانيها و أحياناً لغة مطامعهاوشهواتها

و مثارات إعجابها أو أحقادها وهو بتهييجه مافيها من هذه العواطف الطيّبة أوالخبيثة عواطف الايثار أو الاستيثار ، يذهلها عن عقلها و يستولى على قيادها الابطال الّذين فيهم مظاهر القوة مهما اختلف نوعهاهم الّذين يستطيعون أن يستميلوا عواطف الجمهور و يقودونه كما يشاؤون ويطبعونه على غرارهم لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة .

قال نيكلا حدّاد في كتابه علم الاجتماع الإنسان لايتنبّه لكل منبّه ولايحاكى كلّ منابه ، فلا بدّ أن يكون في المنابه مزيّة تستنبهه أوتدعو لانتباهه ، و تثير عجبه أو اعجابه ، وتوجب دهشته وتخبل قوّة التعقّل فيه حتّى تحمله على المحاكاة والمطاوعة قبل صدور الحكم العقلى و أمر الإرادة فهذه المزايا الّتي يختص بها المنابه ويؤثّر بها على المحاكي تختلف باختلاف الاحوال والأشخاص . مثال ذلك الطفل أوالغلام لا يعجب إذاكان أبوه النجّار يصنع أجمل وأفضل متاع من امتعة البيت لانه ألف رؤية أبيه نجّاراً. ولكنه يعجب إذا رآه قد رمي ببندقيتة عصفوراً طايراً فيتمنّى أن يفعل فعله ، و يحاول ذلك فهو لا يعجب ولا يندهش إلّا للعمل الجديد الّذى يستجبّه وغيره يعمله أفضل منه فمحور المزيّة الّتي تعجبه ، المقدرة أو القوّة بل انّ القوّة هي نواة كلّ مزيّة تقريباً ولو بالتأويل و التخريج لذلك ترى الأحداث يشتهون أن يلبسوا الملابس العسكرية ، لأنّهم يعجبون بقوّة الجنود . بل انّ البالغين يتوقون إلى التشبّه بالأشخاص الأقوياء في أبدانهم و في أجسامهم و أشكالهم ومالهم و في نفوذهم . فالغلام يتوق وهو صغير أن يركب الجواد ليكون فارساً و جندياً رفيعاً لانه طالب القدرة والفتى يتوق أن يكون غنياً فإذا اغتنى حتّى يستطيع حسب انّه بلغ غاية الغايات لأنّه يقدر أن يقتني ما تقتنيه الأغنياء و غناه يرفعه إلى مرتبة اسمى او سياسيّاً عظيماً أو مندوباً حتّى يكون ذا سودد و سيطرة و السبب في ذلك كلّه نقص التربية وهي علّة انحطاط الشرقي و هيهات أن تجد من يتمنّى أن يكون مثل باستور أو سقراط و أرسطو أم ولتر و ويكتور هوجو أو مثل اسبنسر مثلاً . تجد كثيرين عندنا يشتاقون و يتمنّون الوزارة ولا يريدون ولا يتوقون أن يكونوا مثل صدر المتألهين الشيرازي أو ملاهادي السبزواري أو آقا بزرج الشهيدى و ميرزا محمّد طاهر التنكابني وقلّما يتّفق أن تجد من

يتمنّى ان يكون مثل السيد أبو الحسن أو آقا حسين البروجردي ولا أن يكون مثل جمال الدّين أو الشيخ محمد عبده و الحال انّنا مع هذه الشرائط و الأحوال في حاجة إلى معلّمين أكثر من حاجتنا إلى المدارس والبرنامج المذهبي و انتقاء المعلّمين أمر ذو بال قلّما يقدره الناس حتّى الخواص كثيراً ماسمعت رجال الدين وصالح المؤمنين يسألون الوزارة أن تقحم برنامج الدين و الشرعيّات كما يسمّونه ، في المدارس وربما سمعنا أنّ المعلّم نفسه كان مخالفاً للدين وقد زاد الطّين بلّة فان اختيار المعلّم في المدارس الّتي تنشأ على نفقة الحكومات انّما يجرى فيها بطريقة مكانيكيّة على رسوم معلومة شأن ساير مشروعات الحكومات بخلاف المشروعات الّتى يتولّى شؤونها أفراد من نوابغ الأمّة الذين يجدون لذّة في العمل و خصوصاً المدارس فان المعلّم الّذي يشتغل بالتعليم لمجرّد رغبته في التعيّش ولا يجد لذّة في هذه الصّناعة لايكتسب التلميذ منه غير مبادي العلم وهذا اذا كان المعلّم عالماً بما يدرس و كان ماتولّى تدريسه من تخصّصه و أمّا إذا كان الاستاذ و المعلّم ضعيف المبادى وساقط الهمّة و فاسد الاخلاق فسدت أخلاق التلاميذ لان القدوة بالمعاشرة و بالاخصّ معاشرة الاساتذة و التلامذة و هم ينظرون إليهم نظرهم إلى مثال كامل فيقلدونهم بحركاتهم و سكناتهم فسائت أخلاق التلامذة و ساءت حالهم بل ساءت حال الامة بجملتها و إذا كانت الاساتذة ذووا همم عالية و آداب صحيحة نشأ التلامذة على تلك السجايا و كانوا قدوة حسنة لاصدقائهم فيعلو شأن الامة و ترتقى آدابها وقد يكون الاستاذ الواحد علّة في انتشال الامة من حضيض الخمول إلى أعلى مدارج الارتقاء بما يغرسه في تلامذته من المبادي الصحيحة و يبثّه في نفوسهم من روح الحرّية و الاستقلال بالرأي و الاقدام والاعتماد على النفس وحبّ الوطن والخير العام وانّى أعرف بجامعة تهران رجالاً علماء بهذه الصفة وقال الصادق عليه السلام كونوا دعاةً لنا بأعمالكم .

ولا بدّ من أن يبدء الاستاذ بنفسه ليقتدوا به وقد لايرى ذلك الاستاذ حاجة إلى إلقاء تلك المبادى شفاهاً و في العمل بها وسيرته عليها أعظم مؤثر وأكبر معلّم .

و قال سيّدنا أمير المؤمنين على عليه السلام من نصب نفسه للناس اماماً فليبدء بتعليم نفسه قبل تعليم غيره و ليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه و معلّم نفسه و مؤدّبها

أحق بالاجلال من معلم الناس و مؤدّبهم .

و لقد سمعت من بعض أساتذة لبنان أنّه كان مستر فاند يك هو المؤسس لكلّية الطبّ في بيروت لم يكن الاستاذ دكتور فانديك فرداً بعلمه الواسع فربما كان من طبقته في العلم في سوريا و لبنان غير واحد و لعلّ بعضهم كان اوسع منه علما في بعض الفروع و لكنه كان فرداً باخلاقه كان قدوة لتلامذته بحريّة الضمير وعلو الهمة و حسن الخلق والثبات فغرس في نفوسهم همة و نشاطاً فينبغ منهم الكتّاب والمؤلفون وانشأت الجمعيات و المدارس .

وماكان المرحوم السيد جمال الدين الاسدآبادى فرداً في علمه وفضله و بين معاصريه و سابقيه نخبة من فطاحل العلماء يشار إليهم بالبنان و لكن الأبصار كانت شاخصة إليه والقلوب حائمة حوله فكان تلامذته ومريدوه يقلدونه في كل حركة أوعمل وقول فاحدث في مصر نشأة جديده فتسابق شبانها إلى الخطابة و الكتابة وتكاثفوا على انشاء الجمعيات و اكبّوا على المطالعة ومن تلامذته نخبة زعماء العصرو اشهرهم في مصر الشيخ محمد عبده مفتى الدّيار المصريّة لقد اصابه ما يصيب استاذه و كلّ مصلح من أهل زمانه و عاش غريبا في وطنه كما قال النبيّ ﷺ العلماء غرباء معذّبا بين قومه منكوراً من مواطنيه رموه بالالحاد تارةوسمّوه صنيع الاجنبى اخرى وقاومت الهيأة الحاكمة اصلاحاته وتبعتهم العامّة قطعوا ايادي يريد الاحسان اليهم والخدمة عليهم وقبلّوا ايادكانوا يقطعون رؤسهم وتلطم وجوههم و ليس لذلك سبب سوى ضيق في عقولهم وعجزهم عن معرفة الصديق من العدوّ. بعد اللّتيا والّتي فالاظهر أنّه حالت الظّروف دون ان يستطيع من اصلاح الازهر وتحقيق رغائب استاذه الاعظم معلّم الشرق الاكبر السيد جمال الدين الحسينى رغم جهوده وصموده للثّورة الّتي اتخذوها وابتدعوها وغرّوا الناس بظواهرهم فتنفّس الصعداء و انشأ قصيدته الغرّاء و انشد نشيده الخالدة على فراش الموت :

و لست أُبالى أن يقال محمد ... أبلّ ام اكتظّت عليه المآتم
و لكنّه دين اردت صلاحه ... أحاذر ان تقضى عليه العمائم
و للناس آمال يرجون نيلها ... إذا متّ ماتت واضمحلّت عزائم

فيارب ّان قدرت رجعي قريبة إلى عالم الارواح وانفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيداً يضيء النهج والليل قائم
يماثلني نطقاً وعلماً و حكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم

و هذا ما أردنا بيانه في الجزء الاول من الحكمة و الادب في الفرس و العرب للناشئة و فتيان الاسلام عموماً و للطلاّب في جوامع المسلمين خصوصاً و لإخواني من شبّان ايران بالاخص و يتلوه الجزء الثاني ان شاء الله واوّله الشعر ديوان العرب.

في شهر ذي الحجة ١٣٨٦

لمّا أعجبتني قصة عنترة و الحبل بطولها و المثال الدائر في عرضه فصار سائراً في الافواه حتى أتى في كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما نقلوه من خط الشيخ بهاء الدين العاملي رحمة الله عليه احببت ان آتي به في المقام وذيلاً للكلام والمسك خير ختام .

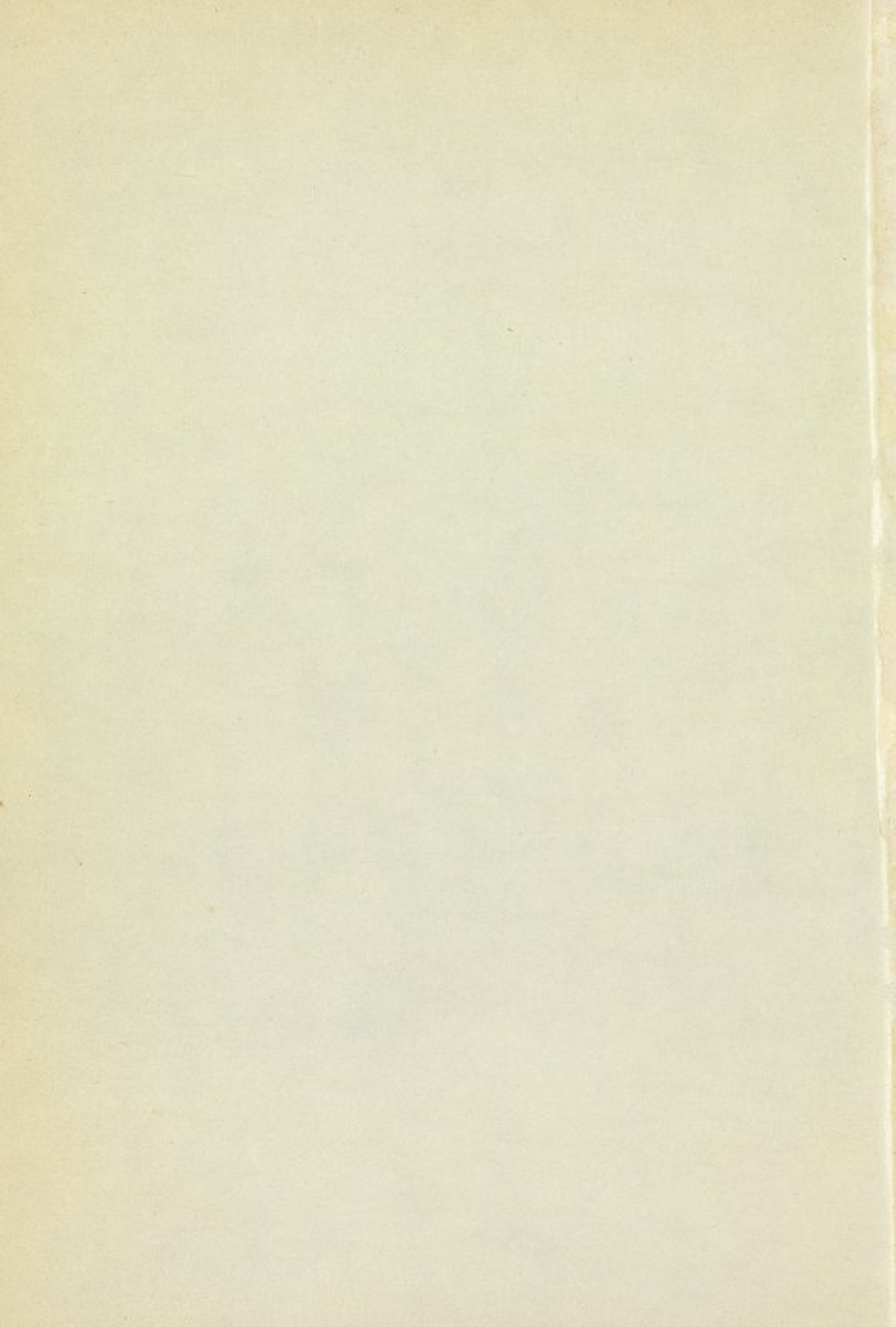
دخل امير المؤمنين عليه السلام على الحارث الهمداني وكان مريضاً قد اشرف على الموت فلما أراد الانصراف تعلق الحارث بأذياله وقال ياامير المؤمنين اخبرني عن الروح قال نعم انّها من لطايف الباري عزّ وجل اخرجها من ملكه واسكنها في ملكه وقد جعل له سبحانه عندك شيئاً وجعل لك عنده شيئاً فامّا الذي لك عنده فهو الرزق وامّا الّذي له عندك فهو الروح فاذا نفذ مالك عنده أخذ ماله عندك قال يامولاي إنّي في اوّل يوم من من ايّام الآخرة وآخر يوم من ايّام الدنيا وانّي أخاف من الفزع الاكبر ولا أدرى ما يفعل بي فأنشد عليه السلام :

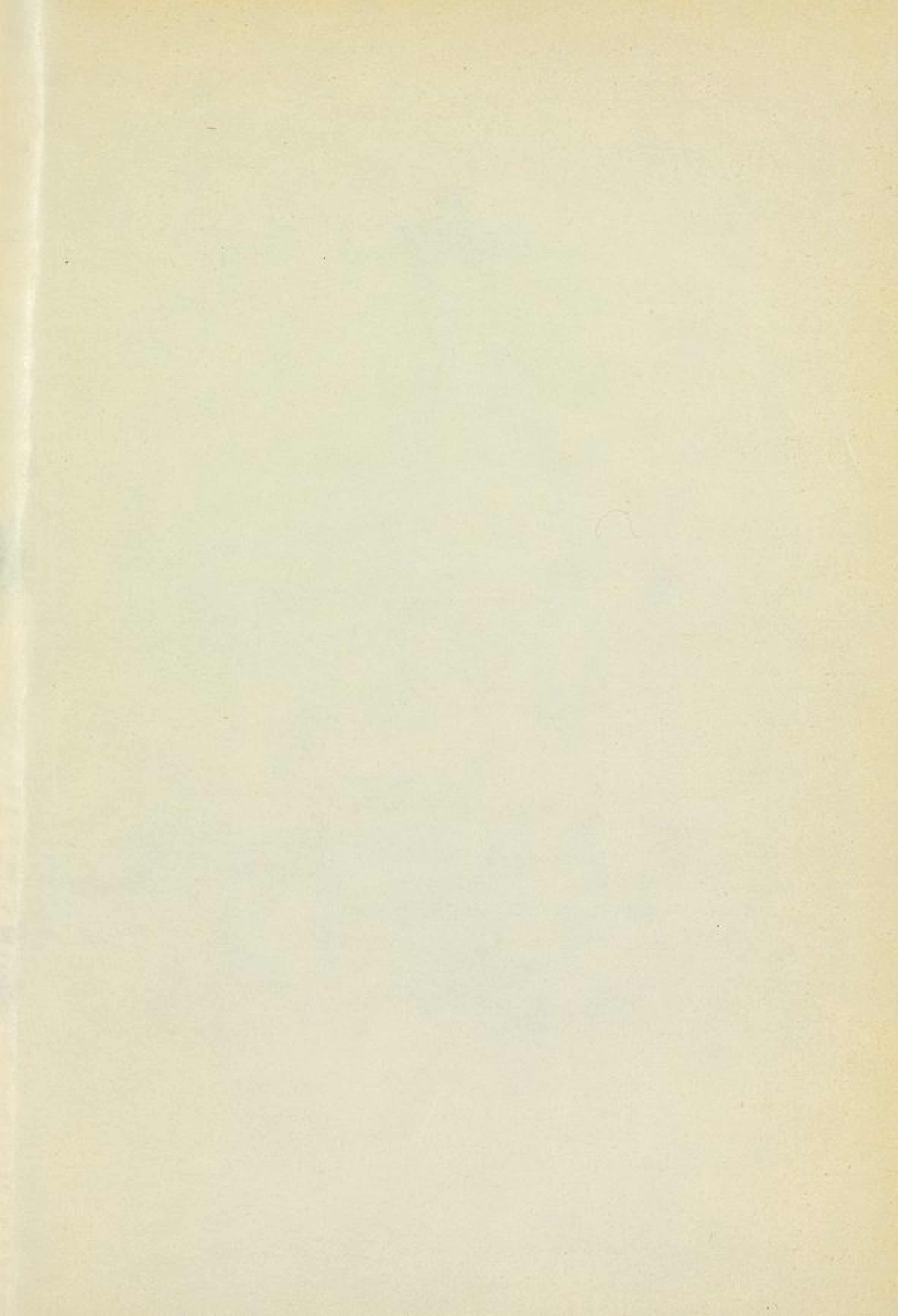
ياحار همدان من يمت يرني من مؤمن او منافق قبلا
يعرفني طرفه و اعرفه بنعته و اسمه وما فعلا
وانت عند الصراط تعرفني فلا تخف عثرة ولا زللا
اسقيك من بارد على ظمأ تخاله في الحلاوة العسلا
اقول للنار حين توقف للعرض دعيه لا . لاتقربي الرجلا
ذريه لاتقربيه انّ له حبلا بحبل الوصيّ متّصلا

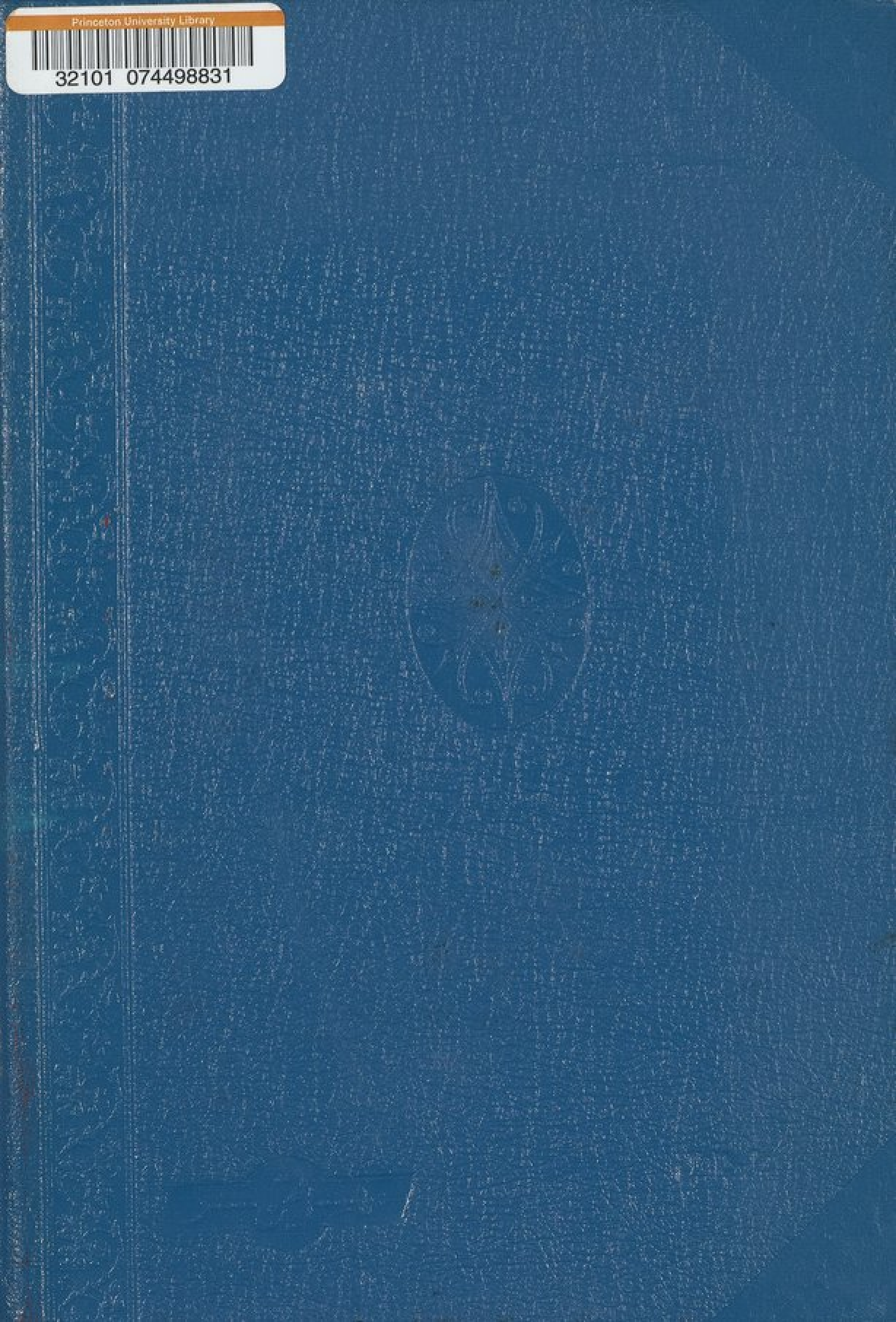
الحقّ انّ التصحيح المطبعي عمل فنّي وما هو فنّي فعلى الرغم من الحرص الشديد على صحّة الاخراج وقعت اغلاط مطبعيّة لابدّ لنامن الاستدراك مع أنّها ممّا لاتخفى عن بال القارى والمجال لايساعدني على تصحيح النقاط والتشديدات في الاغلاط .

وما هو إلاّ الاصلاح ما استطعت

الصفحة	السطر	الصواب
١٣	١١	فلا اعتداد
٢٣	١٥	تقتضى
٢٧	٢	فلما لم يقم
٢٧	١٧	العلم
٨١	١٤	يمنّية
١٠٥	١٦	انّها
١١١	٢٠	يوماً
١١٢	١٠	ياقوت
١١٣	٤	برهان
١١٤	١	نبت
١٢٦	٢١	عشرين عاماً
١٤٢	١٩	لأسراراً
١١٤	٢٠	متقدّتين
١١٥	٢٢	وثيقه
١١٩	٥	تزعزع
١٢٧	١١	نستطيع
١٢٨	٤	الشعاعة
١٦٠	١٦	حتّى
١٦١	١٢	الشرقيّين
١٧٦	٢٢	يصيب
٢٨٨		الشعرالفارسى پى






Princeton University Library
32101 074498831